

د. ذوقان قرقوط

الأسطورة والحقيقة في التاريخ العربي الحديث

محمد على وجمال عبد الناصر

مكتبة مدبولي



د. ذوقان قرقوط

الأسطورة والحقيقة في التاريخ العربي الحديث

محمد علي وجمال عبد الناصر



مكتبة مدبولي

الأسطورة والحقيقة فى التاريخ العربى الحديث

محمد على وجمال عبد الناصر

الضد يُظهر حُسْنَه الضدُّ

تأليف:

د. ذوقان قرقوط



الناشر
مكـتبة مدبولى
2005
الأسطورة والحقيقة فى التاريخ العربى الحديث
محمد على وجمال عبد الناصر
الضد يُظهر حُسْنَه الضدُّ
دكتور / ذوقان قرقوط
الأولى عام 2005
مكتبة مدبولى 6 ميدان طلعت حرب – القاهرة
تليفون : 5756421 – فاكس : 5752854
لتصويرى

القاهرة – تليفون 8763199
2005/4300
977-208-512-7 الـــكـتــاب :
التـــألـيـــف :
الطبـعــــــة : النـاشـــــر :
الإخـراج والتنفيـذ :
رقـم الإيـداع : الـترقـيم الـدولى :

الإهداء

إلى جمال عبد الناصر الذى عشنا فى ظله فترة الشموخ

وإلى

السائرين على دربه

الحافظين عهده

القسم الأول

« إنى أرى بوضوح أنه ليس لدى ماكيافيللى ما يمكننى أن أتعلم منه ، فأنا أعرف من الحيل فوق ما يعرف فلا داعى للاستمرار فى ترجمته »

محمد على

لوزيره أرتين الذى كان يترجم

له الأمير ، بعد اليوم الثالث

لقد كانت اليقظة الشعبية هى القوة الدافعة وراء عهد محمد على ، وإذا كان هناك شبه إجماع على أن محمد على هو مؤسس الدولة الحديثة فى مصر ، فإن المأساة فى هذا العصر هى أن محمد على لم يؤمن بالحركة الشعبية التى مهدت له حكم مصر إلا بوصفها نقطة وثوب إلى مطامعه . ولقد ساق مصر وراءه إلى مغامرات عقيمة استهدفت مصالح الفرد ومتجاهلة مصالح الشعب .

الميثاق

الصحـوة الوطنيـة

الفصل الاول : عوامـل الصحـوة

1 - الحملة الفرنسية

وصف ميو أحد قادة الحملة الفرنسية على مصر ، مواجهة الشعب المصرى للاحتلال فى مذكراته ، ويؤيده الجنرال إدوار جوان فى كتابه : مصر فى القرن التاسع عشر(1) ، فقال : لقد واجهنا الشعب بحرب مستمرة : «.. كحية ذات مئة رأس كلما أخمدها السيف والنار من ناحية ظهرت فى ناحية أخرى أقوى وأشد ، كانت تتعاظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلى آخر..»(2) وليست الحقيقة فى قول الأستاذ شفيق غربال بأن الفرنسيين خرجوا من مصر : «بفعل الإنكليز والعثمانيين وحدهم » بل الحقيقة أن الشعب قاومهم فى طول البلاد وعرضها بتشكيلات منفصلة عن المماليك ، وأحيانًا موازية لهم . ولما تقرر ترحيلهم دفع الشعب النفقات اللازمة . وكانت ضريبة الرحيل باهظة قدرت بثلاثة آلاف كيس (خمسة عشر ألف جنيه ذهبًا حينئذ) « دفعها الشعب عن طيب قلب وانشراح خاطر ، ودون تأخير لعلمه أن ذلك المبلغ هو ثمن لترحيل الفرنساوية ، ويقول : سنة مباركة ويوم سعيد .. »(3) .

خرج الفرنسيون وخرج الشعب من هذه المحنة بالعزة . فلم يعد يتقبل الانصياع والإذعان لمتطلّبات الوالى العثمانى ، وتعلّم الرفض . وجاءته المناسبة للوقوف فى وجه الوالى أحمد خورشيد الأكثرهم فسادًا ، والذى سبقه فى ذلك ثلاثون ألفًا من الدلاة أحضرهم معه ، ففاق ما شهدته مصر منهم من السلب والنهب والقتل والدعارة فظائع الانكشارية والمماليك ، فقد توجها بفرض ضريبة عن سنة مقبلة لم تستحق بعد . رفض غالبية التجار الدفع ، وأقفلوا محالهم ، ولجأوا إلى الأزهر فأقفل وعطلت الدروس فيه ، وأعلن العصيان ، وحوصر رسل الوالى العثمانى أحمد خورشيد الذين أوفدهم للتفاهم فى الحارات قبل أن يصلوا ، وانهال عليهم الطوب من أسطح المنازل ، عادوا(4) وخرج الناس من بيوتهم يقيمون المتاريس والاستحكامات فى الشوارع .. وتلك الفترة هى التى قال عنها دروفوتى Drovotty قنصل فرنسا يومئذ : إنحالة القاهرة ذكرته بأيام باريس فى مطلع الثورة الفرنسية(5) .

وكان لابد للوالى أحمد خورشيد من التراجع ، فقرر إعفاء الفقراء من الضريبة . ولكن السيد عمر مكرم أجاب : بأن أرباب الحرف والصناعات أصبحوا من الفقراء كذلك ، وقال - على ما يذكر الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى أيضًا - ما علاقة التجار بتدبير الأموال لحرب المماليك؟. لكن خورشيد لم يكن فى استطاعته إلغاء الضريبة كلها ، فهو لا يملك ما يدفع منه مرتبات الجنود حتى يخلدوا إلى السكينة ، وليست له سلطة على الجنود ليأتمروا بأمره ويرحلوا عن القاهرة ويبتعدوا عن إيذاء الناس . حتى كان يوم 12 مايو (أيار) 1805 عندما ركب السيد عمر مكرم ومعه العلماء إلى دار المحكمة ، وطلبوا من القاضى عقد « مجلس شرع » يختصمون فيه الوالى أحمد خورشيد واستدعاء « المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع » وحضر من طرف الوالى خمسة مندوبون ؛ وانعقد المجلس فى ظل الحشود التى تدفقت تملأ الشوارع والأزقة المؤدية إلى مكان الاجتماع ، وهى تردد « هتافات عدائية : شرع الله بيننا وبين هذا الظالم ، ويا لطيف ! ، أو يا رب يا متجلّى ، اهلك العثمانلى ! » .

ولم يكتف المتكلمون باسم الشعب هذه المرة بما سبق لهم ، عندما رفض أمراء المماليك مشاركة الشعب فى الحكم ، أن ما شرطوه عليهم فى مواثيق تقول : « إن الأمراء تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه الناس بأن يكفوا ويكف اتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، وأن يسيروا فى سيرة حسنة »(6) وإنما حرر المجتمعون وثيقة بمطالب الشعب ، بعثوا بها إلى الوالى وعلقوا على قبولها انتهاء العصيان(7) . وتضمنت الوثيقة أربعة بنود رئيسية هى :

1 - عدم مرابطة القوات العسكرية فى القاهرة وضرورة انتقالها إلى الجيزة .

2 - عدم السماح للجنود بدخول القاهرة بسلاحهم .

3 - عدم فرض أى ضريبة على سكان القاهرة ما لم تنل موافقة المشايخ والأعيان .

4 - إعادة المراسلات بين القاهرة والوجه القبلى(8) .

وتذكر نشرة الوكلاء الفرنسيين بمصر المؤرخة فى 20 مايو (أيار) 1805 أن الوثيقة انطوت على 21 مطلبًا ، أضافت إليها الوثائق الإنكليزية مطلبًا آخر هو : « تخصيص جزيرة الروضة فى القاهرة للحانات وأماكن الترفيه عن الجنود » ، كما تضمنت بندًا يحظر شموليةفرض الضرائب على سائر أنحاء القطر المصرى ، وليس مقصورًا على القاهرة فحسب(9) . أما المؤرخ الجبرتى فقد اكتفى بقوله : « واتفقوا على كتابة عرضحـــال بالمطلوبات ففعـــلوا ذلك ، وذكروا فيه تعدى طوائف العسكر وإيذائهم للناس وإخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد وقبض مال الميرى المعجل أو حتى مصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك »(10) ودرءًا لأى احتمال قد يغير أو يهدد بتغيير القوى رأى السيد عمر مكرم ، خلافًا لرأى بعض كبار المشايخ أن يظل الشعب معباً لا يلقى سلاحه .

إلا أن خورشيد ، الوالى العثمانى رفض الامتثال لمطالب الشعب ، عندما ذهب عمر مكرم - حسب رواية الجبرتى - فى اليوم التالى (13 مايو أيار 1805) ومن حولــه العلماء وجموع الشعب إلى دار المحكمة . فأغلق القاضى أبوابها ، مغبة العاقبة ، وتدخل وكيل الوالى وكبار رجال الحكومة لتهدئة الحال . إلا أن السيد عمر مكرم أصر على عزل الوالى ، وعقد لأجل ذلك مجلسًا فى منزل محمد على دعا إليه المشايخ ، وتصدر الحديث فتكلم عن تفاقم الموقف واستمرار الحروب والفتن ، وأنه لا مخرج فى رأيه إلا بعزل الوالى خورشيد ، وأنه « لابد من تعيين شخص من جنس القوم للولاية .. فقال الجميع الرأى ما تراه . فأشار إلى محمد على » فلما تظاهر بالتمنع قالوا له : « قد اخترناك لذلك برأى الجميع والكافة والعبرة رضا أهل البلد . وفى الحال أحضروا فروة وألبسوها له وباركوا له وهنأوه »(11) وحرروا وثيقة بذلك جاء فيها : تم الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع ، والإقلاع عن المظالم ، وألا يفعل أمرًا إلا بمشورته ومشورة العلماء، وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه ، وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن »(12) .

* * *

لقد جاءت هذه الصحوة ، واضحة ، فى أعقاب نجاح الشعب بطرد الفرنسيين وحرصه على حقوقه وأخلاقه ، وحميته هنا لم تكن تقل عن حميته بعد مضى ما يقرب من سنتين ، عندما هبَّ للتصدى لحملة فريزر . وردها على أعقابها خاسرة . كانت صحوة لا يخطئها البصر ولا البصيرة.. إلا أن

آراء مؤرخى العهد السابق ، عهد أسرة محمد على مختلفة كليًا .. فشفيق غربال لا يرى فيها جديدًا . فإن مقدماتها ووقائعها تكاد تكون سنوية فى تاريخ مصر منذ الفتح العثمانى » ، ويرى أن وجه الأهمية كله أن محمد على هو الذى تولى الباشوية(13) ، تقليلاً لأهميتها ، ومن شأن عدم وفاء محمد على لوعوده وتعهداته . ولم يخطر فى باله وهو يكتب كتابه : « محمد على الكبير » أن يتساءل لماذا كان « الآخرون » من جميع الأجناس كبارًا فى عهد محمد على ، ما عدا أبناء البلد الأصليين : العرب .. ويزعم الدكتور لويس عوض - الماركسى الاتجاه - أن وصول محمد على إلى الحكم يعود إلى قدرته فى استغلال التناقض بين القوى المتنازعة ببراعة فائقة، ويصوره بالقادر على التحكم فى الأمور منذ البداية(14) كأنما النفس الثورى فى رأيه لا يعتلج إلا فى صدور البروليتاريا . فإذا ظهر محمد على بمظهر الزاهد فى المغانم ، والتزم جانب الاستقامة والرحمة ، وردع جنوده بأقسى العقوبات إن هم عاثوا فى البلد نهبًا وإرهابًا كغيرهم .. فإن سلوكه هذا المسلك ، ورضا الشعب به دون غيره، يعطى القيمة بالتحليل الأخير للشعب لا لمحمد على .. وإذا كانت العادة جرت فيما مضى على أن الأمراء يخلعون الوالى ، وإعطاء الديوان حق معارضته ، إلا أنه لم يسبق للشعب أن خلع واليًا عثمانيًا أو شارك فى خلعه . وقد تجاوز الأمر هذه المرة من الخلع إلى التعيين(15) إذ جاء فرمان التعيين من السلطان مؤيدًا لاختيار العلماء ، وتدعيمًا لرغبة(16) الشعب ، تم تكرر هذا التأييد على إثر مطالبة الشعب والعلماء ، وبإلغاء نقل محمد على باشا إلى سالونيك ، ونقل موسى باشا من سالونيك إلى مصر فى يونيو 1806(17) بدلاً عنه . وهكذا أذعن السلطان لأول مرة لإرادة « الفلاحين : أولاد العرب » .

ويرى مؤرخون آخرون أن وقوف الشعب فى وجه الوالى أحمد خورشيد وموافقته على اختيار محمد على واليًا ، وتثبيته يوم 12 و13 مايو ، كانا بتأثير الحملة الفرنسية . إن هذه الرؤية فى غير مكانها ، إن صح تحقق هذا الأثر فيما بعد ، حيث لم تجف دماء الشعب التى سفكهاالفرنسيون (1805) ، وكانت أوامر بونابرت لقادته بتنفيذ عقوبات الإعدام بالمعارضين من الشعب ، بقطع رؤوسهم والطواف بها فى الشوارع لإرهاب الناس كما كان يفعل محمد على(18) وجاء تعليل المؤرخين لهذه الصحوة الشعبية وتجنب إسنادها إلى ذاتية الشعب بضغط واضح من الإعلام البريطانى الذى أشاع بأن الشعب المصرى مسكين مسالم ، دائم الخضوع لحكامه لم يرفع رأسه منذ أيام الفراعنة . ومن وجهة نظر أخرى فإن هذا الإعلام تغافل الحديث عن صحوة الشعب ونضاله ، خشية أن يقودهم سياق الكلام إلى الحديث عن خداع محمد على ، الذى كان اختياره سابقةً لم يحدث مثلها من قبل ولا حدث من بعد ، وإذا كان هناك تاريخ مرحلة يجب إعادة كتابته فهو تاريخ مرحلة حكم محمد على وأسرته .

وبالعودة إلى مؤرخ المرحلة المزامن عبد الرحمن الجبرتى والنظر فيما كتب ، نجد أن ما كتبه عن يومى 12 و13 مايو - أيار - 1805 يعتبر وثيقة هامة ، لا يخرج فى حقيقته عن إطار التصور الإسلامى العام للحكم في الوطن العربى . وهو تصور نعثر على أمثلة كثيرة له فى تاريخ نضال الشعوب العربية ضد الأجنبى ، إنه تصور ينطوى على مفهومين للحكم الإسلامى : عربى ، وأعجمى ، يكشف عنهما الحوار الذى سجله الجبرتى بين السيد عمر مكرم قائد الحركة الشعبية وعمر بك الأرناؤودى الألبانى أكبر أعوان الوالى التركى أحمد خورشيد : « قال الأرناؤودى : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعال : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ (فقال له عمر مكرم : أولو الأمر العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، أما

هذا فهو رجل ظالم . وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء معروف ، وحتى الخلفية والسلطان إذا سارا فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه ، ثم قال البك : كيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا ؟ نحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ قال عمر مكرم : أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة . فقال البيك : إن هذا القاضى كافر ! فقال عمر مكرم : إذا كان قاضيكم كافرًا فكيف بكم ، وحاشاه الله من ذلك ، إنه رجل شرع لا يميل عن الحرف .. »(19) . ولقد أفتى الشيخ محمد المهدى ، أحد علماء الأزهر ، حينئذ : «إن للشعوب طبقًا لما جرى به العرف قديمًا ، ولما تقضى به الشريعة الإسلامية ، الحق فى أن يقيموا الولاة ، ولهم الحق أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل ، وساروا بالظلم، لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة»(20). وإذا قارنا منطوق فتوى الشيخ الشيرازى فى العراق لمحاربة الإنكليز ، والشيخ الإبراهيمى فى الجزائر لمحاربة الفرنسيين والقوى المجاهدة للحصول على الاستقلال من أيدى أرباب « الانتداب » الذين يتعلل لهم أولو الأمر فى بلاد الشام ، فإننا لا نجد بينها اختلافًا فى الفحوى. ذلك أنه يقر فى الفكر السياسى نظرية إسلامية عربية واحدة هنا وهناك ينبع منها حق الشعب فى عزل الحكام الجائرين غير العادلين .. (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ((سورة البقرة 124) . فالعدالة شرط لاستحقاق الإمامة ، بل أول شروطها السبعة، وهى أساس لطاعة المحكومين(21) .

ولم تكن صحوة الشعب فى يومى 12 و13 أيار (مايو) شعلة أضاءت ثم انطفأت بالوقوف فى وجه ولاية أحمد خورشيد وتحقيقها أهدافها . بل ظلت مصاحبة لكفاح الشعب المصرى المدعوم بقوى جاءت من أقطار مغربية وشامية وحجازية(22) لمحاربة الفرنسيين ، ولم يقف النجاح عند إلغاء تعيين وال واستبداله بوال آخر ، أو إلغاء فرمان نقل وال اختاره الشعب باستصدار فرمان تثبيته .. بل تعداه للمطالبة بإلغاء أية ضريبة ، دون موافقة الشعب ممثلاً بالمشايخ والعلماء(23) (بمعنى لا ضريبة دون تمثيل No- texation wilhaut Represention) .

إلا أن صحوة الشعب هذه لم تخبُ ، فقد أعدت نفسها لمواجهة الألفى عميل إنكليزى حين انتقل بقواته من حوش عيسى بالبحيرة ، وأذاع بيانًا باسم السلطان يطلب الولاء والطاعة ، ويعد المتعاونين معه بالمكافأة ؛ فأسرع الأهالى بالتحصن وتوجهوا بنداء إلى محمد على أرسلوه بواسطة عمر مكرم . إلا أن الألفى ومماليكه سحقوا جنود محمد على فى معركة دامية فى النجيلة ، حتى أن النيل امتلأ - على ما يذكر الجبرتى - بطراطير الدلاة(24) فتولى السيد عمر مكرم بعدها القيادة وتنظيم الدفاع عن دمنهور وإمدادها ، فطال حصار الألفى لها ثلاثة شهور ، ولم يتمكن من الاستيلاء عليها(25) وكان السيد عمر مكرم يوالى على إحضار المحتسب ، ويأمر بالمناداة . فيمر فى الطرق والأزقة « وأمامه المنادى يقول : حسبما رسم السيد عمر الأفندى والعلماء على جميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ويحترسوا فى أماكنهم ، وإذا تعرض لهم عسكر بأذية قابلوه بمثلها وإلا فلا يتعرضوا لهم .. » .

2 - التصدى لحملة فريزر :

القارئ للجبرتى يحس أن السيد عمر مكرم أخذ يمثل « روح » الثورة فى الشعب حينئذ . فما أن انتهى من أمر الألفى ، حتى واجهه نزول الإنكليز فى الإسكندرية (1807) ليحققوا ما فشل فى تحقيقه بونابرت بالحملة الفرنسية فى مصر ، فهب يعبئ الشعب لمقاومتهم فى كل مكان .. فكانت ترده الرسائل ويوالى عقد الاجتماعات لإطلاع المشايخ عليها ويقرر ما يجب عمله ، ويحرص على تلافى الفوضى واستغلال الجنود لها فى أعمال السلب والنهب وإيذاء الناس . فقد روى الجبرتى شكاوى الأهالى إليه فرار المدافعين عن الإسكندرية ، ومرة شكوى من كاشف مدينة دمنهور ، ومرة شكوى ما أصاب الجنود من ذعر والهروب بالأسلحة والذخائر(26) . فقد كتب بتاريخ 7 إبريل (نيسان) عام 1807 رسالة إلى نقيب الأشراف فى رشيد يرجوه فيها « الإمداد بالرجال والجنجانة والعدة والعدد وعدم الإهمال »(27) ويؤكد الجبرتى على ما يبذله رجالات البلاد من نشاط هائل غير معتاد فى التشاور والتراسل لتحمل المسئولية .

وخشية أن يتخطى الإنكليز خط المقاومة الأول ، أمر عمر مكرم بتعطيل الأزهر(28) ليتفرغ المشايخ المدرسون للجهاد . فكان يذهب صبيحة كل يوم تتبعه جماهير كثيفة العدد إلى حيث يشتغل العمال فى إقامة الاستحكامات . وقد أعدت له خيمة خاصة يظل فيها أحيانًا طوال النهار، وكان حضوره يثير الحماس والشجاعة فى نفوس الناس ، وقد تولى الميسورون من أبناء الشعب اقتسام أجور العمال ودفعها لهم(29) . وتمكن الشعب فى 30 من آذار - مارس - 1807 - بينما محمد على مايزال يتلكأ ويناور فى الصعيد - من الانتصار فى رشيد علىالإنكليز ، وتحدث قنصل إنجلترا « ميسيت » عن هذا الانتصار فقال : إن العالم بأسره ستعتريه دهشة بالغة حين يسمع أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوروبى حديث(30) .

كان محمد على فى الصعيد حين نزول فريزر إلى البر متوجهًا إلى رشيد واستنجاد الناس به لصده . ويذكر الجبرتى أن الاجتماعات راحت تتكرر تارة فى منزل عمر مكرم ، وأخرى فى منزل نائب محمد على لدراسة المواقف ، فتقرر طلبه « ليستعد لما هو أولى وأحق بالاهتمام » ويصف وقع الخبر عليه بقوله : « .. داخله وهم كبير .. ارتبك فى أمره .. انحلت عزائمه .. » وأخلى الصعيد ونزل متلكئًا قاصدًا القاهرة « يظن سرعة ورود الإنجليز إلى المدينة فيسير مشرقًا على طريق ، ويكون له عذر بغيبته فى الحملة(31) فلم يصل القاهرة إلا فى يوم 11 نيسان (أبريل) 1807 أى بعد انتصار الشعب فى رشيد على الإنجليز فى 30 آذار (مارس) 1807 .

وفى 9 نيسان (أبريل) بعث أهالى رشيد برسالة إلى عمر مكرم تنبئه بعودة الإنجليز بعد هزيمتهم إلى ناحية « الحماد قبلى رشيد ، ومعهم المدافع الهائلة وعدة القتال ، ونصبوا متاريسهم فى ساحل البحر إلى الجبل عرضًا .. « وعندما وصل محمد على القاهرة حضر إليه وفدمن المشايخ يعرض الأمر عليه ، طالبين السماح لهم بالخروج « للجهاد مع الرعية والعسكر » ، ولكنه طلب منهم إعفاء أنفسهم من مهمة الاشتراك فى الدفاع عن بلادهم قائلاً : « ليس على رعية البلد الخروج للقتال ، وإنما عليهم المساعدة بالمال والمؤن للعسكر »(32) .

ورغم موقف محمد على هذا ، فقد توجه إليه عمر مكرم مرة أخرى يعرض عليه رسالة وردته من رشيد فى 14 نيسان (أبريل) 1807 تفيد بأن الإنجليز « يحاصرون بالثغر ومتحلقون حوله ويضربون على البلد بالمدافع والقنابر (القنابل) » فتظاهر محمد على بالاهتمام واعتزامه السفر بنفسه وطلب الاستعجال بجباية الألف كيس التى طلبها من قبل لتجهيز الحملة فجبيت ، ويصف الجبرتى لوعة المرارة ، لعساكر الباشا الذين كانوا يذهبون إلى بولاق ليوهموا الشعب أنهم ماضون فى سفرهم لمحاربة البريطانيين ، ثم يعودون ويراهم الناس فى اليوم التالى ، أو يذهبون إلى المنوفية والغربية ويجمعون ما تصل إليه قدرة عسفهم من مال ومغارم فيخطفون البنات والنساء والماشية .. ويقول الجبرتى بهزء وسخرية « هكذا يفعل المجاهدون » ثم يضفى على اللقاء الفاصل مع الإنجليز فى معركة الحماد بالقرب من رشيد ، طابع معركة عربية شعبية شاملة لا شعبية مصرية حسب . فبعد أن يذكر فى جملة المتطوعين تاجرين من أهل مكة يقيمان فى القاهرة ، استقدما معهما مائة من البدو والمغاربة يقول : « وكانت الحملة تضم الكثير من أهالى بلاد البحيرة وغيرها ، وأهالى رشيد ومن معهم من المتطوعة والعساكر وأهل دمنهور » ثم علق عليها بقوله : « وليت العامة شُكروا على ذلك ، أو نسب إليهم فعل النصر ، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره »(33) .

* * *

الفصل الثاني : النكول بشرط التعيين

1 - العودة إلى فرض الضرائب :

بفضل انتفاضة الشعب فى وجه العسف والفساد ، توصل الفلاحون أهالى البلاد إلى إقرار حقهم (الدستورى) وإثباته فى وثيقة تقول : « إن الأمراء تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه الناس بأن يكفوا وأتباعهم بمد أيديهم إلى أموال الناس ، وأن يعاملوهم معاملة حسنة »(34) . ولكن هذا لم يحل دون تكرار الأزمة عند تبديل الولاة . فقد جرى تعيين والٍ جديد فى أعقاب خروج الفرنسيين هو أحمد خورشيد ، وكان محمد على مايزال وافدًا جديدًا حياديًا بين المتصارعين . وأدت الأزمة الجديدة إلى الإجماع على ضرورة عزل الوالى الجديد ، واختيار محمد على للولاية . واستصدار فرمان بذلك ، والتعاقد على شرط واضح فى الحكم مثبت فى وثيقة تنص على : « إن للشعوب طبقًا لمما جرى به العرف قديمًا ، ولما تقضى به الشريعة الإسلامية ، الحق فى أن يقيموا الولاة ، ولهم الحق أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم ، لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة »(35) .

بدا محمد على بعد مرور سنتين على تعيينه أنه ملتزم برأى المشايخ ، لا يقطع أمرًا دون مشورتهم ، طالما أنه بحاجة إليهم للوقوف فى وجه المماليك ، والعثمانيين ، والإنجليز ، والزبانية الطامعين بولاية مصر، ولدعمــه لدى السلطان العثمــانى. لقد أخذت حاجته للمال وطلبـــه المزيد تزداد ، فقبل جلاء الإنجليز عن مصر ، فى أواخر 1807 ، طلب محمد على - غير الألف كيس التى جبيت فى نيسان (أبريل) من نفس العــام لأجل الحـــرب - مساعدة السيد عمر مكـــرم فى جباية ألفى كيس (عشرة آلاف جنيه) . فاعتذر الأخير ولم يوافق ، فجباها محمد على من التجار بذريعة أنها قروض ولكن بشىء من الإكراه . وفى عام 1808 فرض محمد على ضريبة جديدة على الفائض بمقدار الربع . بحجة دفع مرتبات الجنود المتأخرة . فعارضه السيد عمر مكرم خشية أن يصبح ذلك تقليدًا ، إلا أن محمد على أقسم على أنها لن تفرض إلا هذه المرة « وأنه يكون ملعونًا ومطرودًا من رحمة الله » إذا كرر فعله ، وعاهد السيد عمر مكرم على هذا القول فقبل .

انتهز محمد على فرصة تكرار طلبات السلطان لتجهيز حملة لمحاربة « الوهابيين » فى الحجاز ، فطلب فى شباط (فبراير) 1808 ، جمع 24 ألف كيس (820 ألف جنيه ذهبًا) ، فحصل ارتباك واضطراب ، وشاع الخبر فى الناس وزاد بهم الوسواس(36) ، وفى آب (أغسطس) 1808 فرض ضريبة قدرها أربعة بالمائة على كافة أنواع الحبوب والمأكولات التى تباع فى الأسواق والميادين والشوارع(37) وأتبع ذلك بفرض ضريبة ختم على المصوغات الذهبية والفضية ، وبضرائب على سائر أنواع السلع حتى « المغالات التى هى الصرم والبلغ » فأصبحت لا تباع سلعة دون أن تكون مختومة بخاتم الحكومة(38) . لكن إجراءاته التى اتخذها فى عام 1809 كانت أشد إثارة للناس ، فقد وضع يده على الأراضى والعقارات التى خصصت للإنفاق على المساجد والأسبلة والمدارس وغير ذلك من وجوه البر وجميعها معفاة من الضرائب ، ليس للوارث حق التصرف فيها وعدم المساس بالوقف . ثم أمر بمصادرة نصف الفائض ، وبفرض ضرائب على أطيان الأوسية التى يزرعها الفلاحون بالسخرة لحساب الملتزمين ، وكانت معفاة سابقًا مقابل استضافة موظفى الحكومة عند مرورهم بجهة الالتزام . وكان المشايخ وطائفة كبيرة من سواد الشعب يعتمدون فى معاشهم « على ريع هذه الأملاك والأراضى المرصدة عليهم » أو

على تجارتهم فى السلع . لذلك ازدحمت أحياء القاهرة بالساخطين والمتذمرين والمتظاهرين ، ومن بينهم السيدات والأطفال ، ممن أصبحوا مهددين بالحرمان من استحقاقاتهم فى الأوقاف وخيراتها(39) . وتوجه الناس كالعادة إلى الأزهر فأوقف العلماء حلقات الدرس ، وتداعوا إلى الاجتماع بقبلة المسجد ، وأرسلوا فى طلب عمر مكرم واستقـر رأيهم على توحيد كلمتهم ونبذ خلافاتهم ، والوقوف صفًا واحدًا فى المطالبة بإلغاء جميع الضرائب المستحدثة . وفى اليوم التالى ، أول تموز (يوليو) 1809 اجتمع زعماء المشايخ ، ووضعوا مذكرة بذلك نقلها سكرتير محمد على ، وتعاهدوا على مقاطعته إذا لم يستجب لمطالبهم والكتابة بشأنه إلى السلطان .

كان لابد من وقوع الاصطدام بين محمد على والسيد عمر مكرم : ليس فقط لأنهما يمثلان سلطتين متناقضتين ، متعاكستين ، أحدهما يمثل الطموح إلى الحكم والسلطة ، والثانى المدافع عن حقوق الشعب بالثورة ، ولكنه لم يعرف بعد ما يريد منها ولم تتضح معالمها ، إلا أنه يعارض تصرفات وإجراءات الحاكم التى يراها الشعب فى غير صالحه ، ولم يكن جميع ما يسعى إليه محمد على لصالح الشعب . لقد حضر من قونيا تراوده أحلام اعتلاء سدة الحكم . وكانت مصر قبل بونابرت تداعب أحلام الطامحين . فإذا كان العرب لتلاشى العارفين بينهم والواعين للتاريخ فى أوروبا ، كان وعيهم بأهمية مصر يزداد على مر الزمن . لأن الأوروبيين أخذوا بالتقدم ، وكلما تقدموا ازدادت حاجتهم إليها لازدياد ارتباطهم بالثروات الخام والأسواق وراء مصر . كما أن جميع دول أوروبة المتنافسة فى التجارة لم يعد يرضيها اقتصار وجودها فى مصر على محلات تجارية ، ووكالات محدودة فى الثغــور مهددة دائمًا . وخاصة أن عددًا مــحدودًا من الأوروبيين ، لا يتمتع بحرية التجول إلا بنطاق محدود ، تنبحهم كلاب البلاد أينما رأتهم كما يقول عبد الله النديم .

وصل محمد على إلى مصر بجنسية عثمانية، ولكن بعقل أوروبى، وقد وعى منذ البداية ماذا تعنى الدولة العثمانية بالنسبة إلى أوروبة ، وسيطرتها على مصر بدل المماليك ، وماذا تعنى مصر فى نظر أوروبة ، وماذا تريد أوروبة منها . فقد كتب الضابط بريديه Pridier فى كتابه « عائلة » أن فرنسا أوفدت إلى مصر « ماثيو ليسيبس » عقب خروج الفرنسيين ، لدراسة القوى المتصارعة على الحكم فى مصر ، ولاقتراح الشخصية الجديرة بدعم نفوذ فرنسا . فجاء الاقتراح على شخص محمد على . أما القوى المتصارعة ظاهريًا فكانت إنجلترا ، فرنسا ، الدولة العثمانية ، ولم يكن يحسب أى حساب للعرب أهل البلاد ؛ وجاء فى كتاب بريديه تاريخ أسرة ص 129 :

« كان دولسبس الأداة الأولى لارتقاء محمد على فى مصر ، إذ كانت مهمته البحث فى مصر عن رجل ، قوى الشكيمة ، قادر على ضبط النظام ، بالتغلب على المماليك ، المعارضين للسياسة الفرنسية . فاختار الجنرال محمد على ليرشحه إلى حكومته » .

وهكذا يقرر ، منجن Mengin أول مؤرخ لسيرة محمد على أن قنصل فرنسا العام دروفوتى كان يحرص كل ليلة ، على التسلل إلى مقر محمد على ليطلعه على مجريات الأمور ، ويتداول معه بشأن ما يجب عمله ، وقد أقر فيما بعد الخديوى إسماعيل ، فى منفاه ، هذا الاختيار والدعم اللذين تمتعت بهما أسرته من قبل القوى الأوروبية لارتقائها الحكم فقال :

« أنا من أسرة محمـد على ، ونحن جميعنا نعرف ونقر بدعم فرنســا الذى منحتنا إياه دائمًا» .

هذا ما ورد فى كتاب منجن Mengin أول مؤرخ لمحمد على . لكن هذه الحقائق طمست ولم يعد أحد يتذكرها . وعندما استدعى مؤرخان لبنانيان من الجامعة الأمريكية ببيروت للإشراف على

كتابة تاريخ محمد على ، قاما بإسقاط العديد من وثائق تلك المرحلة .

2 - تبرير انحراف محمد على :

ذهب بعض المؤرخين إلى تصوير الصدام بين محمد على وبين « الزعامة الشعبية » الفتية ، على أنه صدام بين مرحلتين فى سياق تاريخ واحد : عهد الفوضى والفقر والضعف وعهد النظام واليسر والقوة . ويحملون مرحلة ما قبل محمد على مجمل مساوئ الحكم العثمانى والمماليك . بينما يضعون مرحلة حكم محمد على فترة من التنظيم والقوة ويتغافلون عن غير ذلك . كأنما الشعب لا يعنيهم ؛ بل رضا السيد هو الأهم . ولما كانت وسيلة هذا السيد إلى عهده الجديد هى توفير المال فإنه لم يستطع توفيره إلا « بضبط الحسابات القديمة ، أو فرض الضرائب الجديدة والاعتداء على الحقوق المكتسبة »(40) . ومن هنا جاء إخلاله بالمواثيق التى أخذها على نفسه واصطدامه بالزعامة الشعبية التى اعتبرت نفسها وصية عليه ورقيبة ، مما دعاه إلى التخلص منها .

بيد أن ما فرضه وما نظَّمه واحتكره لم يكن لإزالة « الفوضى والفقر والضعف » ، بل كان تصميمه فى وضع خطط الكشف والضبط والتحقيق ، وحاجته الشديدة للموارد المالية لمواجهة طلبات الجند الألبانى المستمرة والمتزايدة ، ولشراء تأييد رجال الدولة فى إسطنبول لإبقائه فى منصبه ، وتنفيذ خطته لحل مشكلة الأمراء بحملهم على الاستقرار فى القاهرة والجيزة فى عيش هنئ(41) ، لمراقبتهم . والهدف من هذا كله الحصول على القوة التى تمكنه من القضاء على الزعامة الشعبية ، لأنه ببقائها لا يستطيع تحقيق مطامعه فى الحكم والاستمرار فيه . إن أصوله ليست من أصول الشعب ليهمه الشعب أو يشعر بآلامه . فلا ننسى أنه ألبانى .

ولم يذكر المؤرخون فى تلك السنوات التى مرت على مصر ، من قدوم الحملة الفرنسية إلى هزيمة حملة فريزر . لقد تميزت المرحلة بسمات جديدة فى تاريخ البلاد . منهم من اعتبر هذه السنوات تتمة لما قبلها وما بعدها ، أى أنها جزء من التاريخ العثمانى للمنطقة ، لم يحدث فيه أى تبديل فى العلاقات ، قافزًا فوق كفاح الشعب لمواجهة الفرنسيين والمماليك والعثمانيين والإنجليز، مع إن الكفاح ، فى مثل هذه الحالات ، خير وسيلة للتوعية والشعور بالذات .. ، فالأستاذ شفيق غربال لم يقبل بوجود مؤشرات تدل على احتمال ظهور حكم وطنى يحمل وعودًا كثيرة . وكذلك الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ، الذى على الرغم من اعترافه بأن السيد عمر مكرم « كان يقبض على زمام قيادة الشعب ويسيطر عليه تمامًا » ، يرى أنه كان « يسعى للإنقاذ ، ولا يريد أن يكون ملكًا أو أميرًا ، إذ ليس هذا من خلق العلماء ولا حماة الشرع . ولا رجال الدين .. فإذا أرادوا تولية أحد على الناس فعليهم أن يولوا على الناس أصلحهم »(42) . وفى هذا التباس بين الدين المسيحى والدين الإسلامى . فالمسلم لم ينفصل عن الحكم إلا فى أواخر العهود العثمانية - إذا ليس فى الإسلام كهنوتًا . والحكم الإسلامى أصلاً هو العروبة لا فاصل بينهما إلا جنس الحاكم والغرامة . وقد لاحظ الشيخ محمد عبده حينئذ « ظاهرة اتجاه رجال الدين إلى الحكم » فى أواخر القرن الثامن عشـــر ، فلم يعتبرها مخالفة لطبيعة وظيفتهم فى الحكم الإسلامى . إذ قال « إن العناصر جميعها كانت فى استعداد تام لأن يتكون منها جسم حى واحد يحفظ كونه ويـعرف العالم بمكانته »(43) . وفى قول السيد عمر مكرم عندما انعقد المجلس لاختيار محمد على للولاية « ولابد من تعيين شخص من جنس القوم للولاية » . وهذا ما يشـــير إلى التمايز وإلى أنه لا يعتبرهم من طينة أهل البلاد . ويومئذ كانت الثورة على العثمانيين محتدمة ، إذ يذكر الجبرتى أن حجاج الخضرى ،

الذى كان يأتمر بأمر السيد عمر مكرم ويخضع لتوجيهاته هو وجماعته ، كان أحد قادة تلك الثورة . فكان يقاتل العثمانيين وينصب لهم الكمائن ويأخذهم أسرى .. وبينما كانت قنابل درويش باشا تُقذف من القلعة .. كان مندوب السلطان العثمانى يحمـل فرمان تولية محمد على ويدخل القاهرة ، فى حماية رجال حجاج وهو يتقدمهم ، على حصانه ، شاهرًا سيفه(44) .

ذلك أن الشعب من خلال مقاومته للفرنسيين ، ومعاناته لما استجد من ظروف لم يستسغ هذه المواقف ، فبدأ يسترد ثقته بنفسه ، ووضعته انتصاراته على طريق الوعى وبدء إدراك ظروف المرحلة دون أن يؤخذ عليه ذلك المظهر الدينى . فالإسلام وشيجة من وشائج العروبة ، بل أهمها لأنه يرتبط بالعرب باللغة والتاريخ والموقع والمبادئ والأفكار والقيم . ولا شك أن ثقله يزداد إذا رفع راية الوحدة العربية ، وتتلاشى تناقضاته . فأثناء الثورة ضد الفرنسيين أطلق العامة على الراية التى أنزلها السيد عمر مكرم من القلعة - مقر الوالى العثمانى - اسم « بيرق النبى » ، وسارت الجموع وراءه تردد : « نصر الله دين الإسلام » وأطلق عبد الرحمن الجبرتى على كتابه فى تاريخ المرحلة : « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » . وبعد سنوات سارت جموع الشعب نفسها ، تحت الراية نفسها لإسقاط الوالى العثمانى ، نائب السلطان ، وهى تصرخ : «يا رب يا متجلِّى أهلك العثمانلى ».. وهكذا فمن الوقوف ضد الفرنسيين والعثمانيين ثم الإنجليز إلى محاولة الوقوف فى وجه خطة محمد على قطع الشعب شوطًا بعيدًا على طريق الوعى « القومى ». ذلك أن الشعور بالقومية لا يكتسب اكتسابًا وإنما « هو موجود فى التاريخ باستمرار ، وقد يشتد فتصبح فعاليته أقوى فى التاريخ .. وقد يضعف فتظهر عليه قوى أخرى ، أشد فعالية .. فيتوارى مؤقتًا لتحل محله روابط أخرى ولكن الشعور القومى يظل فى النفوس ، ويكمن فى ضمائر الأمة »(45) .

كان هذا التفتح فى مصر ضمانة للتقدم والاستمرار فيه للتطوير الإيجابى لوثيقتى 12 و 13 مايو (أيار) وإلى مراقبة دائمة للحكم . بل وإلى حكم شـــورى ، وكما يقــول مؤرخون آخــرون: « كان من الممكن لتلك الزعامة التى بلغت هذا المستوى من النفوذ فى الشعب والصمودفى وجه المغريات والمناعة الأخلاقية أن تتطور لتحتل مكانها السياسى والاقتصادى لتواجه بنجاح التسلل الأوروبى الاستعمارى فى القرن التاسع عشر »(46) . لكن محمد على تآمر على هذه الزعامة فمزق شملها بشتى الوسائل ، فانفصل بذلك عن الشعب ، وهذا ما جعله بالنتيجة يعجز عن تحقيق أى شىء شبيه بما أنجزه الحكم الإقطاعى فى اليابان - رغم تأخر انفتاح هذا الحكم على الحضارة الحديثة بالنسبة لزمن حكم محمد على واحتكاكه بالغرب بما يقرب من نصف قرن . إن محمد على بتنكره للزعامة الشعبية وابتعاده عن الشعب فقد ظل الخوف من العزل يلازمه ، وبالتالى لم يركن لحظة واحدة للشعب ، بل كان ركونه إلى الفئات الغريبة عن الشعب فى مصر ، فى مرحلة سادت العالم فيها النزعات والنهضات القومية ، مما يسر للغرب احتواءه .

لقد جاء كل ما بناه منفصلاً عن الشعب . كأنه لا علاقة له به . وأول من لاحظ ذلك هو الشيخ محمد عبده ، الذى عاصر ثورة أحمد عرابى فكتب : حقيقة أنه « أرغم الأهالى على الزراعة ، ولكن ليأخذ الغلات. لذلك كانوا يهربون من ملك الأطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر . وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك . يقولون إنه أنشأ المعامل ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم .. يقولون أنه أنشأ جيشًا كبيرًا فتح به الممالك ودوخ الملوك ، وأنشأ أسطولاً ضخمًا أثقل به ظهور البحار وافتخرت به

مصر على سائر الأمصار، فهل علّم المصريين حب التجند، وأنشأ فيهم الرغبة فى القلب وحبب إليهم الخدمة فى الجندية، وعلمهم الافتخار بها؟ لا بل علمهم الهروب منها وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت »(47) . والملفت أنه لم يُكتب فى «حقيقة حكم محمد على» ، قبل هذه المقالة ولا بعدها إلا بعد ثورة 23 يوليو ، مع العلم أن الوقائع لا تحتاج إلى برهان يكفى فيها العودة إلى الأصول . إلا أن الخوف من سيف الأسرة الحاكمة كان يعقل الألسنة والعقول . وكان لثورة 23 يوليو الفضل بإتاحة الفرصة وكشف الحقيقة التى لم يقرها اليساريون والتقدميون .

ولكن أولئك المؤرخين الذين يتجنون على الحقيقة مراعاة لأسرة محمد على ، لا يستطيعون أن ينكروا أن حظر فرض الضرائب لا يتم إلا بموافقة المشايخ والأعيان كان أحد شروط توليه الولاية . وقد ظل محمد على ملتزمًا برأى المشايخ لا يقطع أمرًا دون مشورتهم ، طالما كان بحاجة إليهم للوقوف فى وجه المماليك والعثمانيين والإنجليز ودعمه لدى السلطان .

3 - محمـد على يقضـى على أمل أمـة

بدأ عمر مكرم يبرز فى التعبير عن قوى الشعب الناشئة بطوائفها المختلفة ، وتمثيلها وقيادتها إلى الحد من سلطات المماليك وتعسفهم ، وإلى تقليص السلطة العثمانية وفسادها، وإفسادها وازداد تألقًا فى القيادة لمكافحة استقرار الفرنسيين ولصد الإنجليز (فى حملة فريزر) ولإخراجهم وعمل قبل محمد على على تقليم أظافر المماليك . وحينما عجزت البلاد أو بالأحرى تأخرت قدراتها عن إخراج الفرنسيين لم يقبل التعاون ، وآثر الهجرة إلى بلاد الشام مضحيًا بأملاكه وجاهه العريض ، وعندما سار الفرنسيون لاحتلال بلاد الشام وجدوه أمامهم معتصمًا فى قلعة يافا ، فى ثياب بالية ، ممزقة يقاتل مع المجاهدين . لأنه لم يكن يفرق بين مصر والشام . وقد قدر بونابرت أهميته فأراد أن يتقرب به إلى الشعب ، فأشاع خبر العثور عليه سليمًا معافى فى نشرة خاصة وذلك فى 8 مارس (آذار) 1799 ، يوم الجمعة غرة شوال1213 هجرى(48) وبعودته إلى القاهرة قاد « ثورة القاهرة الثانية ». وعندما جرى التصالح اشترط الفرنسيون نفيه من مصر. وبعد خروج الفرنسيين قاد حركة الجماهير لإيقاف الوالى أحمد خورشيد عند حده ، بحنكة فائقة حتى تمكن من عزله وتولية محمد على . وقد ذكر جورج دوان أن عدد المسلحين الذين كانوا يأتمرون بأمره أكثر من أربعين ألفًا . وكانوا ينظمون حمايته ويرصدون العدو ويقطعون عليه المدد .. وقد كان يقود الشعب من فوز إلى فوز ضد المماليك والإنجليز والفرنسيين مما بات معروفًا ، حتى لقد وصفه أحد المؤرخين بأنه كان « روح كل ثورة »(49) .

عمـر مكرم فى مواجهـة محمـد على :

كان أهم ما تمثل فى قيادة السيد عمر مكرم هو أخلاقياته ، فى وقت كان الشعب فيه أحوج ما يكون للقدوة النضالية ، فى الصبر ، والنزاهة ،وفى الترفع عن المكاسب الخاصة .. بعد عصور طويلة عزت فيها القيادات المخلصة ، المستقيمة ، الصادقة والثابتة .. أما محمد على فلم يكن يختلف عن طينة كبار رجال العهود العثمانية . بل كان يمثل عبقرية من عبقرياتها فى المناورة وأساليب الالتواء والغدر والمكر و « المكيافيليّة » الدارجة ، الرخيصة للوصول إلى أهدافه فى الحكم . لذلك لم ينجح فى إغراء السيد عمر مكرم بالمال لاستمالته وإرضائه ، ولا استطاع استمالته إلى السلطة فقد أرسل إليه كتخداه أى (وكيله) « ليترفق به » ويعرض عليه على قول الجبرتى عطاءًا غير مجذوذ : كيسًا كل يوم(50) « ما يعادل خمسة جنيهات » . كما أن محمد على أراد أن يمتحن فى السيد عمر مكرم الرغبة فى السلطة فعرض عليه أن يكون نائبه حين اعتزم السفر لحرب المماليك فى الصعيد (إبريل - نيسان - 1806) فاعتذر . ففطن السيد عمر مكرم لذلك ، ودس عليه محمد على رجاله يسرون إليه المودة ويتظاهرون بسخطهم على الحكم ويحرضونه على الإطاحة به فرابته هذه الاتصالات ولم يستجب لها(51) .

غير أن محمد على رأى أمامه الطريق واضحًا للنفاذ من تحديات السيد عمر مكرم ومن قيوده ، ذلك أن المشايخ الذين ندبوا أنفسهم لخدمة الشعب منذ أيام طويلة وقاموا بدور الوساطة ، لم يتواروا زمن الفرنسيين . ففطن بونابرت لهم فاستغلهم قبل أن يصلب عودهم فى قيادة الشعب ، وإذ هو عجم عودهم لقى فى فريق منهم الاستجابة للتعاون فسايرهم وسايروه لتعبيد دور الوساطة . فكان

من هذا الفريق بعض أعضاء الديوان العمومى ، بل كان الشيخ الشرقاوى نفسه هو رئيس الديوان(52) واختياره القيادات المتيسرة لترويض الشعوب الآخذة بالتفتح ، على ما يريده الحاكم ، للانحراف بها عن المسار الطبيعى ، أصبح وسيلة لكل حاكم أجنبى غير مندمج ولا يريد أن يندمج بالشعب . ولم يغب هذا الأمر عن ذهن محمد على . وكان الدرس الذى حدث مع الوالى أحمد خورشيد ، قريب العهد لم ينساه ، وهو وال عثمانى مثله ، إلا أنه يختلف بإمكاناته العقلية والمادية .

فإذا كان السيد عمر مكرم وهو شيخ مثل أولئك المشايخ ، بل هو أكبرهم ، قد امتنع على مغريات محمد على وترفع ، فإن المشايخ الآخرين لم يمتنعوا . فراح محمد على يغدق عليهم من أعطياته ، فانزلقوا وراء الثروة . ففـــى الجبرتى صفحات طويلة تصف بيوت المشايخ الذى صـــار « بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الألوف الأقدمين ، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان وأجروا الحبس والتعذيب والضرب بالفلكة والكرابيج ، وقدروا حق الطرق لأتباعهم وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وإنذارات عند تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين »(53) .

مشـايخ الوقـت :

إلا أن الناس العامة لم ينخدعوا بهم . فمنذ أن سعى الشيخ الشرقاوى والمهدى والسرمسى والفيومى بالوساطة بين كليبر وسمعوا بذلك : « .. قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرمسى ورموا عمائمهم ، وأسمعوهم قبيح الكلام؛ وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين ، وإنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس »(54) إلى أنهم ارتشوا بمغنى فى الحرب بين أهل البلاد والوافد لا وساطة . كما اقتحم الثائرون منزل الشيخ البكرى فنهبوه لذلك ، وأخرجوه منه مع حريمه وأولاده وساقوه حافى القدمين عارى الرأس فى شوارع القاهرة إلى مقر قيادة الثورة فى الجمالية والجماهير تحيط به وتسبه بأقذع أنواع الشتائم(55) وهى « ثرية » سهلت السبيل أمام محمد على فكان إغراؤهم على التمتع بملاذ الدنيا وهجر عيشة الورع والتقوى مدخله إلى تفريق صفوفهم(56) حتى استفحل أمر الخلاف بينهم على أمور الدنيا ، وراحوا يتسابقون عليها وغابت عن أبصارهم وبصيرتهم الأهداف العامة ، وذهبت جميع المحاولات لإزالة الفرقة بينهم سدى . فقد دعاهم الشيخ عبد الرحمن السجين إلى وليمة بقصد مصالحتهم « فاجتمعوا فى ذلك اليوم وتصالحوا فى الظاهر » ، وأولم لهم قاضى القضاة فتغدوا عنده وصالحهم وقرؤوا بينهم الفاتحة وذهبوا إلى دورهم « والذى فى القلب مستقر فيه » وإزاء ذلك كان محمد على يتنصل من دوره قائلاً « أنا لا ذنب لى .. وإنما ذلك من تفاقمهم مع بعضهم »(57) وهذا ما يفسر وصفهم فى الجبرتى بمشايخ الوقت .

وهكذا لم يستطع المشايخ الصمود على وفاقهم للوقوف إلى جانب السيد عمر مكرم فى وجه محمد على . استهواهم بالمغريات وتسابقوا بالانحراف ، فأمكنه ، غندما طالبوه بالترفق بالناس ، أن يقول لهم : « أنا لست بظالم وحدى وأنتم أظلم منى ، فإنى رفعت عن حصصكم الفرض والمغارم إكرامًا لكم ، وأنتم تأخذونها من الفلاحين » ، أفسدهم فشاركوه بالإفساد . وأخذوا يتصلون به سرًا ، ويتنصلون من العريضة التى وقعوا عليها . بل سرعان ما انفضوا من حول السيد عمر مكرم وانقلبوا عليه . فعندما اجاب السيد عمر مكرم على تلويح محمد على «بالسيف والانتقام» بقوله : « كما أصعدته إلى الحكــم فإنى قدير على إنزاله منه »(58) ، كان قد أصبح وحيدًا ، غير قادر على ذلك ، ولم تعد الوقعة « زلامية » على حد قول الجبرتى !

وما لبث السيد عمر مكرم أن أدرك ذلك . يذكر الجبرتى أنه قال للمشايخ الذين جاءوا إليه ليقنعوه بالتفاهم مع محمد على مبررين له أعماله - كذا - أليس هو مجرد جور وظلم أحدثه فى العام الماضى وحلف أنه لا يعود لمثلها ، فقد عاد وزاد وأنتم توافقونه وتسايرونه ولا تصدونه ولا تصدعونه ، وأنا الذى صرت وحدى مخالفًا وشاذًا » . وصمد . وأمكن لمحمد على ، والحال هذه أن ينفيه ؛ ومضى إلى المنفى ولم يلن ولم يتراجع .

وبتبديد ريح المشايخ وانطفاء ذكرهم فى العمل العام ، وبنفى السيد عمر مكرم وإبعاده عن التأثير على التصــرفات العامة ، أخلى الطريق أمام محمد على لامتـلاك مصر وحرفها عن أمتها .

الفصل الثالث : هل كانت بريطانيا تريد أكثر من هذا ؟

خديعة محمد على

«إذا أردت أن تصنع أمورًا عظيمة فيجب أن تبقى وسط الرجال لا أن تقف على هاماتهم» .
« مونتسكيو »

محمد على يظهر على حقيقته

المالك الوحيد ، والحاكم المطلق ، والتاجر الوحيد

بالقضاء على خطر الإنجليز فى رشيد ، وعلى إمكان عودة الألفى إلى الحكم الذى لم يكن لمحمد على دور فيه ، ثم بالقضاء على رؤوس المماليك فى « مذبحة القلعة » الشهيرة الذين لم يعد الشعب يأسف عليهم لفشلهم فى مواجهة الفرنسيين .. خلا لمحمد على المجال لمواجهة المشايخ الذين اختاروه للحكم وساعدوه على خصومه وتوسطوا لتثبيته . فأثبت بذلك أنه كان واعيًا للدرس الماكيافيلي . إذ قال لوزيره أرتين الذى كان يترجم له الأمير بمعدل عشر صفحات فى اليوم، بعد اليوم الثالث : « إنى أرى بوضوح أنه ليس لدى ماكيافيلى ما يمكننى أن أتعلم منه ، فأنا أعرف من الحيل فوق ما يعرف . فلا داعى للاستمرار فى ترجمته »(59) ، وهكذا لم يبق أمامه لإكمال خطته إلا تأليب المشايخ بعضهم على بعض ، وتشتيت شملهم فتمكن من استضعاف زعيمهم السيد عمر مكرم ونفيه إلى دمياط فقضى على بدايات المشاركة الشعبية فى الحكم وعلى إمكانية التطور الحقيقى .

وتمشيًا مع انفراده بالسلطة فرض نفسه كمالك فعلى وحيد للبلاد ، وكسيد لمصائرها الحيوية. ففى سنة 1808 ، أى بعد ثلاث سنوات فقط من حكمه أصبح مالكًا لجميع أراضى القطر المصرى.
وفى عام 1840 فى آخر أيام حكم الباشا قدرت المساحة المزروعة بـ 3، 906000 فدان وهو ما يسمح بالقول إن نصيب الفرد الواحدمن الأهالى كان يمكن أن يكون لو وزعت الأراضى كلها قريبًا من فدان طيلة عهد محمد على (0.99 %)(60) . وقد برر المدافعون عن امتلاك محمد على للأرض على هذا النحو تارة بأن تنفيذ مشاريع الرى المختلفة تقضى أن تكون للدولة السيطرة المطلقة على الأراضى الزراعية، وبالتالى على القائمين بفلاحتها حتى تضمن الموارد المالية الكفيلة بتنظيم عملية الرى وصيانة الجسور والترع(61) .. وتارة أخرى بأن نظام احتكار الأرض معروف فى سائر أنحاء الممالك العثمانية ومعمول به .. أو أحيانًا بأن هذا النظام .. نظام الاحتكار قديم متلائم مع طبيعة الناس من أيام الفراعنة . ألم يعهد إلى يوسف (عليه السلام) بعد أن قام بتأويل الرؤيا لفرعون بجمع حاصلات مصر واختزانها لتوزع فى سنى القحط والمجاعة على الأهالى(62) . إلا أن هذه الحقيقة الواقعة لا تنطبق على مجريات الأمور فى عهد الباشا . فإنه لم يحتكر احتراسًا لأيام العسر ، حتى فرعون كان أرحم منه . فالمؤرخون يجمعون على تقدير مقام سيزوستريس بين الشعب فى مصر والإشادة بذكره وتمجيده لأنه خول رعيته حق الملكية .

أشد عسفًا من الالتزام :

بهذا العمل أعاد محمد على باشا الأرض إلى ملكية ولى الأمر . كما قضى السلطان سليم الأول الذى انتحل هذا الحق لنفسه عليها . ولم يعد هناك تفرقة بين ما تملكه الدولة وما يملكه السلطان . وقد تلاشى هذا الحق بازدياد شوكة المماليك وامتداد نفوذهم(63) . وبعد أن حل محمد على محل الملتزمين ، استأجر الفلاحين للعمل فى الأرض بالمياومة ، إذ عين للواحد منهم قرشًا واحدًا يوميًا يدفع له إما نقدًا وإما عينًا(64) ولم يكن ثمة جديد فى حياة الفلاح . والفلاحون هم الغالبية العظمى من أهل البلاد ، اللهم إلا مزيدًا من الظلم ، فقد قطعت الأرض فى ظل دول العسكر - الغزاة والعثمانيون والمماليك - إقطاعًا حربيًا لرؤساء الأجناد وأمراء العسكر ، المماليك ، وتحول الفلاحون إلى « أقنان » .. صحيح أنهم لا يباعون ولكنهم لا يعتقون ! .. لقد رُبطوا بالأرض التى غدت إقطاعًا حربيًا للجند ، وغدوا بعضًا من أدوات فلاحتها واستزراعها لحساب المماليك(65) وقد أشار المقريزى ، فى خططه إلى هذا التغيير فقال : « .. وأعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية ولا فيما مضى قبلها من دول ، إقطاعات لعساكر البلاد ، كما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تضمن بقيالات معروفة لمن شاء .. ولم يعرف ما يسمى اليوم بالفلاحة ، والذى سمى فيه المزارع المقيم بالبلد فلاحًا قنًّا - (أى مربوطًا بالأرض ، مقيدًا بها) - فيصير عبدًا قنًا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يباع ولا يعتق - هو وأولاده من بعده أقنان دائمون فى الأرض »(66) .

وفى استئجاره الفلاحين للعمل بالمياومة ، أو فيما بعد بجزء من المحصول ، بدا محمد على أشد حرمانًا للفلاح من أولئك الغز والترك والمماليك وأكثر غربة عن « روح الأمة وفكرها القومى والعقلانى .. » وصار الفلاحون بعدما« أصبحوا فلاحى الباشا » يواجهون لأول مرة سلطة الحكومة المركزية مباشرة ، ويحسون بوجودها ولم يكن عمال الحكومة أرفق بهم من عمال الملتزم(67) .

لم يطبق الملتزم شروط الالتزام ، لعدم وجود إدارة ساهرة على تطبيقها ، أكثر رحمة . فقد كان يعطى الملتزم تقسيطًا بالالتزام مرفقًا بأمر إلى مشايخ دائرة التزامه وأهاليها بالخضوع لأوامر الملتزم وتأدية المال إليه . وكان التقسيط دومًا ينص على عدم الظلم والعسف .. لعله من المفيد أن نورد هنا نصًا ، جاء فى أحد التقسيطات فى الغربية ، وهو تقسيط التزام بربع قرية كفر عصام وربع قرية شقا وفرون : « على موجب الخط الشريف الهمايونى المبارك المقرون بالشوكة والأمر الشريف الصادر ، فقد تقرر عمل مزايدة على حصة ستة قراريط من كل من القريتين المذكورتين وقد رست المزايدة على الأمير حسن ، بعد كف يد الراغبين بمعجل قدره (5250) قرشًا ، وعلى مقتضى مرسى المزايدة فقد سلَّم قيمة المعجل المذكور بالتمام إلى خزينة مصر لأجل إجراء الضبط والتصرف فى ستة القراريط السابقة الذكر من قبل المذكور على شرط إحضار المال اللازم فى المواعيد المحددة بالتمام وتسليمه إلى خزينة مصر ، وأخذ السند بعد نظر الحساب فى نهاية السنة مع عدم الظلم والتعدى بأى وجه كان على الأهالى الفقراء ومراعاة المحافظة عليهم وحياتهم على الدوام . قد أُعطى هذا التقسيط الديوانى على موجب الأمر العالى فى 12 رمضان 1220 هجرى »(68) .

وعلى هذا فإن ما سمّى انقلابًا فى أوضاع حيازة الأراضى الزراعية فى مصر فى عهد محمد على ، الذى شُبِّه فى بعض الأدبيات بالإصلاح الزراعى فى عهد 23 يوليو ، وتوزيع الأرض على الفلاحين ، كان انقلابًا لصالح محمد على لا لصالح الفلاح المصرى(69) ، فهو بذلك لم يلغ أو يرفع ظلم الملتزمين البغاة كما يُظن ، فإن كثيرًا من أراضى الالتزام كانت مجزأة على ملتزمين من الفقراء . فالجبرتى يذكر أنه عندما أُشيع تأميم جميع أراضى الالتزام للباشا ورفع أيدى الملتزمين عن التصرف « ضج الناس وكثر فيهم اللغط ، واجتمعوا على المشايخ فطلعوا إلى كتخدابك وسألوه فقال : نعم ورد من أفندينا أمر بذلك ولا يمكن مخالفته ، فقالوا له : كيف تقطعون معايش الناس وأرزاقهم وفيهم أرامل وعواجيز ، وللواحد قيراط أو نصف قيراط يتعيش منه من إيراده فينقطع عنهن ؟ فقال يأخذن الفائض من الخزينة العامرة فقاطعوه وناقشوه ، وهو يهوِّن ويقرب ويبعد إلى أن قالوا له نكتب للباشا عرض حالاً وننتظر الجواب ، فأجابهم إلى ذلك من باب المسايرة وفك المجلس ، وشرع الشيخ المهدى فى ترصيف العرضحال فكتبوه وختموا عليه بعد امتناع البعض الذى ليس له التزام وكثر اللغط فيهم بسبب ذلك . وفى خامسة (ربيع الأول سنة 1229) حضر جمع كثير من النساء الملتزمات إلى الجامع الأزهر وصرخوا فى وجه الفقهاء وأبطلوا الدروس وبددوا محافظهم وأوراقهم ثم تفرقوا وعادوا إلى دورهم .. »(70) .

التفنن فى أشكال الاستغلال والاحتكار :

اتخذ استغلال محمد على للفلاحين أشكالاً ثلاثة : الاحتكار ، وهو السياسة التى بدأت سنة 1812 عندما أصبحت سيطرة محمد على على اقتصاديات البلاد ممكنة من الناحية السياسية بعد مذبحة القلعة . وقد بدأ الاحتكار الحكومى للمحاصيل حين صدرت التعليمات بالاستيلاء على محاصيل الحبوب لحساب الحكومة بما فى ذلك الكمية التى يستبقيها الفلاحون لاستهلاكهم الخاص ، والحيلولة دون بيع المزارعين حبوبهم للتجار مباشرة . وحتى يتأكد ممثلو الحكومة من أن الفلاحين لم يخفوا شيئًا من المحصول ، كانوا يقومون بعمليات تفتيش مفاجئة للبيوت ويصادرون ما يجدون بها من حبوب(71) .

وتذكر هيلين ريفلين أن الأرز فى الوجه البحرى كان أول محصول تم احتكاره . وكانت سلطات محمد على تراقب المحاصيل من وقت زراعتها حتى تصبح صالحة للتسليم . وفى سنة 1816 أصدر محمد على أمرًا يمنع السكان من أكل الفول والحمص والحلبة والخضر ، وكانيشترى محصول الفول ثم يبيعه للأهالى بأكثر مما اشتراه(72) . وقد انتهى الاحتكار لأن يشمل معظم المحاصيل التى ينتجها الفلاح المصرى . لقد كان من الطبيعى أن يؤدى هذا النظام ، المقتبس عن نظام الإنجليز المعروف باسم « مندار » المطبق فى مستعمرة الهند آنذاك(73) ، إلى سلسلة من الأزمات فى المواد الغذائية ، وعجز فى الاستهلاك المحلى . وقد ذكر الجبرتى أنه فى ربيع 1816 لم تكن توجد حبوب فى الأسواق ، وأن محمد على باع 1000 إردب من قمحه للتجار المحليين ، فنفذت الكمية فى يومين(74) ، وكان أى ربح يجنى على هذا النحو من ارتفاع الأسعار يعود إلى محمد على .

أما الشكل الثانى لاحتكار محمد على هو الضرائب ، وأهمها الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس ، وهى فرع لا يستهان به من موارد الميزانية المصرية . ويباشر تحصيلها باعتبار كونها جزءًا من اثنى عشر من المال الذى يفرض أنه يعدل دخول الممول . والذكور المراهقون كافة ، مسلمين كانوا أو رعية ، ملزمون بدفع هذه الفريضة متى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم . وتختلف تبعًا لتفاوت الناس فى الثروة ، من 15 قرشًا إلى 500 قرشًا(75) - ونذكر هنا ، بأن الباشا ، بداية، كان يدفع للبالغين العاملين فى الأرض قرشًا واحدًا فى اليوم . ومعنى ذلك أن فرضة الرأس تعادل عمل نصف شهر على الأقل - وكانت الضريبة الشخصية فى المدن تحصل عن النفوس وفى القرى عن المنازل ، ويبلغ ما يحصل منها عادةً سدس إيراد الخزينة المصرية(76) .

وكانت الضرائب تزداد تزايدًا يكاد يكون دوريًا نتيجة لحاجة محمد على لتغطية أعبائه المالية فى الحروب وفى إرضاء السلطان ، فارتفعت من 6.855.700 قرشًا زمن الاحتلال الفرنسى إلى 66.054.065 قرشًا سنة 1820/ 1821 ثم وصلت إلى 230.002.00 قرشًا سنة 1844 أى أكثر من 38 ضعفًا ، وبذلك أصبحت الضرائب عبئًا لا يطاق ، خاصةً إذا أخذنا بعين الاعتبار من ناحية ، زيارة المساحة المعفاة من الضرائب بحيث أصبحت 9462 فدانًا مع نهاية عهد محمد على - أى أقل قليلاً من ربع إجمالى المساحة ، ومن ناحية ثانية انتزاع أعداد كبيرة من الفلاحين للعمل فى صفوف الجيش والأسطول (حوالى 220.000 من مجموع السكان البالغ عددهم

5.532.000) ولم تكن حكومة محمد على تقبل أى نقص فى حصيلة الضريبة ، ولذلك يقع العبء على باقى الفلاحين باعتبار مسؤولية الضرائبمسؤولية جماعية : فالقرية كلها كانت مسؤولة عن الضرائب المتأخرة بالتضامن مع غيرها من القرى المجاورة فى المتأخرات من الأموال .
ويقول أرتين : « إن هذا التضامن امتد ليشمل كل وادى النيل أحيانًا »(77) .

وكان الشكل الثالث للاحتكار هو السخرة ، أى استخدام الفلاحين الإجبارى لحفر الترع وتطهيرها ، وتقوية الجسور ، وحراسة شواطئ النيل أثناء الفيضان .. وكانت هذه الأعمال تتم من قبل محليًا ، ولكن محمد على استحدث نقل السخرة إلى أى مكان فى مصر ، وكانت تستمر عادة لفترة تسعة شهور من السنة . وبلغ متوسط ما يساهم به كل فلاح من العمل شهرين فى السنة كما يمكن خلال السنة استدعاء 400 ألف فلاح للسخرة(78) .

تحجير الصناعة :

وامتد احتكار محمد على ليشمل الصناعات الوطنية القديمة . إذ عندما أعوزته الموارد فكر فى بسط سيطرته كاملة على الصناعات الصغيرة وبخاصة فى العاصمة والمدن الكبرى ، بقصد إجتناء الربح منها . كما فرض ضرائب مباشرة على الصناع وضرائب غير مباشرة على المستهلكين(79) .

وفى الجبرتى وصفٌ لنظام التحجير أو الاحتكار لمختلف الصناعات الوطنية القديمة خاصة الصناعات الصغيرة منها . نورد هنا ما رواه ، وفى أخبار سنة 1224 هـ عن قصة ما أسماه «أحداث بدعة المكس على النشوق»(80) أو تحجير صناعة النشوق وفرض ضرائب على المشتغلين بها صناعة أو تجارة ، وذلك أن « بعض المصدرين من نصارى الأروام أنهى إلى كتخدابك أمر النشوق، وكثرة المستعملين له ، والدقاقون ، والباعة ، وأنه إذا جمع دقّاقوه وصنّاعه فى مكان واحد ويجعل عليهم مقادير ، ويلتزم به ، ويضبط رجاله وجمع ماله وفى مكان واحد وإيصاله إلى الخزينة من يكون ناظرًا وقيّمًا عليه كغـــيره من أقلام المكوس التى يعــبرون عنها بالجمارك ، فإنه يتحصل من ذلك مال له صورة . فلما سمع كتخدابك بذلك أنهاه إلى مخــدومه . فأمر فى الحال بكتابة فرمان بالأمر ، واخــتار من جعلوه ناظرًا على ذلك خانًا بخطة بين الصــــورين ، ونادوا على جميع صناع النشوق وجمعوهم فى الخان ، ومنعوهم من جلوسهم بالأسواق . والخطة المتفرقة والقيّم على ذلك يشترى الدخان المعد لذلك من تجاره بثمن معلوم حدده لا يزيد على ذلك ولا يشتريه سواه ، وهو يبيعه على صناع النشوق بثمن حدده ولا ينقص عنه ، ومن وجد معه شيئًا من الخان أو اشتراه أو سحق نشوقًا خارجًا عن ذلك الخان ولو لخاصة نفسه قبضوا عليه وعاقبوه وغرموه مالاً ، وعينوا معنيين لجميع القرى والبلدان القبلية والبحرية ، ومعهم من ذلك الدخان فيأتون إلى القرية ، ويطالبون بمشايخها ويعطونهم قدرًا موزونًا ، ويلزمونهم بالثمن المعين بالمرسوم الذى بيدهم ، فإن أخذوه أو لم يأخذوه فهم ملزمون بدفع القدر المعين بالمرسوم ثم كراء طريق المعينين »(81) .

يجمل الدكتور على الجريتلى عناصر هذا التحجير الرئيسية كما يلى :

1 - اختيار سلعة شائعة الاستعمال .

2 - جمع منتجى تلك السلعة والمتجرين فيها فى كل مدينة فى صعيد واحد ، حتى يمكن إحكام المراقبة واجتناب التهرب .

3 - تعيين ناظر يعهد إليه بجمع المكوس المفروضة .

4 - شراء الحكومة أو الملتزم للخامات اللازمة للصناعة .

5 - احتكار البيع بسعر يحدده المندوبون الحكوميون .

6 - حظر إنتاج السلعة دون ترخيص خوفًا من ازدياد العرض وإنزال العقاب بمن تسوّل له نفسه الإنتاج خفية .

7 - إرغام مشايخ القرى والبلدان على شراء حصة من الإنتاج بالثمن المحدد .

وجرى تطبيق هذا النظام على البنطرون . فكانت الإدارة تتولى توزيعه وتفرضه على القرى فرضًا . وفى سنة 1232 هجرى (1817م) أفرد محل لعمل الشمع المصنوع من الشحوم .. واحتكروا لأجل صناعته جميع الشحوم ، ومُنع وجود الشحم فى حوانيت الدهانين ، ومنعوامن يعمل شيئًا من الشمع فى داره ، أو فى القوالب الزجاجية وحذروا من عمله خارج المعمل كل التحذير ، وسعَّروا رطله بأربعة وعشرين قرشًا(82) ولقد أغرى الباشا نجاح الحصول على أرباح كبيرة من تطبيق نظام التحجير على بعض السلع الذائعة الاستعمال بتعميمه على سائر الصناعات الصغيرة .

وبالرجوع إلى الجبرتى ، أهم مراجع الفترة الأولى من عهد محمد على نجد هذا المؤرخ يحدثنا كذلك فى فقرة ذائعة الصيت عن « الحجر وضبط جميع أنوال الحياكة ، وكل ما يصنع بالمكوك، وما ينسج على نول أو نحوه من جميع الأصناف ، من إبريسم أو حرير أو كتان إلى الخيش والتيل والحصير فى سائر الإقليم المصرى . ورتبوا لضبط ذلك كتابًا ومباشرين .. فأحصوا الموجودين وكتبوا أعداده على ذمة الصانع ويكون ملزومًا به ، حتى إذا أتم نسجه دفعوا لصاحبه ثمنه بالفرض الذى يفرضونه ، وإن أرادها صاحبها أخذها من الموكلين بالثمن الذى يقدرونه بعد الختم عليها من طرفيها بعلامة الميرى . فإذا ظهر عند شخص شىء من غير علامة الميرى صودر منه وعوقب وفرضت عليه غرامة .. ويطوف الموكلون على حامل الأنوال وعلى النساء اللاتى يغزلن الكتان فيشترون ذلك منهن بالثمن المفروض ويسلمونه للنساجين ، ثم تجمع أصناف الأقمشة فى أماكن البيع بالثمن الزائد »(83) .

ثم يتحدث الجبرتى عن « حصر أماكن ومصانع النسيج القطنى التى يتخذها الناس فى ملابسهم من القطن والحرير وكذلك الجنفس والصندل ، واحتكر ذلك بأجمعه ، وأبطل دواليب الصناع لذلك ومعلميهم وإبقائهم يشتغلون وينسجون فى المناسج التى أحدثها بالأجرة ، وأبطل مكاسبهم أيضًا وطرائقهم التى كانوا عليها ، فيأخذ من ذلك ما يحتاجه فى البلكات والكساوى وما زاد على ذلك يرميه على التجار وهم يبيعونه على الناس بأغلى ثمن .. » ، ويذكر لنا انتقال نشاطه إلى الأقاليم . فكان الموكل بالناحية ومباشرها يستدعون من كل قرية شخصًا معروفًا من مشايخها ، فيقيمونه وكيلاً ويعطونه مبلغًا ويأمرونه بإحصاء الأنوال والشغالين والبطالين فيها فى دفتر ، فيأمرون البطالين بالنسيج على الأنوال التى ليس لها صناع بأجرتهم كغيرهم على طرق الميرى . كما قرر « الاستيلاء على صناعة الخيش والقصب والتلى الذى يصنع من الفضة للطرازات والمقصات والمناديل والمحارم وخلافها من الملابس ، وذلك بإغراء بعض صناعهم وتجارهم ، وأن مكسبها يزيد عن ألف كيس فى السنة » كما منع الأهالى من « تشغيل أنوال الغزل والدوبارة » لحسابهم الخاص سنة(84) 1821 وعلى هذا المنوال جرىاحتكار معاصر الزيوت سنة 1833 ، وتقطير ماء الورد ، وصناعة السكر(85) ..

الفصل الرابع : الصمـت الأوروبى وأسـبابـه

- 1 -

مصر طريق الهند بحماية محمد على

تلافيًا للقوة العربية المتمثلة فى مصر كان الدافع لاكتشاف رأس الرجاء الصالح . وعلى الرغم من حلول الدولة العثمانية فى حكم مصر محل دولة المماليك فقد ظلت دول أوروبا تتوجس خيفة للتوغل فى مصر والاقتراب من البحر الأحمر والأماكن المقدسة . وظلت رؤية الأوروبى نادرةً فى مصر . ناهيك عن عدم وجود الطرق الصالحة والوسائل إليها . وكان استئجار الدواب والجمال يعرض المرء إلى خطر مزدوج .

وبعد أن بدت الإمبراطورية العثمانية مفككة الأوصال ، قبل أن تتفكك فعلاً ويهيأ للممعن فيها بأنها تعيش برئتين من أوروبا ، تنتظر اتفاق الدول الكبرى على تقسيمها ، أخذت دول أوروبا تعمل منفردة على عقد اتفاقات مع متنفذين محلّيين بقصد حماية تجارتها وتجارها وتضمن لهم المرور ، فأجرت فرنسا فى عام 1875 ثلاثة اتفاقات فى مصر . أحدهما مع مراد بك ، والثانى مع ملتزم الجمارك ، والثالث مع شيخ العرب الحاج ناصر شديد ، وذلك بقصد تمهيد الطريق للتجار الفرنسيين ، وتأمين حماية قوافلهم فيما بين القاهرة والسويس ، وكان بونابرتممثل البورجوازية الفرنسية وتطلعاتها التجارية خارج حدود أوروبا »(86) يتوعد إنجلترا بتدمير جميع وكالات تجارتها فى البحر الأحمر ، ويعد فرنسا بطريق إلى الهند غير الطريق التى تسيطر عليه إنجلترا وتسده فى وجه الفرنسيين »(87) وهذا ما دفع إنجلترا لتبادر إلى احتلال منافذ البحر الأحمر وإلى إحكام قبضتها على منافذ الخليج العربى (والمشيخات) . ومنذ ذلك الحين لم تنفصل مصر فى مخططاتها الاستعمارية عن الهند .

ومن قبل ذلك ، منذ نشوب الحرب بين فرنسا وهولندا من أجل المستعمرات (1672) كتب أحد المؤرخين الألمان إلى لويس الرابع عشر ، ملك فرنسا ، يقول : « إذا كان مولاى يريد القضاء على جمهورية هولندا فأحسن وسيلة لذلك هى ضرب هذه الأمة فى مصر ، هناك يوجدطريق الهند ، وحيث يمكن تحـــويل التجارة الهـولندية إلى مصر »(88) إلا أن حرب السنوات الســـبع (1756-1763) كشف عن جانب جديد من أهمية هذا الطريق وهو : سرعة نقل البريد والأخبار إلى أوروبا . إذ أصبحت مثل هذه السرعة ، وفقًا لمقتضيات التطورالحديث ، عاملاً حاسمًا فى تقرير مصير الأمور ، فقد ظلت تلك الحرب سنة كاملة بعد قيامها فى بحار مجهولة فى أوروبا لم تصلها أخبارها . لأن أسرع رحلة بين أوروبا والهند عن طريق الرأس (رأس الرجاء الصالح) تستغرق أحد عشر شهرًا(89) . فقد كان إذن طريق البحر الأحمر - مصر أو طريق سوريا - الخليج العربى يمثل طريق الاقتراب البرى ، ليس بين الصناعات الأوروبية ومصادر خاماتها الرئيسية فى الشرق وأسواقها التجارية الضخمة حسب ، وإنما طريق المواصلات السريعة لنقل الأخبار .

التنافس على كسب مركز فى مصر

وبعد تنازل فرنسا عن كل دعوى لها فى الهند ، وخضوع الشركة الإنجليزية - الهولندية لسيطرة الحكومة الإنجليزية فى لندن ازداد اهتمام السياسة الإنجليزية بمصر . وبخسارة فرنسا لمستعمراتها فى الشرق ازداد اهتمامها بمصر . إذ أصبحت تمثل بالنسبة إليها مركزًا استراتيجيًا أيضًا .

ومن هنا ذلك التنافس الصامت بين فرنسا وإنجلترا لدى الباب العالى للحصول على امتيازات سياسية وتجارية فى مصر : تتمثل فى براءات تعيين قناصل ، أو فرمانات بتنزيل قيمة الضرائب على البضائع المستوردة إلى 3 بالمئة ، وفى عمل كل منهما على كسب أنصار محليين لحماية تجارها وتوطيد نفوذها . فقد عمل وكلاء التجارة الإنجليزية فى مصر وجدّة على عقد صلات مع على بك الكبير لترويج التجارة من الهند إلى السويس مباشرة وخابر على بك حاكم البنغال فى هذا الشأن ، واستؤنفت هذه المساعى مع محمد بك أبو الذهب فوعد بفتح السويس أمام التجار الإنجليز(90) وتوجت هذه المساعى بمعاهدة وارن هستنجسن فى سنة 1775(91) . وإذا كانت هناك معارضة داخلية وقفت بعد ذلك وقفت فى وجه دوام النجاح فى هذه المساعى - كان أهمها صدور فرمان إلى باشا القاهرة بإيقاف كل تجارة تأتى عن طريق السويس(92) - إلا أن هذه التجربة التى جرت فى زمن محمد على الكبير ومحمد أبو الذهب كشفت لأوروبا أبعاد هذه المسألة ، وأوحت لها إلى أى حد يفيدها قيام دولة موالية على أنقاض دولة « صلاح الدين » المعادية .
وسوف تظل هذه التجربة عالقة فى أذهان سياسيى أوروبا وأرباب بيوتها التجارية زمنًا طويلاً .
ونحن نلاحظ على أثر قيام دولة على بك الكبير توافد الرحالة الغربيين ، وكثرة كتاباتهم ودراساتهم الاجتماعية والجغرافية ، وهى الكتابات التى سوف تصبح دليل الجيوش الزاحفة فيما بعد إلى الشرق .

محمد على يلبى مصالح أوروبا

وعملت فرنسا ما فى وسعها للفوز بموقع على طريق الهند . فعندما لاح فى الأفق إمكان تقسيم الإمبراطورية العثمانية إبان حروبها مع روسيا (1768) فكرت حكومة لويس السادس عشر باحتلال مصر ، وعلل وزير الحربية دوسارتين De Sartine ذلك بقوله : « إناحتلال مصر هو الطريقة الوحيدة لحفظ تجارتنا فى أوروبا ، ومتى توطدت قدمنا فى مصر صرنا أصحاب السيادة على البحر الأحمر ، وصرنا نستطيع أن نهاجم إنجلترا فى الهند ، أو ننشئ فى تلك الأصقاع متاجر تنافس فيها الإنجليز »(93) ويستدل من مهمة البارون دى توت Baron de Tot 1777 ومن تقارير سفيرها فى الأستانة عام 1781 ومن تقارير قنصلها فى مصر ماجالّون Magallon أن فرنسا أخذت ترى فى احتلال مصر خير تعويض لها عن خسائرها فى الشرق(94) لذلك كان وجود حاكم قوى يضع حدًا فى مصر لما كانت تسمية دول أوروبا فوضى فى مصرأقصى ما تتمناه لتيسير تجارتها . وكان محمد على يعى ظرفه تمام الوعى ، وقد كشف عن طموحه لقنصل فرنسا دروفوتى Drovotti منذ عام 1806 أنه كان ينوى الاستقلال بمصر . فكان هذا يكشف له فى نفس الوقت خطط الإنجليز(95) وما فتئ أن صرح أمام القناصل أنه يزمع العمل على الاستقلال بمصر وإنشاء حكم وراثى . ولم يكن ذلك بدعة . فأمامه أقطار كثيرة فى الإمبراطورية العثمانية طبق فيها هذا النظام أو أنه فى الطريق إليه(96) . وقبل أن يرحل آخر جندى بريطانى من حملة فريزر الفاشلة دعم نيته الاستقلال بمصر بالفعل ، فضم الثغور المصرية إليه وهى الإسكندرية ودمياط ورشيد ، وكانت تابعة رأسًا للباب العالى ، وذلك قبل أن تأتيه موافقة السلطان أو يأنس بها(97) وقد لاحظ الجبرتى، المؤرخ المزامن ذلك حينئذ فسجله بقوله: « انقضى هذا الأمر واستفسر الباشا واطمأن خاطره وخلا له الإقليم المصرى »(98) وذكر هودجسون Hodgson أن توطيد سلطة حكومة محمد على يلقى « تأييدًا من جانب إنجلترا . ففى عام 1812 أرسلت إنجلترا إلى الخليج الفارسى حملة لمساعدة إبراهيم باشا فى إخضاع الوهابيين ببلاد العرب كما وافقت على فتح اليمن .. وترغب إنجلترا فى قيام حكومة قومية على ساحل البحر الأحمر .. فإن جميع الاعتبارات الخاصة بمصالح بريطانيا تدعوها إلى الرغبة فى استقلال محمد على ؛ فمصر حلقة ذات أهمية كبرى فى سلسلة العلاقات السياسية والتجارية التى تربط بريطانيا العظمى وممتلكاتها فى الهند الشرقية . ومنذ عهد يرجع إلى حملة المورة 1827 أخذت كل من فرنسا وإنجلترا تستحث الباشا فى إعلان استقلاله ، وماتزال الدولتان تنصحان له بذلك الآن فى ظنى فى الخفاء »(99) وكشف اتفاق جلاء قوات إبراهيم باشا عن بلاد المورة الذى عقد بين أمير البحر كودرنجتن Codrington ومحمد على 4 ديسمبر (كانون الأول) 1826 عن مثل هذا التشجيع الذى نوه به هو دجسن . إذ جاء فيه: « إن جلالة الملك من غير تدخل فى العلاقات بين مصر والسلطان مستعد للاعتراف لمصر بالحيطة التامة متى تعهدت هى أيضًابمراعاتها مراعاة تامة إذا نشبت الحرب بين الحلفاء والدولة العثمانية »(100) .

كان الغرب أول من اتجه إليه محمد على فى طلب المساعدة لتحقيق حلمه فى مصر . وهو أمر طبيعى لتأكده من أنه القادر على تحقيق أغراضه فى مصر ، بصمت . ففى عام 1808 سعى إلى

الارتباط بإنجلترا باسم معاهدة تجارية « ليتسنى له الاستعانة بقوات الإنجليز البحريةعلى حماية تجارته » وكانت تعليمات الحكومة الإنجليزية واضحة إلى قنصلها فى مصر « أنها تحرص على تأمين مصالحها فى مصر دون المساس بالسلام القائم بينها وبين الباب العالى »(101) وفى نوفمبر 1810 اتجه إلى فرنسا مباشرة يطلب دعمها ؛ إلا أن دولالغرب كانت ماتزال حريصة على رضا الباب العالى حرصها على محمد على . ولم يتجه محمد على إلى السلطان إلا بعد أن تأكد من أن صلح تلست بين القيصر ونابليون لن يؤدى إلى تقسيم الدولة العثمانية كما كان متوقعًا(102) .

- 4 -

الحاجـة متبادلـة

كان استعصاء اتفاق الدول الأوروبية الكبرى على تقسيم الإمبراطورية العثمانية يجعل وجود شخص مثل محمد على ضرورة لتأمين مصالحها . ذلك أن الدولة العثمانية كانت تمنع الملاحة فى البحر الأحمر ما بين المخا والسويس . بحجة المحافظة على الأماكن المقدسة(103) وإن كانت الحقيقة هى فى أن فتح هذا الطريق للتجارة مضرّ بتجارة الأستانة عن طريق حلب(104) ولقد أدرك محمد على حاجة أوروبا إليه - إلى رجل قوى يحكم قبضته على الإقليم - فعمل على التوفيق بين مصالحه ومصالحها .

وهكذا فإن طريق البحر الأحمر الذى لم يفتح إلا بمجئ الحملة الفرنسية ثم أغلق ، أخذ يزداد أمنًا بوجود محمد على . جاء فى تقرير القنصل كامبل إلى دولته ، المترجم فى كتاب محمد فؤاد شكرى : « وطبقًا للترتيبات الأخرى تصل الباخرة الإنجليزية مدينة الإسكندرية فى اليوم التاسع عشر من كل شهر حاملة البريد الذى يغادر لندن فى اليوم الرابع عن طريق فرنسا ثم تفرز الخطابات فى الإسكندرية بمعرفة رئيس البريد الإنجليزى ، وترسل على ظهور الحمير إلى النجيلة الواقعة فى منتصف الطريق إلى القاهرة . حيث يستبدل بهذه الحمير غيرها سبق إرسالها من القاهرة لتعود بالبريد بعد ذلك إليى السويس على ظهر الهجن بحراسة أصحابها من البدو»(105) وكتب جون بورنغ Gohn Bouring قنصل آخر فى أحد تقاريه إلى حكومته : « إن الباشا يقدر تمام التقدير الأهمية التى يعلقها الرأى العام على إيجاد طريق آمنومريح يصلنا بممتلكاتنا الآسيوية »(106) .. « واضح أنه طوّع العصبيات الإقليمية وخاصة البدو مما أكسبه إعجاب القناصل وثناء الدول ، وتسابقت لتأييده والتمسك به لدى الباب العالى لما عمله على اختصار المسافات، واستدراك الزمن ، وتعديل الوسائل فى تنظيم السفر ونقل البريد(107) وتذكر المعلومات المتاحة أنه همّ بتنفيذ اقتراح مهندس إنجليزى بإنشاء خط حديدى بين القاهرة والسويس فأمر « بإحضار قضبان حديدية وقاطرة بخارية من إنجلترا، ولكنه اضطر إلى التأجيل بسبب الحرب بينه وبين الباب العالى وحاجته إلى النفقات »(108) .

لا ريب أن الموضوعية تقتضى تأييده فيما يفرضه من أمن فى البلاد وتيسير المواصلات وإسكات تعديات البدو ، ولكن الموضوعية تفرض أيضًا التساؤل : لصالح من كان يعمل ذلك ؟ هل كان يعمله لصالح الشعب ، لصالح السكان من أهل البلاد ، أم أنه كان يعمله لكسب التأييد لحكمه ، والانفصال بمصر عن الإمبراطورية .

فتح مصر على مصراعيها

المفترض ، بتأثير الظروف التى سادت من جراء الحملة الفرنسية على مصر والمعارك الدامية لصدها ، ومن جراء حملة فريزر .. ومما نشب بين الشعب والوالى العثمانى أحمد خورشيد ، وبين الشعب والألفى ومماليكه .. أن يقل وفود الأوروبيين إلى مصر ، إذا لم ينعدم .. إلا أن الأمر كان مختلفًا .. ففى فترة الاحتلال الفرنسى لم يزد عدد السفن التى كانت تعمل بين أسوان والقاهرة على سبعمائة ، وبلغ عدد السفن التى كانت تستخدم فى فرعى دمياط ورشيد تسعمائة .. أما فى عام 1833 فقد كان للحكومة وحدها ثمانمائة سفينة وللأفراد 2500 سفينة(109) وفى عام 1830 أصدر الباشا أمرًا بمساعدة « قومبانية السيكورتاه التى تنقل أموال التجارة بين مصر والإسكندرية وعدم القبض على عمالها » وعمل على استخدام السفن التجارية فى النقل النيلى ، فكتب إلى أحد معاونيه : « لما كانت المراكب المستعملة بالنيل المبارك إذا جرها وابور الطمباز تصل إلى محل قصدها بسرعة ، ويكون ذلك سببًا فى تسهيل التجارة . فقد قرر إنشاء قومبانية وابور الطمباز التى كان أربابها من الذوات المعتبرة » ومنحها احتكارًا لمدة خمس سنوات ، وكان أعضاؤها جميعًا من الأجانب : أوروبيين أو أتراكًا(110) وفى عام 1837 أنشئ خط ملاحى منتظم للسفن التجارية من مرسيليا إلى الإسكندرية ، وأكمل بخط من بومباى إلى السويس مما جعل السفن الفرنسية تتردد بكثرة على البحر الأحمر(111) وهكذا صح القول فيه ، بمحمد على ، أنه حيثما سار كانت المصالح الأوروبية تواكبه . فقد دلت أعماله فى تحسين طرق النقل فى أوائل القرن الماضى » على إدراك صحيح لأهمية ذلك للتجارة الدولية ، ورغبة صادقة فى خدمة هذه التجارة ، والتعاون فى ذلك مع الدول الأجنبية»(112) . وهكذا جعل مصر « سداحًا مداحًا » للأوروبيين .

لم يكن عدد التجار الأوروبيين عند مجئ الحملة الفرنسية يزيد عن المائة (منهم ثلاثون فرنسيًا) أغلبهم تجار فى مراكز الإسكندرية ودمياط(113) وفى عام 1835 وصف دوهاميل الإسكندرية بأنها إحدى مدن الشرق الهامة « بسبب ما أنشئ بها من بيوت تجارية أوروبيةكثيرة ، وما تدفق فيها من رؤوس أموال تبعًا لذلك »(114) وقدر هودجسون عدد الأوروبيين عام 1833 ب 4886(115) .

فقد أصبحت الإسكندرية فى عام 1837 تضم أكثر من سبعين شركة أجنبية ، فبينما لم يكن فيها عام 1821 سوى إنجليزى واحد لتجارة القطن أصبحت فيها عام 1837 تسعة بيوت تجارية كبرى ، وكان أكثر من مائة إنجليزى عام 1843 يقيمون فيها بصفة دائمة(116) وفى عام 1839 - أى قبل تبليغ ملحق معاهدة بلطيمان إلى محمد على بأكثر من سنتين - كانت التجارة الإنجليزية تحتل المركز الأول فى مصر ، ويفوق حجمها (من صادرات وواردات) ضعف تجارة أى دولة كبرى بما فيها فرنسا(117) .

وقد كان عدد مراكب الشحن الإنجليزية (دون حساب سفن الركاب) التى رست عام 1945 فى الإسكندرية 187 (تحمل 46.220 طنًا) مقابل 68 سفينة فرنسية (تحمل 11.719 طنًا) وبلغ إجمالى الصادرات والواردات الإنجليزية فى نفس العام مقدار 1867.947جنيهًا مقابل

364.898 جنيهًا لفرنسا ، وكانت المواصلات عبر مصر تربط إنجلترا بعلاقات مع عدن والهند وسيلان وأستراليا .. إلخ أى مع عدد من السكان يبلغ 125.000.000 نسمة مقابل عدد 160.000 نسمة عدد سكان المستعمرات المرتبطة بفرنسا(118) .

وقد رافق ذلك تصرف من محمد على ، إذ لمس القناصل منذ وقت مبكر فى حكم محمد على « المحاباة التى كان يخص بها الأجانب » وأطروا ذلك كثيرًا إلى حكوماتهم ، بل لاحظ بعضهم تسلطهم على أهالى البلاد ، بما يشبه الاستعمار ، فكتب يصفهم : « عندما رأوا أنفسهم تحت حماية صاحب السلطان فى البلاد نفضوا عن أنفسهم على الفور رداء الذلة والخنوع ، وأخذوا يسيرون فى كل مكان كما لو كانوا سادة الأمة والقائمين على تربيتها ، وهم يستغلون حالتهم الجديدة بشتى الطرق مطمئنين إلى أن السلطات المحلية ستنحاز إلى جانبهم على الدوام ضد أهل البلاد »(119) .

- 6 -

الخوف من العرب يوجه الأنظار للاستعانة باليهود

(أ) فرنســا

فى أعقاب الثورة الفرنسية عندما احتدم نزاعها مع إنجلترا كتب أحد زعماء اليهود إلى عضو فى حكومة الدركتوار رسالةً ينصح فيها الفرنسيين بمساعدة اليهود على سكنى فلسطين لتكون جسرًا لهم فى الشرق . إذ إن اليهود « يقدمون لكم عنصرًا استعماريًا متينًا ثابت الأركان وقد يكون ضروريًا لكى يقوم فى آسيا مقام الإمبراطورية الآخذة بالانحلال ، أى الإمبراطورية العثمانية ، ويقدم لكم أهم الضمانات لبث الفوضى وإشعال الفتن .. »(120) .

وقبيل مجئ الحملو الفرنسية إلى مصر صدر بيان موجه إلى يهود العالم يذكرهم بما يتمتعون به من قوة تمكنهم من العمل على استعادة بلادهم (فلسطين) ويدعوهم إلى ضرورة انتخاب لجنة تمثل اليهود المنتشرين فى خمسة عشرة بلدًا من بلدان العالم تفوض بالعمل مع فرنسا لاختيار البلاد الملائمة كوطن قومى لليهود : « أما البلاد التى ننوى قبولها بالاتفاق مع فرنسا فهى إقليم الوجه البحرى من مصر مع حفظ منطقة واسعة المدى يمتد خطها من مدينة عكا إلى البحر الميت ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر . فهذا المركز الملائم أكثر من أى مركز فى العالم يجعلنا بواسطة سير الملاحة فى البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وإفريقيا الجنوبية والشمالية .. »(121) ويظن أن هذا البيان قد صدر فى أعقاب اجتماع بونابرت بعدد من الشخصيات اليهودية فى جملة إعداده لحملته ، ولذلك يقرن بعضهم بهذا الاجتماع ذلك البيان أو المنشور الذى أصدره بونابرت وهو على أبواب عكا ، وبعضهم يقول على أبواب غزة ، فى 4 إبريل (نيسان) 1799 وانتشر فى الجريدة الرسمية الفرنسية فى 20منه سنة 1799 لاستنهاض همم اليهود فى مساعدته على إتمام مشروعه . فيستدلون علىحدوث الاجتماع ويعتبرونه التزامًا من بونابرت بما دار فيه(122) ومن الواضح أنه بدأ التفكير فيها ورتبها فى ذهنه قبل الإقلاع بالحملة من فرنسا فى الوقت الذى كان يجهز فيه منشوره إلى المصريين ، ويؤكد فيه أنه صديق الخليفة العثمانى ، ويزعم الإيمان بالإسلام . ولا مندوحة عن البحث والتقصّى فى سيرة نابليون بونابرت لمعرفة لماذا تحول عن الدعوة التى بدأها فى مصر لإثارة العرب على المماليك وللتحرر من العثمانيين والعملاء على ما بينهم من تناقض .. إلى فكرة إحياء آمال اليهودية بوطن قومى فى فلسطين ، مع أن فكرة الوحدة ظلت تراود خياله عندما أملى مذكراته فى سانت هيلانة. ودافع عن فكرة إشراك أشخاص من مصر بالإدارة بقوله : « كان لابد لكى نسوس هؤلاء الناس من وسطاء يسعون بيننا وبينهم . وكان لابد من أن نقيم عليهم رؤساء وإلا أقاموا رؤساءهم بأنفسهم »(123) .

هل عدل عن هذا إلى إثارة التناقض الأكبر بين اليهودية والإسلام بتحريض اليهودية ، لأنه تذكر ماضى المنطقة العربية وما تضمنه من خطر على تطلعاته ، فخشى من أن الإسلام والعروبة ، فى لقاء مصر وسوريا يشكلان فى يوم من الأيام قوة ذاتية ، كما حصل فى حروب الفرنجة (الصليبية)

تشجع من قبضته ! . فإنه بتحـولـه هذا لم يتحول إلى نقيض ، وإنما تحول إلى خلق عائق وإلى زرع عازل بين القطرين الذين يحملان فى نظرة إمكانية توحيد الأمة العربية .

وعندما أصبح نابليون إمبراطورًا لفرنسا فإن مصر كانت لاتزال فى حساباته أهم بلد فى العالم ، وبالتالى أهم بلد فى العالم العربى . وكانت فكرة الوطن اليهودى العازل ماتزال بعدها مستولية عليه ، وهكذا فإنه دعا سنة 1807 إلى عقد مجمع يهودى « سانهردان» يحضره كل يهود أوروبا ممثلين فى رؤساء طوائفهم . إلى جانب مشاهير حاخاماتهم ليلم « شمل الأمة اليهودية » على حد قوله . ثم كان ملفتًا للنظر أن يكون القرار الذى يحمل رقم 3 من قرارات المجمع ، قرارًا يتحدث بالنص عن :

« ضرورة إيقاظ وعى اليهود إلى حاجتهم للتدريب العسكرى لكى يتمكنوا من أداء واجبهم المقدس إلى الذى يحتاج إليه دينهم »(124) .

ثم يقول الأستاذ هيكل لعل ذلك هو الذى أوحى إلى مفكر سياسى شهير مثل « دولاجار » بأن يكتب كتابه اللافت للنظر : « نابليون والعسكرية اليهودية » .

(ب) إنجلترا

إلا أن اندحار نابليون لم يؤد إلى اندحار التطلع اليهودى . فثمة مؤشرات على طرحها من قبل بعض أصحاب الدعاوى التبشيرية على أسماع بالمرستون ، وزير خارجية إنجلترا ، ثم رئيس وزرائها . إذ كان أصحاب هذه الدعاوى التبشيرية من البروتستانت يرون فى تحقيقها تحقيقًا لنبوءة العهد القديم . بيد أنه ليس من المؤكد أن هذه الدعاوى وصلت إلى عقله ، إلا عندما راح اليهود يقرنون بين مطالبهم والمصالح التجارية والمالية التى تنتظر بريطانيا فى الشرق ، فصارت إنجلترا تعمل لتخفيف مرامى اليهودية بدون تفريق عن مراميها . وربطتها بالمسألة الشرقية .

وهكذا ما لبث اليهود باعتبارهم قوة مالية متنفذة فى أكثر من دولة ، أن رأوا فى إنجلترا - وأن روجوا كثيرًا أنهم كانوا من موقدى نار الثورة الفرنسية - دولة المستقبل فأخذوا يتحولون إليها وينسقون جهودهم معها دون أن يهملوا عملهم فى فرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا ، التى كانت « بوغروم 125)« Pogrom) فيها دافعًا لهجرات يهودية منها تنتشر إلى مختلف دول أوروبا وأمريكا ، وتؤثر على أوضاع اليهود المستقرين فيها من قبل .

لذلك نجد إنجلترا تبادر فور سماح محمد على لها بافتتاح أول قنصلية أوروبية فى القدس عام 1838 بوضع اليهود المقيمين فى منطقة هذه القنصلية ، تحت حمايتها علمًا بأن اليهود فى بريطانيا نفسها لم يتمتعوا بالحقوق السياسية والمدنية إلا بعد ذلك بكثير فى عام 1890(126) وقد جاء هذا الأمر متوافقًا مع نشاط موسى حايين مونتفيورى Mosea Haim Montefiore الذى جاء إلى فلسطين عام 1835 لتقوية الروابط مع اليهود المقيمين فيها ، وافتتح لهم أول مدرسة، حاول شراء بعض الأراضى فلم ينجح . وقطع الأرض التى تم شراؤها حينئذ ، جرى شراؤها باسم الأليانس القائمة فى العراق وفى إيران على ما تذكر الوثائق الفرنسية . ولعب آل روتشيلد الدور الرئيسى ، عندما أبرمت إنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا فيما بينهم عام 1840 تهدف ظاهرًا، إلى مناصرة تركيا ضد محمد على ، فى إقناعفرنسا بالانضمام إليها . وكان دورًا مكشوفًا جعل

جريدة الدستور تعلق عليه قائلة : « بأى حق يتدخل أحد ملوك المال ، النمسوى التبعية فى أمورنا الداخلية »(127) ثم تقدمت هذه الدول بالإنذار البريطانى (سبتمبر - أيلول - 1840) وكان مقدمة لمعاهدة لندن (15 يوليو - تموز 1840) التى كانت فى حقيقتها ، ترمى إلى عزل مصر والاستفراد بها ، ورافقها معاهدة ثانية أطلق عليها اسم معاهدة «لندن لتهدئة الأحوال فى سوريا» يرى الأستاذ محمد حسنين هيكل أنها « المعاهدة الى تمهد المسرح لهجرة يهودية واسعة إلى فلسطين.. ولتحقيقالمطلب الأساسى فى إرث ممتلكات الخلافة العثمانية فى الشرق»(128) وبعد شهر تقريبًا علق اللورد شافتسبرى فى مذكراته على افتتاحية التايمس : « لكنها تسعدنى من ناحية أخرى لأنها تتحدث بصراحة عن أن اتفاقية لندن لتهدئة الأحوال فى سوريا تمهد الطريق لعودة اليهود إلى وطنهم فى فلسطين. وهذا انتصار لأفكار وخطط ناقشناها واقتنعنا بها».

وعلى أثر معاهدة لندن تعالت أصوات الداعين إلى « إعادة اليهود » إلى فلسطين . فقدم اللورد شافتسبرى ، صهر بالمرستون ، رئيس وزراء بريطانيا حينذاك وصديقه الحيم إليه مذكرة باسمهم فى هذا الموضوع(129) ومن ذلك الحين ابتدأ بالمرستون ينصح فى رسائله إلى السلطان بإنشاء وطن لليهود فى فلسطين لكى يكون حائلاً بين اتصال مصر بسوريا . أى اتصال مصر بالمشرق العربى(130) إذ أصبح عزل مصر عن هذا المشرق تأثيرًا واتصالاً ، هدفًا رئيسيًا لجميع المشروعات الاستعمارية ، وفى هذه الفترة انتزعت بريطانيا من الدولة العثمانية اعترافًا بالحق لها فى التحدث باسم يهود الإمبراطورية العثمانية ، و« بموجب هذا الحق طلب بالمرستون من السفير البريطانى حض الحكومة العثمانية على جمع شمل اليهود المشتتين فى أوروبا وأفريقيا وإسكانهم فى فلسطين .. »(131) ، وفى عام 1841 حصلت الحكومة البريطانية على موافقة الدولة العثمانية بإنشاء أسقفية للكنيسة الإنجليكانية فى القدس ، وبتوجيه منها عين لها اليهودى المتنصر مايكل سلمون أول أسقف لها . وما هى إلا سنوات حتى نجح مونتغيورى فى شراء أرض فى فلسطين عهد باستغلالها إلى خمس وأربعين أسرة يهودية من سباط(132) وبمساعى الحكومة البريطانية لدى السلطان لتعديل القوانين العثمانية التى تمنع تملك اليهود فى القدس نجح مونتغيورى عام 1849 فى الحصول على فرمان من السلطان عبد الحميد بالسماح - ولأول مرة فى تاريخ اليهود - بشراء أرض فى القدس ، فتمكن فى عام 1854 من شراء أول قطعة أقيم عليها ما يعرف الآن بحى مونتغيورى فى القدس .

وفى عام 1860 أصدر سكرتير نابليون الثالث اليهودى ، أرنست لاهاران كتيبًا لخص فيه برنامج يتناول قضية الشرق الجديدة والإمبراطورية المصرية والعربية ، وإعادة بناء القومية اليهودية . وبالاستناد إلى هذا الكتيّب وضع مويس هيس كتابه (روما والقدس) دعا فيه إلى«عودة الشعب اليهودى إلى أرض أجداده » بالتحالف مع اليهود والإمبريالية الفرنسية فى الشرق الأدنى ؛ ثم دعا فى كتابه الثانى : « مشروع استعمار الأرض المقدسة » 1867 ، إلى ضرورة إعداد المهاجرين من اليهود إعدادًا عسكريًا «لكى يستطيعوا مقاومة البدو »(133) .

بالتأكيد لم يكن الفصل بين مصر وسوريا وزرع اليهود وطنًا قوميًا بينهما هو الهدف الوحيد لبريطانيا طيلة الزمن الممتد من معاهدة لندن 1840 وحتى صدور وعد « بلفور » 1917 كما قد يتبادر للذهن . صحيح أن « الحمى اليهودية » بلغت مداها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى إنجلترا لتواجد شخصيات يهودية ، متابعة ، دؤوبة .. جعلت محور سياستها تصب جهودها فى التأثير على إنجلترا عند القمة ، متضافرين بجهودهم جميعًا لخدمة بريطانيا :

بالمرستون ، جلادستون ، دزرائيلى ، وكلهم ملتزمون بالـ » صهيونية » من قبل أن تنشأ الحركة، إما إيمانًا بالمعنى المسيحى الحرفى فيما ورد « فى العهد القديم من التوراة عن عودة اليهود إلى فلسطين » وإما بالمعنى اليهودى الصهيونى لتشكيل دولة قومية ، بتناسق مع الفكر والأدب والشعر ، ومع الخطط لتحقيق الغلبة فى التنافس الاستعمارى بين دول أوروبا وتأمين الطرق التجارية..

ففى هذا النصف الثانى من القرن التاسع عشر نشر أحد أبرز أساتذة التاريخ فى جامعة أكسفورد ، وهى أشهر الجامعات حينئذ ، توماس كلارك « فلسطين لليهود » ، ترافق مع نشر أحد مشاهير الشعراء الإنجليز ، وهو الشاعر بايرون لمجموعة أشعاره الكاملة : «الأغانى العبرية» وكان قد اكتسب شهرة على شهرة لتطوعه فى حرب اليونان التحريرية .. وفى هذا النصف الثانى من القرن التاسع عشر (1854) نشبت الحرب فى شبه جزيرة القرم ، وأدت إلى تدفق الألوف من اليهود مهاجرين ينشدون مساعدة أبناء دينهم فى أوروبا الغربية . مما أضفى على أهداف «اليهودية» صفات التحرر . وكانت الحضارة الأوروبية الناهضة قد أخذت منذ زمن تميّز نفسها بالاتجاه إلى الانتماء للحضارة اليونانية ، ومن خلال هذا الانتماء تظهر نزعة التفوق ، دائمة الاهتمام بكيفية التحرر من هيمنة الإمبراطورية العثمانية .

وفى هذا النصف الثانى من القرن التاسع عشر « خرجت فرنسا من دوّامات الثورة وعواقب إمبراطورية نابليون وحروبه ، وعودة البوربون إلى الحكم وفشلهم ، إلى نابليون الثالث الذى بدأ يستجمع خيوط دور فرنسى » بدا فاعلاً فى مصر بالدرجة الأولى وخارجها . فهو الذى أسبغ على مشروع حفر قناة السويس رعايته ، وكان دولسيس صاحب مشروع القناة قريب زوجته الإمبراطورة « يوجينى » وهى التى ركبت مع الخديوى إسماعيل على السفينة المحروسة التى تقدمت القافلة الأولى التى عبرت القناة فى سنة 1869 . ودولسيبس هذا حفيد دولسيبس الذى لقى محمد على باشا فى قونيا قبل أن يأتى إلى مصر ، وعقد معه أواصر الصداقة ، وأوصى به قنصل فرنسا فى مصر . وهو زميل وصديق الخديوى توفيق فى الدراسة ، وهو الذى أسند إليه دراسة القوى المتصارعة فى مصر ، وأيها أوجب بالمساندة فأشار فى كتابه إلى محمد على .

كان المشروع ، مشروعًا فرنسيًا ، ساهمت فيه مصر ، ساهمت فيه مصر بأرضها ومالها وزهق أرواح حوالى 120 ألف عامل من أبنائها غير المعاناة . فضلاً عمّا قدمه محمد على بحكمه من أن لعبور أوروبا إلى مصالحها فى الشرق من مصر والبحر الأحمر ، على طريق الاقتراب البرى بدلاً من الدوران حول رأس الرجاء الصالح أو المرور من فارس والأراضى العثمانية إلى أوروبا . وها هى أوروبا الآن بشق القناة تؤمن طريقًا بحريًا للتجارة والاتصال والحرب بوصلها إلى كنوز الشرق التى تحلم بها ، ويمكّنها من نهب الثروات .

وكان الوصول إلى هذه الثروات يراود أحلام أوروبا ، قبل الحرب الأولى بين الغرب والشرق حروب « الأفاوية » وهى التى كانت تحركها تارة رائحة « البهارات » وتارةً حمية الحقد على العرب والمسلمين . فمنذ البدايات للبحث عن طريق بحرى يوصل أوروبا رأسًا إلى الهند ، يجنبها المرور بالبلاد العربية ، كرّس البابا خطوات المستكشفين وباركها . فكان مرسومه يقول بالنص : « إن سرورنا لعظيم إذ نعلم أن ولدنا .. قد اندفع باسم الله إلى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا ، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة .. وهو توصل إلى إنشاء العلاقات بينه وبين هؤلاء الناس (سكان آسيا) فإنه سيتمكن من حمله على النهضة لبذل العون لمسيحى الغرب على أعداء الدين » وكان همهم تذبيح البحارة

العرب وحرقهم فى سفنهم وإشعال النار فيها . لقطع دابرهم وإبعادهم نهائيًا عن التجارة(134)
ومع بدء مرور تجارة أوروبا واتصالاتها إلى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح حتى
مرورها من قناة السويس سنة 1869 .. كان يحكم البلاد العــربية ويتحكم فى مصــــائرها أغراب
أو كالأغـــراب لا يشعرون بما يضير أهل البلاد أو يحاك لهم .

بيع مصر

كان أخطر ما نال البلاد من أحد حكامها - الخديوى إسماعيل - هو بيع حصة البلاد من أسهم القناة . ليفى بثمنها جزءًا من فوائد ديونه لا كل الفوائد . وكانت ديونه قد تراكمت حتى أصبحت ميزانية الدولة بكاملها لا تفى بالفوائد ، ومن حولـه يتكاثر المداهنون والدائنون والمرابون الذين زينوا له الحياة ببهارجها ، وأدخلوا فى عقله أنه التقدم فخلب عقله قشورها . فرهن أخيرًا الدولة بمرافقها .

وخشيته أن يعرف دائنوه وهم كثر ، فسيبقونه بالحجر على ما قد يتحصل عليه من صفقة بيع الأسهم راح يبحث عن مشتر يأخذها سرًا ويدفع ثمنها نقدًا . وبدأت القصة حينما عرف «هنرى أوبنهايم» وهو مالى يهودى من دائنى الخديوى إسماعيل وسمع مالى يهودى آخر وصاحب جريدة فى نفس الوقت هو جرينوود بالقصة من أوبنهايم ، تجنبًا للوسائل البنكية ، هرع أوبنهايم يخبر اللورد دربى ، وزير خارجية إنجلترا الذى أخذه فورًا إلى مكتب رئيس الوزراء دزرائيلى ، ولم يبطئ دزرائيلى فى التفكير ، فبشروط الخديوى لا يستطيع عرض المسألة على البرلمان البريطانى ، فليس أمامه إلا الاقتراض . فبعث بسكرتيره الخاص اللورد راوتون ليجئ به بالبارون روتشيلد .

كان المبلغ المطلوب أربعة ملايين جنيه ذهبًا ، وكان رئيس الوزراء يدرك أن روتشيلد نفسه لا يحتفظ بمثل هذا المبلغ جاهزًا فى خزينته . كما أنه لا يملك أن يتصرف فى هذا الحجم من المال دون اتفاق فروع الأسرة كلها (فى فرنسا وألمانيا) وبرغم ذلك فوجئ دزرائيلى فى الصبح التالى بوصول روتشيلد إلى مقره مبكرًا يطلب إيقاظه من نومه ليبلغه أن « الذهب جاهز لإتمام الصفقة بأسرع ما يمكن » قبل أن يغيّر خديوى مصر رأيه ، أو يتسرب سر الصفقة إلى آخرين »(135) .

فى بداية علمه بالصفقة كتب دزرائيلى إلى الملكة فكتوريا يقول : « ليس لدينا الوقت الكافى للتنفس . يجب أن نبرم هذه العملية بشكل من الأشكال » . ثم ما لبث أن كتب إليها بفضل آل روتشيلد ، قائلاً : « سيدتى ! لقد تمت الصفقة ، ولديك الآن الأموال اللازمة أربعة ملايين ليرة استرلينية . لم يكن هناك سوى مصرف واحد يستطيع إقراضنا هذا المبلغ : آل روتشيلد ، لقد تصرفوا بنبل وأقرضونا المال بفائدة ضئيلة جدًا ، إن حصة الخديوى بكاملها هى فى حوزتنا الآن »(136) .

وهكذا تمت لإنجلترا السيطرة الكاملة على أهم طريق بحرى إلى الشرق ، وإلى ممتلكاتها بالذات فى العالم ، وتم بصفقة امتلاكها له التحام مصلحتها بمصالح اليهود ، فحق لإدوارد كوزليت وهو جد النائب الصهيونى فى البرلمان البريطانى ، كوزليت - أن يقف فى أعقاب الاحتلال البريطانى لمصر ويصرح : « بأن احتلال مصر قد وحد بين مصالح الإمبراطورية فى الشرق وبين مصالح اليهود فى فلسطين »(137) . يومئذ كانت مصلحة اليهود تتمثل فى الحصول على فلسطين وتتمثل مصلحة الإنجليز فى عزل مصر عنها ، والحرص على التفاعل معها ، وهو أول ما بدا لها فى أزمتها مع عرابى . فقد كانت أول ما فكرت فيه إدارة الأدميرالية البريطانية حين لاحت تباشير الثورة العرابية أن تحول دون انتشارها إلى الشرق العربى . خشية أن يهب لمساندتها. فاستدعت إدوارد بالمر ، أستاذ اللغات الشرقية فى كامبردج ، الذى كان عضوًا فى كشف فلسطين لخبرته الواسعة، وكلفه اللورد نوربتروك بمهمة العمل على تحييد عرب شرق القناة . ويستدل من يومياته

أنه جاء إلى مصر لمقابلة سيمور ، ثم انتقل إلى يافا ، ومنها إلى غزة مرتديًا الملابس العربية ، ومنتحلاً صفة تاجر إبل تحت اسم مستعار (عبد الله) ، واتصل بالطرابين ، وتعاقد مع مشايخ الطحاوية على حمايته ، واشترك فى آب (أغسطس) 1882 مع الجند فى احتلال السويس ، ثم خرج ثانية إلى الصحراء ليعمل على قطع أسلاك التلغراف ، وحرق الأعمدة ليقطع على عرابى أى اتصال بالفرق والتقبالكابتن جل فأعطاه عشرين ألف جنيه لإنفاقها فى متابعة مهمته . إلا أنه أخيرًا لقى حتفه مع إنجليزى آخر حينما اكتشف الحويطات القبيلة المشهورة أمرهما فقتلوهما رميًا بالرصاص(138) .

ذلك أن أهم ما كان يقلق الغرب طوال احتدام « المسألة الشرقية » هو مصير البلدان العربية إذ كانت استراتيجيتها الثابتة هى الحيلولة دون عودة هذه البلدان إلى وحدتها . وقد فطن السياسى اللبنانى يوسف كرم إلى هذه الخطة فكتب عام 1877 وهو فى منفاه فى روما إلى الأمير عبد القادر الجزائرى فى منفاه فى دمشق يقول : « إن حكومتى فرنسا وإنجلترا ، لاعتقادهما بسقوط الحكومة العثمانية القريب ، قد هيأتا الوسائل الآيلة إلى تجزئة الديار العربية أقاليم تلجأ إلى حمايتها .. خوفًا من أن يجمع الجيش العرابى صفوفه ويصبح حكومة واحدة ، والسبب فى ذلك لأن حكومتى فرنسا وإنجلترا تخشيان من أن يمتد فيما بعد اتحاد الجيش العربى فينتزع منها الجزائر »(139) .

ويلفت النظر ، بعد احتلال الإنجليز لمصر ، وإفشال ثورة عرابى ، وتشريد القائمين بها تسارع حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وإنشاء المستعمرات للمستوطنين القادمين . ففى سنة الاحتلال (1882(قام البارون إدموند روتشيلد بتنظيم أول هجرة جماعية يهودية إلى فلسطين فارتفع تعداد اليهود فى فلسطين بهذه العملية من ثمانية آلاف إلى أربع وعشرين ألفًا ، بينما كانوا فى أول القرن عندما كان نابليون بونابرت على أسوار عكا لا يتجاوزون ألفين من مائة وخمسين فى القدس . وفى نفس الوقت الذى قام البارون إدموند روتشيلد بتنظيم هجرة جماعية يهودية إلى فلسطين كانت أسرة روتشيلد تبدأ فى جمع تبرعات ومساهمات طائلة لشراء أرض فى فلسطين وراء واجهة مؤسسة للاستثمار الزراعى فى الشرق(140) . ويذكر الأستاذ هيكل على تسارع حركة إنشاء المستعمرات اليهودية فى فلسطين وحجم الهجرة بعد الاحتلال الإنجليزى ، إن عدد المستعمرات التى أقيمت فى العشر سنوات الأولى كان عشرين مزرعة أقيمت على مجموع 22718 فدانًا من أجود الأراضى الزراعية ، وفى عقد المواصلات ، مما يشير على أن اختيار أماكنها كان يتم على ضوء استراتيجية عسكرية(141) .

أصـول وعد بلفور

ربد « اليهود » خططهم للحصول على فلسطين بمصالح الاستعمار فى إبقاء الدول العربية مجزأة ، وإن دعا بعض كتابهم ومنظروهم إلى تحالف القومية العربية مع « القومية اليهودية » وطلب زعماء متهافتون من العرب كفيصل فى الاتفاقية التى وقعها مع وايزمن أو الاتفاقية التى عقدها مع فرانكفوتر فى باريس(142) عون اليهودية العالمية لـ « تحقيق الإمبراطورية العربية » وإدراكًا من زعماء اليهود لأهمية مصر فى نظر إنجلترا، وحرصها الشديد على عزلها عن البلاد العربية من جهة ، وللتسريع بالحصول على ما يؤكد موافقة بريطانيا على مطالب اليهودية بفسلطين من جهة ثانية سربوا التقرير الصادر عن مؤتمر كامب باترمان رئيس وزراء بريطانيا فى مطلع القرن الذى دعا « نخبة النخبة » من مفكرى الغرب وعلمائها ليتدارسوا سبل الحفاظ على حضارة الغرب ودوامها والحيلولة دون سقوطها . وذلك بعد موجة من التشاؤم رانت على الأذهان إثر انتشار كتاب المفكر الألمانى شينجلر : « سقوط الغرب »(143) وقد جعل التقرير مصدر الخطر فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، إذ قرر أنه حول هذا الحوض شعوب من شأنها أن تهب بين الحين والآخر فتندفع تدمر كل ما يعترضها ... والمقصود العرب . وتبيان الخطر على مصالح أوروبا من يقظة القومية العربية ؛ وتلافيًا لهذا الخطر، وإنقاذًا للحضارة الأوروبية من التدمير والدمار ، فلابد إذن من تقسيم البلاد العربية وإقامة عوازل بينها تعيق تطورها ، وتستنفد طاقاتها . فمؤتمر كامبل باترمان عقد فعلاً ، ولكن التقرير المنوه عنه لم يعثر عليه بعد، وإن كان يوجد تحت هذا الاسم ما يشير إليه فى مكتبة باريس الوطنية . حتى بات الاعتقاد أن التقرير الذى سربه الصحفى اليهودى ، وأخذ عنه شفيق رشيدات من نسج خيال هذا الصحفى ، الذى نشره قبل الحرب العالمية الأولى ، كتمهيد للمفاوضات الجارية سرًا لتقسيم المنطقة العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية ، وللدفاع به عن إقامة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، وعلى كل حال إنه يدل دلالة واضحة على مخاوف الدول الاستعمارية من إمكان قيام وحدة عربية . وقد أدرك هذا الاحتمال اليهود ، واستغلوه للحصول على تأييد مطالبهم . وهذا الفهم لاتجاهات المصالح الاستعمارية والإمبريالية هو الذى دفع هرتزل من قبل فى عام 1898 - عندما كثر الكلام عن تقسيم الإمبراطورية العثمانية إلى أن يدون فى مذكراته قوله بصلف : « لن تستطيع أى قوى أن تعطى فلسطينلغيرنا»(144) وعندما وقف تشرشل فى مجلس الوزراء البريطانى ، يوم أول نوفمبر (تشرين الثانى) 1917 ليدافع عن وعد بلفور لم يجد حجة يقنع بها الوزراء أقوى من القول بأن «هذا الوطن القومى لليهود فى فلسطين سوف يكون عازلاً يفصل بين العرب شرق سيناء والعرب غرب سيناء ثم إن هذا الوطن القومى الذى سيكون بحاجة للدفاع عن نفسه ضد الامتداد الواسع سوف سيبقى دائمًا فى أحضان الغرب الذى يستطيع فى أى وقت أن يستعمله كقاعدة للعمل ضد أى تهديد لمصالح الإمبراطورية البريطانية فى مصر من ناحية ، أو فى العراق من ناحية أخرى . كذلك فإن هذا الوطن القومى سوف يشغل العرب ويمتص طاقاتهم أولاً بأول..»(145) .

لم يكن منطلق الصهيونية مختلفًا ، ففى عام 1897 كان تصور الزعيم الصهيونى هرتزل ، كما دونه فى يومياته ، أكثر احتياطًا لضمان مصالح الغرب : فقد دون فى مذكراته أن إنجلترا قد

تضطر يومًاإلى مغادرة مصر مما يضطرها إلى البحث عن طريق آخر إلى الهند بدلقناة السويس التى ستصبح غير مأمونة على الأقل ، و« آنذاك تصيح فلسطين اليهودية الحديثة مناسبة لهم - الطريق من يافا إلى الخليج الفارسى(146) - ، وفى إبريل (نيسان) من عام 1902 جاء إلى مصر يحمل مشروعًا يقضى بمنح اليهود حق امتياز فى منطقة العريش99 عامًا » إلا أنه رفض(147) .

من هنا كان لابد لليهود والصهيونية فى الحصول على وعد بلفور ، أو ما يشبه وعد بلفور وليس كما تصور بعضهم أن هذا الوعد جاء نتيجة خدمة قدمها هرتزل لإنجلترا فى الحرب العالمية الأولى ضمنت لها النصر . فمن مجريات الأمور أنهم انتزعوا هذا الوعد بجهدهم - بصرف النظر عن كون الوعد حقًا أو بغير حق- ومثابرتهم ، وعملهم الدؤوب فى جميع الاتجاهات. وكان أحرى بالعرب أن يقوموا هم بمثل هذا وأكثر لأنهم ، هم ، لا اليهود ، عرضة ، لعداء مستحكم من العالم الناهض . وقد وجهت اليهودية والصهيونية نشاطها على أكثر من جهة ، وحيثما كان شيء من النفوذ تعمل جاهدة على العربشة إلى السلطة ، ولا يظنن أحد أن نشاطها فى الإمبراطورية العثمانية كان أقل من اهتمامها بإنجلترا . فبينما كانت أذهان الشخصيات العربية المقيمين والمترددين على عاصمة بنى عثمان تكاد تكون خالية من معرفة الصهيونية ومراميها فى فلسطين كانت الحركة الصهيونية تنسج خيوطها فى إسطمبول . كان لها البنك الإنجليزى الفلسطينى ، والبنك الإنجليزى العثمانى ، وكانت جريدة « الجون ترك » الناطقة بالفرنسية قد أسست بأموال يهودية ، وعين لها جلال نورى رئيسًا للتحرير للتغطية . أما رئيس تحريرها الحقيقى فكان جابوتنسكى الزعيم الصهيونى(148) .

وكان جاتونسكى دائب السعى للتعرف على النواب العرب ، وعقد أواصر الصداقة معهم لاستبانة ما يمكن عمله للتوفيق بين العرب ، ويروج لفكرة التعاون وما فيها من فائدة للعرب(149) وكانت طروحاته التى لخصها أسعد داغر لا تخرج فى مجملها عن اتفاقية فيصل . وايزمن، وفيصل فرانكفورتر ، وفى يوميات هرتزل بتاريخ آب 1896 أثناء زيارته لإسطمبول ما يستدل أنه قدم رشاوى لبعض رجالات الحكم الكبار منهم جاويد بك . ولم تكن « اليهودية » ولا « الصهيونية » بعيدة عن التغيرات التى حدثت فى الدولة ، وأتت بالاتحاد والترقى وبتركيا الفتاة ، إن لم تكن فى عداد الأطراف التى لعبت دورًا فى تفكيك الإمبراطورية باسم العدل والمساواة . فجاويد بك اسم مستعار لأحد أفراد الطائفة اليهودية الأصل «الدونمة» من سالونيك، والقادة فى «الاتحاد والترقى» المنبثقة من تركيا الفتاة جميعهم من الماســون « البنائين الأحرار » وكان يهود ســالونيك جزءًا لا يتجزأ من جمعية الاتحاد والترقى ، ومنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركى صريح ، فأنور باشا بن رجل بولندى مرتد ، وكراسو من اليهود الأسبان القاطنين فى سالونيك ، وطلعت باشا بلغارى من أصل غجرى اعتنق الإسلام ... ومن هنا قول واتسن ستون أن أصحاب العقول المحركة وراء حركتى تركيا الفتاة والاتحاد والترقى كانوا يهودًا أو مسلمين من أصل يهودى « الدونمة » يتلقون العون من يهود سالونيك الأغنياء. ومن معونات مالية رأسمالية دولية .. إلخ .

ويكتب « هرتزل » فى يومياته : « كتبت إلى مدحت بك سكرتير السلطان عن مشروعنا لإصدار جريدة (دى فليت) وأشرت له بأننا سوف نحاول أن نساعد حكومة السلطان عن طريقها بنشر ما يمكن أن يؤدى إلى تحسين صورتها فى العالم . وهذه خطوة نحو تكريس جهود الصحافة اليهودية

لخدمة الخلافة . خصوصًا إذا قام صاحب الجلالة بتشجيعنا وأمن لنا الظروف الضرورية لإسكان الشعب اليهودى فى فلسطين . إننا سوف نضع كل قوتنا فى خدمة الاقتصاد التركى » . وقد أظهرت الدراسات فيما بعد أن الدولة العثمانية كانت على شفا الإفلاس تتنفس برئتين اصطناعين أوروبيتين ، استعملت البنوك خطة إغراقها بالديون ، نفس الخطة التى دفعت إليها الخديوى إسماعيل ، والخطة نفسها التى سلكتها من قبل فى تونس . واعتبره نفسه ، بكل دهاء طرفًا ثالثًا ، يميل إلى جانب السلطان ، بقوله : « إن أعداءنا هم أنفســهم أعداء السلطان الراغبين فى إضعاف الخلافة العثمانية وتفتيتها ، وهم الذين يريدون امتصاص دماء تركية بقروضهم الشرهة (مع العلم أن جميع البنوك الدائنة لتركيا مملوكة ليهود معظمهم ممن يقومون بتمويل المشروع الصهيونى فى فلسطين) ... !

ومن مراسلات هرتزل مع رجالات الدولة وبتعليمات وزارة الخارجية البريطانية لسفيرها فى الآستانة يبدو تردد السلطان لعدم التشجيع وتأمين « الظروف الضرورية لإسكان الشعب اليهودى فى فلسطين » كما أراد هرتزل من اتصالاته بالسلطة .. لم يكن نابعًا من قناعة ذاتية بقدر ما كان من ضغوط إسلامية وعربية . ففى عام 1911 عندما استفحل أمر الاستيطان وصارت الشكوى تسمع من كل قرية من فلسطين تقدم النواب العرب فى مجلس المبعوثان بمشروع قانون لإيقاف الهجرة .

لم يكن يغيب عن البال أن محمد على والى مصر هو حاكم غريب عن مصر ، عن « أولاد العرب كما كانت تسمية أهاليها جارية على ألسنة قناصل الدول الأجنبية ، وبالذات عن بال رجالات بريطانيا » ، الذين يعرفون جيّدًا طريق مواصلات الإمبراطورية ، ويحرصون كل الحرص على سلامة وأمن هذا الطريق حرصهم على حياتهم ، وهذا الطريق يومئذ هو مثل « عقد من اللآلئ حبّة بعد حبّة، وآخرها أغلى الجواهر فى التاج البريطانى وهى الهند » وإذا كشفت «حملة» بونابرت على مصر الستار عن أهميتها فى تأمين هذا الطريق فما من شك أن إنجلترا رصدت كل حركة من حركاتها وكل سكنة من سكناتها فى مصر ، وعلى أبواب بلاد الشام ، واستمرت عيونها ساهرة حتى عبأت جنود الحملة على مراكبها إلى فرنسا ، لم تغفل بعدها . لقد أثارت هذه « الحملة » بالعاصفة التى ألمت بها جملة من الأمور تقضّ المضاجع .

من جهة كانت المقاومة الضارية التى هبت فى وجهها ، بعد كسرها لشوكة المماليك فى مصر وعلى أسوار عكا ، والتى لم تكن فى حسبانها ، بما تنبه إليه من احتمالات لا تثير مخاوف ووساوس رجالات بريطانيا وحدها . بل وكافة رجالات دول أوروبا ، الناهضة التى استقرت استراتيجيتهم ، منذ أن استوعبوا حروبهم مع المشرق (حروب الفرنجة) وأيقنوا أنه لابد أن يتجاوزوا هذا المشرق ليصلوا إلى ثروات العالم .. على أن لا يتيحوا للمنطقة العربية ومصر واسطة العقد فيها ، فرصة لاستعادة وحدتها وقوتها ..

ومن جهة أخرى راحت سياسة بونابرت تصب الزيت لإشعال المشاعر عندما صار يعزف على نغمة التفريق بين عرب وعثمانيين ومماليك. كما يذكر الدكتور حسين مؤنس لاستمالة أهالى مصر(150) فكان يخاطبهم قائلاً : « لماذا تخضع الأمة العربية للأتراك ؟ وكيف تكون مصر جنة الله فى أرضه وبلاد العرب المقدسة مهبط الوحى ، خاضعين لشعب يخرج من القوقاز .. إننى أريد أن أعيد مملكة العرب . ومن يمنعنى من ذلك ؟ » وكان الشيخ المهدى يعرب أقواله وينظمها شعرًا يحفظه الناس ويتغنون به فى صحارى إفريقيا وبلاد العرب ، وعندما املى مذكراته فى

سانت هيلانة قال(151) : « والذى يقرأ بالتفات تام تاريخ الحوادث التى توالت على مصر فى المائتى سنة الأخيرتين (يقصد السابع عشر والثامن عشر) يوقن أنه لو عهدت الدولة العثمانية إلى وال من أهل البلاد ، كما هو الحال فى ألبانيا ، بدلاً من أن تعهد إلى اثنى عشر ألفًا من المماليك ، لاستقلت المملكة العربية التى تتألف من أمة تخالف الأمم غيرها مخالفةً كليةً بعقليتها وأوهامها ولغتها وتاريخها ، وشملت مصر وبلاد العرب وشطرًا من أفريقيا .. » .

كانت إنجلترا ، فى فترة صعودها تتعلم من أعدائها ، تأخذ الدرس وتحفظه ، ثم تطبق ثقافته بأفضل منهم : فتنبهت لـ «حملة» بونابرت على مصر ، وخشية امتداده نحو الجنوب تربصت له فى عدن لتراقب حركته فى البحر الأحمر ، وتمنع تطلعه إلى المحيط العربى الهندى ، وأحاطت الساحل العربى من عدن إلى البصرة فى العراق بشباكها . مع بقاء عيونها ساهرة تترصد فى البحر الأبيض المتوسط . فاقتحمت معقل الأسطول الفرنسى فى « أبى قير » قرب الإسكندرية فحطمته ، وبعد فشل بونابرت أمام أسوار عكا أمنت حصره بين نيران المقاومة الشعبية فى مصر والبحر من الشمال .. ثم التفتت بعد خروج الفرنسيين تحاول اقتحام مصر ، متسترة بالألفى ومماليكه ، ثم بحملة فريزر فتكشف لها أن حفيظة « أولاد العرب » مازالت معبأة بالضغينة للـ « الفرنجة » وإذا بمحمد على القوى بفرقته الألبانية المؤتمرة بأمره ، وبتحالفه مع « اليقظة الشعبية » وبحصوله على ثقة الباب العالى ، يظهر لدول الغرب أنه الحل الأمثل لتأمين مصالحها التجارية ولضمان الأمن لطريق الاقتراب البرى بما يشيعه من استقرار ، ريثما تجد الأفضل . وبدا أن حكمه يضع حدًا للفوضى التى كانت تعم مصر فى ظل الإدارة العثمانية ، وتجلت بأكثر ما يمكن فى العقد الذى سبق تسلمه الولاية . فقد تعاقب على منصب الولاية قبله خمس باشاوات فى أربع سنين .. فضلاً عن أن محمد على فى تكوينه وفى منازعه غريب عن الشعب بدأ يحيط نفسه بفئات تعزله عن الشعب ، وهذا أيضًا يشكل تطمينًا لمخاوفها .

إلا أن مطالبة محمد على بالاستقلال بمصر طالت ، ولم تجد أذنًا صاغية لدى الباب العالى رغم خدماته . فاندفع بجسارة لاجتياح بلاد الشام لعله بالحرب يحصل على ما يريد : لفتت سهولة هذا الاجتياح الأنظار مما جعل بعضهم يظن أنه « دخل إلى بلاد الشام وسط علامات نهضة وطنية سورية تلاقت طموحاتها مع « نموذج محمد على » « بالقياس لفشل بونابرت فى مثل هذا الاجتياح ، وكان اللافت الأهم فى ذلك هو الذى لاح لأعين المسؤولين البريطانيين أصحاب المصلحة الأولى خصوصًا عندما أخذ محمد على وهو فى سوريا ، يولى اهتمامه لدراسة الملاحة فى الفرات ، متلازمًا مع إشارات استعداد مجموعة من العشائر - التى أبت الخضوع لحكم عبد العزيز بن سعود فى الحجاز ، وفضلت النزوح إلى العراق(152) - للتعاون مع محمد على . وأظهر البرلمان الإنجليزى اهتمامه فقرر تخصيص النفقات اللازمة(153) وسيرت البعثات لدراسة الملاحة فى الفرات (الكابتن تشيسى والكابتن جسنى) وسمح لسفينة حربية لحقت بهما ، وبدأت الرحلة من سوريا فى 16 مارس (آذار) 1836 « وجمعت الأدلة والبراهين القاطعة على أفضلية طريق الفرات إلى الهند » وأهميته للدفاع عنها(154) ، وفى 6 ديسمبر (كانون الأول) 1833 كتب بالمرستون إلى سفيره فى القسطنطينية يحدد السياسة الإنجليزية المقبلة قائلاً : « إنه إذا اضطررنا يومًا أن نختار أحد أمرين إما استيلاء الجيوش المصرية على اسطنبول أو وضعها تحت نفوذ روسيا فإنه لن يكون بوسعنا إلا أننختار الأمر الأول »(155) .

بيد أن لقاء مصر وسوريا ، الذى قيل عنه لما صادفه من ترحاب « أنه جاء وسط علامات نهضة وطنية سورية تلاقت طموحاتها مع نموذج محمد على » لم يكن بمحمد على إنما كان هذا الترحاب فى الحقيقة تعبيرًا عن فرحة لقاء شعب بشقيقه فرقت بينهما الظروف لا بسبب وجود علامات نهضة وطنية .. لأن لقاء مصر وبلاد الشام ، الذى يشكل على حد قول المؤرخ الهندى ك. باتيكار سيف البحر ذى الأهمية .. يحمل درسًا استراتيجيًا لا يخفى عن بصيرة قارئ التاريخ . إذ ما من حكم ، من أبناء البلاد أو دخيل عليها ، استقر فى مصر أو بلاد الشام إلا شعر بالحاجة الضرورية لجمعهما ، من أيام التاريخ القديم الأول . فسواء كانت الفكرة الدافعة لمحمد على بوحى مباشر أو غير مباشر من سليمان باشا الفرنساوى الكولونيل سيف أحد ضباط نابليون الذى كان رئيسًا لأركان حرب إبراهيم باشا ، أو كانت الفكرة الدافعة للزحف إلى سوريا هى بقصد الحصول على مصر طلب المزيد للحصول على القليل .. فإن تأسيس دولة نواتها مصر وسوريا تحمل فى ذاتها القدرة والإيحاء .. كما أن ما تكشف للأعين من ملاءمة طريق سوريا - العراق - الخليج - الهند للتجار يشكل لافتًا . ولم يكن عدم إظهار بريطانيا عداءها لمحمد على منذ بداية اجتياحه لبلاد الشام ، بسبب انشغالها بثورة بلجيكا على ما يذهب البعض(156) بل لعل صبرها بداية كان بدافع التريث لترى ما تفضى إليه التجربة .

إن إنجلترا لم تكن لتجهل طبيعة حكم محمد على فى مصر التى لا تختلف عن طبيعة حكم الأتراك العثمانيين للعرب ، إلا بسماحه لتدفق الأجانب إليها ، وهو ما أظنه يرضيها أيضًا ، وإنجلترا تعرف أن محمد على لم يقرب مصالحها من خلال حكمه للحجاز ونجد ، بل كانت قبل أن ينسحب من هناك على استعداد « للعمل معه على إقامة سلطة منظمة فى الخليج(157) وسهل لها ضرب « القواسم » ؛ وهى تعرف كذلك أن لا خطر على مصالحها التجارية من حكم محمد على لسوريا ، ولا على ممتلكاتها فيما وراء الخليج .

لا شك فى أن حرب إبراهيم باشا الثانية واندحار الجيش التركى أمامه بعد فترة إعداد أكثر من خمسة أو ستة أشهر ، قد أثار مسائل لم تكن محسوبة . إذ أصبحت مسألة احتلال آسيا الصغرى وقرب سقوط الإمبراطورية العثمانية وما يصاحبه من تعقيدات قضية أوروبية حقيقية على حد تعبير دوبروغلى فى تعليماته إلى دى بوالكمت ، موفده إلى محمد على . بموافقة دول أوروبا ، لتسكين مخاوفها ، وعلى رأس هذه المخاوف التدخل الروسى ووحدة البلاد العربية(158) .

ففى يوليو 1833 وقعت الروسيا مع الباب العالى معاهدة هنكيار اسكلة سى اقتصرت على ذكر إغلاق الدردنيل فى وجه السفن الحربية لجميع الدول ، وسكتت عن ذكر البوسفور كأنها جعلته مفتوحًا أمام روسيا . ففسرتها الدول الأوروبية نجاحًا لروسيا فى الانفراد فى المسألةالشرقية ورضاءً من تركيا بأن تكون تحت حمايتها(159) . فلا شك فى أن هذا النفوذ الذى اكتسبته الروسيا فى تركيا إلى جانب امتداد نفوذها فى بلاد فارس فى الوقت ذاته كان العامل الأساسى الذى رجح موقف إنجلترا مع فكرة انسحاب إبراهيم باشا لا خوفها من محمد على(160) .

ذلك أن إنجلترا كانت حتى ذلك الحين مطمئنة إلى مركزها فى الخليج ، وفى الطريق إلى الخليج نتيجة للأبحاث التى دارت حول فكرة غزو الهند بحملة عبر بلدان الشرق الأوسط، وجاءت تبرهن على أنها أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة. لأن عبور بادية الشام يستغرق ثلاثة أشهر، ولأن البحرية الإنجليزية تستطيع إغلاق الخليج عند مضيق هرمز، ولأن السير على الساحل الفارسى برًا يكاد يكون مستحيلاً لطبيعته الجبلية، ولوقوعه تحت رحمة المدفعية البحرية الإنجليزية(161)

وهكذا أصبح طريق الخليج . سواء عبر العراق إلى حلب أم عبر العراق إلى آسيا الصغرى ، آمنًا كالطريق عبر مصر والبحر الأحمر سواء بسواء ، وهو طريق « الاقتراب البرى » بالنسبة لإنجلترا. وأخذت تجارتها تتحول إليه . بل انفردت فيه دون منافس أوروبى على الأقل من الناحية الاقتصادية منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر(162) .

وفى أواخر القرن كان 90% من ميزانية الخليج العربى ، البالغة ستة عشر مليون روبية لصالح شركة الهند الشرقية . وتستورد إيران من الشركة بضائع قيمتها 2 مليون روبية وتستورد العراق بما قيمته 3 مليون روبية، وعمان والبحرين مليون روبية. وفى عام 1790 كانت قيمة ما يصدره البحرين من اللؤلؤ نصف مليون روبية فبلغت هذه القيمة مليونين فى العام 1800 وكانت هذه التجارة تنقل إلى الغرب بطريقين : شمالى عبر آسيا الصغرى، وغربى إلى حلب من الكويت أو من بغداد على ظهور الجمال فى مدة ثمانين يومًا من الكويتوثلاثين يومًا إذا جاءت من بغداد فيحمل البعير ما قيمته سبعمائة جنيه استرلينى من البضائع بما فيها الهدايا التى تقدم لشيوخ القبائل على الطريق ، وتبلغ نفقة الجمل بين 130 و90 روبية(163) ، وكان ينظم هذه التجارة عناصر شركة الهند الشرقية البريطانية وسماسرتها الذين أصبحوا منذ عام 1822 مقيمين سياسيين ووكلاء مستوطنين(164) كثيرًا ما كان أقل إهمال أو خطأ يعرضهم للعزل ولأشد العقوبة ، وعززت الحكومة الإنجليزية ذلك كله بشبكة من الخطوط التلغرافية وصلتها بالخطوط الممتدة بين الخليج والهند عبر آسيا الصغرى(165) .

ومنذ اواسط العشرينيات بدأت إنجلترا تحس بالخطر الروسى ، وتحسب له حسابًا . ففى 1826 شبت الحرب بين الروسيا وفارس ، انتهت عام 1828 بحصول الروسيا على إقليمى آريفان ونقشبند فى الشمال ، وما لبث شاه إيران أن وقع تحت نفوذ السفير الروسى عام 1834وبتحريض هذا السفير قام بحملة هراه سنة 1837وهى منفذ هام فى الطريق إلى الهند . فاعتبرت إنجلترا ضمها إلى فارس امتدادًا للنفوذ الروسى(166) فضلاً عن أنها أخذت تحس بالتنافس للحصول على امتيازات تجارية ، وهكذا جاء نفوذ الروس نتيجة حرب إبراهيم باشا ، فى الدولة العثمانية وامتيازها فى البوسفور يشكل إلى جانب امتدادها إلى الخليج خطرًا كبيرًا يؤثر - من وجهة مصالح لإنجلترا - حتى على اتجاه أى حكم يقوم فى بلاد الشام ، وتهديد النفوذ الإنجليزى فى الخليج العربى - حتى بعد أن سيطر الإنجليز على موقف مصر، وملكوا قناة السويس بزمن طويل، أمر لا تسمح به إنجلترا ، ففى 5 مايو 1803 وقف لورد لنزدون وزير الهند يخطب فى مجلس اللوردات فقال : « إننى أقولها دون تردد؛ إننا نعتبر تأسيس أى دولة أخرى قاعدة بحرية، أو ميناء محصنًا فى خليج فارس عدوانًا على المصالحالبريطانية من واجبنا أن نقاومه بكل ما لدينا من وسائل »(167) حتى أن الصحفى الألمانى قال : « إذا عطس ألمانى فى الخليج يخيل لبريطانيا أن أركان إمبراطوريتها قد تزلزلت » . ولا ننسى أن مجرد حصول ألمانيا على امتياز خط حديد برلين - بغداد وتفكيرها بإيصاله إلى البصرة كان سببًا من أسباب الحرب العالمية الأولى . فلا عجب إذن من ان تستغل إنجلترا هياج أوروبا الرجعية الخارجة من حروب نابليون ، ضد التحرر القومى ، خاصة إذا كان هذا التحرر عربيًا ، فتقود « جوقة الدول » التى أخذت على عاتقها فى معاهدة فيينا 1815 تصفية آثار إمبراطورية نابليون وسحق الشعوب ، لكى تحقق هدفين معًا فى محافظتها على بقاء الدولة العثمانية : الأول عودة الروسيا عن معاهدة هنكيار اسكلة سى بانضمامها إلى « الجوقة » والثانى الحيلولة دون قيام دولة عربية مستقلة ، وإن كانت فى ظل محمد على .

فى نهاية سنة 1838 كتب قائد الجيوش البريطانية اللورد ولنجتن تقريرًا إلى اللورد بالمرستون فكان ما جاء فى كتابه حاسمًا ، وهو كما يلى(168) :

« فى هذا العام نشبت أزمة خطيرة بين مصر وتركيا نتيجة لتناقضات وصراعات سببها والى مصر . فقد استطاع « محمد على » فى عشر سنوات أن ينشئ أسطولاً وجيشًا يفوقان كل ما يحتاجه للضرورات الشرعية لحكومته . واستطاع بتصرفات متسمة بالطغيان ضد شعبه أن ينشئ جيشًا فى حجم ليس له ما يبرره . فقد جند مائة ألف رجل، وحشدهم ضد سيده الخليفة العثمانى ورمى جانبًا قناع الولاء الذى يتظاهر به . وأعلن أمام قناصل الدول فى مصر أنه يريد إعلان استقلال مصر . كما أنه يطالب بضم سوريا . ونجح « محمد على » فعلاً فى أن يشن حربًا ناجحة ضد الخلافة ، وتقدم بجيوشه حتى « نصيبين » على الحدود التركية السورية . ولم تقتصر قوة «محمد على» على جيشه البرى ، وإنما تمكن أسطوله أيضًا من هزيمة الأسطول التركى ، وخاف قائد الأسطول التركى بعد هزيمته أن يعود إلى اسطمبول ويلقى عقابه . وهكذا قرر بعمل من أعمال الخيانة أن ينضم بجيشه إلى ديكتاتور مصر المنتصر ، وأخذ أسطوله إلى الإسكندرية ، ووضع سفنه.. وعليها عشرون ألف بحار - تحت تصرف « محمد على » . إن هذه الأوضاع تتطلب تصرفًا سريعًا من الحكومة الإنجليزية ، كما تتطلب تدخلاً عاجلاً يتكفل إعادة « الباشا » الذى يتصور نفسه لا يقهر إلى عقله ، وإلى الخضوع والطاعة للسلطان » .

ويعلق الأستاذ هيكل على ذلك بقوله(169) : إن بالمرستون لم يكن يحـــتاج إلى أكثر من هذا لكى يقتنع بضرورة العمل وبأسرع ما يمكن أمام القوة الجديدة البازغة فى مصر . وكان أكثر ما ضايقه أن محمد على بأسطوله المصرى الأصلى ، وبالأسطول التركى الذى انضم إليه ، يمكن أن يصبح قوة مؤثرة فى البحر الأبيض وحول شواطئه. فهو يستطيع إنشاء دولة عربية قوية فى مصر، أو يستطيع أن يزحف إلى اسطمبول لتجديد شباب الخلافة العثمانية . وفى الحالتين يخلق قوة تتصدى للمحاولات الأوروبية لاقتسام تركة العثمانيين . وهذه كلها أمور لم تكن السياسة الإنجليزية على استعداد لقبولها . وهكذا نشط بالمرستون يحشد تحالفًا ضد « محمد على » تنضم فيه إلى إنجلترا كل من روسيا وبروسيا والنمسا . وكان أعلن هذا التحالف فرض حصار على الموانئ المصرية وعلى موانئ الشام . وفى أجواء الحصار بدأ العملاء السريون لبريطانيا يثيرون الفتن بين الطوائف والأقليات فى الشام مستغلين الظروف الاقتصادية التى نتجت عن الحصار . خصوصًا وأن أسطول محمد على (المصرى والتركى) كان قد تعرض لغارة بحرية ساحقة فى خليج نفارينو ، وكانت الخطوة التالية هى قيام الأساطيل الإنجليزية والروسية والنمساوية والبروسية بتركيز مدافعها على مواقع وطرق مواصلات جيوش محمد على فى الشام حتى يضطر إلى التراجع ، أو تنقطع قواته فى الشام عن قواعدها فى مصر » .

ملامح مشجعة لحكم إبراهيم باشا :

لا شك فى أن حكم إبراهيم باشا فى بلاد الشام كانت له ملامح مصلحة وعادلة إذا قيس بالحكم العثمانى(170) بل كان متقدمًا ومستنيرًا من وجوه عديدة ، وقد أجمع القناصل فى تقاريرهم والمراقبون على امتداح مزاياه وإصلاحاته الزراعية والعمرانية وتوطيده للأمن وحسن معاملة جنوده .. كما يسر للشعب أن يصبح على علاقة مباشرة بالدولة ، ودربه على شل أيدى مأمورى البلاد من مشايخ وأمراء(171) على عكس مجريات الحكم فى إقليم مصر تمامًا ، وحاول إرساء قواعد دولة حديثة منظمة . وأهم من هذا كله كانت حركة التنقل والاستيطان الداخلية التى تبعت الحرب . فجددت الروابط بين بلاد الشام والحجاز من جهة وبين مصر ، وما تزال أسر عديدة فى بلاد الشام تذكر أنها لحقت بجيش إبراهيم . كما كان ذلك سببًا فى استخدام محمد على للكثير من السوريين فى مصر فأحيا بذلك - دون تعمّد - الروابط الجنسية بصلات أدبية دائمة خاصة بين القطرين(172) .

إلا أن مقتل حكم « إبراهيم باشا » فى بلاد الشام كان فى أنه لم يقدم للناس ما يمكن أن يجتمعوا عليه ؛ ويمس شغاف قلوبهم ومصائرهم ، بقى سطحيًا توجهه الغربة ، أما إشراكهم فى الحكم ، على غرار ما حاول فعله بونابرت فى مصر ، بتشكيل الديوان ، فقد كان كثيرون فى بلاد الشام يشتركون فى الحكم فى العهد العثمانى . حتى لقد كان من سوريا وزراء ومن لبنان . بل وأسر متنفذة فى الآستانة نفسها كآل العظم وآل العابد وآل الكورانى وآل الصيّادى .. بخلاف ما ادعاه الذين أصابهم التعصب بالعمى ؛ وكثيرًا ما كان السلطان سلطانًا بالاسم فى بلاد الشام .. وكثيرًا ما كان الباشاوات ينشقون كما حدث فى حلب على جدران قصر الشيخ بإيران ولطالما شنق عليه باشوات بيد الأهالى . كما أحرقوا باشا دمشق(173) وأما ما قيل عن أضعافه لمركز الأمراء وشيوخ العشائر وكبار الإقطاعيين فإنه لم يكن يعتبر تحريرًا كما ذهب إلى ذلك كثير من المؤرخين- فقد كان أكثر أولئك من الرجال الأحرار الذى أبلوا فى مقاومة الحكم التركى . ففى مصر يسرت مركزية الحكم الشديدة وطبيعة نظام الرى فى الوادى ضرب الزعامات العشائرية ، الخطرة على محمد على ، وإحلال طبقة موالية للحكم محلها . أما فى بلاد الشام فلم تسمح طبيعة البلاد بذلك ، ثم جاء اعتماد إبراهيم باشا على طوائف معينة يزيد فى ثائرة الناس .

المـأسـاة

كانت هذه الثغرات منفذًا لدسائس الدول الأجنبية والدولة العثمانية للتحريض والتأليب وتسريب السلاح والمال فاندلعت الثورات . ومن المؤسف أنه أسبغ عليها صفة الثورات ضد «المصريين»(174) فدفع « المصريون » فى انسحابهم ثمنًا باهظًا .

فهل كان الغرب يريد من وراء فرقة الأقطار العربية أكثر من هذا ؟! .. لدينا مثل قريب : انفصال سوريا عن مصر ، الذى ظن بعضهم أنه تم بحركة شعبية ، فى حين أن الأيام كشفت أن الملك سعود دفع باعترافه (15) مليون جنيه استرلينى لتمويل الانفصال غير مصادر التمويل الأجنبية ، وتولى الملك حسين فى الأردن والدكتور مأمون الكزبرى فى دمشق التنفيذ بالنيابة عن دول الغرب ، هذا ما اتضح حتى الآن ، وسوف تكشف الأيام المزيد من مشاركات أوروبية أخرى فى التآمر .

هكذا لم تكن حروب محمد على سببًا فى تشتيت بعض الحركات التحررية ومراكز المقاومة ضد العثمانيين حسب ، بل أصبحت من العوامل التى استغلت لمعاكسة الفكرة العربية فى مصر وتأخير ظهورها وإبعادها عن مشاعر المصريين ومداركهم قرنًا طويلاً(175) ذلك أن الشعب فى مصر الذى لم يشعر أن حرب الحجاز وحرب الشام هى حربه . كان يمتعض من فكرة إرسال بنيه إلى ميادينها ليعود قسم كبير منهم مشوهًا، وليقتل قسم آخر ولا يعود إطلاقًا . والحرب كانت تعنى كثرة الضرائب، وكانت تعنى فقدان من يعمل ويجنى ويعول . لذلك نقم الشعب على حروب بلاده مع جاراته العربيات ، ونقم على مسببيها ، وكان يزيد فى نفوره ما وصل إلى أسماعه من أخبار الصلابة التى حورب بها أبناؤه ، وهى صلابة ذاق منها الجنود المصريون . فلما عادوا إلى ديارهم عادت معهم أخبارها وأشركوا فيها أقاربهم وأشركوهم أيضًا فى نقمتهم على تلك الشعوب محاربين فيها وغير محاربين . وغذى هذا النفور أن معظم الثائرين فى شبه الجزيرة وفى بلاد الشام كانوا من الطوائف الدينية غير السنية كالدروز والنصيرية - (علمًا بأن هذه الطوائف كانت فى تجربة الوحدة المصرية السورية برئاسة جمال عبد الناصر ، موالية ووقفت بضراوة ضد انفصالها) - أو من أصحاب ثورة فى الدين كالوهابيين . وقد استغل محمد على وأسرته هذه الحقيقة، وأثاروا الرأى العام الإسلامى ضد أتباع هذه المذاهب، واستغل الاستعمار ذلك لتعميق الكراهية(176) إذ إنها سببت فى « انشقاق عقائدى بين الأجزاء الآسيوية والأجزاء الإفريقية فى العالم العربى لم يلتئم حتى اليوم ، وكانت له نتائج بعيدة المدى . لأنه وقع فى زمن كان العرب يجتازون أثناءه مرحلة من مراحل نموهم »(177) ومن يراجع تتابع التاريخ والأدب ، فى القرن الماضى يجد تحاملاً كبيرًا على تلك الطوائف وعلى معتقداتها وعلى أتباعها، ومازالت «الدرزية»، مثلاً من أكبر الشتائم فى مصر إلى الآن .. وبهذا تحققت أول وأهم أمانى الدول الاستعمارية فى فصل مصر عن سائر أقطار المشرق العربى . لقد أظهرت لها حروب محمد على من جد ما يكمن فى المنطقة من احتمالات وقدرة مصر على دفع القوى العربية الغافية إلى المسرح .

وفى الشام كانت نتائجها أبعد أثرًا. ما زالت البلاد تعانى منها حتى اليوم ، إذ بتشجيع إبراهيم باشا للتجار الأجانب وللمبشرين والمدارس التبشيرية ، بما منحهم من تسهيلات ، وفر للغرب الوسائل

لتعميق التفرقة بين الطوائف « مكن لدسائس الدول الغربية فى أن تهيج الطوائف بعضها على بعض ، وأخذت الامتيازات الطائفية تزداد بدلاً من أن يلاشيها انتشار العلم والحضارة. ففى 1842 اضطر السلطان أن يمنح جبل لبنان بعض امتيازاته ، كما استجاب لضغط الدول الأوروبية لأن يكون للوالى العثمانى نائبان ، مارونى ودرزى ، واستغلت إنجلترا هذه السياسة الطائفية الحادة فانفردت بالإيعاز للدروز أن يطالبوا بأن يكون لهم وحدهم السيادة المحلية فى القرى المختلطة ، حتى لقد وصل التقسيم الطائفى إلى كل قرية فيها موازنة ودروز . ثم أثار رسل الدول الأجنبية فلاحى شمال لبنان بالانقلاب على الملاّك المارونيين ونهب أموالهم واقتسام ضيعهم وأملاكهم، وفى جنوب لبنان أوعز هؤلاء الرسل والقساوسة الأجانب إلى الفلاحين بالامتناع عن دفع إيجار الأرض إلى أصحابها الملاّك الدروز(178) فلم تلبث مذابح عام 1860 أن جرت بين الفريقين حيث قامت الأكثرية بتقتيل الأقلية . ففقد الطرفان بالنتيجة استقلالهم .

العـزلة المستحيلة

وهكذا تمكنت إنجلترا فى عام 1840 من أن تقود الدول الكبرى إلى فرض معاهدتين على محمد على ، بعد هزيمته : « أولاهما خاصة بحقه فى ولاية مصر ووراثتها فى خلفائه من بعده ، وكانت أهم بنودها ثلاثة بالترتيب التالى :

1 - وقف عملية التصنيع الكبيرة التى كان مندفعًا إليها .

2 - تقليص حجم الجيش المصرى إلى الحد الكافى لحفظ الأمن داخل مصر .

3 - فتح مصر للتجارة الدولية بدون عوائق أو قيود »(179) .

وبوصول محمد على إلى تحقيق مراده من حكم مصر الذى راح يحلم به منذ صدور فرمان مهمته للانتقال من قونيا إلى مصر ، وقعت الدول الغربية صك عزل مصر وتقييد حركتها داخل حدودها بغرض قطع التواصل بينها وبين أجزائها من الأمة العربية ، لا للحيلولة دون تنميتها فقط. بل من وجهة نظر ما يتلو من التاريخ ، للحيلولة دون احتمالات قيام وحدة عربية والتعاضد ، إن لم يكن العمل على خلق تناقض بين تطور أقطار الأمة العربية ، يباعد بينها نهائيًا. فدول الغرب المتنافسة فى نهوضها للاستعمار ، شديدة الحساسية والوعى بنمو القوميات كانت على شبه يقين من خلال ما يصدر عنها إلى أقطار العالم غيرها ليشكل طليعة لامتداداتها من أنه لا يريد أن يخلق فى هذه الأقطار تناقضًا .. وهذا التناقض قد يؤدى إلى أن تتشكل من خلال تطورها إلى أمم بارزة المعالم بعضها عن بعض على غرار ما حصل فى أوروبا نفسها .. بعد القرن الخامس عشر .

ومن التعرف على مجريات الأمور فى مصر بعد انكفاء محمد على إليها نفسه دليل صارخ على أنه لم يرد فى حياته ، تحديث مصر أو العمل على النهوض بها . فالمفروض فى هذا الانكفاء أن الأعباء قلت ، وصار عليه أن يلتفت إلى التنمية فى الداخل ، ولكن الملاحظ أننا لا نلمح أية مبادرة لذلك من جميع الجهات بقية حياة محمد على وطوال عهد أسرته ، إلا ما تفرضه الضرورات .

وكان الخطأ هو اعتبار التجربتين تجربة واحدة .

التعليـم

الغزو بالتعليم أيضًا

من الملفت فى تاريخ التعليم فى مصر أن تقاطر الإرساليات الدينية الأجنبية إليها كان متوافقًا ، فى دولة محمد على مع تناقص عدد المدارس الحديثة التى أنشأها . ففى خلال قرن من حكم أسرة محمد على وفدت إلى مصر ثلاث وعشرون إرسالية نسائية كاثوليكية ، وحوالى هذا القدر من إرساليات الرجال . فتنوعت هذه الجاليات كما تنوعت مدارسها وتعددت(180) .

كانت أقدمها علاقة بمصر هيئة الفرنسيسكان التى تأسست عام 1209 وأنشئ لها قسمان: أحدهما يشرف على إنشاء الكنائس والمدارس فى الوجه البحرى Custadie de terre Sainte عام 1217 وآخر ويسمى إرسالية مصر العليا ، ويشرف على إنشاء الكنائس والمدارس بالصعيد . وظل نشاط هذه الهيئة على ما يبدو محدودًا أو متسترًا حتى عام 1732 عندما ظهر فى أول مدرسة إيطالية أنشئت فى حى الموسكى . إلا أنها نشطت مع التغلغل العربى فى مصر والنشاط الرأسمالى فافتتحت فيما بين عامى 1855 و 1877 أكثر من ستةعشر مدرسة فى مختلف عواصم القطر ، ومعهدين وكلية واحدة فى القاهرة وفى الإسكندرية(181) .

ومنذ عام 1855 بدأت الإرساليات البروتستانتية الأمريكية إنشاء أولى مدارسها بالقاهرة، وفى العام التالى أنشأت مدرستين لها بالإسكندرية . إحداهما للبنان والأخرى للبنين ثم افتتحت عام 1860 مدرسة للبنات فى القاهرة، وأخذت مدارسها تتزايد حتى بلغت فى عام 1896حوالى مائة وثمانى وستين (أو تسع وستين) مدرسة تابعة للإرساليات مباشرة ، أو بطريق غير مباشر منها 133 للبنين و35 للبنات وبلغ عدد التلاميذ فيها 11014 تلميذ وتلميذة(182) .

ولم يأت عام 1875 حتى كان هناك 38 مدرسة كاثوليكية يتبع البعثات الأمريكية 36 منها (19 إنجيلية) ومعهد لاهوتى فى أسيوط (1865) ومدرسة تبشيرية إنجليزية و7 مدارس لليونان ومدرسة واحدة للطليان و3 للألمان ومدرستان مجانيتان وعامتان و35 مدرسـةعلمانية و8 مدارس لليهود وواحدة للأرمن و3 للموارنة السوريين و25 مدرسة للقبط . وكانت هذه المدارس وحدها تضم 18.916 طالبًا(183) .

وكان من الطبيعى أن يزداد عدد هذه المدارس الأحنبية والخاصة فى ظل الاحتلال خاصة الإنجليزية منها . فقد أنشئت ثمانى عشرة مدرسة إنجليزية رئيسية كبيرة فى كل من القاهرة والإسكندرية وبورسعيد(184) .

ولم يأت عام 1936 حتى أصبح فى مصر 410 مدارس أجنبية ، فضلاً عن المعاهد والكليات، تابعة لسبع جنسيات ، تضم 71.750 طالبًا وطالبة (37.945 ذكور و33.805 إناث) فيها 3874 مدرسًا ومدرسة أجانب (135) فضلاً عن المدارس الخاصة وعن المدارسالطائفية . فقد كان لليهود - مثلاً - أكثر من خمس وعشرين مدرسة ابتدائية وثانوية وحرفية(185) .

كانت هذه المدارس ما تكاد تفتح أبوابها حتى تحيط نفسها بلوائح وقواعد تجعلها لا «تقبل إلا نوعًا معينًا من الطلبة وطبقة معينة من الناس ولا تتعداها إلى سواها من الطبقات»(186) ، بل كانت تتخير من نفس الطبقة وسطًا معينًا لا كل أطراف الطبقة . وقد تراها تختار ولدًا فقيرًا أو يتيمًا فترعاه وتعهده كنموذج لبرها وإنسانيتها ، تأليفًا للناس من حولها . ولكن ذلك لا يخرجها عما رسمته لنفسها . ولا تحيد عن مناهجها وسياستها التعليمية التى تستمدها ، على وجه العموم من الدولة أو الهيئة التدريسية الرئيسية التابعة لها. فتلك الدولة ، كما ترتبط بامتحاناتها العامة . فالمدارس الإنجليزية مثلاً كانت مرتبطة بهيئة إكسفورد وبهيئة إكسفورد وكمبردج وبهيئة لندن ، وكان الغرض من ذلك حصول الطالب على الشهادة التى تمنحها الهيئة لتمكينه من الالتحاق بالجامعات الأجنبية التابعة لها(187) .

وهكذا ما لبث أن جعل ظهور الشهادات وارتباطها بالحصول على الوظائف بالدولة وفى الأعمال الحرة ، من هـذه المدارس ، المســتقبل المشرق الذى يتوق إليه كل طموح . بل وعاملاً هامًا للضغط على التعليميين الأهلى والحكومى - على ما هما من الضعف والتردى - للتكيف مع مناهج هذه المدارس للإيفاء بالحاجات الجديدة . وكاد انتشار المؤسسات الاقتصادية الأجنبية واعتمادها اللغـات الأوروبية أساسًا لمخابراتها ، فضلاً عن وجـــود « القلم الأوروبى » فى الدولة « وقلم الترجمة » والمحاكم المختلطة ، يحصل فى هذا التعليم مفتاح النجاح والتقدم . وأصبح دخول المدارس الأجنبية الوسيلة للحصول على المركز الهام فأقبل الناس يتزاحمون على إلحاق أبنائهم بهذا النوع من التعليم ، وغدت المدرسة تضم تلاميذ من جنسيات متعددة مع غالبية مصرية(188) .

وإتقان اللغة الأجنبية وسيلة حضارية هامة ، خاصة فى العصور الحديثة. لكنه فى مثل ظروف مصر يصبح خطرًا . لأنه يتم على حساب اللغة القومية . إذ كانت العربية اختيارية فى غالبية هذه المدارس(189) . وكانت كل مدرسة أو كل زمرة من هذه المدارس مستقلة حرة التصرف لا رقابة للدولة عليها. بل تشكل « دولة داخل الدولة توجه النشء الوجهة التى تراها وتصيغهم بالصيغة التى ترغبها »(190) ففى غياب المؤسسات القومية وفقدان الروح القومية على هذا النحو تغدو اللغة الأجنبية هى السيدة بقيمها الحديثة فتنفذ إلى شخصية لم تتكون لها أو لأمتها بعد قيم حديثة . وبتعدد المناهل الثقافية تتعدد الاتجاهات . لذلك لم يكن غريبًا « أن نجد فى المنزل الواحد الأم ذات ثقافة أمريكية ، والأب ذا ثقافة عربية مصرية والابنة ذات ثقافة فرنسية ، والابن ذا ثقافة إنجليزية ، ولكل منهم تفكيره الخاص واتجاهه الخاص »(191) ، بل كان هذا التعليم « السر الأول فى هذه الفرقة التى نحسها فى ديارنا فى كل شىء »(192) .

حتى المناهج التى يمكن اعتبارها فى الغرب نفسه من عوامل التقدم الفكرى والتربوى - كعلمانية التعليم - تصبح فى بلاد كمصر وسيلة لتجريد الطالب باسم الليبرالية والتسامح وما إلى ذلك ، من مقاومته وصموده فى وجه الغزو الحضارى . فالدين بما يحتويه من قيم البلاد وثقافتها وعلاقاتها التاريخية هو الحصن فى وجه الغزو الأحنبى . والمدارس الأجنبية لم تكن فى هزيمتها للثقافة الأصلية تبذر الحضارة الحديثة ، لكنها كانت بتفتيت وحدة الشعب تمهد للمحتل وتمكن للطبقة الحاكمة . فقد كان هذا التعليم « يلقى كل عام فى خضم الحياة المصرية من يتقنون لغة وتاريخ وحضارة الدولة الغربية ، ولا يعرفون شيئًا عن وطنهم الذى يعيشون فيه .. وينظرون إلى غيرهم

من طبقات المتعلمين فى المدارس الحكومية نظرة متعالية ، وينظرون إلى اللغة العربية نفس النظرة(193) .

ولقد بات من الصعب فصل التبشير عن الاستعمار(194) وعن العنصر الاقتصادى إذ سارا جنبًا إلى جنب « وصار كل منهما متممًا للآخر فى تحقيق مطامع الدول التى أخذت فى الازدياد إلى درجة أصيبت معها الدول بحالات من الصرع أفقدتها قيمتها الإنسانية »(195) وكانت « رسالة فرنسا فى الشرق التى اختصتها بها العناية الإلهية » تعنى ذلك « الدور الإلهى » الذى فتح أمام تجارتها آمالاً براقة فى آفــاق الشرق حيث لم ير لمدة طويلـــة « إلا التجارة المدفوعة بزهــور الزنبق »(196) .

ولم تغب خطة المدارس الأجنبية فى « العمل على تفتيت الشخصية المصرية وتماسكها مع نفسها ومع جيرانها، وفى الإسهام جميعها دون استثناء بإضعاف اللغة العربية باعتبارها من أقوى عوامل هذا التماسك والارتباط »(197) عن بصيرة المفكرين . فانبرى الشيخ محمد عبده للكتابة والتنبيه فى ذلك(198) وكتب فرح أنطون فى العدد الأول من مجلته يدعو إلى إنشاء « مدارس جديدة تدخل إليها طرق التعليم الحديثة ووسائل التربية الحديثة ، وتدخل إليها قبل ذلك عناصر الأمة كلها فتربيها فيها على مقاعد واحدة وتلقنها دروسًا واحدة ومبادئ واحدة ، حتى تكون بعد خروجها من حياة المدرسة إلى حياة الرجولة بقلوب واحدة وأفكار واحدة . فإن هذه هى السبيل إلى تقوية جدار الوطنية .. وتعليم ما هو الوطن وما هى الأمة »(199) .

وأخطر ما فى هذا الدور الذى قام به فى هذا التعليم (التبشيرى والأجنبى) فى البلاد العربية ليس فى أنه كان يواجه « ثقافة متخلفة تقوم على فلسفة ميتافيزيكية فى عصر أصبح ينهج نهجًا علميًا، سلاحها السيوف والخيول والأذكار والدعوات .. »(200) فحسب ، شأن الثقافة الأوروبية فى جميع بلدان آسيا وأفريقيا . ولكن موقعها هنا ، فى البلاد العربية عامة وفى مصر خاصة يختلف لاختلاف العلاقات التاريخية بين هذه البلاد وبلاد أوروبا . فالإرساليات التبشيرية قد تكونت فى الأصل لمحاربة العرب والإسلام - كفرسان المستشفى إبان الحروب الصليبية - أو فى أعقاب محاكم التفتيش فى أسبانيا . ولا يمكن فصل تلك الحقب من التاريخ المرير عن تاريخ أوروبا الحديث . بل لعل ما فيها من مرارة جعلتها أبقى فى الذاكرة . فما يزال ما نجم عن تلك المعارك الكبرى التى جرت بين أوروبا المسيحية والعرب المسلمين من عداوات وشكوك وافتراءات « يؤلف جزءًا من التراث الأدبى عند كل واحد منهم »(201) فما بالك برجال التبشير !

يجمل مؤلف كتاب : « الطريق إلى السويس »(202) الصور التى مازالت تعمر ذهن كل مثقف أوروبى إلى عهد قريب فى ثلاثة :

الصورة الأولى : وهى التى رسمها جيبون فى كتابه «انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية» نتيجة لأصداء معركة تور أو بلاط الشهداء (732) التى يخيل للأوروبى أنه لم يبق إلا أن يسير العرب ألف كيلومتر ثانية فى أوروبا ليسيطروا على القارة .

الصورة الثانية: من خلال أساطير الفروسية فى أوروبا، وأشهرها أنشودة رولان فى رونسفو وهى أصلاً معركة (778) نشبت بين مؤخرة قوات شارلمان وعصابة من الباسك المسيحيين فى طريق عودتها من إسبانيا . إلا أن الباسك تحولوا فى القضية إلى مسلمين والمسلمون انقلبوا فيها إلى

وثنيين ، وبعد أكثر من ثلاثمائة عام استأثرت هذه الأسطورة بخيال المسيحية كلها خارج فرنسا وأصبحت هذه العقيدة حتى الآن من المحفوظات المفضلة فى جميع المدارس .

الصورة الثالثة : صورة الحروب الصليبية . فقد كانت الفكرة السائدة حتى ظهور كتاب ستيفان رانسيمان(203) إن الإسلام كان يعرض على السيف رقاب جميع المسيحيين الذين لا يعتنقونه، ولم يكن الاحتلال العربى للقدس « لا ذروة هذا التقطيع لرؤوس المسيحيين » وهذا ما دفع الصليبيين لإنقاذها من أيدى الكفرة . وعلى هذا الأساس طارت شهرة سيف جودفرى بودوان لدفاعه عن المسيحية . فى العالم الغربى ، فقد كتب مارك توين الكاتب الأمريكى الشهير ، بعد أكثر من ثمانمائة عام . يصفه ويصف شعوره عندما رآه فى رحلته إلى القدس فى أواخر القرن التاسع عشر . فقال(204) : « وكان الأثر الرائع الذى استهوانا جميعًا السيف القديم البسيط الذى كان يستعمله ذلك الصليبى .. وليس ثمة من فصل فى دنيا المسيحية يستهوى الناس كهذا السيف .. وليس فى وسعى أن أنسى سيف جودفرى القديم هذا بعد اليوم . وقد جربته فى شخص مسلم فمر فيه كما يمر فى العجين وتسلطت على روح الصليبيين ، ولو كانت لدى مقبرة قريبة لوددت أن أقضى بهذا السيف على كل من فى القدس من الكفرة » .

تلك هى الخطوط العريضة التى تكون عقلية الأوروبى عامة وتشكل نظرته إلى العرب . فما بالك بعقلية ونظرة الرجل التبشيرى الذى يأتى إلينا مزودًا برسالة تعليمية وتثقيفية ، سواء أكان هذا الرجل علمانيًا أم دينيًا . فإن مهمته الأساسية هى أن يصيغ العقول - من خلال قوالب التعليم والفكر الأوروبى - الموالية لأوروبا . وبالتالى المعادية ضمنًا وبصورة غير مباشرة للتراث العربى والثقافة العربية ، فإذا كان المطلوب هو التسامح ، والتسامح حق ، فلماذا يُطلب التسامح من طرف واحد .

الفصل الخامس :خرافة عمل محمد على العربى

لا يخافوا :

« لم أعمل فى مصر سوى ما عمله الإنجليز فى الهند . فلديهم جيش من الجنود الهنود يقودهم ضباط من الإنجليز ولدى جيش من أبناء العرب على رأسهم ضباط من الأتراك .. »

محمد على

لدى بوالكمت مبعوث الدول

الأوروبية إليه

جيش مختلط لخدمة الباشا

باجتيازه السلطة وفرض نفسه مالكًا فعليًا وحيدًا للبلاد وسيدًا لمصائرها الحيوية ممّا مكنه من وضع يده بصورة مطلقة على الموارد والثروات الاقتصادية . بات من الطبيعى أن يفكر ، لضمان بقاء هيمنته الراسخة على الأهالى ، فى تنظيم جيش قوى ، طبقًا للأساليب الحديثة(205) . وقد عاين فائدة ذلك ونموذجه فى جيش بونابرت أمام المماليك . وكشفت له الحملة الأولى على «الوهابية» : ضعف جيشه ، الذى كان خليطًا من كل الأجناس ، وإن كان أفراده ذوى قيمة شخصية كبيرة إلا أن النظام المتماسك ينقصه ، فى حين استطاعت الحملة الثانية التى قادها إبراهيم أن تقضى على الوهابيين باستسلام عبد الله بن سعود فى 5 أيلول 1818 بمعاونة الضابط الفرنسى القديم فى جيش نابليون ج.م.ف فسيير ، بفضل ما طبقه هو ومن معه من الفن الاستراتيجى العسكرى الحقيقى ، وكانوا قد تخلفوا عن الحملة الفرنسية على مصر واتخذهم حرسًا خاصًا له ، وأطلق عليهم اسم « المماليك الفرنج » .

وقد صادف تطلع محمد على للخبرات الحديثة وحاجته لبناء جيش حديث واستعداده للانفتاح على الحياة الجديدة فى أعقاب التصفية النهائية لنابليون ، ونجاح الأنظمة الرجعية فى «الحلف المقدس» ببعثرة وتعطيل عدد من الضباط الشباب أو من أنصار الثورة الفرنسية ، عن العمل ، فكانت مصر ، إلى جانب إيران وأمريكا ، التى فتحت ذراعيها لاستقبالهم . فوفد إليها من كان من أفضلهم كالبارون دارماندى الضابط السابق فى مدفعية حرس نابليون ، والكابتن ألار مساعد المترشال برون، وجوزيف سيف ، الذى أسلم فيما بعد وعرف تاريخيًا باسم سليمان باشا والذى خدم فى روسيا وغروش وواترلو، والكاهن دوم رافائيل وجول بلانا ، ولينان دوبيلفون وبول كوست وارن كلوت ، ولوفيير دوسوريزى والألمانين فيشر وبرونر والإيطالى لورنز ومازى واليونانيون تيودور، وميشال توسنيرا ، وجان دانا ستارى(206) ... فوضع هؤلاء التقنيون علمهم واندفاعهم فى خدمة والى مصر ، وكانت وسائلهم ذات فائدة فى تضبيع البلاد ، وبشكل خاص فى المؤسسات المتنوعة التى كانت تعمل على إنشاء جيش نظامى(207) . يشحذ حماسهم ما يتوهموه من عداء محمد على لبريطانيا .

كان جوزيف ستيف ، سليمان باشا يعاونه فرنسيون آخرون مثل بلانا ودومرغ وكادو وكيسون ورى وغونار ديغونور وفاران ، أهم العاملين على تنشئة الملاكات الأولى لقيادات ذلك الجيش . وقد أقيم أول مخيم لذلك فى القصبة ، قرب أسوان . حيث كان على ستيف أن كوّن من بين « بضع مئات من العبيد ، الأتراك والشراكسة والمماليك أول ضباط محترفين »(208) ثم تجاوز عدد العناصر الأجنبية القادمة من كل أرجاء أوروبا من فرنسيين وإيطاليين وأسبانيين وبروسيين بضع عشرات للقيام بالإرشاد وقيادة الفرق والكتائب الجديدة . وكان محمد على باشا يقول لمن يحذره ، على أثر وقوعه أحيانًا فريسة للخداع ، من الاختيار المتسرع : « إننى أعرف أنه بين الخمسين شخصًا الذين يأتون ليعرضوا على خدماتهم ، هناك تسعة وأربعون يمكن اعتبارهم حجارة كريمة مزيفة، إلا أننى لا أستطيع أن أكتشف الجوهرة الحقيقية الوحيدة بينهم دون تجربتهم جميعًا. إننى اشتريتهم كلهم، وعندما أكتشف العنصر الحقيقى بينهم فإنه يعوض على مائة مرة الخسارة التى سببها إلى الآخرون »(209) ، على عكس ما يظن الكثيرون كان هذا الجيش خليطًا من كل جنس

، « ولم يكن أبناء العرب مبعدين كل الإبعاد عن الاشتراك فى شؤون الحكم فحسب، بل كانوا مبعدين كذلك عن الخدمة العسكرية » وكان المجندون القليلون منهم يفصلون فى فرقة خاصة بهم، ويعزلون عن سائر الجند. ولم يبدأ رسميًا بتجنيد العرب إلا بعد حرب السودان(210) .

الآثار السلبية للتجنيد :

تمكن محمد على باشا من تجييش 276.643 جنديًا من عدد سكان مصر المقدر بـ 5.532.000 حسب إحصاء عام 1821 ، خاض بهم أمجد المعارك ، مع أنه لم يكن فى ذلك أقل استبدادًا منه فى الاحتكار وامتلاك الأراضى، وكيف به لو كان مندمجًا بالشعب ؟ ومن المهم هنا أن نذكر كيف كان يجند أفراد هذا الجيش . الباشا فى حاجة إلى الجنود .. فلتذهب إحدى فرق الجيش إلى إحدى المدن أو القرى لتقوم بعملية التجنيد ، وهى عملية بسيطة سهلة . ينقض الجنود على الأهالى ويلقون القبض على من يصادفونه من الأهالى الذكور فيشدون وثاقهم ويسوقونهم إلى « البندر » وفى البندر تبدأ عملية الفرز فورًا . إذ يمر الطبيب على هذا الحشد الكبير فيلقى نظرة عجلى على المجندين فمن رآه لائقًا للخدمة استبقاه وصرف الباقين .

ولم تكن هناك حالات يعفى فيها أحد من التجنيد كما هو الشأن الآن، ولم يكن نظام البدل المالى معروفًا ، ولذا فإن الأهالى كانوا لا يكادون يسمعون خبر حاجة « الباشا » إلى جنود أو يرون فرقًا من جيشه تتجه صوب إحدى المدن أو القرى حتى يهجرها رجالها وفتيانها ، ويقضون فى الوهاد والمغاور أيامًا وأسابيع إلى أن يبرح الجنود البلدة إلى أخرى . وفى هذا ما فيه من تعطيل الحركة الزراعية من جهة ، واضطرار الوالى إلى تجنيد من كان من الواجب إعفاؤهم من الخدمة العسكرية لكبر سنهم وضعفهم من جهة أخرى(211) .

ولم يقف أثر التجنيد فى الزراعة عند حرمانها من السواعد القوية . بل إن الفلاحين لجأوا إلى تشويه أعضاء أولادهم منعًا لذهابهم إلى الجيش والأسطول ، وقد سرت تلك الروح فى الشباب حتى تحملوا عن طيب خاطر إتلاف أعضائهم ما دام ذلك موجبًا لبقائهم بين أسرهم بعيدين عن شبح الجندية التى لم يتعودوها من قبل ، ولا شك إن إتلاف الأعضاء من سمل الأعين وبتر أصابع الأيدى والأرجل وإسقاط الأسنان أنقص من كفايتهم فى العمل(212) .

ويؤخذ من مراجعة الوقائع المصرية حينئذ أن محمد على قد اتخذ عديدًا من الإجراءات للحيلولة دون ذلك ؛ من جهة كان يعمل على إعادة الهاربين إلى بلادهم، وقد تمكن فعلاً إلى إعادة بعضهم إلى العمل فى الزراعة(213) . ومن جهة ثانية كان يلجأ ، منعًا لإتلاف الأعضاء ، إلى أساليب مختلفة : أمر العطارين بعدم بيع سم الفار حتى لا يتمكن الأهالى من وضعه فى عيونهم فيتلفها كما أمر بإعدام بعض من تسبب فى إتلاف أعضائه أو أعضاء غيره ، وقرر إغراق النساء اللاتى يسملن عيون أولادهن قبل بلوغ سن الرشد ، وأرسل بعض من أتلف أعضائه إلى اللومان مدة حياته . كما كون فرقة من الجنود ممن فقد عينه أو إصبعه أو أسنانه(214) ، والسؤال الهام الذى يطرح نفسه هنا هو : هل يستطيع مثل هذا الجيش بقياداته الأجنبية » وجنوده المرغمين على أمرهم ، على هذا النحو . أن يحمل فكرة أو يتطلع إلى هدف أو يقوم بتغيير ؟

جيش محمد على فى نظر أوروبا :

ومع ذلك أثار هذا التغيير فى التجييش بإشراك العرب فى الجندية وحمل السلاح مخاوف أوروبا ، وذلك لئلا تبعث انتصاراته الباهرة على إيقاظ الروح المعنوية فى الشعب العربى والشعور بالقومية .. وخشية من « أن يجئ يوم يرغب فيه هذا الجيش العربى الخالص فى إقامة حكومة عربية ، ثم يعمد إلى المطالبة بتحقيق هذه الرغبة »(215) .

وكان أخطر وأشد ما أثار هذه المخاوف انتصاراته فى سوريا لقربها من المناطق الحساسة . بل لأنها هى نفسها إحدى البؤر الخطرة ، ولغلبته للجيوش العثمانية ، إذ لاحت لبصائر أوروبا خطورة إمكانية حلول قوة فتية مكان قوة خائرة متهاوية ، فاجتمعت الدول الكبرى حينئذ . وقد كادت الحرب تنشب بينها ، ولم يوقفها إلا تقديم فرنسا ضمانات بعدم الانفراد بتأييد سياسة محمد على ؛ ولقاء ذلك وافقت جميعها على إيفاد السفير الفرنسى البارون دى بوالكمت Baron de Bois le comte لدراسة الموقف وتقصّى الحقائق . وقد طرح دى بوالكمت المسألة التى كانت تشغل بال أوروبا حينئذ على النحو التالى ، فى مقدمة تقاريره ، قبل أن يجيب عليها ، قال : « هناك من ناحية أخرى أمر لا نستطيع أن نتكهن نتائجه ، ونعنى بذلك تلك الحروب التى وضعت أوزارها منذ عهد قريب ، وما سوف تبثه فى نفوس الأمة العربية من شعور بقوتها من جديد ، ويولّد فى أبناء العرب الرغبة فى أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم . وقد حلا لبعض القوم فى أوروبا أن يروا فى هذه الحروب انتفاضًا من العرب على الأتراك » ثم يجيب على هذا التساؤل : «غير أن ذلك لا يتفق مع الواقع فصاحب المشروع تركى . فكر فيه بعقل تركى ، كما أن الترك هم الذين تولوا قيادة العرب فى تنفيذه . وقد حارب هؤلاء العرب . لأن هناك من يقودهم دون أن يسألوا أنفسهم من هم ومن هو العدو الذى يدفعون إلى مقاتلته ، غير أن النصر كان حليفهم فى النهاية ، ولعل نشوة الانتصار تؤدى فى يوم من الأيام إلى تبدل حالتهم النفسية ، ولن يعوزهم حينذاك غير زعيم يقودهم . ولكن لم أر حتى الآن شيئًا من بوادر هذا التحول ، وسأضع نصب عينىّ ملاحظة هذه المسألة الهامة حين أزور جيش إبراهيم »(216) .

وقد تطوع محمد على نفسه بالإجابة لتبديد مخاوف أوروبا ، عندما لمح هذا القلق المثير من يقظة الروح المعنوية فى العرب. فى أحاديث دى بوالكمت، فقال له: «لم أعمل فى مصر سوى ما عمله الإنجليز فى الهند . فلديهم جيش من الجنود الهنود يقودهم ضباط من الإنجليز ، ولدى جيش من أبناء العرب على رأسهم ضباط من الترك، ولو خطر لكم أنتم أن تؤلفوا فى الجزائر فرقًا عسكرية من أبناء العرب لاحتذيتم مثالى، ووضعتم على رأسها ضباطًا من الفرنسيين »(217) ، بل على العكس كانت خشية محمد على من يقظة الروح المعنوية فى العرب لا تقل عن خشية أوروبا شدة وبعد نظر . كان يدرك دور العسكرية فى حياة العرب ، ولذلك حرص كل الحرص على ألاّ يدع أحدًا من أبناء العرب يرقى إلى رتبة اليوزباشى . فعندما طلب منه ابنه إبراهيم الموافقة على ترقية عدد من أبناء العرب الذين أبلوا بلاءً حسنًا فى حرب الشام إلى رتبة اليوزباشى كتب إليه يقول : « من المعلوم يا ولدى أن مثل هذا العمل تترتب عليه نتائج خطيرة ولو بعد مائة عام على مصير أسرتنا »(218) .

بداية تجربة لخلق طبقة وسيطة أجنبية :

من أجل خلق طبقة « أرستقراطية » ، كبعض الحكام الأوتوقراطيين المعاصرين ترتبط بالنظام الذى أقامه محمد على ، وتحرص على حمايته والذود عنه ، وتعمل على استمراره ، ويكون ولى نعمتها ، وبالتالى تحل من وجهة نظره محل المشايخ وسطاء الشعب لدى الحاكم ، أنعم الباشا بداية على عدد من الموظفين الأتراك ، والجند الباشبوزق ، وهم الجنود غير النظاميين، وكان أكثرهم فى بداية الأمر من الألبانيين ، وعلى عدد من الأوروبيين بأراضى الإبعاديات ، وهى الأراضى التى كانت خارجة عن زمام النواحى (القرى) وكذلك على نفر قليل من المصريين الذين اعتمد عليهم فى إدارة دفة الأمور فى البلاد ، ولم يكن لمعظمهم جذورًا فى المجتمع المصرى ؛ فاستمدوا مكانتهم فى البلاد من مصالحهم المادية التى كانت الحكومة تدعمها(219) .

ولأول مرة فى تاريخ مصر الإسـلامية ، وفى كافة أنحاء الإمبراطورية العثمـانية يمتلك الأجانب الأوروبيون أراضى . بل يملكهم الحاكم بنفسه ، لعل هذه الروح التساهلية ، هنا فى مصر الآن ، ثم فى سوريا غدًا هى مصدر مديح محمد على وصورته العصرية ؛ وقد أثارت إنعامات محمد على بالأراضى على الأجانب حنق المصريين . فتصدى رفاعة رافع الطهطاوى للدفاع عن هذا الموقف فقال : « ... إن العامة بمصر وبغيرها يلومونه غاية اللوم بسبب قبوله الإفرنج وترحيبه بهم وإنعامه عليهم ، جهلاً منهم بأنه حفظه الله إنما يفعل ذلك لإنسانيتهم وعلومهم لا لكونهم نصارى ..»(220).

وكانت هذه الطبقة التى ألفها محمد على حوله ذات صبغة عثمانية غالبة ، تترفع عن تعلم اللغة العربية ، إذ تعتبرها لغة الأمة المغلوبة على أمرها ، وترى أنها من سمو المكانة بحيث لا يليق بها علوم اللغة العربية ، وتعتبر نفسها طبقة الظافرين الفاتحين ، وازدهاؤها شديد بالفارق الذى تتخليه هكذا فاصلاً بينها وبين العناصر العربية . لذلك نراها لا ترتبط مع المصريين بصلة مبنية على قاعدة المساواة ، ولا تلتحم معها بلحمة المصاهرة(221) .

لم يقف محمد على عند حدود تمليك الأجانب ، وإنما أخذ يشجع الممولين الأجانب على الاستثمار فى إنشاء وسائل النقل والمواصلات ، وهى أمور كانت تهم أوروبا كثيرًا . لأنها كانت تقربها من مستعمراتها ، وكذلك فى بعض ضروب النشاط الصناعى التى لا تمارسها الحكومة . وكان هذا التشجيع سببًا فى زيادة عدد المنشآت التجارية الأجنبية الكبيرة من 16 فى عام 1822 إلى 44 فى سنة 1838(222) . وكان هؤلاء التجار عملاء الحكومة فى شراء حاجيات الجيش ولوازم المصانع . وهناك عدة وثائق تتضمن السماح لأرباب الأعمال بإنشاء مصانع فى مصر . فقد صدر « بيرولدى » سنة 1830 « بالتصريح لإحدى الشركات بحرق الطوب لعمل فابريقة للورق بمعرفتها » ومن قبل فى سنة 1820 صدر أمر إلى محافظة دمياط « بإعطاء النطرون إلى الخواجة بوجبتى بصفة التزام لتشغيله بمعرفته » وأمر بالتصريح للخواجة نيقولا لالننا التاجر « بفتح مصنع فى الإسكندرية لعمل قلوع السفن وحبال المراسى لمدة خمس سنوات على نسق أحد مصانع ليفورنة . على ألاّ يسمح لغيره بإقامة مثل هذا المصنع » وهناك أوامر تشير إلى « تشغيل الأحذية والمراكيب اللازمة للجنود فى مصر وفى أسيوط بمعرفة الخواجة جوانى ويوسف كنعان

» وإلى «مصنع الورق الذى أنشأه الذمى بيرين» وإلى « معامل النطرون التى يمولها الخواجة جورج ويعمل بها 300 شخص »(223) .

طمس معالم مصر العربية :

طيلة قرنين ونيّف ظلت أهداف دول أوروبا بعد أن تحولت من الدفاع إلى الهجوم بمواجهة الأتراك ، هى التغلغل بنفوذها فى اتجاه الإمبراطورية العثمانية ما دامت لم تتفق على تقسيمها . حتى جاء محمد على ، بدافع التودد إلى دول الغرب والتقرب منها بشكل أو آخر لإقامة مؤسسات ليبرالية لم تكن تعرفها الإمبراطورية العثمانية من قبل ، فعمل على إلغاء القوانين التمييزية التى كان «الرعايا» يخضعون لها، وعلى إشاعة حرية ممارسة الشعائر الدينية، والسماح بإنشاء المدارس التبشيرية وببناء الكنائس ، وإقامة البعثات التبشيرية ، كل ذلك يدعم بتوطيد الأمن فى جميع أنحاء البلاد . وشهدت البلاد ترحيبًا بالأوروبيين ، وخاصة أيام حكمه لبلاد الشام « من المسافرين والمستوطنين والتجار والمرسلين والمراقبين المستطلعين »(224) .

وكان النشاط التبشيرى فى بلاد الشام وفى فلسطين بخاصة، على أهمية هذه البلاد فى نظر الغرب ، محصورًا ومتعثرًا ، قبل حكم محمد عبر (1831 - 1840) بسبب عقبات كثيرة ، أولها وأهمها معارضة الحكومة العثمانية وعدم توفر الأمن . غير أن قيام كم محمد على فيها خلق المناخ المناسب لنمو الإرساليات التبشيرية وتزايدها. بل والتنافس بينها لخلو الساحة من غيرها. فمنذ بداية « الحملة المصرية » وجه قائدها العام بيانًا للسلطات المدنية والدينية فى فلسطين يطلب منها رفع القيود عن المسيحيين واليهود المقيمين فى البلاد والزوار الأجانب(225) وإذ سمح للإنجليز بافتتاح قنصلية لهم فى القدس ، بادرت هذه القنصلية بوضع اليهود تحت حمايتها ، علمًا بأن اليهود فى بريطانيا نفسها لم يتمتعوا بالحقوق السياسية والمدنية إلا فى عام 1890 - وقد جاء هذا الأمر متوافقًا مع نشاط موسى حاييم مونتغيورى الذأمّ فلسطين فى ظل حكم محمد على لتقوية الروابط مع اليهود المقيمين فيها، وافتتح لهم أول مدرسة، وحاول شراء بعض الأراضى فلم ينجح حينئذ(226) ونتيجة لهذا التسامح والنشاط ألغيت الرسوم المفروضة على الحجاج المسيحيين لبيت المقدس فى القدس ، وسمح لليهود ببناء كنيس لهم فى القدس، ومنحت جمعية يهود لندن التى تأسست عام 1809 حرية العمل للتبشير فى فلسطين(227) .

وما يؤخذ على محمد على ليس ترحيبه بالأجانب، ولا إلغاؤه للتميز بين مختلف المواطنين مسلمين كانوا أو أهل الكتاب ، وإنما أن يجرى ذلك ويتم على حساب أهل البلاد والوطن نفسه لكى لا يكون ذلك ، كذلك كان لابد من توفير التكافؤ أو الحد الأدنى منه من التعليم والخبرة والنوعية والإحساس بالقومية الواعية . ولكن الأهالى فى مصر ظلوا معزولين وسائر مؤسساتهم القديمة ، عن الحياة العصرية ، ولم يكن الحاكم يوليهم من اهتماماته إلا ما يتعلق بمصلحته الشخصية وبطاقاتهم الإنتاجية ، وعلى ضوء هذه السياسة نفهم إعجاب الغرب ومواليه بمحمد على من جهة، ومن جهة أخرى لماذا أراد المغامرون من كل الاتجاهات السياسية ومن كل الطبقات الاجتماعية ومن كل الأمم أن يجربوا حظهم فى هذا البلد ، أو أن يحاولوا أحيانًا وضع إمكانيات غير مستغلة أو مجهولة فى بلادهم الأصلية فى خدمة محمد على . وسرعان ما شكل هؤلاء المهاجرون جاليات تضم آلافًا مؤلفة من اليونانيين والمالطيين والإيطاليين واليهود ، إلى جانب العناصر الحاكمة من الأتراك والشراكس والألبان والأرمن ، ومن الخبراء الأجانب ، بحيث يمكن اعتبارهم حكومة طفيلية على رأس شعب منتج لا هوية له .

ولعل ما رواه الدكتور رشاد رشدى فى « يوميات مصرية بلا حدود زمنية » والبحث عن التاريخ يصور لنا ما انتهى إليه أسلوب محمد على فى حكم مصر أفضل تصوير ، حين أجاب على سؤال أستاذ التاريخ : من هم سكانٍ مصر ، بصورة عفوية من إحساسه اليومى وتجربته المباشرة ، بدون الرجوع إلى الكتاب ، صدفةً ، ذلك لأنه نسى مذاكرة الدرس فقال : « فقلت مرددًا السؤال، سكان مصر يا أستاذ ؟ قال : نعم ، أهلها ، أصحابها ، الذين يعيشون فيها ويمتلكون كل شىء .. هل تعرف من هم ، ومن أى الأصول ينحدرون ؟ قلت أعرف يا سيدى ، طبعًا أعرف .. وفكرت لبضع لحظات ثم انطلق صوتى بالإجابة وأنا واثق كل الثقة مما أقول .. إنهم الإنجليز والطليان واليونانيون والأرمن والمالطيون و ... لكنه لم يجعلنى أتم كلامى فقد قال وصوته ينم عن سخرية لم أدركها فى وقتها : ومن أيضًا ؟ قلت والمصريون طبعًا. مثلك يا سيدى ومثلى والتلاميذ وحضرة الناظر والفراشون .. »(228) .

الفصل السادس : أسطورة التصنيع

إن اليابان الحديثة بدأت تقدمها فى نفس هذا الوقت الذى بدأت فيه حركة اليقظة المصرية - التى كانت القوة الدافعة وراء عهد محمد على - وبينما استطاع التقدم اليابانى ، أن يمضى ثابت الخطى ، فإن المغامرات الفردية عرقلت حركة اليقظة المصرية وأصابتها بنكسة ألحقت بها أفدح الأضرار .

الميثاق المقدم

من جمال عبد الناصر

إلى

المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية

يوم 21 مايو 1962

فرض التصنيع والتحديث :

كان « مشروع » التصنيع هو أحد الجوانب الهامة ، الباعثة حقًا على الإعجاب بمحمد على . فشهرته الباقية ، ما يزال فيها الحديث ، حتى المعارضة ، جديدًا تصدر عن اعتباره « باعث » نهضة مصر الحديثة ، والتصنيع هو أحد الوجوه الهامة الحديثة ، بل الأهم ، لأى بلد على طريق التقدم والارتقاء حينئذٍ . ومن هنا ما يذهب إليه معظم الباحثين من إلقاء التبعة كلها فى فشل تجربة محمد على « الرائدة » على الاستعمار الغربى الناشئ ، ومقارنة ذلك بما تعانيه حاليًا بلدان «العالم الثالث» ، من مقاومة الاستعمار لتصنيعها .

لقد توفر لمحمد على ، بتحويل مصر إلى مزرعة تنتج لحسابه ، وباحتكار الصناعات القديمة وتحجيرها . وباحتكار التجارتين الداخلية والخارجية وبحرية منحها لنفسه فى جباية الضرائب وفرض القروض الإجبارية والتلاعب فى قيمـــة العملة(229) من « التراكم »ما لم يتـوفر لحاكم قبله ولا بعده ، وجاءت حاجته الملحة إلى جيش قوى وأسطول قوى لدوام حكمه وتحقيق أهدافه ، تتطلب إنشاء صناعة قوية يمكن الاستناد إليها فى تسليح الجيش . وقد بلغ عدد جيش محمد على أكثر من ربع مليون ، فكان من الطبيعى أن تنمو الصناعة وترقى للإيفاء بحاجته . وليس فى الارتباط بين الحرب والصناعة ما يدعو إلى الدهشة . إذ نجد فى تاريخ معظم الدول ، فى الأزمنة الحديثة ارتباطًا وثيقًا بين نمو الجيش وازدهار الصناعة ، بل وظهور المخترعات . مثلاً أثر حروب نابليون على تطور الصناعة فى إنجلترا من جهة وأثرها على بعض الابتكارات فى فرنسا كتطوير المدفعية ، ومراقبات تحرك العدو وعلى المناطيد : كما نلاحظ ازدهار الصناعة فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب الأهلية .. ونموها فى ألمانيا أيام التوسع الحربى الذى بدأ فى عهد بسمارك. ناهيك عما هو واضح الآن للعيان ولا يحتاج إلى برهان من تأثير الحروب على الصناعة فى جميع مستوياتها واتجاهاتها .

بدأ محمد على التصنيع سنة 1816 وأخذ الإنتاج الحربى يستأثر بنصيب الأسد فى عوامل الإنتاج ، فأنشأ ترسانة القلعة على أحداث الأنظمة المعروفة آنئذ وكان بها ستمائة عامل لصنع المدافع ، وزاد عد عمال هذا المصنع إلى 1500 فى عام 1833 وتراوح إنتاجه بين ثلاثة وأربعة مدافع شهريًا ، وفى سنة 1839 صار يدار بآلة بخارية قوتها عشرون حصانًا . وكان هناك مصنعان للأسلحة الصغيرة أحدهما فى القلعة والآخر فى الحوض المرصود ، وتراوح عدد العمال فيهما بين 900 و1200 وبلغ إنتاجهما من 600 إلى 900 بندقية فى الشهر ،وكان إنتاجهما يضارع إنتاج أحسن المصانع الفرنسية . وتوسع محمد على فى إنشاء مصانع البارود فى القاهرة والبدرشين وأشمون والفيوم . وكان إنشاء مصانع الأسلحة والذخيرة فى القاهرة سببًا فى لإنشاء المسابك ، وتوسعت صناعة الحديد لسد الحاجة(230) .

وكانت ترسانة الإسكندرية أهم المنشآت الحربية . نظرًا للحاجة إلى الأسطول فى البحر الأبيض . وبنى ترسانة فى ساحل بولاق ثم ترسل أجزاء السفن إلى السويس لتجميعها حيث « يركبها الصناع سفينةً ويبيضونها ويلقونها فى البحر »(231) ، وجرى إقامة المصانع المكملة لترسانتى الإسكندرية وبولاق فى أماكن متعددة .

كذلك كان توسع صناعة الغزل والنسيج نتيجةً لازمة لازدياد حاجة القوات المحاربة إلى الملابس القطنية والصوفية والأغطية والسجاجيد . وكان الجزء الأكبر من إنتاج « فاوريقة » الطربوش يخصص للاستعمال العسكرى . كما ألحق بها مصنع ومصبغة « للعباءات اللازمة لعسكر الجهادية » .

وكانت سياسته فى جميع ذلك تقوم على إنتاج معظم ما يحتاج إليه محليًا . فكان يطلب إلى المسابك والترسانات صنع الآلات على نمط الآلات المستوردة .. وأن تكون السفن والمراكب بهيئتها وصورتها وسائر آلاتها وأدواتها موافقة لسفن الإفرنج الحربية .. وعندما زاد استعمال المبارد فى المصانع والترسانات عهد الباشا إلى بوغوص بك « باستيراد الآلات التى تصنع المبارد من لوندرة واختصاصى فى صنعها . لأن استهلاك المبارد فى المصانع بلغ مقدارًا كبيرًا يتعذر معه استيرادها من الخارج »(232) .

وهكذا بفضل خبرات هذا الإقليم العربى الذى سيطر عليها واستغلها الاستغلال الكامل المكمن ، حينئذ ، والطاقات المحبوسة التى جندها . والصناعة التى أقامها واحتكرها وحجّرها للإيفاء بحاجته ، وتوفير الحد المطلوب من الاعتماد على نفسه .. أتيح لمحمد على ما لم يتح لغاز أجنبى ، ولا لوال عثمانى من قبل ، ففى أقل من عشرين سنة تمكن من اجتياح الحجاز ونجد وزحفت جيوشه إلى السودان واستولت عليه ، وسيطر على موانئ البحر الأحمر وأخمد ثورة اليونان بالنزول على أرض شبه جزيرة المورة واحتلالها والاستيلاء على أثينا ولو لم تتحالف أساطيل الدول الكبرى جميعها على أسطول إبراهيم وتأخذه على حين غرة ما استطاعت أن تكسره .. وفى شهور اجتاح بلاد الشام وهدد القسطنطينية وعقدت المقارنات بينه وبين نابليون.. إلا أن هذه القوة الهائلة لم تستطع الصمود عندما أسخط امتداد سلطانه من السودان إلى الأناضول الدول الأوروبية الكبرى، وبخاصة إنجلترا . وكاد تدخل إنجلترا والروسيا والنمسا وبروسيا أن يسقطه لولا وساطة فرنسا للإبقاء على سلطته فى مصر مقابل جلائه عن شبه الجزيرة العربية وعن سوريا ، وتقليص جيشه إلى 18.000 وإلغاء أسطوله . ولم تفد قوته إلا شيئًا واحدًا مباشرًا إذ إنها أعطت دول أوروبا المتعطشة إلى الاستعمار الدليل العملى القاطع على إمكانيات هذا الوطن العربى إذا استقل وإذا استعاد ماضيه وقدم لها ما يعزز مخاوفها .

تلاشى فرص التصنيع :

ذلك أن محمد على أقام « نهضة » على هامش البلاد ولم تكن من البلاد وللبلاد .

حقيقةً انه أوفد طلابًا إلى أوروبا ، وحملهم على ترجمة المؤلفات التقنية بعد عودتهم وأنه أسس مطبعة لطبع الترجمات ، وأصدر جريدة رسمية لنشر نصوص المراسيم والقرارات . « لكنه لم يكن يرغب فى أن يكتسب الطلاب من المهارة فوق ما هو ضرورى لمصلحته » فكان يضعهم تحت المراقبة الدقيقة ، ويرفض السماح لهم بالتجول خارج مراكز دراستهم للتعرف عن كثب إلى الحياة فى البلاد التى يدرسون فيها(233) . وكان معظم تلاميذ المدارس والبعثات الأولى من غير المصريين العرب . وكان أعضاء ديوان المدارس ، ما عدا رفاعة رافع الطهطاوى (مدير مدرسة الألسن) جميعهم من الأجانب وهم : كلوت بك مدير مدرسة الطب والكولونيل كتانى بك ويعقوب أرتين بك مدير مدرسة الإدارة واسطفان أفندى وفارين ، مدرسة الخيالة ، وهكيكيان ، مدرسة البولتيكنيك ، ولامبير مدرسة المناجم وهامونت ، مدرسة العلم البيطرى ودوزول سكرتيرًا عامًا(234). ويرأس هذا الديوان تركى يمت بصلاته فى غالب الأحيان إلى الأسرة الحاكمة .

ولم يكن قصور قدرات الناس هى التى حالت دون كفاءتهم ولا دون وجود كفاية من المدربين لإنجاح الصناعة ، ولكن حال نظام الاحتكار دون اجتهادهم وخلق التنافس بينهم فى مجالات عديدة ، ومع ذلك عندما طلب إلى المسابك والترسانات صنع الآلات « على نمط الآلات المستوردة » نجح عمال مصنع بولاق فى « تقليد ماكينات كبس القطن » و« ماكينات البخار التى احتاج إليها أحد المصانع بقوة خمسة أحصنة » وفى « صنع آلات مماثلة آلات عصر وتكرير السكر التى استحضرها خبير القصب من بلاده »(235) وكانت ورش الترسانة تصنع المكابس اللازمة لفابريقة الطربوش وأنوال النسيج ، وأمشاط الغزل ، وتصليح العطب الذى يصيب آلات المصانع فى القاهرة والأقاليم ...

كان من الطبيعى أن يؤدى فقدان الثقة بين الحاكم والمحكومين ، بين محمد على والأهالى -بصرف النظر عن طبيعة الحكم - إلى تزايد اعتماد محمد على على الأجانب والخبرات الأجنبية فى جميع المجالات التى تشكل مصادر قوته وتمكن لنفوذه ، وهذا ما آل بالتالى من جهة إلى الخلل بين طاقة الاستيراد والقدرة على الاستيعاب . فكثيرًا ما كان مصير الآلات هو التخزين والإهمال لتعذر من يحسن استعمالها وإدارتها. كما عرضت آلات وأنوال صناعة الحرير للبيع بسبب «عدم وجود أسطوات يعرفون استعمالها»(236) ، ومن جهة أخرى إلى استفراد الأجانب بالمواطن الحساسة فى إدارة البلاد وتنميتها ، فيقتنصون الفرص عند الاقتضاء لعرقلة سير الأمور . وفى الوثائق أن الخبراء الإنجليز يتهمون الفرنسيين بالغش والخداع ، وأن الفرنسيين يكيلون التهم للإنجليز . والواقع أنه لم نكن ثمة من جهة أفضل من الأخرى .. فالوثائق تعلمنا أن الباشا طلب « مذاكرة قنصل إنجلترا بشأن محالج القطن المستوردة ، ولم تكن صالحة ، وكانت تكسر بذرة القطن ، ولما كان يتعرض له من دسائس لعرقلة إنشاء المصانع والترسانات » .

وقد أصدر الكاتب الفرنسى لوفيرنى Louvergne عام 1829 كتابه «ذكريات من اليونان أثناء حملة 825 » ينقل فيه للفرنسيين الذين يساندون محمد على مخاوفه من طموحات محمد على

مستندًا على حواره مع الخبراء الفرنسيين ، وخاصة مع الكولونيل سيف (سليمان باشا) جاء فيه : « .. ولكن ما أخافنى بصفتى فرنسيًا ، هو تصورى لباشا مصر هذا ، الذى يملك حاليًا خمسين مليونًا من العائدات فى المستقبل البعيد ، وقد ارتبطت به كل الأمم ، ليس فقط عن طريق منتجات أرضه . بل أيضًا عن طريق هذه المنتجات نفسها بعد تصنيعها . أخذت مراكبه الرائعة تنشرها فى كل أسواق لأوروبا ... »(237) ولاحظ بوغوص وزير خارجية محمد على، والموالى للإنجليز : « أن بريطانيا لا يمكن أن تتمنى لمصر أن تكون قوية ومستقلة عنها »(238) .

هنا تكمن مسؤولية محمد على كبطل عثمانى من جهة وكحاكم منطقة عربية ذات موقع هام وحساس على طريق الهند بالنسبة لإنجلترا وعلى طريق أوروبا إلى مواطن استغلالها وتطلعاتها إلى الاستعمار . كما أنها قلقة لحماية الأماكن المقدس فى فلسطين والحجاز . وتبرز جسامة هذه المسؤولية إذا ما وضعت فى مكانها التاريخى . فقد جاءت تجربة محمد على بعد تجربة بطرس الأكبر فى الروسيا للقيام بتحديث بلاده ، وقبل تجربة اليابان ، وبخاصة أن دول أوروبا لم تكن تواصت بعد على التفاهم والحرص على ألاّ تتسرب إلى دول غيرها فى العالم ، المخترعات والمكتشفات والمقومات التى تأسست عليها نهضتها وقوتها ، كما هو الحال اليوم .

ويجمع المؤرخون على أن أهم عوامل نجاح بطرس الأكبر فى الروسيا انه شرع بتعليم مواطنيه . وأن إنشاء المصانع الحكومية فى الروسيا لم يحل دون الاستثمار الصناعى الفردى . بل سهّل للمدخرات التى جمعها كبار الملاك الزراعيين والتجار لتجد طريقها إلى الاستثمار الصناعى، وكانت الحكومة تمنح أرباب الصناعة إعانات وقروضًا وامتيازات احتكارية ، وتفرض ضرائب حامية ومانعة على الواردات الصناعية المماثلة ، وأنشأت الحكومة عددًا من المصانع النموذجية ليقتفى الممولون أثرها ، وتتخلص من تلك المصانع عندما تبدأ الصناعات الفردية بالازدهار فسار نمو الصناعات الفردية جنبًا إلى جنب مع نمو الصناعات الحكومية ، وظلت الصناعات الصغيرة قائمة تزود السواد الأعظم من السكان بحاجتهم من السلع الصناعية البسيطة ، وعلى العكس من ذلك أدى قيام الصناعات الحكومية فى مصر إلى اضمحلال الصناعات الصغيرة ، وقد واجه كل من بطرس الأكبر ومحمد على صعوبات متشابهة إلى حد بعيد(239) ولا سيما صعوبة توفير الفنيين ، كلاهما لجأ إلى الاعتماد على الخبرة الأجنبية وتهيئة الكوادر اللازمة بالتعليم إلا أن بطرس الأكبر صرف جهوده إلى أولاد النبلاء والموظفين والكهنة ، وهم المرتبطون تاريخيًا بالروسيا ارتباطًا وثيقًا(240) فى حين كان محمد على يحرص كل الحرص على الابتعاد عن الاعتماد على أهل البلاد ، وأن لا يمكّن لأحد منهم ، وأن يصرف جهوده لتعليم الأغراب عن مصر والعرب ، والاستخدام المتزايد للخبرة الأجنبية . لذلك عندما تألبت عليه الدول لم يجد مفرًا من الإذعان ، ثم لم يجد فى البلاد من يحول إليه الصناعات . كان التعليم الذى أسسه ، على أهميته ، هامشيًا . لا لأن المجتمع فى مصر غير مؤهل . فقد كان متقدمًا بفارق كبير جدًا عن المجتمع فى الروسيا ، ولكن لأنه لم يشعر أبدًا بأن محمد على ونظامه منه وإليه . وكان أهم ما ميز اليابان التى فتحت أبوابها على العالم الخارجى بعد أكثر من نصف قرن من مجئ محمد على إلى مصر ، تلك الروح القومية ومشاعر الولاء التى تعصم الأمة من التردى ومن الانزلاق ، وكيف يتسنى لشعب مصر أن يحمى محمد على و«نهضته» بعد أن جرده محمد على من روح المقاومة التى انتصر بها على الفرنسيين ومن أرضه وصناعاته ومن كل حافز على التقدم وحوله إلى فلاحين أجراء.. ؟ ولم يكن اليابان حينئذ أكثر استعدادًا من مصر محمد على. فقد وصف ثيوسند هاريس الذى وصل

إلى اليابان عام 1856 كقنصل عام للولايات المتحدة ، المجتمع اليابانى «أنه الشئ الخامد الذى لا يتحرك» .

ولكن كما قال الإمام محمد عبده فى مقال له جرئ ، متسائلاً :

« ما الذى صنع محمد على ؟ لم يستطع أن يحيى لكن استطاع أن يميت ، كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ يستعين بالجيش ولمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحرب أجر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيسحقه ، وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأسًا يستقر فيه ضمير (أنا) . واتخذ من الحفاظ على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين . وتكرر ذلك منه مرارًا حتى فسد بأس الأهالى وزالت ملكة الشجاعة منهم . وأجهز على من بقى فى البلاد من حياة فى أنفس بعض أفرادها فلم يبق فى البلاد .

رأسًا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه و نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه » .

« أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه كان ورثه عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد إلا آلات له . يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأى طريقة وعلى أى وجه . فسحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال لتصير البلاد المصرية جميعًا إقطاعًا واحدًا له ولأولاده ، على إثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة »(241) ..

وجد محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر حاجة ظروف مصر إلى شخص مثله ، فالسلطة العثمانية تكاد تكون مشلولة . اضطرت إلى تبديل خمس ولاة فى أربع سنين ، والحملة الفرنسية بقيادة بونابرت لم يبت فى أمرها بعد وهى إلى جانب تهديدها للقطر ، ، تهدد فلسطين ودمشق من خارج أسوار عكا . والألفى يهدد باستقطاب المماليك المتخاذلين الذين يغرى تخاذلهم بضرورة وجود زعيم لهم . والإنجليز يشرئبون إلى الوثوب بحملة فريزر .. والشعب بقيادة عمر مكرم يتأهب بعد أن بعثت فيه مقاومته التجرؤ على الحد من التجاوزات .. ودول أوروبا جميعها بحاجة ملحة لطريق اقتراب برى إلى ثروات الشرق يغنيها عن رأس الرجاء الصالح وعن الطريق الشرقى فارس - اسطمبول ، وكلاهما مشقة وغير آمن . وكان محمد على ، بما زود به من قوة فرقته الألبانية المتماسكة ، المطيعة مهيئًا للدور المطلوب من جميع الفرقاء والمهيّأ . فاستطاع النجاح والثبات . إلا أن وكيله لدى السلطان لم ينجح - لا محمد نجيب ولا بوغوص - فى الحصول له على الاستقلال بمصر . وكان يلحف فى طلب الاستقلال بمصر فى حين يلحف السلطان عليه بطلب محاربة حركة محمد بن عبد الوهاب ووضع حد لامتدادها ، (إذ لا يجب أن ننسى أنها أصبحت تهدد العراق وتهدد بلاد الشام ، ففى العراق تغلغلت إلى جنوبه وفى الشام وصلت أطراف دمشق واعتنقتها بعض الأسر) . وأخيرًا عندما لم يستجب السلطان لمطالبه استجاب هو لعله فى تحقيق رغبة السلطان يلين لطلبه بالاستقلال بمصر . وهكذا قضى على حركة عربية ، من المؤكد أنها كانت سوف تعتق الأقطار العربية من الحكم العثمانى وتنقلها إلى مواجهة العصر والتاريخ والتطور ، وتقصّر من عمر الظلام العثمانى ، والذين يرون فى حركة محمد عبد الوهاب حينئذ سمات حركة « رجعية » متخلفة يغيب عن بالهم أن الحركة المعادية الداعية للتحرر من العثمانية المسلمة ، كانت لا يمكن أن تتقبل الإنجليز أو غيرهم من الأوروبيين المتطلعين إلى السيطرة .

ويغيب عن بالهم أن هذه الحركة عادت تسعى إلى الظهور للسيطرة على الحكم فى مطلع القرن العشرين للثأر لما حل بها على يد جيش محمد على ، مستغلة « خيالات » الدين فجاءت إلى الحكم بعقلية أشد رجعية : كانت فى بداياتها تطالب بفتح باب الاجتهاد . فجاءت فى مرحلتها أخيرة ناضبة من القدرة على الاجتهاد ، وقد وقعت بدافع الثأر فى أحضان مكتب « الهند البريطانى » واضطرت إلى قبول مساعدته .

وكان محمد على فى إرضائه لرغبات السلطان بإخضاع شبه الجزيرة العربية يعمل على تحقيق إرادة الدولة العثمانية الشائخة التى أصبحت تنازع وتتنفس برئتين أوروبيتين ، وتنتظر اتفاق الدول على تقسيمها ، وهو لا يدرى ، وهو يفعل هذا ، أنه من منظار التاريخ ، يعمل على تحقيق رغبات بريطانية، سواء أكان هذا بصورة مباشرة أم غير مباشرة . لذلك فإن القول بأن محمد على واجه تكتلاً أوروبيًا معاديًا قول تجانبه الحقيقة . والحقيقة أن محمد على كان حتى سيطرته على بلاد الشام يتواءم بتحركاته وصعوده مع تنفيذ رغبات دول أوروبا وتطلعاتها .

طموحات محمد على مناقضة لأمانى العرب

- 1 -

الحيرى بين الحرب لفرنسا والحرب للسلطان

وهذا وذاك ضد مصلحة العرب :

كان محمد على كأكثر رجال تلك الأيام الطامحين الذين تسوقهم الأقدار إلى مصر يحلمون بليلة القدر فيها . ولقد سبقه بونابرت إلى مصر فكانت أحلامه خليطًا ، بين تلبية مصالح فرنسا وتنافسها مع بريطانيا الذى لم تنطفئ حدته بعد وبين طموحاته فى أن يضاهى العظماء كقيصر والإسكندر ، وهيئ لعبقريته أنه يجد التربة الخام ، البكر فى الشرق ، ولكن سرعان ما تبددت أحلامه عند أسوار عكا - على الرغم من أنه ادعى الإسلام إيمانًا كما قال بصدق وصفاء تعاليمه وتقرب فى بياناته لخليفة المسلمين العثمانى . فهو وإن تستر وانطلت ادعاءاته ظلت الحملة الفرنسية فى نظر الناس فرنسية ، وواجهت فى طول البلاد وعرضها مقاومة شرسة . غير أن محمد على كانت هويته معه . فهو جاء إلى مصر باسم الإسلام وباسم « الخليفة » وقبل أن يصلها نشأت فى ذهنه فكرة القيام بدور فيها ، وبعد وصوله إليها بدأت تختمر فى ذهنه فكرة الاحتفاظ بها وما لبثت هذه الفكرة أن أصبحت محور أعماله فى سياسته الداخلية والخارجية جاهدًا فى إزالة العقبات ، عاملاً على التخلص من الخصوم وتذليل المصاعب(242) يرى أمامه دروسًا واضحة فى الحملة الفرنسية وحملة فريزر والألفى والمماليك . فاتجه بادئ ذى بدء إلى الغرب ويتعرف على ما يريد بينما كان يعد خطته للسيطرة فى الداخل والقضاء على القيادة الشعبية ؛ وعندما تأكد أن حكومات الغرب ليست فى وضع يسمح لها بتحقيق أمنيته فى مصر توجه إلى الباب العالى ، دون أن يقطع مع الغرب ، بل جعله ظهيره الدائم ، فبعث إلى وكيله لدى الباب العالى ، محمد نجيب أفندى بكتاب فى 25 تشرين الثانى (نوفمبر) 1810 تناول فيه مسألة الحكم الوراثى وبيان الفوائد التى سوف تعود على الباب العالى بأن تكون مصر حرة مثل أوجاق الجزائر والوجاقات الأخرى . إذ يكون فى حالة العداء بين إنجلترا والإمبراطورية العثمانية على وفاق تام مع الإنجليز حيث يستطيع الحصول على خمس أو عشرة مراكب كبيرة يتمكن من رفع علم الوجاق عليها فلا يجد تبعًا لذلك عقبة فى إمداد سكان القسطنطينية بالمواد الغذائية والذخيرة ، ومن جهة أخرى يسهل ترتيب « حملة الحرمين » وعندما تنتهى يستطيع السلطان أن يسحب ما منحه لإيالة مصر وان ينزلها إلى مرتبة ولاية « حيث أننى والبلاد فى الحقيقة ملك للسلطان »(243) ولكن الحظ لم يواتيه فى الحصول على موافقة السلطان رغم ما أوتيه من حنكة .

وهكذا تجاذبته احتمالات عديدة : منها الاتجاه نحو غربًا برقة وطرابلس(244) وقد فطن دروفوتى ، قنصل فرنسا ، إلى ما يرمى إليه محمد على من زواجه بأرملة واليها . فعرض عليه أن يقوم بفتح الجزائر لحساب فرنسا مقابل 28 مليون فرنك ، وكتب إلى رئيس وزراءفرنسا يشرح هذا المشروع الذى أسدلت عليه الظروف السياسية ستارًا من الصمت(245) ، بأنه « لتخريب مكامن هؤلاء اللصوص المسلمين بأيدى طائفة من أبناء دينهم عرفوا شيئًا من النظام الحربى ، واتصلوا

أكثر منهم بالمدينة »(246) ، غير أن محمد على ، بعد موازنة طويلة بين ما تقدمه هذه الاحتمالات لمصالحه لم ير بدًا من إرضاء السلطان . فكان قراره بالذهاب إلى حرب « الوهابيين » بمثابة خطوة تمهيدية للوصول إلى تأسيس الحكم الوراثى فى مصر . كما كان ذا أثر حاسم فى توجيه سياسته صوب الشرق .

* * *

- 2 -

في خدمة السلطان والإنكليز

كانت الدعوة الوهابية تقوم على أمرين أساسيين : أولهما أن الله لا يرضى أن يشرك معه فى عبادته أحدًا لا ملك مقرب ولا نبى مرسل والدليل قوله : (وَأَنَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ((سورة الجن- 18) وثانيهما أن من أطاع الرسول ووحّد الله لا يجوز له موالاة منحاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب ؛ والدليل قولـه : (لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ((سورة المجادلة- 22)(247) كما يستمد هذا من مبدأ « إباحة قتال المشرك المنكر » الذى يعاند ويقاوم الدعوة . وانطلاقًا من هنا اعتبر الذين آمنوا بالدعوة أنفسهم « المسلمين وأهل الإسلام وأهل الدين الحق والداخلين فى الإسلام » وهذا وحده يكفى لاعتبار الدولة العثمانية خارجة عن الإسلام تجب محاربتها وإجلاؤها . وقد سمى حسين بن غنام كتابه فى تاريخهم : «روضة الأفكار والإفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام» واعتبرت الدرعية مقر الدعوة وما والاها من المدن « منذ ذلك الحين » « دار سلام » - فى حين كانت الآستانة تعتبر هكذا - وأطلق على الذين امتنعوا على الدعوة وقاوموها « أهل الضلال والأهواء » ومواطنهم وما والاها من مدن « دار حرب» وأمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب جماعته بالجهاد و« بقتال أهل الضلال والأهواء »(248) .

وأهمية هذه الدعوة أنها جاءت بعد زمن مديد من سيطرة الترك على العرب ، العجم على العرب ، اللاحضارة على الحضارة ، باسم الدفاع عن الإسلام ، يأخذون وليس عندهم ما يعطونه ، وأهميتها أنها « اتخذت طابع حركة عربية صرف »(249) فكان الترك فى نظرها «أهل الارتداد والجحود ومغتصبى الخلافة اغتصابًا وحقها أن تكون فى العرب»(250) ؛ وقد انطلقت فى مقومات وجودها من واقع العلاقات بين العرب وغير العرب فى إطار الإسلام وبين العرب المؤمنين فكانت حينئذٍ « هى النهضة العربية الوحيدة التى نبعت من الداخل . لقد كانت أول خفقة حياة فى الإسلام الحديث »(251) لذلك تجاوبت معها الجماهير . إذ رأت فيها ما يعيد إلى الأذهان صورة الإسلام الحية الرائعة فى أيامه الأولى .. حيث كان القول والإيمان والعمل يؤلف وحدة متماسكة فى الشخصية العربية لا انفصام فيها وبتحريرها لشيه الجزيرة العربية وجعلها قاعدة لها أحدثت يقظة وحركة وملأت قلوب أتباعها بالإيمان ، وأصبحوا مستعدين للبذل والجهاد لنشر كلمة التوحيد »(252) وشدت إليها أبصار العالم العربى ومنذ عام 1790 أصبحت هذه الدعوة على جانب عظيم الشأن ، واتضحت خطورتها على الحكم العثمانى فى البلاد العربية قاطبةً : إذ تم لها الاستيلاء على نجد ، وأخذت تدق أبواب الأقطار المجاورة فحملت والى العراق عام 1799 على عقد معاهدة معها ، ثم جددت غزوها للعراق بعد سنتين فاجتاحت كربلاء . وما لبث رجالها أن

جددوا هجماتهم شطر الغرب والشمالفاحتلوا المدينة ومكة وغزوا بلاد الشام فوصلوا حوران على مشارف دمشق وهددوها كما هددوا حلب أيضًا »(253) من جهة بادية السماوة وكتب إمامهم إلى السلطان سليم الثالث يطلب منع محمل دمشق والقاهرة من المجئ إلى الحج . لأن ذلك ليس من الدين فى شئ . يذكر الجبرتى فى حوادث ربيع الثانى عام 1222هـ « إن سعود الوهابى وصل إلى مكة بجيش كثيف وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار ، وأحضر مصطفى جاويش أمير المركب المصرى وقال له : ما هذه العويدات والطبول التى معكم - يعنى بالعويدات المحمل فقال : هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عادتهم . فقال : لا تأت بذلك بعد هذا وإن أتيت به أحرقته . وأنه هدم القباب وقبة آدم وقباب ينبع والمدينة وأبطل شرب التنباك والنارجيلة من الأسواق وبين الصفا والمروة ، وكذلك البدع » .

ثم يعقب الجبرتى على ما راج على ألسنة بعض المغرضين بقوله « وذكر فيها ما ينسبونه الناس إليه من الأقوال المخالفة لقواعد الشرع ويتبرأ عنها » .

وباستيلاء الوهابيين على الحرمين ومنعهم الحجاج الذين على غير دعوتهم ، وبما أخذوا يهددون سلطة الدولة العثمانية فى أقطار العالم العربى المحيط بشبه الجزيرة العربية مباشرة والعالم الإسلامى .. اضطربت تركيا وترنحت « الخلافة » ولم يهل العقد الأول من القرن التاسع عشر حتى أصبحت هذه الدعوة - فضلاً عن استقطابها لأذهان الشعب العربى - قوة دولية تنذر بنتائج دينية وسياسية خطيرة وتهدد بقلب النظام القائم فى العالم العثمانى(254) . ولذلك أخذ السلطان يوالى طلباته لمحمد على ليحارب الوهابيين . فمن جهة كانت الدولة العثمانية عاجزة عن تجريد الجيوش التركية لتجتاز بلاد الشام إلى نجد والحجاز ، ومن جهة أخرى فإن دخول الجيوش التركية فى قتال واسع النطاق مع العرب قد يكون كاف وحده لتوحيد العرب . وقيام مصر ، كعبة العرب الثانية ، ولما لها فى العالم الإسلامى من مكانة بمحاربة الوهابيين يضفى على الحرب صفات عامة غير كونها حربًا بين الأتراك والعرب .

وفى عام 1811 استجاب محمد على أخيرًا لطلبات السلطان المتكررة منذ عام 1807 فأرسل حملة بقيادة طوسون ، ثم جهز حملة أخرى بقيادة إبراهيم فاستطاع أن يكيل للوهابيين ضربات قاصمة ، وتمكن فى عام 1818 من محاصرة عاصمتها الدرعية ثم احتلالها ، بعد أنرأى عبد الله بن مسعود ضعف جبهته وتفوق مدفعية إبراهيم عليها « فبذل نفسه للترك وفدى بها النساء والولدان والأموال فأرسل إلى الباشا وطلب المصالحة »(255) وتم الاتفاق بينه وبين إبراهيم على الشروط التالية :

1 - تسليم الدرعية .

2 - يتعهد إبراهيم بالإبقاء عليها وعدم الإيقاع بأحد من سكانها .

3 - يسافر عبد الله بن سعود إلى مصر ومنها إلى الآستانة(256) .

إلا أن محمد على لم يلتزم بشروط الاتفاق . فبعد تسعة شهور انقضت فى التنكيل والتعذيب وأسر أكثر من 400 من آل سعود وآل الشيخ أمد بدك الدرعية وحرقها ، وقد دفع إبراهيم ذلك عن والده بأنه كان ينفذ أوامر الباب العالى ، فى الحديث الذى نقله عنه الكابتن سادلرSadlier مبعوث حاكم الهند(257) .

إلا أن ما رواه الرحالة بركهارت عن بقايا البرج الذى شاهده عام 1815 مشيدًا من جماجم قتلى الوهابيين على الطريق إلى ينبع وقد بناه أحمد آغا الخازندار وما رواه الجبرتى عن أعمال جيش إبراهيم المختلط من نهب واعتداء على أعراض النساء(258) وما نقله كرومر عن لسان نوبار وما ذكره الدكتور أنيس صايغ عن تاريخ محمد على لكاتبين عاصرا الأحداث هما موريبه ومنجن ، .. لا يساعد على نفى الواقعة عن محمد على ولا عن إبراهيم نفسه « فقد أجمع هؤلاء المؤرخون والكتّاب على قسوة إبراهيم ، وأنه كات يلتذ لمنظر القتل وتقطيع الأوصال ، وكانت نفسه تنتشى برائحة الدم حتى ولو كان الدم المهدور عربيًا بريئًا(259) .

هكذا قضى محمد على باسم بلد عربى على ثورة كانت جميع حركات وهبّات القرن الثامن عشر فى العالم العربى ضد الحكم التركى تجد فيها « أكبر متنفس لها » ولقد كانت حينئذ تعبر عن تطلعات الشعب العربى بل والإسلامى. بدليل ما كان من أثرها فيما بعد عليهما. إذ تستطيع بها أن تقص أثر جميع الحركات الإسلامية الحديثة فى العالمين العربى والإسلامى . إذ استطاعت حقيقة أن تعبر فى آن واحد عن نزوع الأمة العربية إلى التحرر ، وتطلع العالم الإسلامى إلى التجديد فمن الإمام الشوكانى (المولود فى اليمن 1172هـ) إلى السنوسى فى الجزائر والمغرب وليبيا إلى الزعيم الهندى السيد أحمد صاحب الثورة فى شمال الهند .. فقد كانت دعوة رائدة كالنهر الكبير الذى تتفرع منه جداول صغيرة .. وفى مصر قاد محمد عبده اجتهاده وبحثه إلى الأساسين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب دعوته :

1 - محاربة البدع وما دخل على العقيدة الإسلامية من فساد بإشراك الأولياء والقبور والأضرحة مع الله .

2 - فتح باب الاجتهاد الذى أغلقه ضعاف العقول من المقلدين(260) .

وفى العراق كانت فكرتا العروبة والإسلام مختلطتين إلى حد كبير .. فقد كان دعاة الحركة العربية هم أنفسهم دعاة الحركة الإصلاحية السلفية .. ومن هذا يتضح لنا أن للحركة السلفية التى بدأت فى نجد أثرًا فى لفت أنظار العرب إلى حقوقهم التى سلبها الأتراك .. فقد كان أصحاب هذه الحركة يرون أن الأتراك أقل إسلامًا من العرب ، وأنه على هذا يجدر بالعرب أن يستقلوا . وهذا هو الاتجاه الذى سار فيه السلفيون فى العراق(261) . ومن هنا يتضح مدى خسار العرب فى ضرب هذه الدعوة ضربات قاصمة فى زمن كان الاستعمار الغربى يتربص بالعالم العربى من كل جانب .

والخلاصة أن هذه الضربة التى وجهت للدعوة الوهابية ، على هذا النحو ، كانت ذات نتائج بعيدة الأثر على حياة الأمة العربية ، وعلى مسار الدعوة الوهابية نفسها خاصة . فمن جهة أتاح ذلك للإنجليز الفرص لإحكام قبضتهم على الخليج . إذ أعطى سقوط الدرعية لحكومة بومباى «الفرصة التى طالما انتظرتها لإعداد حملة قوية ضد القواسم وللرد على إهاناتهم المتكررة للعلم البريطانى فى الخليج»(262) . ومن جهة أخرى فإن إعدام عبد الله بن سعود وتشتت جماهير الدعوة والمآسى التى نزلت بالمجاهدين ، وما ترتب على ذلك من إعادة آل الرشيد ، الموالين للأتراك إلى حكم الرياض - وهم خصوم آل سعود - قد حوّل النزاع فى المنطقة من نزاع عقائدى إلى نزاع عائلى على الحكم استغلت فيه دعوة محمد بن عبد الوهاب وما تمتع به « من منزلة دينية محترمة بين أفراد المجتمع النجدى »(263) لصالح الأسرة السعودية .

* * *

- 3 -

الحـرب ضد السـلطان

لم يدع محمد على سبيلاً للفوز بالاستقلال فى حكم مصر إلا طرقه . كالمفاوضات والمساومات مع الدول الأجنبية ذات النفوذ ومع السلطان نفسه : تأدية الخدمات المباشرة ، حرب الوهابيين ، حرب المورة .. ولكنه خرج « خالى الوفاض ، صفر اليدين » ، كما لم يصغ السلطان إلى مطالبته بمنحه سوريا تعويضًا له عن خسائره فى سبيل الدولة العلية . وعاد محمد على إلى الأسلوب التقليدى وهو إغراء السلطان بالمال بأن يدفع جزية سنوية كبيرة نظير فرمان إسناد حكم سوريا إليه .. ولكن دون جدوى أيضًا(264) . ولعل مرد عدم موافقة السلطان تعود إلى شكوكه بولاء محمد على إلى الغرب ، ولما نفذ صبره تعلل بما نشأ بينه وبين الجزار ، للرد على رفض السلطان القاطع بإجابة أى من طلباته ، وذلك بالزحف على بلاد الشام .

لقد فتحت بلاد الشام صدرها لجيش محمد على ، ولولا المقاومة العنيدة التى قابله بها والى عكا لما لقى تغلغله عقبات تذكر فى طول بلاد الشام وعرضها . إذ كان الأهالى يتلقونه بالترحاب ويؤازرونه(265) فقد زحف من عكا بسرعة خاطفة واحتل دمشق وهزم الجيش التركى بالقرب من حمص هزيمة منكرة ثم مزقه شر ممزق فى بيلان قرب حلب ولم ينته شهر يوليو (تموز) حتى استولى على بلاد الشام كلها بسهولة جعلت إبراهيم نفسه لا يصدق فيتوقع وراء ذلك كمينًا معدًا له فى الأناضول يقضى على أسرة محمد على(266) .

ذعر السلطان وخشى العاقبة ، وأرسل الرسل إلى محمد على ليفاوضه . وتنفيذًا لأوامر أبيه توقف إبراهيم عن الزحف لكنه بعد خمسة أشهر ، حين أخفقت المفاوضات وزحف نحوه جيش تركى قوى ، أعد ودرب لذلك ، عاود القتال وأحرز نصرًا مؤزرًا فتح له إلى القسطنطينية طريقًا غير محمية وتابع زحفه بنشاط حتى لقد سولت له نفسه إسقاط السلطان . إذ : « طالما يتربع على العرش السلطان محمود سوف لا نصل بقضيتنا إلى حل مقبول »(267) ومرة أخرى وردت إليه أوامر أبيه بالتوقف فامتثل . ذلك أن زحفه أثار ثائرة أوروبا فتدخلت وانتهى الأمر فى ربيع سنة 1832 إلى عقد اتفاق عين السلطان بموجبه محمد على واليًا على بلاد الشام . فتولى إبراهيم الحكم فيها نيابة عنه حتى وافت نهاية عام 1840 حين اضطر إلى الجلاء عن الشام تحت ضغط الدول الأوروبية نتيجة لإثارة الأهالى عليه .

الفرية الكبرى :

محمد على والأهداف العربية :

لم يدرس تاريخ محمد على وتاريخ أسرته دراسة موضوعية . كل من الدارسين كان يغنى على ليلاه. فرجال الغرب يشيدون فيه بتسامحه ، وبخاصة الدينى منه بالنسبة للتعصب العثمانى، ولكن لا نجد دارسًا له من وجهة النظر العربية .

لم تختلف حرب الشام فى دوافعها الحقيقية عن دوافع الحملة على الحجاز . بل كانت امتدادًا لها ، غير أنها كانت مبعثًا للكلام عن نوايا محمد على « العربية » وأهدافه العربية . وكان هذا الكلام يصعد بالتدريج مع صعود الفكرة العربية فى العالم العربى . فمن قائل بأن « حلم إقامة إمبراطورية عربية قد راوده سنوات طويلة قبل حرب الشام » حتى أنه يجعل دليلاً على ذلك «الثورات التى شبت فى دمشق ، والوفود التى جاءت سرًا إلى القاهرة تبذل العهود الوثيقة بنصرة أهل الشام وتأييدهم « وقائل بأنه هو وابنه إبراهيم صاحبا فكرة الجامعة العربية وواضعا الحجارة الأولى فى بنيانها »(268) . وهكذا أقحمت الوقائع التاريخية لخدمة التكتلات العربية التى نشأت نتيجة للسياسات الاستعمارية فى النصف الأول من القرن العشرين .. ولابد لنا ، فى محاولة من جانبنا لاستجلاء الحقيقة ، من الفصل بين الواقع التاريخى ، أى بين حقيقة الروابط القومية التى تربط الأقطار العربية التى فتحها محمد على من جهة ، وبين فطنة محمد على لاستغلال هذا الواقع والحقيقة لصالحه من جهة أخرى . بمعنى التلويح بذلك لدول أوروبا وإخافتها به بالكلام والمناورة للوصول إلى هدفه ، وهو تحقيق الحكم الوراثى لأسرته فى مصر وهو الهدف الحقيقى .

فالأقاليم التى فتحها محمد على أقاليم عربية . كانت دول الغرب على اختلافها تعى حقيقة روابط الوحدة بينها . فقد بنى بونابرت خطته فى حرب الإنجليز والمماليك والعثمانيين على إمكانية تحريض الشعب العربى لإحياء وحدته . فمن جهة كانت دول الغرب ، من قام منها على أساس قومى ، ومن لايزال يكافح لتحقيق وحدته القومية ، تدرك منطق التطور فى العصور الحديثة واتجاهه بالشعوب نحو وحداتها القومية إن عاجلاً أم آجلاً ، ومن جهة أخرى كانت حاجة هذه الدول إلى التجارة مع الشرق عبر البلاد العربية تعيد إلى ذاكرتها أحداث التاريخ الماضى، وتنبهها إلى أهمية البلاد العربية ، وبالتالى إلى خطورتها على مصالحها . ومن واقع التناقض بين دول الغرب وتنافسها الاستعمارى تقدمت النمسا بمشروعها لإقامة دولة عربية موحدة ، وأوفدت الكونت بروكشن أوستين فى مهمة خاصة إلى محمد على لتشجيعه على الإقدام على هذه الخطوة، فقدم له تفصيلاً فى مذكرته المؤرخة فى 17 مايو (أيار) 1833 مصحوبة بخرائط تبين حدود الدولة المرتقبة(269) . يذكر الأستاذ محمد رفعت وجـــودها بين الوثائق الرســمية فى مصر . ولم يكن هـذا المشروع مما توافق عليه دول أوروبا الكبرى ، ولا تظن أنه كان يدخل فى أهداف محمد على وابنه .

يجمل د. أنيس صايغ غايات محمد على ، من هذه الحروب ، كما وردت فى الجزء الثانى من المحفوظات الملكية بحسب تعابير محمد على نفسه « على النحو التالى : « إعادة الأمن إلى نصابه

، واسترجاع حقوق عزيز مصر ، وعمل الخير للأمة الإسلامية لخروج العثمانيين على الدين والشريعة ، وتخليص البلاد من الفساد ، ودفع المصائب التى أنزلها العثمانيون بالمسلمين ، وتوحيد كلمة المسلمين ، والمحافظة على شعائرهم وتقاليدهم ، وإبقاء العائلة ، وتأمين سلامة الحدود وخدمة الدين والدولة ، وإحباط مساعى خصوم العزيز وخصوم عائلته ، وتخليص البلاد من الظلم والغدر وخلع السلطان محمود ، وإطفاء نار الفتنة ، وإنقاذ الأمة الإسلامية من كارثة التشتت والاضمحلال ، وتخليص المسلمين من نير الظلم ، وتحصيل استراحاتهم ورفاهيتهم ، وتحديد الحدود ، وتأمين الضبط والربط »(270) . وإذ تلوح له بمرض السلطان فرصة الانتقال إلى مقر السلطنة حين يتجه التفكير إلى الوصاية على ولى عهده ، فيرتد تفكيره إلى تعبئة القوات للدفاع عن المسلمين إن عزم الروس الزحف إلى الآستانة . وعندما يعين خسرو عدوه اللدود ، لا يفقد الأمل بعزله ، ويظل يتوقع أن يدعوه كبار الدولة ، ويكتب إلى شيخ الإسلام وحكام الولايات مقارنًا بين ماضيه وماضى خسرو ولاينى يستعد أثناء ذلك للسير إلى الآستانة وترك مصر لابنه وهو لا يلحظ ما بين طموحه هذا إلى حكم الإمبراطورية ، وسعيه إلى الاحتفاظ بحكم مصر والبلاد العربية الأخرى من تناقض صارخ: « ولعله كان فى قرارة نفسه لا يرمى إلى أكثر من أن يعهد إليه فى القيام بشؤون السلطنة . على أن تنال أسرته مقابل خدماته إقطاعًا وراثيًا كالإقطاعات التى كانت تقرها نظم الحكم التركية منذ أن نشأت »(271) فقد أكد للكولونيل هودجس(272) Hodges إخلاصه لعرش الآستانة قائلاً : أما من حيث تأييد العرش التركى فمن أكثر حمية منى فى ذلك ؟ إن الشعب الملتف حولى يثور إذا حاولت أن أقلب ذلك العرش .

ويلاحظ صبحى وحيدة إن حديثه « عن الخلافة العربية .. كان يقل كلما كانت قواته تدنو فى زحفها من الآستانة بينما يكثر تأكيده للقناصل بأنه لم يفكر بالاستقلال عن السلطنة قط»(273). ولم يكن التلويح بإقامة دولة عربية أو الحديث عن الخلافة العربية ليعدو عبارات قيلت فى ساعة حماس أو غضب حملها المؤرخون - ربما لأغراض سياسية - أكثر مما تحتمل . كمثل قوله : « وابنى المنتصر سيتوجه فى أقل من عام ليحقق مقاصــدى على ضفاف دجلة والفرات لأنها حدود ثابتة للدولة التى أسعى فى إنشائها ... » أو قوله : « من جبال لبنان أجند جنودى فأدرب منهم جيشًا كبيرًا ، ولا أقف به إلا على ضفاف دجلة والفرات »(274) . وكان فى نفس الوقت يكتب إليه بعد الانتهاء من فتح الشام بأنه « يرى بأن المصلحة تقتضى بالمطالبة باستقلال مصر وضم جزيرة قبرص ومقاطعات أضالية وعلائية وأيج أيل إلى مصر وكذلك تونس وطرابلس الغرب . أما أيالة بغداد فإنها بعيدة عن مصر قليلة الفائدة . لذا فإنه يكتفى بالمفاوضة بشأنها ولا يتمسك بضمها إلى مصر »(275) . ووجه الغرابة فيما يعزى لمحمد على من أهداف عربية ليس فى أنه كما قد يظن لكونه ألبانيًا أو عثمانيًا فقد يندمج الأجنبى بالبلاد التى يخدمها كما اندمج صلاح الدين فى خدمة البلاد العربية ، وكما اندمج بونابرت الكورسيكى فى خدمة فرنسا .. ولكن كيف تكون لمن يوازن طويلاً بين فتح الجزائر لحساب فرنسا ومحاربة تركيا فى المشرق(276) أو لمن يشتت شمل الدعوة الوهابية التى تعمل على التحرر من الأتراك وتقول بحق العرب فى الخلافة .. أية أهداف عربية .. بل كيف يمكن أن تكون له أية أهداف غير الأهداف الشخصية(277) ؟

الحقيقة فى موقف إبراهيم

لقد حملت قلة الحجج لدى الذين يقولون بأهداف عربية لمحمد على على أن ينسبوا هذه الأهداف إلى ابنه إبراهيم(278) ، وأكثر الذين يميلون إلى هذا التفريق بين الابن وأبيه يعتمدون على ما جاء فى تقرير دى بوالكمت حيث كتب فى تقريره عام 1833 بعد مقابلة إبراهيم ، إثر عودته من كوتاهية فقال « إنه يعلن صراحة عن موقفه فى العمل على إحياء قومية عربية ، وعلى إرجاع وطن العرب للعرب ، وإشراكهم فى جميع المناصب سواء ما يتعلق منها بالإدارة الداخلية أم بالجيش فيجعل منهم شعبًا موجودًا قائمًا بذاته ينعم بنصيبيه من استغلال الموارد العامة ويشترك فى ممارسة السلطة مما يتحمل أعباء إدارة الدولة »(279) . وإنه دائم الإشادة فى منشوراته بمفاخر الأمة العربية وبمجدها التالد ، وإنه يستخدم العربية فى أحاديثه أحيانًا مع أهل البلاد فلا ينفك يطعن بالأتراك حتى « لقد لاحظ عليه ذلك أحد جنوده وخاطبه بتلك الحرية التى كان يشجع رجاله عليها وسأله : كيف تذم بالأتراك هذا الذم وأنت منهم فأجاب بحدة : لقد جئت مصر صبيًا ومن ذلك الحين فإن شمسها غيرت دمى وجعلته دمًا عربيًا خالصًا »(280) .

غير أن « هذا الدم العربى « لا يظهر فى رسائل إبراهيم إلى أبيه التى تشرح أهدافه . فقد كتب إليه وهو على أبواب عكا يقول إن « غرضى بهذه الوسيلة شيئان : الأول هو المحافظة على شرف مصر الخالدة، وإعادة مجدها السابق فى ظل الحضرة الشاهانية، والثانى تقديم خدمة جليلة للدولة العلية . وإن كان قد سبق أن طلبت الشام وصيدًا إلى عهدتى فإنه كان يقصد أن أخدم دينى ودولتى خدمات جليلة للقيام بالإصلاحات اللازمة فى جميع شئون الحياة .. » وكتب إليه وهو يستعد للهجوم على حمص إن الإيقاع بالعثمانيين وتمزيق شملهم « ادعى إلى إعلاء قدر مصر وإعظام قدرها وإظهار شأنها وشرفها » وفى رسالة ثالثة وصف أمانيها بأنها : « حرية كاملة لعائلتنا واستقلال تام لمصر »(281) ويخاطب أباه فى رسالة أخرى بلفظ « صاحب الجلال » ويذكر «مصر المستقلة» كما يشير فى تقرير سرى إلى جهوده المخلصة التى اضطلع بها لتدعيم مركز أسرتهما فى مصر ، وكان لا ينفك يردد ويؤكد بأن أباه « لايزال العبد الخاضع للسلطان والمحامى عن الدين الحنيف »(282) .

ليس ثمة ما يفرق فى الحقيقة بين الابن وأبيه فى الأهداف . فقد كانت فكرة الوصول إلى ملك وراثى تستحوذ على تفكيرهما . والفارق بينهما أن إبراهيم قد تأثرت شخصيته بظروف حياته فى الحروب والتنقل والاختلاط فرقت حاشيته ، وقد لاحظ دى بوالكمت نفسه ذلك فقال : « إن الانطباع الذى خلفه إبراهيم فى نفسى قد تأيد بالنغمة العامة التى يلهج بها من يحيطون به ، فلم أستطع إلا أن ألاحظ الفارق بين هذا الأسلوب وما اعتدت سماعه فيما يحيط بمحمد على ، الذى أحاط نفسه بجو تركى . إذ إنه لا يفهم ولا يتكلم هو نفسه إلا التركية ... » أما إبراهيم فمن الواضح أنه قد أخذ يتأثر بالعادات الغربية : الفرنسية منها بصورة خاصة فى مجلسه ومأكله قد رقت حاشيته منذ أن أخذ يخالط الأوروبيين ولم يعد يذكر عنه قسوته التى اعتادها فى حروبه السابقة فإن « تركيب ذلك المجتمع الصغير الذى كان يحيط به فى مجالسه يؤيد ما اتصف به من تسامح إذ كان يضم فضلاً عنا نحن الاثنين رجلين مسلمين ويونانى ويهودى »(283) .

رأى محمد على فى تجنيد أبناء العرب :

ثمة أمر آخر ، قد استوقف النظر ، بمناسبة حرب الشام ذلك هو جيش محمد على وما يترتب على انتصاراته الباهرة من إيقاظ الروح المعنوية وبعث الشعور بالقومية . فحتى ذلك الحين، «لم يكن أبناء العرب مبعدين كل البعد عن الاشتراك فى شؤون الحكم فحسب. بل كانوا مبعدين عن الخدمة العسكرية » . وكان المجندون منهم يفصلون فى فرقة خاصة ، ولم يبدأ رسميًا بتجنيد العرب إلا بعد حرب السودان(284) . ومع ذلك أثار هذا التغيير مخاوف أوروبا خشية من « أن يجئ يوم يرغب فيه هذا الجيش العربى الخالص فى إقامة حكومة عربية ثم يعمد إلى المطالبة بتحقيق هذه الرغبة »(285) . وقد طرح دى بوالكمت المسألة فى تقريره الأول على النحو التالى : « وهناك من ناحية أخرى أمر لا نستطيع حتى الآن أن نتكهن بنتائجه ، ونعنى بذلك تلك الحروب التى وضعت أوزارها منذ عهد قريب وما سوف تبثه فى نفوس الأمة العربية من شعور بالقومية وروح عسكرية على يد جيوش محمد على الجرارة مما يوقظ فيها الشعور بقوتها من جديد ، ويولّد فى أبناء العرب الرغبة فى أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وقد حلا لبعض القوم فى أوروبا أن يروا فى هذه الحرب انتفاضًا من العرب على الترك غير أن ذلك لا يتفق مع الواقع . فصاحب المشروع تركى فكر فيه بعقل تركى . كما أن الترك هم الذين تولوا قيادة العرب فى تنفيذه . وقد حارب هؤلاء العرب لأن هناك من يقودهم دون أن يسألوا أنفسهم من هم ، ومن العدو الذى يدفعون إلى مقاتلته، غير أن النصر كان حليفهم فى النهاية ، ولعل نشوة الانتصار تؤدى فى يوم من الأيام إلى تبدل حالتهم النفسية ، ولن يعوزهم حينذاك غير زعيم يقودهم ، ولكن لم أر حتى الآن شيئًا من بوادر هذا التحول، وسأضع نصب عينىّ ملاحظة هذه المسألة الهامة حين أزور جيش إبراهيم »(286) . وقرر دى بوالكمت حقيقة وهى أن ابن العرب لم يكن يرقى إلى ما فوق رتبة اليوزباشى ، وعندما أبدى مخاوفه لمحمد على من نتائج إشاعة هذه الروح العسكرية أجابه بقوله : « لم أعمل فى مصر سوى ما عمله الإنجليز فى الهند فلديهم جيش من الجنود الهنود يقودهم ضباط من الإنجليز ولدى جيش من أبناء العرب على رأسه ضباط من الترك ، ولو خطر لكم أنتم أن تؤلفوا فى الجزائر فرقًا عسكرية من أبناء العرب لاحتذيتم مثالى ووضعتم على رأسها ضباطًا من الفرنسيين » .

فقد كان محمد على يعى تمام الوعى خطورة هذا الأمر عليه فعندما طلب منه إبراهيم الموافقة على ترقية عدد من أبناء العرب الذين أبلوا بلاءً حسنًا فى حرب الشام إلى رتبة يوزباشى كتب إليه يقول : « من المعلوم يا ولدى أن مثل هذا العمل تترتب عليه نتائج خطيرة على أسرتناولو بعد مائة عام »(287) .

* * *

أتيح لمحمد على فرص لم تتح لغاز أجنبى ولا لوال عثمانى من قبل ، ففى عشرين سنة تمكن بفضل خيرات الإقليم الذى سيطر عليه والطاقات المحبوسة التى جندها فى أن يحرز النصر تلو النصر فاجتاح الحجاز ونجد وزحفت جيوشه إلى السودان واستولت عليه وسيطر على موانئ شاطئ البحر الأحمر ، وشاع فيه الأمان ووطن الأمن ، وأخمد ثورة اليونان بالنزول على أرض

شبه جزيرة المورة واحتلالها والاستيلاء على أثينا ، وفى شهور اجتاح بلاد الشام ، وعقدت المقارنات بينه وبين نابليون .. إلا أن هذه القوة الهائلة أفادت شيئًا واحدًا مباشرًا وهو أنها أعطت لأوروبا بالدليل العملى ، صورة عن إمكانيات هذا العالم العربى لتعيد النظر على ضوئها ، فى استراتيجيتها لتقسيم الإمبراطورية العثمانية ، ولكنها فى هذه الأقطار العربية التى سيطر عليها روح التمسك بوحدتها . إذ إنها لم تشعر بالفرق بين حكمه والحكم العثمانى ، ولعل خير ما يعبر عن ذلك هذه الصورة التى يختتم بها دى بوالكمت تقريره نقلاً عن أحد أبناء الشام المثقفين : قال: « لئن كان يهمك أن تعلم كيف سينتهى هذا الأمر فسأقوله لك ، وإن كانت مثل هذه المسائل لا تستحق من الإنسان أن يجهد نفسه فيها . فعندما يزول محمد على وإبراهيم سوف ينظر الناس بعضهم إلى بعض متسائلين من ذا الذى سيحكمنا ؟ فيجيب أحدهم قائلاً : ابن إبراهيم أو ابن طوسون ، ويقول آخر : كلا بل الجنرال فلان . ثم يعترض ثالث قائلاً كلا ! بل إن الباشا الذى ستوفده القسطنطينية هو الذى سيحكمنا .. وبينما يكون الناس مشتغلين منهمكين فى هذا القيل والقال ينبرى رجل لا تدرى من أين جاء ولا تجد أحدًا يعرفه فيقول لهم . اسكتوا . إنما أنتم جميعًا حمقى وأننى أنا حاكمكم . وسأقطع رأس كل مخالف منكم فيسكت الناس عندئذ ، ثم يحنى الباب العالى رأسه للواقع ..

ثق يا سيدى أن الأمر يجرى على هذا النحو . فقد شهدت تعاقب حكم أكثر من عشرة باشوات على هذا المنوال » .

حقيقة موقف إنجلترا من محمد على :

يلتبس عداء إنجلترا للوحدة العربية بعدائها لمحمد على فى أذهان بعض المؤرخين فيستدلون من ذلك - بمحاكمة صورية بحتــة - على أنه كانت له أهــــداف عربية(288) والحقيقة أنه لا علاقة بين عدائها لمحمد على وعدائها للوحدة العربية ، وإلا كيف تقبل بحاكم يحمل مثل هذه الأفكار العربية فى مصر ، قلعة العرب ، والبلد الوحيد القادر إذا شاء ، وإذا طلقت له إرادة العمل على تحريك المنطقة العربية كلها وبعث إمكانياتها .

إن إنجلترا لم تبد عداءها فى أول الأمر لفتح الشام : لا لانشغالها بثورة بلجيكا كما يذهب البعض(289) وإنما لأنها لم تكن ترى فى واقع المنطقة ما يضر بمصالحها . فهى لا تجهل طبيعة حكم محمد على فى مصر التى لا تختلف عن طبيعة حكم الأتراك للعرب إلا بكثرة الأجانب الأوروبيين ولا يمكنه الخروج عن هذه الحدود والاندماج بالعرب . لأن يقظة العرب خطر عليه كما هى خطر على المصالح الأجنبية . وإنجلترا تعرف أنه لم يقرب مصالحها من خلال حكمه للحجاز ونجد . بل كانت قبل أن ينسحب من هناك على استعداد « للعمل معه على أقلمة سلطة منظمة فى الخليج»(290) ولم يقرب العراق حيث مصالح الإنجليز ، طيلة حكمه فى الشام مع أنه تجاوزه شمالاً فى حربه مع الباب العالى وخلفه وراءه ، وكانت دولة مماليك الكرج قد سقطت فيه سنة 1831 وكانت الغلبة منذ مقتل الوالى المملوكى عبد الله باشا (1813)للعرب وبخاصة لعشائر شمر الجربا وشيخها صفوق وولده عبد الكريم ، ومعهما مجموعة من العشائر أبت أن تخضع لآل سعود وهاجرت إلى العراق(291) الأمر الذى يجعلها على استعداد للتعاون مع محمد على ، وإنما على العكس زاد النفوذ الإنجليزى فى العراق خلال حكم محمد على فى الشام استمرت بعثة تشيسى وصدر فرمان يرخص لها بالملاحة فى الرافدين بصورة منتظمة لنستبين ثم سمح لسفينة حربية لحقت بهما بعد ذلك (1835)(292) وتابع الكابتن جسنى مهمته فى دار الملاحة فى الفرات كطريق تجار يربط سوريا بالخليج ، وقرر البرلمان الإنجليزى تخصيص النفقات اللازمة لذلك ، وإيفاد بعثة بدأت رحلتها من سوريا فى 16 مارس (آذار) 1836 « وجمعت الأدلة والبراهين القاطعة على أفضلية طريق الفرات إلى الهند » وأهميته للدفاع عنها(293) وفى 6 ديسمبر 1833 كتب بالمرستون إلسفيره فى القسطنطينية يحدد السياسة الإنجليزية المقبلة فقال « إنه إذ اضطررنا يومًا أن نختار أحد أمرين إما استيلاء الجيوش المصرية على اسطمبول أو وضعها تحت نفوذ روسيا فإنه لن يكون فى وسعنا إلا أن نختار الأمر الأول »(294) .

تقييـــم :

لا شك فى أن حكم إبراهيم باشا فى بلاد الشام كان مصلحًا وعادلاً إذا قيس بالحكم العثمانى(295) بل وكان متقدمًا ومستنيرًا من وجوه عديدة وقد أجمع القناصل فى تقاريرهم والمراقبون على امتداح مزاياه وإصلاحاته الزراعية والعمرانية وتوطيده للأمن ... كما يسر للشعب أن يصبح على علاقة مباشرة بالدولة ودربه على شل أيدى مأمورى البلاد من مشايخ وأمراء وأرسى قواعد دولة حديثة منظمة . وأهم من هذا كله كانت حركة التنقل والاستيطان الداخلية التى تبعت الحرب فجددت الروابط بين بلاد الشام والحجاز من جهة وبين مصر ، وماتزال أسر عديدة فى بلاد الشام تذكر أنها لحقت بجيش إبراهيم . كما كان ذلك سببًا فى استخدام محمد على للكثير من السوريين فى مصر . فأحيا بذلك الروابط الجنسية بصلات أدبية دائمة خاصة بين القطرين(296) .

لكن مقتل حكم « إبراهيم باشا » فى بلاد الشام كان فى أنه لم يقدم للناس ما يمكن أن يجتمعوا عليه أما إشراكهم فى الحكم فقد كان كثيرون منهم يشتركون فيه العهد العثمانى حتى لقد كان من سوريا وزراء وأسر حاكمة فى الآستانة كآل العظم وآل العابد وآل الكورانى ، وكثيرًا ما كان السلطان سلطانًا بالاسم فى بلاد الشام .. وكثيرًا ما كان الباشاوات يشنقون كما حدث فى حلب على جدران قصر الشيخ يابران ولطالما شنق عليه باشاوات بيد الأهالى . كما أحرقوا باشا دمشق(297) وأما ما قيل عن أضعافه لمركز الأمراء وشيوخ العشائر وكبار الإقطاعيين فإنه لم يكن يعتبر تحريرًا كما ذهب إلى ذلك كثير من المؤرخين - فقد كان أكثر أولئك من الرجال الأحرار الذين أبلوا فى مقاومة الحكم التركى . ففى مصر يسرت مركزية الحكم الشديدة وطبيعة نظام الرى فى الوادى ضرب الزعامات العشائرية ، وإحلال طبقة موالية للحكم محلها أما فى بلاد الشام فلم تسمح طبيعة البلاد بذلك ثم جاء اعتماد إبراهيم باشا على طوائف معينة يزيد فى ثائرة الناس .

كانت هذه الثغرات منفذًا لدسائس الدول الأجنبية والدولة العثمانية معًا فى التحريض والتأليب وتسريب السلاح والمال فاندلعت الثورات . ومن المؤسف أنه أسبغ عليها صفة الثورات ضد « المصيريين »(298) فدفع « المصريون » فى انسحابهم ثمنًا باهظًا .

هكذا لم تكن حروب محمد على سببًا فى تشتيت بعض الحركات التحررية ومراكز المقاومة ضد العثمانيين فحسب ، بل أصبحت من العوامل التى استغلت لمعاكسة الفكرة العربية فى مصر وتأخير ظهورها وإبعادها عن مشاعر المصريين ومداركهم قرنًا طويلاً(299) . ذلك أن الشعب فى مصر الذى لم يشعر أن حرب الحجاز وحرب الشام هى حربه كان يمتعض من فكرة إرسال بنيه إلى ميادينها ليعود قسم كبير منهم مشوهًا وليقتل قسم آخر ولا يعود إطلاقًا . والحرب كانت تعنى كثرة الضرائب أيضًا ، وكانت تعنى فقدان من يعمل ويجنى ويعول . لذلك نقم الشعب على حروب بلاده مع جاراته العربيات ، ونقم على مسببيها ، وكان يزيد فى نفوره ما وصل إلى أسماعه من أخبار الصلابة التى حورب بها أبناؤه وهى صلابة ذاق مرها الجنود المصريون . فلما عادوا إلى ديارهم عادت معهم أخبارها ، وأشركوا فيها أقاربهم ، وأشركوهم أيضًا فى نقمتهم على تلك الشعوب محاربين فيها وغير محاربين . وغذى هذا النفور أن معظم الثائرين فى شبه الجزيرة وفى بلاد الشام كانوا من الطوائف الدينية غير السنية كالدروز والنصيرية أو من أصحاب ثورة فى

الدين كالوهابيين ، وقد استغل محمد على وابنه هذه الحقيقة ، وأثاروا الرأى العام الإسلامى فى مصر ضد أتباع هذه المذاهب ، واستغل الاستعمار ذلك لتعميق الكراهية(300) ومن يراجع نتاج القرن الماضى فى التاريخ والأدب ، يجد تحاملاً كبيرًا على تلك الطوائف وعلى معتقداتها وعلى أتباعها ومازالت « الدرزية » ، مثلاً من أكبر الشتائم فى مصر إلى الآن . وبهذا تحققت أول وأهم أمانى الدول الاستعمارية فى فصل مصر عن سائر أقطار المشرق العربى فقد أظهرت لها حروب محمد على من جديد ما يكمن فى المنطقة من احتمالات وقدرة مصر على دفع القوى العربية الغافية إلى المسرح .

وفى الشام كانت نتائجها أبعد أثرًا ما زالت البلاد تعانى منها حتى اليوم . إذ بتشجيع إبراهيم للتجار الأجانب وللمبشرين والمدارس التبشيرية ، بما منحهم من تسهيلات ، وفر للغرب الوسائل لتعميق التفرقة بين الطوائف ، ومكن لدسائس الدول الغربية فى أن تهيج الطوائف بعضها على بعض وأخذت الامتيازات الطائفية تزداد بدلاً من أن يلاشيها انتشار العلم والحضارة . ففى 1842 اضطر السلطان أن يمنح جبل لبنان بعض امتيازاته ، كما استجاب لضغط الدول الأوروبية لأن يكون للوالى العثمانى نائبان : مارونى ودرزى ، واستغلت إنجلترا هذه السياسة الطائفية الحادة فانفردت بالإيعاز للدروز أن يطالبوا بأن تكون لهم وحدهم السيادة المحلية فى القرى المختلطة . حتى لقد وصل التقسيم الطائفى إلى كل قرية فيها موارنة ودروز . ثم أثار رسل الدول الأجنبية فلاحى شمال لبنان بالانقلاب على الملاّك المارونيين ونهب أموالهم واقتسام ضيعهم وأملاكهم وفى جنوب لبنان أوعز هؤلاء الرسل والقساوسة الأجانب إلى الفلاحين بالامتناع عن دفع إيجار الأرض إلى أصحابها الملاّك الدروز(301) فلم تلبث مذابح عام 1860 أن جرت بين الفريقين حيث قامت الأكثرية بتقتيل الأقلية من الفريقين .

الفصل السابع : الطبقة الوسيطة

الفصل النهائى بين الحكم والأهالى

أولاً : دعائم حكم محمد على

لم يعد خافيًا ، فى أيامنا ، كيف يكون من الممكن ، بتهيئة ظروف معينة ، تكوين عقول فئة من الناس ، على منطق معين ، وغرس أفكار ثابتة وقيم معينة فيها ، تعيش لها وحدها ، فتنفصل بها عن أصولها وعن المجتمع الذى تعيش فيه . فقد تمكنت إنكلترا مثلاً ، بمهراجات الهند وبطبقة المثقفين التى خلقتها من أن تفرض لغتها قرونًا طويلة ومنطق فكرها ومناهجه ، رغم ما تتيحه أساليبها الديموقراطية من فرص الاطلاع على وجهات النظر المختلفة . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ ، لم تكن آخرها تلك التربية الاسبارطية التى أدارت بخمرتها عقول الناشئة فى ألمانيا الهتلرية أو فى إيطاليا موسولينى . فما بالك إذا كان يتعهد هذا الأمر حكم كحكم محمد على ، كان يملك باسم السلطان حقوقًا لا حدود لها ، ثم جاء تقنين البلاد وتحديثها يتيح له التحكم فى توجيه مسيرتها من جهة ، وجاءت مدارسه وبعثاته الدراسية وأسلوب الاختيار لها تتيح له المجال من جهة أخرى لتكوين فئات الحكم وتحديد المنطلقات الفكرية ، تسانده المؤسسات الغربية جميعها .

ذلك أن مسارات الفكر والثقافة تتحدد بالمجتمع ، وبما يكون عليه من تركيب إذ هو الوعاء الذى يحتويها فيلونها بتكوينه الخاص ومزاجه المحدد وبما يسوده من علاقات . وإذا كانت القوى السياسية هى الأدوات التى تملك القدرة على التأثير والتوجيه فإنها لا تستطيع ذلك إلا بما تمثله من حيث موقعها الاقتصادى والاجتماعى وما تملكه من وسائل القوة . وقد أرست فترة حكم محمد على خاصة ، وما تلاه من حكم أسرته عامة لتلك القوى قواعدها ومكنت لها . فلابد إذن من دراستها فى استجلاء وسبر من خلال : طبيعة الحكم والتغلغل الأوروبى والتعليم وما رافقه ، أى تحديث مصر ، واليهودية العالمية والماسونية . وذلك لمعرفة أهم العوامل التى حكمت اتجاهات الفكر بأنواعه فجعلت الإقليم العربى الذى تولى مئات السنين قيادة الأمة العربية والدفاع عنها ، أبعد ما يكون - فى ظاهر ما يجرى فيه ، وما يعبر عنه لمدة تزيد على مائة عام - عن هذه الأمة العربية وما يبيت لها .

رائدنا فى هذا أن نتحرى من وراء التفاصيل ، رصد السمات الرئيسية العامة واستخلاصها مكتفين ما أمكن ، شأن البحث فى العلوم الطبيعية ، بما يلوح لنا من مؤشرات المواضيع ودلالاتها.

ظل المؤرخون حتى عهد قريب يعتبرون محمد على باعث « الوطنية » فى مصر . التقى على ذلك المغالون فى اعتناق « القومية المصرية » : الفرعونية ، مع المعتدلين ، جاعلين من عهد محمد على ، العصر الزاهر فى تاريخ مصر الحديثة ، والمثل الأعلى الذى يساق للأجيال لشحذ هممها(302)، فقد رأوا فيه تجسيدًا لـ « عظمة » مصر وجسدوا فيه أمانى مصر .. حتى الرافعى قال إن غاياته كانت هى غايات مصر ، وأن مصلحته قد اندمجت فى مصلحة مصر(303) . غير أن هذه النظرية أخذت تتغى .

كان الفريق الأول ينطلق فى تقييمه من أن لمصر « كيانًا » خاصًا بها منذ أقدم العصور ، وأن العمل على « استقلالها » يتمشى مع هذا الكيان، ومن هنا كان تقديره لمحمد على ولجهاده فى هذا

السبيل . على حين بدأت فكرة هذا « الكيان الأزلى » تهتز بفعل الظروف الجديدة التى كشفت عن أصالة الروابط التى تجعلها جزءًا من البلاد العربية المحيطة بها ، بل واسطة عقدها . ومن هنا كان التشكك فى قيمة ما نجح محمد على ثم أسرته من بعده ، فى ترسيخه من «استقلال» مصر ، على نحو أو آخر كما كان منشأ التساؤل : لحساب من جرى هذا كله ؟ ولعلنا نستطيع من تحليلنا لطبيعة الحكم الذى أقامه محمد على ، وللعلاقات التى أقامها هذا الحكم مع أوروبا ، تلبية لحاجات متبادلة .. أن نسهم فى الإجابة على هذا التساؤل ، وفى تفسير غياب الفكرة العربية عن مصر .

قضى محمد على على « الزعامة الشعبية » فما هى العناصر التى حلت محلها ؟ وهل يمكن القول فى ظلها بوطنية مصرية وقومية مصرية وبأى معنى ؟

يؤخذ من تقارير القناصل المعاصرين له أنه اعتمد فى حكمه على خليط من الأجناس : من أتراك ومماليك وشراكسة وألبان وأكراد وأرمن ويهود وطائفة من الشوام والأقباط(304) .. وغيرهم من الأجانب الأوروبيين(305) ومن قليل من أولاد العرب ، الأهالى الأصليين ، جاعلاً من هذا الخليط «الصفوة الفعالة» ، اقتداء بالنظم العسكرية العثمانية فى عصرها الأول . وحاول أن يشكل من «طبقة» موالية له ولأسرته تستمد مكانتها من ارتباط مصالحها بحكومته لا من جذورها فى المجتمع . وحرص على أن تبقى هذه الأجناس متميزة بعضها عن بعض لا غلبة لأحدها على الآخر إلا من خلال الحكم . ولم يهيئ لها من جانب آخر الاندماج بالشعب(306) .

كان يعهد بالوظائف العامة إلى أبناء هذه الفئات . وعندما اتسعت آفاق دولته وتعددت إدارات الحكم فيها وتشعبت ، ولم يفقد حسه الذى اشتهر به فى الموازنة بين جميع الأطراف : أسند الوظائف الإدارية والتنفيذية والعسكرية الكبرى والهامة إلى الأتراك والشراكسة فى المحل الأول ، ثم إلى الأرمن والأوروبيين الذين استقدمهم وتوافدوا على مصر من كل جنس وترك الوظائف الروتينية الصغرى للمصريين(307) . وباعتبار ما آل إليه من حق الدولة المتوارث فى مصر فى السيطرة المطلقة على الأراضى الزراعية والهيمنة بالتالى على القائمين بفلاحتها ، عمل على توزيع مساحات واسعة من أرض مصر على هذه العناصر ، ثم عمل على تثبيت ملكيتهم لها . وظلت سلطة الباشا حتى أواخر القرن التاسع عشـــر لا تفرق بين ممتلكاتها الخاصـــة وممتلكات الدولة . إذ ظل يعطى لنفسه حق التصرف فى معظم أراضى الدولة على الرغم من اضطرارها تحت ظروف معينة للتنازل تدريجيًا للأفراد عن حق ملكية الأرض . ومن هنا نوعية العلاقة بين هذه العناصر وبين الحكم ، وإن كانت موازنة الخديوى الخاصة ، من الناحية الرسمية ، قد فصلت عام 1879 ، عن موازنة الدولة على أثر إنشاء مصلحةالجدول المدنى(308) .

ملكية أفراد الأسرة والأتباع :

يأتى أفراد الأسرة والأتباع على رأس هذه العناصر . ذكر الجبرتى أن محمد على بدأ بتوزيع القرى على أولاده عام 1808 عندما كتب الروزتامجى إليه عن صعوبة تحصيل ضريبة « كلفة الذخيرة » لكثرة ما أصاب البلاد من الخراب. فأمر بتوزيع البلاد العاجزة عن سداد الضريبة وعددها 160 قرية على أولاده وأتباعه وكتابة تقاسيطها بأسمائهم . وفى نفس العام انتزع من ملتزمى البحيرة حصص التزامهم لعجزهم عن الدفع ووزعها على رجاله . وعندما هرب بعض الفلاحين من وجه ضريبة استثنائية فرضت عام 1810 فتظلم الملتزمون طلبالباشا تقسيط التزامهم

، وبعد فحصها حرم الكثيرين منهم من حصصهم وأعطى بعضهم تعويضًا ولم يعط الآخرين أى تعويض . وهكذا لم يأت عام 1814 حتى كان جميع الالتزام قد ضبط لطرف الباشا، ورفع أيدى الملتزمين من التصرف(309) . وبإلغاء الالتزام على هذا النحو تم له من ناحية القضاء على سلطة الملتزمين الذين كانوا يشاركون الحكومة سلطتها فى الريف ، وإرضاء أعوانه وضمان ولائهم من ناحية أخرى .

وعند نهاية حكم محمد على كانت مساحة الأطيان « رزقة بلا مال » التى أصبحت بموجب الأمرين الصادرين فى يناير 1837 وفبراير 1842 ، ملكًا مطلقًا للباشا وأولاده نحوًا من 541.433 فدانًا ، من الأواسى والعهد بخلاف الأبعاديات والبور والأراضى المستصلحةوأطيان الرزق الخاصة بالمساجد .. وهى وحدها تشكل 18% من جملة أراضى مصر الزراعية فى 1844 البالغة 3.590.473 فدانًا(310) ثم جاء عباس (1848- 1854) فمنح كل زوجة من زوجات محمد على وإبراهيم خمسة آلاف فدان . بالإضافة إلى ما كان لهن من أملاك . كما منح أبناء وبنات أحمد باشا يكن وإبراهيم باشا يكن أقارب الأسرة الحاكمة 11.500 فدانًا بواقع ألف فدان لكل ولد وخمسمائة لكل بنت ، وبلغت أطيان سعيد باشا عند وفاته (1854-1862) نحوًا من 31.117 فدانًا . بينما كان ابنه وزوجتاه يمتلكون19.170 فدانًا ، وجميعها من أجود الأراضى الزراعية فى البحيرة والشرقية والغربية والدقهلية(311) .

ولم تكد تمضى ثمان سنوات على إسماعيل فى الحكم حتى كان قد أنعم على أفراد أسرته من الأطيان المتروكة أو المستبعدة ، أو مما اشتراه بأسمائهم من بعض الأفراد وسدد أثمانه من خزانة الدولة مقدار 472.102 فدانًا(312) وكان يملك هو شخصيًا فى عام 1879 نحوًا من950.000 فدان(313) (هى الدائرتان السنية والخاصة) وبعض الأملاك الأخرى من مجموع مساحة الأرض المنزرعة البالغة عندئذ 8.810.000 فدان(314) أى خمس أرض مصر بخلاف ما كان يملكه بقية أفراد أسرة محمد على ، وبخلاف أوقاف الأسرة .

فئة كبار الموظفين العثمانيين :

يلى أسرة محمد على وحاشيتها فى تكوين فئة كبار الملاك الزراعيين ، كبار الموظفين (العثمانيين) فبعد تصفية زعماء المماليك فى القلعة (1811) وفى الصعيد (1812) وزع محمد على مائة ألف فدان على المماليك(315) حتى لا يحرمهم من الإيراد . ثم بدأ يمنح أطيان الإيعاديات والمسير (الأطيان الخراجية) ، رزقة بلا مال بشرط زراعتها أشجارًا ، وعلق تقاسيطها على هذا الشرط(316) . وتلاحقت « إنعاماته » . وكانت تتراوح ما بين مائة فدان وثلاثة آلاف فدان للموظف الواحد . كما منح ضباط الجيش مساحات تتراوح ما بين مائة فدان ، وفقًا لرتبتهم العسكرية . وزاد عليه إسماعيل . إذ أنعم على كبار رجال الإدارة من النظار بألف فدان لكل واحد منهم ، وعلى كبار ضباط الجيـش من رتبة لواء 600 فدان ، ومثلهـا لمن فى مستواهم من المدنيـين و300 فدان لكل من مديرى المديريات ، وأقل من ذلك لمن دونهمرتبة(317) .

كذلك كانت الوظيفة فى الحكومة وسيلة من وسائل توسيع الملكية الزراعية . إذ كان الموظف يدخل كمشتر فى مزادات الحكومة العلنية التى تطرحها لبيع الأراضى الخارجة عن الزمام وفى عام (1861) خطرت الحكومة عليه هذا الأمر دفعًا لما كان يؤدى إليه من سوء استعمال إلا أن إسماعيل عاد عام 1864 فرفع عنه هذا الحظر ، وظل يسمح به للموظف حتى عام 1896 . وفى

أواخر حكم سعيد صدر قرار (نوفمبر 1860) بإعطاء الموظفين بعض الأطيان لدى إحالاتهم إلى المعاش إذا شاءوا ، ثم صدر قرار يناير 1861 يقضى بحرمان من لا يوافق على أخذ الأطيان نظير معاشه ، من المعاش . وكان تأجير الأطيان الإبعادية مصدرًا آخر لتوزيع الملكية . إذ كانت تعطى الأولوية فى ذلك لأصحاب الأطيان المجاورة ، ثم جاءت اللائحة السعيدية فقيدتها أطيانًا أثرية باسم مستأجرها (بند 11- 1858) وتحول الإيجار إلىضريبة . كما لعبت أطيان العهدة دورها فى توسيع هذه الملكيات(318) .

وهكذا تشكلت الملكيات الكبيرة لهؤلاء الموظفين ، وتكونت منهم فئات ذوات مصر ومن بينهم ظهرت الشخصيات التى لعبت دورًا كبيرًا فى حياة مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كرياض باشا ومحمد شريف باشا ومحمد سلطان باشا ..

كبار الملاك من الموارنة والأقباط :

يرجع نزوح الأسر «المارونية» إلى مصر، إلى أيام المماليك ، حتى لقد بلغ عددها، قبل حكم محمد على أربعمائة أسرة، غير التى لم تذكرها السجلات أو تآكلت أسماؤها فلم تمكن قراءتها(319) وعهد المماليك إلى أبناء هذه الأسر بإدارة الجمارك والدخوليات الأخرى : أى مالية البلاد . وشجعهم بونابرت كثيرًا، ورفع من معنوياتهم. فاختار منهم عضوين فى ديوانه العام (وكان عدده ستين عضوًا من المسلمين والأقباط والسوريين) وهما يوسف فرحات وميخائيل كحيل(320) .

وفى أيام محمد على كان موارنة الشام وأقباط مصر « العنصر الغالب فى مناصب المالية والخارجية لحذقهم للغات الأجنبية »(321) . وكان أهمهم أولئك الذين « تسلموا تجارة مصر الداخلية والخارجية »(322) وخبراء فى تربية دودة القز ، ثم عملوا منذ تداعى نظام الاحتكار كوكلاء لبيوت تجارية أوروبية ، وزاد نشاطهم ، وتراكمت فى أيديهم رؤوس الأموال ، وشجعهم ما طرأ على حقوق الملكية الفردية من تطور ، ورواج سوق المحاصيل نتيجة تطور الزراعة فاقتنوا الضياع الواسعة وأضفوا على أنفسهم مظاهر الثراء العريض وغالوا باتخاذ الألقاب ، كما غالوا فى مطامحهم وتطلعاتهم . حتى لقد طمع أحدهم الأمير لطف الله بن حبيب باشا لطف الله بأن يكون ملكًا على سوريا ، وحدثت بعض أقباط الصعيد أنفسهم بالاستقلال (مؤتمر أسيوط) .

وكان أشهرهم من السوريين سليم بك شديد الذى ملك 33 ألف فدان ، وحبيب باشا لطف الله الذى اتخذ سيرة الملوك والأمراء ، ومن الأقباط أولئك الذين شغلوا الوظائف القنصلية لبعض الدول الأجنبية ، واستفادوا من الامتيازات الأجنبية ، ومن المؤسسات التى كانت ترعىمصالح الأجانب كالمحاكم المختلطة(323) كأندراوس بشارة الذى اشتغل مع الشرق الأقصى ، وعمل قنصلاً لإيطاليا وبلجيكا حتى أصبح يملك أكثر من عشرة آلاف فدان ، وويصا بقطر الذى عمل قنصلاً للولايات المتحدة ولهولندا بأسيوط ، وبلغ مجموع أطيانه نحوًا من 28 ألف فدان فضلاً عن مصنع للسكر ، ومعظم أسهم شركة سكك حديد الفيوم(324) .

وقد فتن ما تركته هذه الشخصيات من أثر، وما أشاعته حولها الأسر التى أنشأوها من زهو وخيلاء ، عقول بعض الكتاب فراحوا يضفون هذه الصفات والمزايا الفردية على الطائفة بأكملها ، فوصفوا

القبط بأنهم « ذرية حية ، ذخــيرة من ذخائر الفراعنة ، وأشعة من إشعاعات الآلهة وقوة من قوى الطبيعة التى أحيت الأجيال »(325) حتى لقد جعل أحدهم كلمة قبط « اســمًا لجيل من الناس لا لدين من الأديان ، أو لمذهب من المذاهب ، أو لملة أو نحلة »(326) .

لقد بدأت هذه الفئة ظهورها بربط مصيرها بالسلطة أيًا كانت هذه السلطة : فرنسية كانت أم « علوية » (نسبة إلى أسرة محمد على) أم إنجليزية . وكان ارتباطها بمصالحها المادية فى الحكم أو بخارج البلاد أقوى من ارتباطها التاريخى والعشائرى فى داخل البلاد إذا كان ثمة مثل هذه الارتباطات لبعضها . وعندما أصبح الانتماء إلى جنسية أجنبية ، فى ظل الامتيازات ، أجلب للربح وأعرض طريقًا للنهب لم يتورع زعماء هذه الفئة - كما لم يتورع بعض الذوات ، عن التجنس بجنسيات أجنبية : حصل سليم بك شديد على الألمانية وسكاكينى باشا وحبيب باشا لطف الله حصلا على الجنسية الفرنسية(327) ...وتمتع بهذه الامتيازات من اختارتهم الدول الأجنبية قناصل لها فى مختلف أنحاء مصر كويصا بقطر قنصل الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا بأسيوط وحنا ميخائيل قنصل الروسيا وأندراوس بشارة قنصل إيطاليا وبلجيكا بالأقصر(328) ..

كبار الملاك الأوروبيين :

كان محظورًا على الأجانب أو الأوروبيين أن يمتلكوا فى سائر أجزاء الدولة العثمانية ، ولم يرفع هذا الحظر إلا بقانون عام 1867 أما فى مصر فقد سمح لهم محمد على بالتملك منذ أوائل حكمه(329) إذ أنعم على كبار من استعان بهم فى مختلف المجالات ببعض الإبعاديات بنفس الشروط التى كان ينعم بها على الآخرين ويعفيها من الضريبة(330) . كما وزع عليهم أراضى الرزقة وتبلغ 6.000 فدان معفية من الضرائب . وتابع خلفاؤه هذه السياسة. إلا أن التشجيع على التملك لم يبق محصورًا فى الموظفين . فقد شجع محمد على التجار الأوروبيين على الزراعة والاستيطان فمنح من أطيان الإبعادية كثيرًا من التجار اليونان الذين كانت لديهم رؤوس أموال فاستثمروها فى الزراعة وفى استصلاح الأراضى ، وحصل عدد من التجار الإنجليز على هبات من الأطيان فلم يأت عام 1840 حتى كان ما يملكونه وحدهم نحوًا من 25ألف فدان من أطيان الإبعادية. بل كان محمد على يساعد من لم تتوفر لديهم الأموال من الأوروبيين فيقدم إليهم القروض والماشية والبذور ، وبالقرار الصادر فى فبراير 1842 أصبحت الأراضى التى حصل عليها هؤلاء الأجانب ملكًا لهم(331) . كذلك كانوا يتعهدون بعض القرى العاجزة عن سداد الضرائب فيضعون أيديهم على بعض أطيان العهدة ، ويتمتعون بحق الانتفاع بها(332) . ثم جاءت اللائحة السعيدية هنا أيضًا فقيدتها أطيانًا أثرية باسم مستأجرها (بند 11 - 1858) .

وبعد صدور اللائحة أقبل الأجانب كأفراد على استثمار أموالهم فى الزراعة . فوضعوا أيديهم على مساحات واسعة من الأطيان الخراجية . إما عن طريق الشراء أو عن طريق تقديم القروض المالية للفلاحين ثم الاستيلاء بالتالى على أطيان من يعجزون عن السداد ، ولم تحل سنة 1887 حتى كانت مساحة ما يملكه الأجانب من الأطيان الزراعية فى مصر تبلغ 225.181 فدانًا وفى خلال عشر سنوات تضاعفت إذ بلغت 573.819 فدانًا فى عام 1896 ثم 622.522 فدانًا فى عام 1906 أى ما يتراوح بين 10 و11 بالمائة من جملة مساحة أراضىالبلاد الزراعية ، وحوالى 37.5 بالمائة من جملة الملكيات التى تزيد مساحتها عن خمسين فدانًا(333) .

بيد أن الجانب الأكبر من ملكيات الأجانب تمثل فى شركات الأراضى التى تأسست فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر ، وكانت تعتمد على رؤوس الأموال الأجنبية إلى جانب قدر محدود من رأس المال المحلى (وكله من غير أبناء البلاد الأصليين) فتعمل على شراء مساحات واسعة من الأراضى البور ، أو تحصل عليها كمنحة من الخديوى ثم تعكف على استصلاحها وبيع بعضها للغير(334) .

وفى عام 1919 كان 8.488 مالكًا أجنبيًا يملكون أكثر من 50 فدانًا أى أن مجموع ما يملكونه 583.463 فدانًا بمعدل 400 فدان لكل فرد مقابل 150 فدان متوسط ما يملكه الفرد من كبار الملاك الآخرين ، وكان هؤلاء الأجانب الذين يشكلون 4.5 بالمائة من مجموعالملاكين الخاصين يحصلون على دخل هذه الفئة ، وكان متوسط دخل الفرد الأجنبى 320 جنيهًا فى السنة مقابل 7 جنيهات للساكن الأصلى - أى 45 مرة أكثر(335) .

ولقد كانت هذه التصرفات من جانب باشوات مصر ، مع الأجانب ، تثير ثائرة الأهالى منذ أيام محمد على ، وقد تصدى رفاعة الطهطاوى للدفاع عنه ولتبرير موقفه قائلاً : « ... إن العامة بمصر وبغيرها يلومونه غاية اللوم بسبب قبوله الإفرنج وترحيبه بهـــم وإنعامه عليهم جهلاً منهم بأنه حفظه الله إنما يفعل ذلك لإنسانيتهم وعلومهم لا لكونهم نصارى ... »(336) فكان هذا مما يزيد فى تعميق شعور الأهالى فى مصر بتميزهم عن هذا الحكم الآخذ بالتوطد فى بلادهم بأساليب جديدة لم يعهدوها .

وعلى رغم هذه « المنافقة » فى مدح أعمال محمد على فإن رفاعة الطهطاوى لم يبق موضع ثقة الباشا ، وتعرض كثيرًا لغضبه بالنقل والتشريد .

طبيعة هذا الحكم :

كانت هذه الفئات : أفراد الأسرة وأتباعها ، الموظفون « العثمانيون » ، الموارنة والأقباط والأوروبيون ، عماد الحكم الذى أسسه محمد على ، وقد ملكوا أرض مصر وأعنة التوجيه فيها .

فئة (العثمانلى) هى الحاكمة ، تنظر إلى السكان الأصليين مهما علا قدرهم على أنهم مجرد « فلاحين » أولاد عرب أو عرب حنكنة سى (غجر العرب) أو قبطى عرب (حثالة) أو كور فلاح (الأجلاف) .. من حقها الاستمتاع الكامل بما فى أيديها من سيطرة وقوة . أما الآخرون ، أهل البلاد فمن « طبقة محكومة ثانوية » .. «أجيرة عند محمد على وأسرته الطبقة الحاكمة»(337).

هذه النظرة القائمة على نوع من تقسيم العمل لم تكن « طبقة » فحسب بالمعنى الاقتصادى - الاجتماعى ، وإنما كانت عنصرية بالدرجة الأولى . إذ « ما دام الرجل يتكلم التركية فلا معدى من اعتباره من طبقة أرقى من طبقة أبناء البلد مهما حقر شأنه »(338) . إنها أشبه ما تكون إلى النظرة السائدة حينئذٍ فى جنوب إفريقيا بين المستوطنين البيض الحاكمين والسود المحكومين .

كتب أحمد فارس الشدياق يصفها فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لدى زيارته لمصر قال : «فأما رجالها فإن للترك سطوة على العـــرب وتجبرًا . حتى أن العربى لا يحل له أن ينظر إلى وجه تركى كما لا يحل له أن ينظر إلى حرم غيره ، وإذا اتفق فى نوادر الدهر أن تركيًا وعربيًا تمشيا أخذ العربى بالسنة المفروضة ، وهى أن يمشى على يسار التركى محتشمًا خاشعًا »(339) . ولشدة ما هاله من انقلاب الأمر تساءل قائلاً : « ... ولم أدر ما سبب تكبر هؤلاء الترك على العرب .. إن النبى كان عربيًا ، والقرآن أنزل باللسان العربى ، والأئمة والخلفاء الراشدون والعلماء كانوا كلهم عربًا . غير أنى أظن أكثر الترك يجهل ذلك فيحسبون أن النبى كان يقول شـــويلة بويلة أبقالم قبالم .. لا والله ما هذا كان لسان النبـــى ولا لسان الصحابة ... » .

ولم يكن محمد على يفهم اللغة العربية ، أو كان يتظاهر بعدم فهمها ، فى أواخر أيامه على الأقل فلا يتكلم غير التركية ، ويستعين بمترجم عندما يتحدث إلى أحد أبناء العرب ، تمامًا كما يفعل كبار رجال الاستعمار مع أبناء البلاد الأصليين ، كذلك اقتصر كبار رجال الدولة على استخدام اللغة التركية دون سواها معتبرين ذلك مظهرًا من مظاهر العظمة والكبرياء(340) .

وكان محمد على يرفض سماع تاريخ العرب ، ويفضل عليه سماع قصص الإسكندر ونوادر نابليون ولا يطرب إلا للأغانى الجركسية والألبانية ، ويمنع الغناء العربى فى قصوره ، ولم يشذ فى هذا أحد من خلفائه. وإنما اختلفوا فى مشاربهم الأجنبية . فواحد يشتط كعباس مثلاً فى تقليد

(دار السعادة) - وإن أرخى للإنجليز داخليًا - ويأمر مستخدمى الحكومة بإطلاق لحاهم ولارتداء الطرابيش والأزياء السائدة هناك(341) وآخر يشتط كسعيد فى تقليد الفرنسيين والاعتماد عليهم، أو كتوفيق فى تقليد الإنجليز والاعتماد عليهم .

وفى ظل هذا المجتمع « العثمانى » الذى كان فيما مضى مسئولاً عن مظاهر التعصب الدينى ، تبدل وضع الأجانب الأوروبيين ، لحاجته إليهم . فبعد أن ظهرت قوة الغرب الحربية نسيت « عيوب » الأوروبى الدينية . فلم يعد منبوذًا كما كان ، كافرًا تفرض عليه ملابسه ، وترسل الصبية فى أعقابه وهو راكب حماره.. يتعرض للإهانات بل « ارتفع من المرتبة السفلى إلى مرتبة مساواة المسلم العربى من أهل البلد وحتى التفوق عليه »(342) . فكانت التنازلات على حساب شعب ومغبة ماض لم يكن مسئولاً عنه . أصبح الأوروبيون وفئة الحكم فى العهد الجديد يشتركون فى ازدرائه والانتقام منه وسلبه .

ولم يختلف الحال مع أكثر العناصر الشامية (غالبًا من المسيحيين الموارنة) ، ومع الأقباط ، سواء منهم الذين اتجهوا منذ زمن المماليك للعمل فى المصالح الحكومية أو هاجروا فى ركاب إبراهيم باشا ، أو على أثر اضطهادات دينية فى عهد عبد الحميد أو منازعات طائفية أو أزمات أخرى أو تشجيعًا من الدول الأجنبية ، صاحبة الامتياز فكأن مدارس التبشير فى لبنان فى أربعينيات القرن التاسع عشر كانت مهمتها تصدير الموظفين إلى مصر . وكانت لهم مصلحة مزدوجة فى هذا الحكم من جهة لهذا المناخ الجديد الذى أطلق لهم عنان السلطة ، ومن جهة لارتباط أعمال السمسرة والرهونات على القطن بين الفلاحين بما كانوا يلقونه من تسهيلات فى البنوك الأجنبيه(343) وبذلك انحازت هذه الفئات نهائيًا إلى صف الحكم وكبار الملاك والرأسمالية الناشئة ، وتبنت نفس مواقفهم من الازدراء والاستهانة بالشعب ، على حين نجد فئة أخرى منهم مستغلة اندمجت بالشعب اندماجًا تامًا .

ولم تكن « الصفوة المختارة » ، نخبة ممتازة فعلاً . فثمة ميزة مشتركة تجمع بينهم أتراكًا وأوروبيين وهى أنهم من حثالة القوم . كتب دوهاميل يصف الأتراك الذين اختارهم محمد على فقال : « إنه ليس من النادر أن نجد فى الطبقات الدنيا فى المجتمع التركى بين العمال والصناع بأن التجار أناس يتسمون بالاستقامة وسلامة النية . أما الأتراك المقيمون فى مصر فمن حثالة القوم . إذ يفدون إلى هذه البلاد للحصول على وظائف يثرون عن طريقها ، ومن الممكن أن يقال عنهم إن فيهم كل ما فى جنسهم من نقائص ، وليست لديهم فضيلة واحدة من فضائله . فهم جميعًا عدا القليل منهم أقرب إلى أن يكونوا أفــرادًا لا يعتنقون أى مبدأ نبيل ، وليست لديهم ذرة من الأدب ، لا شرف لهم ولا استقامة عندهـــم ولا وطنية فيهم »(344) .

ومن الأطباء والصيادلة الأوروبيين « من كان ممرضًا وعامل تلغراف وصانع أحذية فى مرسيليا وندلاً (جرسونًا) فى مقهى فى القاهرة ، وأن ثلثى أولئك الأطباء لا يحملون دبلومات ، ومن مائة صيدلى عشرة فقط حائزون للدبلومات ، وإذا ما هبط أوروبى مصر وليس له حرفة يحترفها سرعان ما يعين صيدليًا أو طبيبًا »(345) . ولم تختلف نوعية الأوروبيين الوافدين إلى مصر بحثًا عن الثروة فى التجارة والزراعة فى العهود التالية عنها فى عهد محمد على إلا من حيث العدد واتساع المصالح والاستغلال .

هل اختلف الأمر كثيرًا عن عهد المماليك . يرى د. أنيس صايغ أنه لم يختلف كثيرًا فى عهد محمد على عن المماليك(346) . فإن محمد على لم يقض فى مذبحة القلعة (1811) وفى حروبه فى الصعيد (1812) على أكثر من ألف من رؤسائهم من مجموع اثنى عشر ، والتحقالباقى فى خدمته كعادة المماليك فى السير بركاب المنتصر ، ثم جمع من أولادهم ألفين لم تبلغ سنهم الثانية عشر لكى يدربهم على الحرب النظامية انتظموا أولاً فى حرسه الخاص ، ثم التحقوا بمدرسة القلعة ، وصاروا بعد ذلك ضباط الجيش النظامى الذى أنشأه عام 1815(347) . والحقيقة أن عقلية المماليك لم تختف بل ظلت تخالف الظروف الجديدة . فقد خاطب إبراهيم باشا ضباطه ، بعد حرب المورة ، تمامًا كما كان يخاطب المماليك فقال : « ألسنا فى الحقيقة كلنا أولاد محمد على الذى ربانا وعلمنا . ألم نأكل جميعًا من خيره . إن مصر لمحمد على . حق اكتسبه بالسيف ولا نعرف لنا ملكًا غيره »(348) . وعجب توفيق كيف يجرؤ عرابى ورفاقه على المطالبة بحق وهم عبيد إحساناته . وحتى زمن عرابى ظل « هؤلاء الضباط .. يحاولون إحياء دولة للمماليك على حساب العنصر الوطنى المصرى »(349) . ولم تكن هذه الحقيقة لتغيب عن عامة الشعب . فكانوا يعرفونهم تارة باسم الأتراك والشراكسة أو الأرناؤود وأحيانًا باسم « المماليك »(350) .

وكطبقة المماليك كانت هذه العناصر تنتمى إلى أجناس متفرقة ولا تقطع صلاتها ببلادها الأصلية مثلهم أيضًا . فمحمد على أوقف من أرض مصر 10.742 فدانًا من قرى كفر الشيخ و23 ألف فدان بالمحلة الكبرى أطلق عليها اسم « وقف » قَوَلَه للإنفاق على مشاريع فمسقط رأسه(351) . وكان كثيرون من أفراد الأسرة ومن « الذوات » يفضلون الإقامة فى تركيا أو فى أوروبا . وكان ما اكتسبته هذه العناصر جميعها من وضع ممتاز فى البلاد مدخلاً للتعاون مع الأجنبى من جهة ، ولدعم أسرة محمد على من جهة أخرى . كما كان إحساسها بوحدة مصالحها الاقتصادية يخفف من حدة تباينها(352) . ولم يتغير الوضع بالنسبة للسكان الأصليين بتغير نوع العلاقة - فيما بعد - بين مختلف هذه العناصر التى هيمنت على مقادير مصر ، عندما أصبح « الأجانب » يحتلون المركز الأول وتراجع « الذوات » إلى المركز الثانى ، فى ظل الاحتلال .

وخلاصة القول أننا لا نرى فى الحقيقة ما يوجب للتفريق بين هؤلاء الأجانب طالما أنه ، على اختلاف جنسياتهم : غربيين كانوا أم شرقيين ، يجمعهم قاسم مشترك هو الربح وتجميع الثروة والسعى إلى مصادر السلطة والمال وموالاة الأجنبى . وطالما أنهم يرتبطون جميعهم بشبكة الرأسمالية الأوروبية ويعيشون تقلبات رياحها . كذلك فإنه لا فرق فى الموقف العربى بين الشامى والمصرى والمغربى والحجازى والعراقى - مسيحيًا كان أم مسلمًا - .

ذلك أن ملكيات هؤلاء الأجانب وامتيازاتهم واستثماراتهم أيًا كانت الفئة الاجتماعية التى ينحدرون منها - كانت تجعلهم فوق مستوى أهالى البلاد(353) .

ولقد أخذت فى ظل هذا الحكم تلقى بذور قومية جديدة تغذيها أسرة محمد على وفئات الحكم ، وأخذت ترفدها مختلف وسائل الحضارة الحديثة ، وخاصةً ما يسمى علم الإيجبتولوجيا ، بقصد تعزيز استقلال مصر فى الأذهان وإعطائها كيانًا مستقلاً ، منفصلاً عن البلاد العربية ، ضاربًا فى القدم ، كما استغلت لهذا الغرض فتوحات محمد على من جهة بما تخلقه فى النفوس من الاعتزاز ومن جهة بما تولد ، من ناحية نتائجها ، من الكراهية والحقد ، وبالتالى من العزلة .

فقد ارتجل سعيد خطبة ، فى مأدبة ضمت علماء ورؤساء روحانيين وأعضاء الأسرة الحاكمة وأعاظم رجال الحكومة من مدنيين وعسكريين فقال : « أيها الأخوان إنى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلومًا مستعبدًا لغيره من أمم الأرض . فقد توالت عليه دول كثيرة : كالرعاة والآشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان . هذا قبل الإسلام وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب ومن الترك والأكراد والشركس ... »(354) . ولم يخرج رد الذوات على خطبة إسماعيل فى افتتاح أول مجلس شورى عام 1866 عن هذا المضمون(355) . وعلى هذا النحو صيغت عقول الفئات التى تتحكم بمصير البلاد .

وقد دأبت أسرة محمد على على إبراز كل ما يضفى على مصر صفات الاستقلال والتميز فقد أعطى محمد على للوقائع رمزًا ، وهو أصيص لشجرة القطن فى البداية ، وما لبثت فى عددها الصادر فى 8 شوال 1244 أن أصبح يشار إليها بالهرم ، وقد تهيأت من خلفه الشمسللإشراق وأطلت إحدى شجيرات النخيل وراءه(356) . واستدعى إسماعيل خبيرًا من إيطاليا يدعى باولينى لوضع أول طابع بريدى خاص بمصر(357) . وكتب إلياس الأيوبى عنه « مازال بالطلبة المتعلمين على يده حتى أوجد فيهم روح الاهتمام بالماضى المصرى السحيق - بالرغم من الهاوية التى حفرتها العقائد بين عقليتهم وعقلية أجدادهم البعيدين، وحتى تمكن من إنشاء قنطرة على تلك الهاوية بين عصر الفراعنة وعصر إسماعيل . وأهم ما ينتج عن اشتغال طلبة فى حل الكتابات الهيروغليفية زوال نفور مصريى اليوم ، المسلمين والكتابيين ، بالتدريج من قومية مصريى عصور الوثنية وتاريخهم وأعمالهم والإقبال شيئًا فشيئًا على مطالعة أخبارهم ، والاعتبار بآثارهم ، والدنو من الحنو عليهم والتفاخر بهم بالرغم من مؤثرات المعتقدات . وإن لم يكن للأمة مجد سالف وأثر باق فلا تدوم سلطتها ولا تتأصل حضارتها »(358) . وهكذا نجح محمد على فى الاستقلال بمصر وعمل خلفاؤه على خلق قومية لحكمها .

كانت فكرة هذه القومية متلائمة مع طبيعة الحكم ، وبسبب ما رافق بناء الدولة الحديثة فى مصر من توحيد السوق الداخلى ، وإزالة الحواجز التى كانت تعوق النشاط الاقتصادى . مما يسر بالتالى انفتاح الجيوب الداخلية بعضها على بعض وتقبلها لمختلف الآراء والأنباء والتوجيهات .. ذهب بعض التقدميين إلى القول بنشأة القومية المصرية على هذا الأساس ، وحقيقة الأمر أن هذه « القومية » التى نشأت فى أوساط الحكم وغرستها المدارس ودعمها الفكر الغربى ظلت بعيدة عن أذهان الأهالى ، محصورة فى نطاق المدن الكبرى والأندية والصالونات .

مؤهلين لتولى المناصب الكبرى(359) ثم يرتقون إلى مصاهرة العائلات التركية والشركسية الكبيرة ويسكنون المدن ، ويقيمون القصور ، ويسرون سيرة الطبقة الحاكمة(360) .

ولكن أشكال الحياة التركية أخذت تتلاشى أمام انتشار أساليب الحياة الأوروبية وانبهار أفراد أسرة محمد على بها ، وتسابق فئات الطبقة الحاكمة إلى الأخذ بها ، ومن أكثر جوانبها زيفًا وسطحية وفسادًا ، وإذ تراخى التزمت الذى كان يحيط بهذه « الحياة التركية » ليجعل منها المثل الأعلى ، فقدت رونقها ونفوذها ، وأصبح الأتراك الحاكمون وأولاد العرب المحكومون ، على حد سواء بالنسبة للحضارة الأوروبية ، يتبارون فى تقليدها ، من موقف واحد من الشعور بالنقص . بل ربما كان أولاد العرب أقل إحساسًا بهذا النقص . لأنهم ينتمون إلى حضارات عريقة . ومع تطور هذا الوضع يأخذ ميزان العلاقات بالتحول .

لذلك أخذنا نسمع الأصوات ترتفع فى نقد حياة الذوات التى يخلدون فيها إلى « الراحة والدعة والسكون والاكتفاء بالموروث عن آبائهم من المال والمتاع والعقار ... »(361) فلم تعد مثلاً أعلى يقتدى به . بل أصبح نهج حياتهم « مفسدًا لنساء مصر ، مضيعًا لمستقبل أولادها » وسهراتهم هى «سهرة الأنطاع»(362) فأين منها حياة أغنياء أوروبا وأمريكا الذين يبذلون جهودهم فى الأعمال الحيوية النافعة ؟ حتى لقد انبرى من أعيان مصر من ينعى على فئة الأعيان نفسها ، ما جرت عليه عادتهم - بعد حضور تشريفات الأعياد بسراى الخديوى - من المرور على بيوت الذوات وتهنئتهم ، ويدعونهم إلى الكف عن ذلك صونًا لكرامتهم(363) . وهكذا لم يعد الذوات قدوة للأعيان .

ومن جانب آخر فإن العناصر العثمانية ، التى قدّر عددها بعض القناصل فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر - بتسعة عشر ألفًا(364) قد أصبحت فى أواخر القرن ، تنحصر فى أسرة محمد على بفروعها المختلفة وبعض العائلات التركية التى تلوذ بها . ذلك أن سيل الأتراك الذى انهمر على مصر خلال عهد محمد على وعباس الأول أخذ فى الانحسار بعد ذلك ، ولم يعد أى عنصر من العناصر التركية أو الكردية أو الشركسية يقبل على الهجرة إلى مصر. كما توقف جلب المماليك مما حرم طبقة « ذوات مصر » من المورد الذى يضمن استمرار نموها(365) فلم يعد أمامها إلا أحد طريقين : الاندماج فى الشعب أو الاعتماد على الأجانب ، للبقاء أو الحراك الاجتماعى من الداخل .

كان يكفى لوضع أسرة محمد على وذوات مصر أمام هذا الاختيار أن يلفت أحد أبناء الشعب من القيود التى أحكمت حوله فيصل إلى مركز المسـؤولية ليفصح عن إرادة أهل البلاد . وهـذا ما فعله عرابى ورفاقه عندما أتيحت لهم الفرصة . وقد اتضح حينئذ أن مجرد قيام حكم وطنى كفيل بإظهار حقيقة مصر العربية . لأنه لابد لهذا الحكم وهو يستجمع قواه لمقاومة القوى المعادية والمطبقة على مصر من أن يدرك بأن قوة مصر ليس فى الانطواء على نفسها ، وليست فى انعزالها ، وإنما فى تلك الروابط التى تصلها بالعالم كما أنها تنبع من إحساسها بدورها فى هذا العالم العربى .

ولعله مما يزيد هذه الحقيقة وضوحًا فيما كشفت عنه الثورة العرابية أن نتناولها من خلال تطور أوضاع الأهالى فى ظل حكم أسرة محمد على . وكان لابد لمن هُيِّئ له الشعور بالانتماء لشعب البلاد الأصلى ومن نفس تعتلج فيها أحاسيس الحميّة ، من أن يأنف هذا الظلم ويثور عليه .

الفصل الثامن : الفلاحون = الأهالى = أولاد العرب

الفلاحون = الأهالى = أولاد العرب

إن النظرة فى أحوال الأهالى تساعد على استكمال الصورة . وذلك إن النظرة المقارنة حتى فى احوالهم تحت الحكم العثمانى وتحت الحكم الجديد تقدم المعيار الحقيقى لقيمة التغيير باتجاه النظام الحديث . إذ إن بعض المؤرخين يحاولون طرح المسألة كما لو أنها كانت مسألة حضارة ومسألة اللحاق بأوروبا . ولما كانت الحضارة لا تبنى دون شعب . فلابد إذًا من تحديد مكان الشعب الأصلى صاحب البلاد فى هذه الحضارة المزعومة ومبدع معجزات الماضى .

الفلاح فى عهد المماليك والعثمانيين :

تحت حكم المماليك كان الفلاح « يأتمر بمشيئة سيادة الإقطاعيين . يعمل فى قرية سيده سحابة الحياة دون أن يحق له الخروج منها يومًا » . فهو عبد أو كالعبد . والسيد يحكم باسم السلطان ، ويستبد بإذن الإقطاعية فيأتمر العبد ولو مظلومًا دون أن يحق له يومًا أن يرفع أمره شاكيًا ما به إلى السلطات العليا ، بل وللسيد الحق إذا شاء أن يطلب من السلطات معاقبة فلاحيه(366) .
وكانت هذه الحالة هى السبب الرئيسى فى قيام الثورات المتتالية (وقد كان معظمها فى الصعيد لبعدها عن المركز) . ولم يستطع الاحتلال العثمانى أن يحسن فيها أو يبدل شيئًا . بل زاد الأمر سوءًا . فما كادت ثورة « قنصر بك المحمدى » الذى حاول إرجاع دولة المماليك تندلع فى عام 1523 ، حتى شاهدنا عددًا وفيرًا من الفلاحين ينضم إليها(367) .

ووصف الجبرتى الفلاحين فى ظل الحكم العثمانى بما لا يختلف عن ذلك . فقد « كانوا مع الملتزمين أذل من العبد المشترى . فربما أن العبد يهرب من سيده إذا كلفه فوق طاقته أو أهانه بالضرب ، وأما الفلاح فلا يمكنه ولا يسهل به أن يترك وطنه وأولاده وعيًا ويهرب ، وإذا هرب إلى بلدة أخرى ، واستعلم أستاذه مكانه أحضره قهرًا وازداد ذلاً ومقتًا وإهانة »(368) .

ومن جهة أخرى ، إذا أراد هؤلاء الفلاحون أن يستغلوا الفائض من نشاطهم ويزيدوا مواردهم ، كانوا يستأجرون المراعى للحراثة والحبوب للزرع من أسيادهم أو من الثريين الميسورين فى القرى والمدن، وكانت الفائدة المتقاضاة لذلك الدين فى القرن الثامن عشر بين 12و13 بالمائة ، ثم ارتفعت إلى 50 بالمائة (كل 14 شهرًا) حوالى عام 1830(369) .

الفلاح فى عهد محمد على :

لاشك فى أن حالة من الانتعاش والراحة قد ألمت بالفلاح فى مطلع عهد محمد على حين التزم بوثيقة تعيينه . فلم يفرض ضرائب جديدة وألغى الالتزام ، فأشرق أمله وعاودته عزته . يومئذ صار الأهالى يتطاولون على الملتزمين « بالألسنة - فيقول الحرفوش منهم إذا دعى للشغل بأجرته روح انظر غيرى . أنا مشغول فى شغلى . أنتم إيش بقالكم فى البلاد قد انقضت أيامكم!.. - إحنا صرنا فلاحين الباشا »(370) .

ولكن فلاحو الباشا باتوا يواجهون لأول مرة سلطة حكومة مركزية منظمة ، فهل تكون أرفق بهم ، وهى أقدر على التحكم والاستقلال ؟ كما أنها أقدر على توزيع الموارد وتنظيمها واستثمارها - لصالح الأهالى إذا أرادت .

إلا أن قدرة النظام الجديد على استغلال الموارد وتنظيمها واستثمارها كانت تستهدف وجهات أخرى . ولم تقف مطالب الباشا عند احتكار كل شيء . بل كانت تفرض أنواع الزراعة وتحدد مقدارها دون النظر إلى حاجة الناس ، وإذا كان الأهالى فى الحكم العثمانى ، يجدون فى نفوذ المشايخ واستعدادهم للقيام بالوساطة بينهم وبين الحاكم الظالم ما يخفف عنهم أحيانًا ، فإنهم فى عهد محمد على - بعد القضاء على الزعامة الشعبية وشراء ضمائر الآخرين وإرهابهم ، لم يبق لهم من « وسيط » إلا عساكر الباشا وكرابيجهم . إذ أصبح الجلد 50 كرباجًا هوالعقوبة البسيطة الشائعة على التأخير فى توريد المحاصيل ولشؤون الحكومة . بل كانت تصل أحيانًا إلى الإعدام(371) .

وسرعان ما أصبح منظر المنازل والأكواخ المهجورة المتداعية يوحى بأن « المدن والقرى كانت فيما مضى أكثر ازدحامًا بالسكان مما هى عليه فى الوقت الحاضر ... »(372) - أى فى عام 1833 - وكان سكان هذه الأكواخ إذا خرجوا منها ، خرجوا « وهم يكادون أنيكونوا عراة الأجسام - وإذا تبلغوا بشئ من الزاد فليس بغير الذرة والبصل . ذلك لأن قيمة حاصلاتهم الاسمية لا تكاد تكفى لأداء الضرائب ولأن تمسك عليهم حياتهم »(373) .

ولم يكن الفلاحون فى جفالك محمد على - وهى المزارع كاملة العدد - أفضل حالاً . فقد كانت تعد 18 جفلكًا (عام 1847) ، أغلبها فى الوجه البحرى تضم زمام 843 قرية ، تقسم أراضيها إلى حصص توزع على الفلاحين ليزرعوها مقابل سدس المحصول (الربع فى الذرة الصيفى والنصف فى النيلى). ويعطى الفلاح كل خمسة عشر يومًا أجرًا نقديًا أو عينيًا ، وعند نهاية العام يحسب ما يخص كل فلاح من ريع الأرض ، ويخصم منه ما صرف له خلال العام وما ينوبه من أجور الفلاحين الذين يجلبون من خارج أراضى الجفلك للمساهمة فى الحصاد ويعطى الباقى له . فإذا لم توف حصته بما عليه أضيفت الزيادة إلى حسابه كدين يسدده فى العام التالى . فإذا استمر العجز فى مستحقاته كفت يداه عن حصته ، وتحول إلى «أجرى» يعمل فى أرض الجفلك وقت البذر والحصاد لقاء أجر يومى ، وتوزع حصته على غيره من الفلاحين(374) . وقد بلغت أحوال هؤلاء الفلاحين حدًا كبيرًا من السوء حد ببعض الأجانب المتصلين بمحمد على إلى اقتراح إقامة مطاعم جماعية بكل جفلك تقدم فيها وجبات غذائية يقيمون فيها أولادهم .. كما اقترح عليه إقامة منسج بكل جفلك لصناعة القماش اللازم لملابس الفلاحين. فقوبلت هذه الاقتراحات بالرفض .

ولعل ظاهرة الهرب ، أو التسحّب ، التى أشار إليها الجبرتى وبولياك فى العهدين المملوكى والعثمانى ، أكثر إبرازًا لأوجه المقارنة . فالفلاح حينذاك كان مرتبطًا بأرض أستاذه وسيده ، يفصل فى أموره باسم السلطان، وله أن يستعين عليه بالحكومة لضبطه وتأديبه وإخضاعه . أما فى عهد محمد على فقد قنن هذا الوضع وكفلته اللوائح . إذ نصت لائحة ذى الحجة 1263 - نوفمبر 1847 - على حق الحكومة ، أى حق محمد على ، فى إعادة الفلاح الهارب من أرضه وإرغامه على زراعتها(375) . ومع ذلك تذكر هيلين رفلين بالاستناد إلى وثائق أجنبية - أن عدد الذين هربوا من مديرية البحيرة وحدها بلغ نحو 12 ألف أسرة - فكان الهاربون يساقون مع زوجاتهم وأطفالهم تحت حراسة عسكرية لإعادتهم إلى الجفالك(376) - .

وفى عام 1855 بلغت مساحة الأرض المهجورة نتيجة لفرار الفلاحين 46.866 فدانًا(377) . وإذ لم يكن الفلاحون يأمنون من الفرار داخل القطر فإنهم كثيرًا ما كانوا يفرون إلى الأقطار البعيدة مثل السودان والشام . وكان حرمان حتى من حق الفرار من ديارهم من القسوة والجور بحيث دفع السلطان العثمانى إلى الانتصار لهم . فأصدر مرسومًا يبطل شرعية هذا الحرمان ، اعتبره بولياك من مقدمات الحرب « العلوية - العثمانية »(378) .

ولعلنا نجد فى ذلك تعليلاً لـ « كثرة عدد المتسولين إلى درجة عظيمة »(379) التى يشير إليها القناصل فى تقاريرهم ، ولعله من المفيد توضيحًا للصورة أن نورد هنا بعضًا من اللمحات التى خلفها لنا النديم من مشاهداته : فقد كتب فى الطائف فى عدد 29/4/1882 يقول : « وقد شاهدت القواصين وجباة الضرائب يعترضون سير جنازة فى أحد الشوارع ، ثم تقدم أحد القواصين ، وأمر بإنزال النعش من فوق أكتاف المشيعين حتى تدفع الضريبة التى كانت مستحقة على الميت .. وصاح المشيعون : لعنة الله على الخديوى فى كل كتاب . وأخيرًا دفعت الشهامة أحد المشيعين فأعطاهم الضريبة وكانت ستة قروش .. وكتب عبد الله النديم فى 26/5/1882 يرسم صورة أخرى للسخرة قال : « وقد رأيت ألوفا من الأهالى جمعوا من كل المديريات لحفر رياح الخطاطبة كى يسقى مزارع الخديوى وكان البرنس حسين باشا مفتشًا للوجه البحرى . مر القواص على جواده معلنًا أن البرنس سيفاجئهم للتفتيش . فهرع الملاحظون إلى قطع الأغصان الغليظة من الأشجار ، ونزلوا بها على جسوم الفعلة العارية فلا تسمع إلا الأنات والصراخ والنحيب ، ولا يظهر من هذه الأجسام الملطخة بالطين سوى مواضع السياط . وكلما مر البرنس ورأى الأنفار تقع على الصخور وتغرق فى الوحل وتضرب على الوجوه قال للمدير (أفرين ! أفرين) أى برافو برافو . فما انتهت زيارته إلا وعدد الموتى قد بلغ الثلاثين بين مضروب بالسياط وغريق فى الوحل . ورأيت طفلاً يبلغ من العمر 8 أو 9 سنوات قد وقف على الجسر فى الطريق يتفرج على موكب المفتش فتناوله أحد السـواس من يده وألقاه فى الترعة فمــات لوقته . فتبسـم المفتش لذلك السائس استحسانًا لفعله » .

الفلاح والأنظمة الحديثة فى ظل أسرة محمد على والاحتلال :

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فاق ما حل بالأهالى كل وصف . لقد أحصى يوسف نحاس سبع عشرة ضريبة كان الفلاح يؤديها غير ما لا يمكن استقصاؤه من استباحات قومندانية الأقاليم، وما تبتدعه قرائحهم وغير ما كان يؤديه لشيخ البدو لقاء حمايته من البدو الآخرين(380). وظل الكرباج هو الوسيلة التى يلجأ إليها « لحمل الفلاحين » على تقديم ما عندهم من الأموال(381) فقد سجل النديم فى إحدى مقالاته أن سيدة من السيدات جلدت بالكرباج حتى الموت

. لأنها رفضت أن تدلى بالمكان الذى كان زوجها يضع فيه أمواله ، وكان مدينًا للحكومة بمبلغ (45) قرشًا(382) . وفى 26 يناير 1877 ذكر مراسل التايمس فى الإسكندرية « أن الأنباء الواردة من داخل البلاد قد أجمعت على توقع جباية ضرائب العام الجديد قبل عام من موعد حلولها »(383) كأنما كان الحكم المنظم فى « النظام الجديد » أكثر براعة وإحكامًا فى الجباية .

كان عدم ثبات زمن جباية الضريبة ومعرفة مقدارها يدفع الفلاح إلى الالتجاء إلى المرابين وفيما بعد إلى البنوك ، وجعله ازدياد التعامل بالنقد فى حاجة دائمة إلى الاقتراض للإيفاء بما يترتب على للدولة ولإدارة حركة أرضه خلال السنة(384) .

وإذا كان الفلاح يقترض فى العهد العثمانى بغية استغلال الفائض من نشاطه وزيادة مردوده السنوى بفائدة بلغت فى أقصى ما وصلت إليه 50 بالمائة كل 14 شهرًا(385) فإن تاجر القرية الأوروبى فى عهد أسرة محمد على أصبح « لا يؤدى نقوده سلمًا ، ولو قبل الحصاد بعشرين يومًا إلا ستين فيما يساوى مئة وقت الحصاد فتكون الفائدة أربعين وأزيد فى الشهر الواحد وصاحب البنك لا يعطى إلا بفائدة فى المائة عشرة . بل أزيد فى كل شهر ، ومن الناس من كان يأخذ المائة بمائتين فى أربعة أشهر »(386) .

ولا ندرى أيهما كان أقسى على الفلاح : ملاحقة الحكومة له بالضرائب أم ملاحقتها له لفرض القوانين الأوروبية ، سواء فى التعامل مع البنوك أم فى القضايا التى تعرض على المحاكم المختلطة (1876) . فقد كانت فى الأمرين أداة فظيعة لضرب الذلة والمسكنة على الأهلين . إذ سنت حكم القانون الأوروبى الشخصى على مجتمع لا يعرفه . لأن الشريعة الإسلامية لا تجيز الحكم غيابًا ، ولا كان بيد الدائن سلاح نزع ملكية المدين وسقوط حقه بمضى المدد فأعطاه هذا الحق ، وبذلك أحكمت وسائل نهب الفلاحين وسلبهم أراضيهم ، بل إن ثمة اعتقادًا سائدًا فى أن ظهور البنوك فى مصر يرجع إلى إنشاء هذه المحاكم ، وإن كانت قد وجدت من قبل وكانت مهمتها إقراض الخديوى(387) .

وفى ما بين عامى 1876 – عام إنشاء المحاكم المختلطة – وعام 1882 زادت أموال الرهن المدونة فى قوائم الرهن على وجه التقريب من 500.000 إلى 7.000.000 جنيه منها 5.000.000 جنيه خاصة بالفلاحين . علاوة على ما عليهم من ديون للمرابين فى الأريافتتراوح ما بين ثلاثة ملايين وأربعة ملايين جنيه(388) . بل لم يأت عام 1879 حتى قيل أن أكثـــر الفلاحين لا يملكون الأراضى التى يزرعونها ، وأن فئات أخرى تملك تسعة أعشارها . وهكذا بدأ نزع ملكية الفلاحين .

ومضت الأمور تحت الاحتلال ، قدمًا ، على نفس المنوال للتمكين من سلب الفلاحين أراضيهم . إذ سارت البنوك وخاصة البنك العقارى على أن لا تقبل رهنًا إلا الأطيان التى تثبت ملكيتها بعقود رسمية أو بعقود عرفية مضى على تسجيلها خمس سنين وهو الأجل الذى يكتسب فيه واضع اليد بسند صحيح حق التملك بمضى المدة . بالإضافة إلى أن فائدته كانت مرتفعة (من 6 ونصف إلى 7 بالمائة)(389) وبينما كان البنك الزراعى الذى أنشئ عام 1898 يعطى كبار الملاك العقاريين قروضًا قيمة الواحد 500 جنيه يرهن على أطيان تساوى ضعفى القرض وتسدد أقساطًا سنوية على 20 عامًا فإنه كان يعطى صغار الفلاحين من فئة (أ) بفائدة قدرها 8 بالمائة . فكان مجموع ما أقرضه منذ إنشائه إلى عام 1908 مقدار 15.140.000 جنيه منها 2.110.000 جنيه لفئة

(أ) – صغار الفلاحين – والباقى لفئة (ب) – كبارالملاكين – أى 13.020.000 جنيه(390)
وقد علقت جريدة « الأهالى » على ذلك بقولها : « كل عين يقدمها صاحبها إلى بنك بقصد أن يرهنها فقل على ملكيته لها السلام - ذلك أن الفلاح المسكين الذى يعمل هو وأولاده طول العام فى الحقل ، لا يعمل من أجل أن يعيش ولا من أجل أن ينمى ثروته ولكن من أجل أن يدفع قسط البنك »(391) .

فى مطلع القرن التاسع عشر قدرت الحملة الفرنسية (جومار Jomard) عدد سكان مصر بـ 2.5 مليون زائد 130.000 بدوى وقدره منجن Mengen بـ 2.5 مليون فقط فى عام 1822 وتراوحت تقديرات مادين Madden وكادالفين Cadalvin وبورنج Bouringودوهاميل Duhaml وكلوت بك Clot Bey بين 2.213.000 و3.2.500.000 ملايين فيما عدا بين عام 1835 وعام 1840 وفى رأى دى رينى De Regny أنهم 4.5 مليون و180.000 بدوى و60.000 أجنبى (أوروبى) فى عام 1846(392) . وفى عام 1813 ، عندما وزع محمد عل الأطيان الأثرية (الخراجية) على الفلاحين بما يتراوح بين ثلاثة أفدنة وخمسة لكل أسرة(393) قدرت مساحة الأراضى المنزرعة بـ 3.218.715 فدان كما قدرت بـ 3.906.000 فدان عام 1840 مما يسمح بالقول أن نصيب الفرد الواحدمن الأهالى كان يمكن أن يكون لو وزعت الأراضى كلها قريبًا من فدان طيلة عهد محمد على (0.99 بالمائة)(394) إذ لم يكن محمد على قد توخى من توزيع الأرض استثمار جهد الفلاحين بصورة منظمة .

وما لبث التفاوت أن اتسع ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، بين مساحة الأرض المنزرعة ونسبة تزايد السكان . فعلى حين قدرت المساحة بأربعة ملايين فى عام 1860 وقدر عدد السكان بـ 5.275.000 ، كانت المساحة فى عام 1897 وعام 1914 على التوالىمن 5.327.000 فدان ومن 5.652.000 فدان وكان عـــدد السكان فى نفس الفــترة 9.714.000 و12.292.000 نسمة(395) بحيث أصبح يقدر – فى عام 1917 – نصيب كل 2.42 رجل فدانًا واحدًا من الأرض(396) مما أدى إلى تكاثر فئة المزارعين غير الملاكين ، أو فئة الذين يملكون أقل من فدان(397) (انظر الجداول المرفقة) بسبب زيادتهم عن حاجة الزراعة . وكان مستوى معيشتهم مطرد الانخفاض إلى حد أدنى من الوفاء ببدائيات الحياة ، لا يكاد متوسط دخل الواحد منهم يزيد على أربعة جنيهات فى السنة . وزاد الأجر اليومى خلال الحرب العالمية الثانية من قرش ونصف أو قرشين إلى ثلاثة قروش ثم إلى خمسة قروش فى سنوات ما بعد الحرب(398) . ويذكر إبراهيم عامر أن الفائض عن حاجة الزراعة قد بلغ فى عام 1947 نسبة 47 بالمائة من مجموعهم ولم تكن أيام عمل الذين يشتغلونمنهم تزيد عن 150 يومًا فى السنة(399) .

لعل الجداول التالية تلقى مزيدًا من الأضواء على ملامح الصورة :

ملاكون كبار أكثر من (50 فدانًا)

السنة	عددهم	نسبتهم المئوية إلى السكان	مساحة ما يملكون	نسبتها المئوية
1894	11.900	%1.3	2.243.500	%44
1914	12.480	%0.8	2.396.940	%43.9
1930	12.599	%06	2.285.305	%38.7

ملاكون متوسطون (من 5 إلى 50 فدانًا)

السنة	عددهم	نسبتهم المئوية إلى السكان	مساحة ما يملكون	نسبتها المئوية
1894	141.070	%15.4	1.756.100	%34.3
1914	132.600	%8.5	1.638.000	%30.4
1920	146.046	%6.3	1.758.781	%29.7

ملاكون صغار (أقل من 5 أفدنة)

السنة	عددهم	نسبتهم المئوية إلى السكان	مساحة ما يملكون	نسبتها المئوية
1894	761.300	%83.2	1.113.000	%21.7
1914	1.414.920	%91.7	1.425.060	%26.7
1930	141.334	%93.1	1.784.304	%31.6

انقراض الصناعة المحلية

كان لابد فى غياب الحكم الوطنى ، ألا تقوى الصنائع التى اشتغل فيها الوطنيون أنفسهم قرونًا طويلة ، على الصمود فى وجه الغزو التجارى الأوروبى . لذلك بدأت هذه الصناعات بالانقراض ، وأبلغ وصف لما حل بها جاء فى تقرير كرومر لعام 1905 ، قال : « من يقارن الحالة الراهنة بالحالة التى كانت منذ 15 سنة يجد لونًا مدهشًا وفرقًا شاسعًا . فالشوارع التى كانت مكتظة بدكاكين أرباب الصناعات والحرف من غزالين وحياكين وصباغين وخيامين وصانعى أحذية وصائغين وخردجية وسمكرية وصانعى قرب وغرابيل وسروج وأقفالومفاتيح .. إلخ قد أصبحت الآن مزدحمة بما قام على أنقاض هذه المحال من القهاوى والحوانيت الغاصبة بالبضائع الأوروبية »(400) وبانقراض الصناعات الوطنية وانتشار أشكال الحضارة الحديثة كان لابد من أن ينتزع الأجانب المباداة من أصحاب الحرف الوطنيين ويحلون محلهم . فأصبح صناع الأحذية من الأوروبيين ، وتولى اليهود فى الأغلب بيع الأنسجة والخياطة وأفلت زمام النشاط الاقتصادى من أيدى الأهالى .

وبعد أن اشتد إقبال رأس المال الأجنبى، وسادت البضائع الأوروبية أسواق البلاد رأى أصحابه أن إقامة بعض الصناعات البسيطة ، التى تعمل بآلات حديثة وتوفر إنتاجًا واسعًا تكون أكثر ربحًا . إذ توفر النقل ، وتستفيد من رخص اليد العاملة وكثرتها ، كما توفر الرسوم الجمركية (8 بالمائة) فجذبت هذه المؤسسات الجديدة إلى خدماتها جانبًا من الجماهير من أبناء الريف المعدمين والصناع الحرفيين(401) حيث كان العمل أفضل من الموت جوعًا . إذ تشير البيانات إلى أن الأجر اليومى - على سبيل المثال - لعامل غير فنى لم يكن يتعدى ثلاثة قروش ، وأجر الحدث فى محالج القطن كان قرشًا واحدًا ونصف وأجر العامل الفنى ثمانية قروش . أما الأجور المدفوعة بالشهرية فى بعض الحالات فكانت – على سبيل المثال أيضًا – 280 قرشًا لعامل الترام سنة 1908 و50 قرشًا لسائق القطار بالسكك الحديدية سنة 1911وكان متوسط عدد ساعات العمل اليومية 13 ساعة فى الغالبية العظمى من المرافق ، وخاصة مرافق النقل . بل هناك ما يؤكد أن ساعات العمل فى محالج القطن كانت تقارب 17 ساعة يوميًا(402) .

نهب منظم : وبسبب من عملية النهب المستمرة التى شارك فيها الجميع كل بحسب موقعه وطاقته ، وبسبب من فقدان الصناعات الوطنية المنتجة لتعويض النقص فى الدخل القومى ، وبسبب ضياع قيمة الفائض فى اليد العاملة .. كان لابد أن يقع ظلم ما جلبته تلك الظروف من غلاء فى الأسعار على كاهل الأهالى ليزيدهم فقرًا . ففى الفترة ما بين 1800 و1907 س زادت أسعار المواد الغذائية 5.7 وزاد إيجار المساكن فى المدن فى نفس الفترة 29 مرة(403) وأصبحت مصر «البلد الذى كان دائمًا مصدر الفول والحبوب إلى كل البحر المتوسط مضطرًا لاستيراد الأغذية من الخارج للتغلب على المجاعة .. فقد ارتفعت الأسعار بسرعة ، وأصبح ثمن القمح ثلاثة أمثال أو أربعة أمثال ثمنه ، فى عام 1846 ، وتضاعف ثمن الزيت والخضروات ثلاث مرات ، وارتفعت أسعار الغلال والفول بنسبة 400 بالمائة وارتفعتأسعار اللحم الضأن من 4 بنس إلى شلن فى الرطل..»(404) .

انعكاس الحالة على التعليم : وعلى هذا بات من الطبيعى أن يحرم الفلاحون والعمال ، وهم يكونون الجمهرة الكبرى من الأهالى ، من التعليم الحديث نظرًا لما كان يتطلبه من مصروفات باهظة تعجز عنها قدراتهم المادية والمعاشية . كما أن انشغالهم طوال أيامهم تقريبًا بكسب قوت يومهم جعلهم لا يجدون من الوقت ما يفكرون فيه طرق أبواب التعليم . خاصة وأنهم كانوا بحاجة دائمة إلى أبنائهم منذ سنينهم الأولى لمساعدتهم فى أعمالهم(405) .

والخلاصة أنه إذا كان الانتقال من شكل الدولة القديم إلى الشكل الحديث لابد من أن يستتبع تغييرات ويحدث تدهورًا فى ناحية وتقدمًا فى أخرى إن عاجلاً أم آجلاً . فالسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : أين هى إرادة البلاد فى هذا التغيير ؟ إن ما يؤسف له حقًا ليس تقويض ذلك القديم وإنما أن يتولى إحداث هذا « الجديد » أجانب من أوروبيين وعثمانيين فى إطار الرأسمالية العالمية لتنفيذ مخطط دقيق يجعل قنوات الإنتاج فى البناء الاقتصادى كله تصب عائد عملياتها إلى خارج البلاد ، ولا يترك للأهالى إلا ما يكفى للاستمرار فى الحياة حتى يمكنهم من القيام بدورهم فى خدمة هذا المخطط ، فزمام النشاط كله فى هذا البناء والنهوض بمختلف شؤونه جميعًا بيد الأجانب ولصالحهم « فيما عدا الأعمال البسيطة التى لا يمكن جلب من يقوم بها من الخارج جلبًا اقتصاديًا .. »(406) وحرص محمد على – الذى تحدث عنه مصطفى فهمى – على الفلاح المصرى وعلى العامل المصرى ، ، حرص اقتصادى باعتبارهما مصدرًا للثروة ، قليل التكلفة ، وهو لا يختلف فى جوهره عن اهتمام الاحتلال والرأسمالية العالمية بهذا الفلاح والعامل . إذ طالما تغنى الاحتلال بإلغاء السخرة كعمل إنسانى . بينما كانت غايته الحقيقية هى أن يحول بين قوة العمل وهجرتها للأرض حتى لا تضار مزارع القطن(407) .

لذلك لا يمكن لنا القول أن هذا الذى تواطأت عليه الرأسمالية العالمية مع كبار الملاك الحاكمين فى مصر وفرضته بإرادتها هو حضارة حديثة أخذت تتحدى أسس المجتمع القديم وتغير فيه تغيرات اجتماعية وسياسية لها أهمية جوهرية . فمثل هذا التحدى سوف يأتى فى مطلع القرن العشرين ، لكنه كان طوال القرن التاسع عشر لايزال يمثل طاقة دافعة اندفعت من أوروبا وراء الربح والمغامرة . فاكتشفت جوانب متعددة للاستثمار ، قام فيها الحكام « المحليون » بدور المهراجا أو الكومبرادور فتمت باسمهم معظم عمليات الابتزاز والاستثمار والنهب .

ولقد ترتب على هذا الوضع ما يمكن إجماله بما يلى :

(أ) أن الاقتصاد المصرى أصبح جزءًا مكملاً للاقتصاد الغربى ، وبات لا هدف لمواصلات القطر إلا الإسراع بموارد البلاد وخاصة القطن ، نحو موانئ البحر الأبيض(408) والإسراع بالمنتجات الغربية نحو الأسواق الداخلية . وهذا التكامل جعل قوى الرأسمالية العالمية حريصة على عزل مصر عن كل تأثير خارجى قد يؤثر من قريب أو بعيد على مصالحها فيها . سواء أكانت هذه المصالح متمثلة بالمواصلات مع إفريقيا وآسيا أم فى الاستثمارات الزراعية والصناعية .

(ب) وقد عملت هذه القوى فى الداخل على إبقاء مصر مزرعة كبيرة متخصصة ، وعلى ترويج الأفكار التى تؤكد عدم صلاحيتها إلا للزراعة ، حتى بات عدد كبير من الكتاب العرب أنفسهم يعتقدون صحة هذه الفرضية . فهذا عبد القادر حمزة يكتب قائلاً : « ولكننا لا ننسى أن بلادنا ما كانت ولن تكون إلا زراعية(409) .. ومحمد سعيد أفندى يكتب بأن سعادة الديار المصرية متوقفة

على الزراعة .. فإن مصر مخلوقة للزراعة(410) . وظل العمل فى الزراعة حتى منتصف هذا القرن لا يجد تشريعًا واحدًا ينظمه ، فى حين أن الصناعة قد نظم العمل فيها بقوانين عديدة . ذلك أن عوامل متعددة سياسية واقتصادية واجتماعية قد تضافرت منذ أجيال لإبقاء حالة الفلاح على ما هى عليه ، على حد قول وكيل وزارة الشئون الاجتماعية المساعد(411) علمًا بأن جميع الوزراء فى كافة العصور كانوا من كبار الملاك. وهذا يستتبع بطبيعة الحال إهمال التعليم الصناعى. إذ « ليس من شأن التعليم الصناعى بديهيًا إلا إهمال الزراعة ، وفى الوقت نفسه إبعاد المصريين عن الأرض . وكلها أمور تلحق كارثة بالبلاد » كما قال كرومر . ومعنى ذلك أن يتحول فائض اليد العاملة عن الزراعة إلى عمال مأجورين ينتجون لحساب الأجنبى كما تنتج مزرعة القطن لحساب مصانعه .

(جـ) كانت الخطة منذ ظهور محمد على أن يسلب الشعب إرادته وأنه يخفت صوته وأن يحال بينه وبين القيام بأى دور فى المنطقة ، وهذا ما عناه أحد كبار الكتاب الإنجليز الاستعماريين عندما كتب يقول عام 1881 « وفى أى اتفاق بيننا وبين الخديوى أو أى اتفاق بين الخديوى وبين أى قوة أخرى فإن المصريين أنفسهم لا يمكن أن يكون لهم أى صوت أو أى دور فى هذا الموضوع.. فإذا كان من البلاهة أن يتطلب مشترى قطيع الأغنام من البائع أن يبرز له موافقة مكتوبة من القطيع - على عملية البيع - فإننا سنتهم بالبلاهة إذا ما طلبنا موافقة الفلاحين المصريين على انتقال بلدهم من مالك إلى آخر » .

لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة ولا بهذه البساطة . فإن ما طرأ على بناء الدولة الحديثة نفسها كان ذا جوانب متعددة لا يخلو بعضها من فائدة . حتى عسكرية محمد على الخاصة قد أفادت. ففى عام 1839 كان تعداد الجيش 276.616 جنديًا وبحارًا ، وفى عام 1841 أنقص هذاالعدد إلى 18 ألفًا . فعاد الباقون إلى قراهم . ويذكر باير Bear وجود 164 حرفة فى القاهرة عام 1840 و64 حرفة عام 1871 وفى الإسكندرية يحصى 142 طائفة حرفية عام 1870 و55 فى السويس(412) ويقدر أنور عبد الملك أعضاء هذه الطوائف الحرفية فى عام 1870 – نقلاً عن على مبارك بـ 63.487 شخصًا ، ووفقًا لمصادر أخرى لم يذكرها يقدر عدد أعضاء هذه الطوائف فى الإسكندرية بـ 25.940 وبـ 1.527 فى السويس(413) . كما يقدر عدد الأشخاص الذين انتقلوا إلى الصناعة خلال 34 عامًا تقع بين 1816 و1850 بـ430.000 منهم 30.000 عمال دائمون هم عدة المصانع الحكومية ، كما يقدر عدد الشغيلة باليومية بـ 260.000 كانوا يعملون فى القطاع الصناعى بوجه عام(414) .

الفلاح طاقة ثورية :

وإذا علمنا أن وسائل الحضارة الحديثة من إعلام وغيرها لا يمكن حصر أثرها ، وعلمنا أن المجتمع الحرفى لم يكن لينفصل حينئذ عن المجتمع الزراعى ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار وجود الكتاتيب المنتشرة فى أنحاء المدن والقرى تعلّم القراءة والكتابة لتحفيظ القرآن .. فإننا نستخلص عندئذ بأن الحكم لم يســتطع أن يعزل « الأهالى » فى المدن والريف عمـــا يجــرى فى بلادهم .. ولا نعجب أن نراهم يخرجون عن صمتهم ويبدأون بالشكوى(415) . ولم يكن عبثًا أن وجه إليهم الثائرون خطبهم النارية . فهم منبع طاقة ثورية لا تنضب . وهم قلعة الصمود العربى فى وجه أشكال التغيير الغربية ، وهكذا كان من الطبيعة أن ترتفع بعض الأصوات تستنهض هممهم. فهذا هو الأفغانى يتوجه إلى الفلاح مخاطبًا : « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ »(416) ويطوف عبد الله النديم بالبلاد يرتقى منابر المساجد ويجلس إلى الفلاحين فى مجتمعاتهم يثير فى نفوسهم لواعج الثورة(417) وبحثًا عن أنجع الوسائل للأخذ بيد الأهالى رأى نفر من زعماء الإصلاح أن خير طريقة لتحسين أحوالهم هو الدعوة لإنشاء النقابات الزراعية وجمعيات التعاون ، كما فعل عمر لطفى . فكان ذلك سعيًا لإضعاف تبعية الزراعة واقتصادياتها للاقتصاد الاستعمارى ، وهو ما يقوى الأهالى على الصمود ويحفظ عروبتهم .

لكن ذلك كله لم يعد يفى بالمطلوب . فإن وسائل الإعلام الحديثة أخذت تطرق أذهان الفلاحين بأصداء حركات التحرر فى العالم وتشد إليها بصائرهم .

فتح أبواب مصر لشذاذ أوروبا :

لقد جاءت معاهدة لندن « تسوية تحقق التوازن بين ميول جميع الأطراف » إذ حققت لمحمد على ما لم يستطع بلوغه بقواه الخاصة ، وأشبعت رغبة الآستانة فى المحافظة على وحدة السلطنة الشكلية التى لم تكن تتعارض مع إعطاء الولاة حق الوراثة ، وأرضت الدول الكبرى بإعطاء مصر الاستقرار الذى تريد فى توسعها الاقتصادى وفى مرورها إلى خيرات إفريقيا وآسيا .

أما فيما يتعلق بالمرور فإن وجود محمد على فى مصر قد حقق لأوروبا حلم أجيالها القديمة منذ أيام الرومان على الأقل . فقد أزال منذ أيامه الأولى كل قيد على حركة الأوروبيين فى داخل القطر ، وفى القدوم إليه والمرور منه ، ووطد الأمر لانتظام البريد بين أوروبا والشرق وتأسست تلبيةً للحاجات المتزايدة شركات النقل بين الإسكندرية وأهم موانئ أوروبا(418) ثم جاءت معاهدة بلطيمان تذلل ما كان يمكن أن يصادف توسع أوروبا الاقتصادى فى مصر من عقبات .

ذلك أن مبدأ حرية التجارة كان يصطدم بنظام الاحتكار - لا فى مصر وحدها فحسب - وإنما فى سائر أنحاء الإمبراطورية العثمانية(419) وإن كان أمره فى مصر أخطر . لأن الاحتكارات فى تركيا ممنوحة لأفراد. إلى جانب ما تمارسه الدولة منها. على حين أنها فى مصر جميعها ملك للدولة - أى لمحمد على . وقد ذللت هذه العقبة فى وجه تجارة أوروبا بمعاهدة التجارة المشهورة التى عقدها اللورد بونسومبى Ponsomby سفير بريطانيا مع رشيد باشا فى 16 أغسطس (آب) 1838 والتى تكفل فيها الباب العالى بإلغاء الاحتكارات مقابل زيادةحقوق الجمارك من 3 إلى 12 بالمائة(420) ثم جاءت معاهدة لندن عام (1840) وما تلاها من نية السلطان « أن يوافق ويعمل على إبلاغ محمد على شروط الاتفاق السابقة، وبخاصة البند الخامس الذى يجعل جميع المعاهدات والقوانين فى الإمبراطورية العثمانية ساريةالمفعول على مصر وعلى باشوية عكا(421) .
فأعطت لوجود محمد على فى مصر الشكل القانونى الذى ينقصه من جهة وأزالت العقبة التى قد تقف - بنظام الاحتكار - فى وجه التجارة الأوروبية من جهة أخرى . وبذلك- أى بحصول محمد على على ضمان دولى لحكمه ، بطلت حاجته إلى احتكار كل شيء ، وأن يكون التاجر والمزارع . ذلك أن الاحتكار يقود إلى التراكم ، والتراكم يؤدى إلى التصنيع . ولا نظن أنه ، بعد الفوز بما كان يسعى إليه جاهدًا ، كان يريد المضى قدمًا فى تجربته التى بدأها فى الصناعة . فشارل عيسوى يشير بوضوح إلى أن الصناعات رأت إنقاص طاقتها بسرعة قبل عام 1838 لأن مصر كانت قد أصبحت تفتح أبوابها للبضائع الأوروبية . ولم تصمد حتى موت محمد على فى عام 1849(422) . وكان التدخل الأوروبى فى هذه الناحية ، يرمى إلى إرجاع طليعة اليقظة العربية ، إلى حدودها الأولى- أى إلى مستوى الاقتصاد التركى المنهك : الإقطاعى والحرفى بانتظار فتح أسواقها الجديدة أمام الثورة الصناعية الأوروبية(423) . ولا نخال أن مثل هذا الأمر الخطير يغيب عن بصيرة محمد على. فعلى الرغم من أنه – بعد إنقاص جيشه (13 فبراير 1841) – أعلن للقناصل بأن تجارة جميع المنتجات حرة – ما عدا القطن ، مؤكدًا على ضرورة الانتقال التدريجى ، وأن وزيره بوغوص أعلن فى مايو 1842 بأن أغلال القطن لعام 1843 سوف تكون حرة بدورها ، إلا أن الباشا وأسرته – باعتبارهم ملاكى الأرض – ظلوا يفرضون علىالفلاحين أسعار بيعه القطن مما يدل على أن الاحتكار استمر عمليًا(424) . ولم تستمر المصانع .

شق ترعة السويس : تحقيق حلم أوروبا :

وقد عثر التغلغل الأوروبى على أداته فى قناة السويس ، فشاركت جميع قوى أوروبا فى إخراج مشروع شقها إلى حيز الوجود : كل منها من زاويته . ولم يكن نشاط طلائع الاشتراكيين الفرنسيين (السانسيمونيين) أقل النشاطات فى ذلك . فقد جاء بروسبير انفانتان prospere Enfantin إلى مصر عام 1832 خصيصًا لهذا الغرض(425). وكان من الطبيعى– وقد أصبحت أوروبا بهذه القوة بعد ثوراتها المتتالية- أن تعمل على تجسيد حلم أجيالها القديمة فى الطريق إلى الشرق بشق القناة بعد أن أتاح لها محمد على تجربة أهمية هذا الطريق واختبار فائدته عمليًا . وقد عاق تنفيذ هذا المشروع احتكار الباشا للترانزيت بين القاهرة والسويس ، وحرصه على تجارته مع الحبشة والبلاد العربية وأفريقيا الوسطى ، وخوفه من أن تتأثر بمنافسة أوروبا فى البحر الأحمر وليس كما قيل من أنه كان يخشى على استقلال البلاد من أن تزداد تجارة الإنجليز فتزداد رغبتهم فى امتــلاك دولته ، ولا أنه كان يحرص عل عدم فتح البحر الأحمر . البحر المقدس لملاحـة «الكفار».

وإذا كانت معاهدة 1840 قد وفرت الاطمئنان للرأسمال الأوروبى ، وقد أمنت للاستثمار ما يتطلبه من استقرار فإن الأجانب عامة قد وجدوا فى طبيعة حكم محمد على نفسه ، القائم على العناصر الأجنبية ، وفى تشجيعه وحمايته ما يغريهم بالقدوم إلى مصر . وهكذا كان عددهم فى عام 1846 أكثر عشرين مرة من عددهم فى عام 1836 وتضاعف هذا العدد أكثر من أربع مرات بين عامى 1846 و1917 وفى عام 1881 كان عدد المقيمين منهم بصفة دائمة 90.886 .

كان هؤلاء الأوروبيون يفدون إلى مصر فى موجات تشبه الاجتياح يذكرون بقوافل الاستيطان فى جنوب أفريقيا (إبان أزمة البطاطا فى إنجلترا) أو بقوافل الفرنسيين على ساحل تونس والجزائر . كأن مصر كاليفورنيا جديدة . ففى عام 1862 دخل مصر 32 ألف أجنبى ،وفى عام 1863 دخلها 34 ألف، وفى عام 1864 دخلها 56.500 ثم 80 ألف فى عام 1865(426). وقد وصل عددهم فى عام 1907 إلى 216.576 ألفًا وإلى 260.292 ألفًا فى عام 1917(427) .

كتب دافيدس . لاندز يصف هؤلاء الوافدين قائلاً : « إذا كان الأعضاء «الصالحون» من المجتمع الأوروبى فى مصر من ذوى أصل مشكوك فيه فإن جمهرة المهاجرين كانوا من حثالة البحر الأبيض المتوسط . فالموانئ المزدحمة وقرى مالطة وصقلية والشرق الأدنى قد أرسلت الفائضين من أطفالها الفقراء والعاطلين والساخطين إلى أرض المال الوفير ، وكل هؤلاء اندفعوا إلى الإسكندرية حيث كانوا يشرفون على أعمال الخدم المحليين، ويلبون احتياجات وملذات وشهوات الرواج يديرون المحلات والحانات فى الحوارى والمطاعم والمحالج وكازينوهات القمار والفنادق وبيوت الدعارة ، وكثيرون منهم كانوا عمالاً بالمعنى الحقيقى – ينشأون كالمتطفلين على الرخاء المحيط بهم ، ويتدافعون على العظام التى تسقط على الأرض أو يسرقون فتات الموائد .. »(428) . وقد انقلب قناصل الدول سماسرة لهؤلاء الناس المغامرين « ينالون الامتيازات لأصدقائهم أو شركائهم ، ويقرضون القروض ويتمون الصفقات .. وتحولوا إلى أدوات لهذا الغزو

المالى الخاطف الذى كان يغزو الاقتصاد المصرى الزراعى ، ويعمل فيه عمله المحتوم »(429)
.

وكان ما يعرض على الولاة من أحكم المشروعات المالية وأضخمها وأخطرها مشروعات عالمية تفوق حاجات البلاد ، وتدور جميعها حول وصل مراكز الإنتاج الغربية بمنابع تموينها وأسواق استهلاكها فى آسيا وأفريقيا بأقصر وأفضل الطرق كسكة حديد السويس ، وربط المتوسط بالأحمر ، وسلسلة السكك الحديدية والتلغرافية والموانئ والفنارات ، وجميعها كانت تباغت البلاد فى نموها وتوقعها فى الارتباك(430) . وانعكس أثر ذلك كله على البلاد فى قوانين وتنظيمات ولوائح اقتضتها الظروف الجديدة دون أن تكون البلاد قد تطورت لملاءمتها . وفتحت الأسواق الداخلية أمام التجارة الخارجية بإلغاء ضريبة الدخولية التى كانت تقدّر بمعدل 12% من قيمة البضائع عند دخولها أية قرية أو مدينة ، وذلك منذ أيام سعيد. فلم يستطع من كان يتعاطى التجارة من الأهالى الإفادة لضعف إمكانياتهم . ولم تستطع الصناعة الحرفية والصناعة المتبقية من أيام محمد على على الصمود .

كان المجتمع الأوروبى ينتشر فى الريف ولا تكاد تقوم له – فيما عدا الإسكندرية والقاهرة مدن حقيقية(431) . أخذت الجاليات الأجنبية تتركز فى الإسكندرية وفى عقد المواصلات حتى أصبحت مركز « المجتمع الأوروبى » فى مصر ففى عام 1864 كان يسكنها من 50 إلى 60 ألف أوروبى مقابل 5 إلى 6 آلاف فى القاهرة . والقاهرة عام 1869 أصبحت مدينة ، يسكنها 238.888 نسمة ، وهكذا أخذ الناس يتجمعون عند عقد المواصلات ومراكز التصدير والاستيراد . فقد أحصيت فى عام 1907 مدينتان تضم الواحدة أكثر من 100.000 نسمةو43 عدد سكان الواحدة أكثر من 10.000 نسمة مقابل 3.581 قرية(432) وكان 90 بالمائة من مجموع الأجانب يعيشون فى المدن ، وأصبحوا فى أوائل القرن العشرين يشكلون حوالى ثلث سكان الإسكندرية و20 بالمائة فى بورسعيد والإسماعيلية و14 بالمائة فبالسويس و9 بالمائة فى القاهرة . وتركزت ملكياتهم العقارية ومشاريعهم فى الدلتا ، وخاصة فى منطقة القناة ومديرية البحيرة(433) . وفى هذه المدن التى نشأت دبت الحركة وتلألأت الأنوار وزهت الحياة ، وأخذت الأحياء الحديثة فيها : من الإسكندرية إلى بورسعيد والإسماعيلية والسويس والقاهرة تحاكى أوروبا ، أو أصبحت على حد تعبير صبحى وحيدة « لسانًا أوروبيًا ممتدًا فى الأرض العربية » . ومن هنا انخداع الخديوى إسماعيل فى مقولاته.

وهم التقدم والازدهار الكاذب :

فى عام 1876 كتبت التايمس تقول : « إن مصر قد تقدمت – خلال سبعين سنة من حكم أسرة محمد على – بما يعادل تقدم البلاد الأخرى خلال خمسمائة عام »(434) . ووصف القنصل الأمريكى دى ليون De Leon المنشآت العامة بأنها لا مثيل لها فى بلد تبلغ مساحتهوسكانه أربعة أضعاف مساحة مصر وسكان مصر . وزينت هذه المظاهر لإسماعيل أنه يستطيع أن يجعل مصر قطعة من أوروبا ، وبدلاً من أن يجعلها قطعة من أوروبا جعلها قطعة تباع بالمزاد العلنى(435) وتآمر مع مغامرى أوروبا وأفاقيها(436) فى نهب مصر . فإذا به آخر المطاف يرهن مديريات البلاد الواحدة بعد الأخرى وإيرادات السكك الحديدية والجمارك والضرائب الشخصية والضرائب غير المقررة ، وعوائد الملح وإيرادات المقابلة ، ثم يبيع أسهم القناة ثم حصة مصر الـ 15 بالمائة من أرباحها(437) لينفق كل ذلك فى مظاهر وفى مشروعات كانت تمكن لأوروبا ولمخططاتها الاستعمارية. ومن هنا كانت حوافز مشاعر الحركة الوطنية، ثم دوافع التجمع فى الثورة العرابية .

كانت تلك المظاهر الحضارية فى غالبيتها العظمى استثمارية . ففى العام الذى منح فيه دلسبس امتياز حفر القناة (1875) تأسست ست شركات بروؤس أموال بريطانية وفرنسية مركزها باريس أو لندن . وفى عام 1862 كانت رؤوس الأموال الأجنبية المستثمرة فى هذهالشركات الكبرى تبلغ 9.619.000 جنيه . وتكونت فى الفترة ما بين 1864 – 1862 ثمانى شركات برأس مال قدره 2.685.500 جنيهًا معظمها ربوى وبعيد عن الصناعة(438) . وفيما بين عام 1880 و1890 تكونت أكثر من ثلاثين شركة للنور والتراموالاستصلاح الأراضى ، ولبناء اللوكاندات ، ولمختلف الأعمال الاستثمارية ما عدا الصناعة(439) وكانت جميعها برأس مال أجنبى (أكثر من 96 بالمائة) والبقية موزعة بين الخديوى والباشاوات والأتراك(440) وأجانب مستوطنين من أمثال سوارس ومنشة وموصيرى. وفيما بين 1882 – 1914 عاش الرأسمال الأوروبى ، لا سيما البريطانى والفرنسى عهد تمويله المزدهر . فقد شهدت هذه الفترة سكوت إنجلترا عن فرنسا فى تونس مقابل احتلالها لمصر ، ثم الاتفاق الودى (1904).

كانت هذه الفترة هى التى تم تكريس تخصص مصر فى زراعة القطن . وكان لابد لذلك من مشاريع الرى الكبرى . وقع عقد سد أسوان فى شباط (فبراير) 1898 وأمن تمويله السير أرنست كاسل، وأصلحت القناطر التى أنشأها محمد على، وأنشئت قناطر زفتى وأسيوط(1903) وتم إنشاء خزان أسوان (1902) ثم تمت تعليته (1912) وأنشئت قناطر أسنا (1908)(441) . وفى 21 حزيران (يونيو) 1898 بيعت أملاك الدائرة السنية لروفائيل سبارز وفى 25 منه أسس السير أرنست كاسل وروفائيل سبارز وقسطنطين سلفا البنك الأهلى كمصرف إصدار ، ثم انتقل إلى بنك أهلى . بل إلى المصرف المركزى الذى يضم واردات الدولة وودائع كبار الملاكين العقاريين ويصدر العملة المصرية التى سيأخذ ذهبها الطريق إلى لندن وفى عام (1902) كانت الأموال الموظفة فى مصر 21.280.000 جنيه، فزادت فى عام 1907 إلى 87.176.000 جنيه . وفى عام 1914 بلغت بدون حساب شركة قناة السويس 100.152.000 منها 46.267.000 بريطانية و30.250.000 فرنسية و14.294.000 بلجيكية(442) .

كانت النتائج فى هذه السنوات مذهلة . فإن مساحة الأراضى الصالحة للزراعة. إذ تزداد من 4.764.000 فدان فى عام 1881 إلى 5.503.000 فى عام 1913 ، ترتفع المساحة المزروعة بفضل المواسم السنوية الثلاثة من 4.762.178 فدانًا فى عام 1879 إلى 7.712.412 فدانًا فى عام 1913 ، ومضت سياسة التخصص فى زراعة القطن فى طريقها متوافقة مع هوى كبار الملاك نظرًا لما حصلوا عليه من مرابح فى فترة الحرب الأهلية الأمريكية واشتداد الطلب على القطن المصرى . لقد أصبحت مصر حقيقة مزرعة قطن للانكشاير . فالقطن الذى كان يحتل مساحة 11.5 بالمائة عام 1879 أصبح يحتل 22.4 بالمائة من المساحة المزروعة فى عام 1913 وارتفع إنتاجه من 1.818.000 قنطار فى عام 1884 إلى 6.250.000 قنطار فى عام 1908 وارتفعت قيمة الصادرات من 6.244.000 إلى 17 و91.000 فى نفس الفترة ، ومن 67 بالمائة من الصادرات الإجمالية فى عام 1884 إلى 83 بالمائة فى عام 1906 وانخفضت نسبة أراضى زراعة القمح من 20.6 بالمائة أيام توفيق إلى 16.9 بالمائة أيام عباس حلمى ، وقصب السكر من 1.1بالمائة إلى 0.6 بالمائة(443). وفى عام 1885 اشترت مصر قمحًا بقيمة 125.000 جنيه، واستوردت فى عام 1913 بما قيمته 2.196.000 جنيه سنويًا . حتى زراعة الدخان ظلت تضيق وتوضع عليها القيود ورغم تحديد مساحتها بـ 3000 فدان فى جميع أنحاءالقطر فما لبث أن صدر فرمان فى عام 1890 بتحريم زراعته كلية(444) . وكانت الذرة هى الوحيدة التى جرى التوسع فى زراعتها قليلاً للإبقاء بغذاء الأهالى(445) .

يقدر أنور عبد الملك ، انطلاقًا من حسابات ومصادر مختلفة أن البرجوازية التى كان نصفها من الأجانب تشكل 3 بالمائة من مجموع الأهالى فى عام 1914 ولكنها كانت تحصل على 21 بالمائة من إنتاج الفعاليات الزراعية - أى على 10.5 مليون جنيه مصرى ، ويرى تبعًا لذلك أن متوسط الدخل السـنوى للـ 150.000 أجنبى من صغار البورجوازيين والعمـال متراوحًا بين 20 و30 جنيه مصرى . فيستنتج أن المبلغ الإجمالى العائد إلى الأقلية الأجنبية من الدخل القومى قد يصل عام 1914 إذن من 17 إلى 18 مليون . أى ما يعادل 85 جنيهًا مصريًا للفرد . فى حين أن متوسط الدخل القومى للفرد من الأهالى يبلغ 9.5 جنيه , ويستدل من ذلك على أن الأقلية الأجنبية التى كانت تكون 2 بالمائة من مجموع الأهالى الأصليين تحصل على 15 بالمائة من إجمالى الدخل القومى الصافى ، ومتوسط دخل الفرد منها أعلى تسعمرات من متوسط دخل الساكن الأصلى(446) .

فى عهد محمد على وأسرته ، ولى الزمن الذى كان الأوروبى فيه يعرف حدوده ويلتزمها : وقد جعلت الظروف الجديدة هذه الجاليات ، على ما هى عليه ، ذات مكانة مؤثرة فى المجتمع . وكانت تستمد عناصر قوتها ونفوذها من :

(أ) كان الولاة يشجعون قدوم الأوروبيين للتجارة والزراعة منذ أيام محمد على ويحابونهم على أهالى البلاد . بل ويقفون إلى جانبهم على الدوام ضد أهالى البلاد(447) وكثيرًا ما كانوا يشاركونهم فى مشاريعهم وأعمالهم هم ورجالهم كما فعل إسماعيل مثلاً(448) .

(ب) لقد آل الأمر بولاة مصر ، بسبب من غربتهم فى مصر وانفصالهم عن الشعب وكراهيتهم له ، إلى الاحتماء بالدول الأوروبية . فما لبث قناصل هذه الدول أن عاملوهم «كصنائع من عمل حكوماتهم ، أو وكلاء عهد إليهم فى رعاية مصالحها ويتولونهم بالثناء والوعيد ..» مما جعل

موقف هؤلاء الولاة يتحول من تشجيع الأوروبيين والتعاطف معهم إلى الخوف منهم والخضوع لهم(449) .

(جـ) كان الأوروبيين يتمتعون بحصانة فى حريتهم الشخصية يتبعها حرية السكن وحق الإقامة وحريتها .

(د) كانوا يتمتعون بحصانة المقاضاة باعتبار أن المحاكم المصرية غير مخولة بذلك ، وإنما هى من حق المحاكم القنصلية وحدها ، ثم أصبحت تدخل فى سلطة المحاكم المختلطة .

(هـ) حصانة التشريع بواسطة القضاة الأجانب الموجودين فى محكمة الاستئناف بالإسكندرية ، والذين يراقبون مراسيم الحكومة التشريعية .

(و) حصانة مالية تعفيهم من دفع الضرائب إلا باتفاق مسبق مع الحكومة الأجنبية المعنية(450).

وأهمية الأجانب ، فضلاً عن امتلاكهم لعصب الحياة الحديثة ، وعن نفوذهم ، تتأتى من تمركزهم فى المدن فهم يشكلون فى الإسكندرية وبورسعيد والإسماعيلية 20 بالمائة وفى السويس 14 بالمائة، وفى القاهرة 9 بالمائة فى عام 1917 فإن 9 بالمائة منهم يعيشون فى المدن . ولقد ترتب على ذلك تعاظم الدور الذى أصبح يلعبه الغرب فى الحياة العامة المصرية . سواء فى المركز الذى يشغله الفنيون الغربيون فى جميع ميادين النشاط ، أو فى سيرة ولاة مصر ، وطبقة الحكم الذين كانوا يمثلون فى الظاهر القوة السياسية المصرية الوحيدة ، وبتنا لا نجد دوافع مختلف النشاطات فى مقتضيات الحياة الخاصة، وإنما اتجاهات الحياة العالمية . مما ينتهى بالبلاد إلى الخروج بظواهرها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عن مجراها الطبيعى وإفساد تكوينها وتشويه معالمها ، وإذا بنا نرى ارتفاع الأساليب الغربية تبعًا لذلك إلى مثل عليا يحتذى المصريون المتمدنون على منوالها، ويكون التفاعل سريعًا بين عناصر الحكم وغير المسلمين من أبناء البلاد، وبين المجتمع الغربى سريعًا(451) وهكذا تسقط البلاد فى التفرنج ، وينشأ فيها هذا الاختلاف العنيف بين الحياة فى المنازل المدنية وبين خارجها.

ومنذ عهد محمد على أخذت معالم المدن تتغير ببناء القصور والميادين والشوارع ، وبدلاً من أن يعاد بناء « النماذج الحقيقية للعصور الخوالى » كما ينبغى فى كل نهضة قومية صحيحة فإن تحديث الأبنية أخذ يجرى وفقًا للنماذج الأوروبية . فى حين أن التقدم الحقيقى لا يمكن فى معاكسة الخصائص الأصلية لحضارة الشعب أو تشويهها ومسخها . بل يتطلب على العكس تنمية هذه الخصائص وفقًا لاتجاهاتها الطبيعية ، ولا يملك رئيس الدولة إلا أن يبدى تفضيلاً واضحًا لنمط على آخر من نماذج الماضى حتى يزدهر الفن القومى ، ويختفى هوس تدمير ما هو موجود ونسخ النماذج عن أوروبا دون داع(452) فكان يستحكم طلب الجديد فى النفوس بأى ثمن .

وكان الأوروبى فى موقعه من ابن البلاد أقسى من طبقة الحكم وأسرة محمد على ، وإن كان أقل خشونة . إلا أنهم جميعًا يشتركون فى ازدرائه والترفع عنه وكتاب لاندز ملوك وباشاوات ومحمد صبرى إسماعيل والوصاية الدولية يفيضان بالشواهد ، وها هنا تكمن الدوافع التى كانت تملى على المصرى العادى موقفه الشهير من « الخواجا « وإذا نحن حللنا عناد أهالى البلاد فى تمسكهم بتقاليدهم العربية ولباسهم وشعور من يرتدى البذلة الفرنجية بينهم بالنشاز. فلابد من أن نلمس وراء ذلك من الإصرار على الزى التقليدى ومن التمسك بالتقاليد ، إصرارًا على المحافظة على عروبة مصر فى وجه الغزو الغربى .

الفصل التاسع : التعليم الحكومى

التعليم الحكومى

النظرة فى التعليم الحديث الذى بدأه محمد على فى مصر وفى أهدافه تزيد لنا الصورة وضوحًا . ففى التعليم ينكشف لنا التركيب العنصرى والاجتماعى فى دولة محمد على .

فى عام 1809 فتح محمد على الباب لأولى بعثاته إلى إيطاليا ، وحتى عام 1818 يذكر أرتين إيفاد 38 طالبًا درسوا العلوم العسكرية وبناء السفن والطباعة وفنون الهندسة(453) . وإذا كنا لا نستطيع معرفة أسمائهم بسبب الحريق الذى دب فى القلعة عام 1820 وأتى على السجلات فيها . إلا أنه يستدل على تركيبهم من عناصر البعثة التى تلت ذلك فى عام 1826 . فقد كان أغلبها من الأتراك والأرمن مع أقلية ضئيلة من أهالى البلاد الأصليين بينهم إمامها : رفاعة الطهطاوى - أى أنها من أبناء الذوات وأتباعهم ، وبين 1826 و1847 يذكر الرافعىإيفاد تسع بعثات ، إلا أن المؤرخين يختلفون فى عدد الطلاب الإجمالى ، ولعل مرد هذا الاختلاف أن بعضهم يبدأ فى إحصاء عدد الموفدين من عام 1809 بينما يبدأ فريق آخر من عام 1813 ، على حين فريق ثالث يبدأ بذلك من عام 1826(454) . كانت أكبرها وأشدها دلالة تلك التى أطلق عليها مبارك اسم بعثة الأنجال . لأنها تألفت من شباب الأسرة من أولاد أصحاب المقامات العليا . وكانت غايتها عسكرية ويتراوح عدد أعضائها بين 65 و70 شخصًا .

ويقدر أنور عبد الملك ، نقلاً عن مصادر حديثة ، توزيع الاختصاصات فى جميع هذه البعثات على النحو التالى : 35 بالمائة للتخصص فى العلوم العسكرية والبحرية ، 37 بالمائة فى الفنون الصناعية ، 18 بالمائة فى فنون الهندسة ، 7 بالمائة فى الطب ، 6 بالمائة فى الإدارةوالحقوق السياسية ، 4 بالمائة فى الزراعة والعلوم الزراعية ، 3 بالمائة فى العلوم (كيمياء)(455) .

وفى عام 1836 كان يوجد 67 مدرسة ابتدائية يرجع بعضها إلى عام 1833 مهمتها إعداد الطلاب للمدارس المخصوصة(456) والعالية على المنهج الأوروبى التى يمكن أن تمد كوادر الجيش والإدارة(457) ووضعت جميع هذه المدارس تحت إدارة ديوان المدارس الذى أنشئ فى 11 يناير 1836 ثم عرف بأسماء مختلفة ورأسه مصطفى مختار (مارس 1837 - نوفمبر 1838) وخلفه إبراهيم أدهم (مايو 1839 - مارس 1849) . وكان أعضاؤه - ويجدر ان نورد أسماءهم لما فى ذلك من دلالة - هم : كلوت بك : (مدير مدرسة الطب) والكولونيل كيانى بك Kiany Bey ويعقوب أرتين (مدير مدرسة الإدارة ، واصطفان أفندى وفارين Varin مدير مدرسة الخيالة وهيكيكيان Hekekyan (مدير مدرسة البوليتكنيك) ورفاعة الطهطاوى (مدير مدرسة الألسن) ولامبرت Lambert (مدير مدرسة المناجم)وهامونت Hamont (مدير مدرسة العلم البيطرى) ودوزول Dozol كسكرتير للديوان(458) .

يتحدث البعض عن نهضة ثقافية وعلمية فى عهد محمد على . بل إن الرافعى يتكلم عنه كعبقرية فى هذا المجال . ويحرص آخرون على تأكيد سبقه بمقارنته بالفرس وبالسلطان محمود الثانى ، ويفاضل أنور لوقا بين ما صنعه بونابرت فى مصر وما فعله محمد على فيقرر بأن نابليون لم يصنع الحياة المصرية من جديد ، وإنما حركها بقوة ، أما محمد على فقد نقلها إلى العصور الحديثة(459) .

والحقيقة أن هناك إجماعًا على العلاقة المباشرة بين أهداف محمد على الخاصة وحاجاته فى الجيش من جهة وبين بنيات التعليم وتطوره من جهة أخرى . كما لعبت نظرته الاقتصادية وصعوبة توفير جميع الكادرات اللازمة بالإيفاد إلى أوروبا دورًا كبيرًا وأساسيًا فى فتح المدارس فى مصر(460) خاصة وأنها تصبح تحت إشرافه المباشر . وهذه مسألة لم تجد من المؤرخين كذلك ما تستحقه من التحليل . إذ على الرغم من أن أعضاء البعثات إلى أوروبا كانوا يختارون بعناية فإن المؤرخين يتحدثون عن الأنظمة الصارمة التى كانت تحكم حياتهم هن . الأمر الذى كان يحرمهم من التفتح الحر فى العالم الجديد ويفقدهم روح المبادرة . وثمة إجماع كذلك على ن محمد على كان « يسئ استخدام المتخصصين من غير العسكريين باستثناء الأطباء »(461) . ويحاول هيوورث - ديون دحــض رأى هيكيكيان القائل بأن « الباشا كان يريد أدوات لا مستشارين » بقوله أن الباشا « كان يريد فى الحقيقة مستشارين يكونون أدوات كذلك »(462) . فالإدارة التى يتحدث عنها المؤرخون بأنها كانت على أن يظل سيدًا إنما كانت تقف فى وجه أولاد البلاد الأصليين لا فى وجه مصالح الأوروبيين . فمن بين 23 مدير مدرسة عالية كان الطهطاوى وحده فقط من أبناء البلاد ، وكان هو وحده أيضًا من أعضاء الديوان البالغ عددهم عشرة . فالذين يقارنون بين محمد على وبين الفرس أو السلطان محمود الثانى ليبرروا ما سبق إليه لماذا لا يقارنون بينه وبين اليابان ، وقد بدأ حكمه قبلها بعشرات السنين ؟

بماذا إذًا يمكن أن نعلل إعراض الأهالى . بل امتناعهم عن إدخال أبنائهم إلى مدارس الباشا إلا باختلاط فكرة التعليم فى أذهان الشعب بالجندية عند الباشا ، التى لا مصلحة لهم(463) فيها ، وهو ما كان يعبر عنه « بعدم استيناس الأمة بالمدارس » .

ذلك أن رجال الإدارة بالأقاليم كانوا يجمعون لهذه المدارس الأولاد الصغار من القرى والمدن. كما كانوا يجمعون الشبان للجيش ، ولهم إذا صادفوا من الأهالى إعراضًا أو امتناعًا أن ينتزعوا الأبناء قوة واقتدارًا(464) فكان الأهالى إذا عدموا الوسائل لحماية أولادهم عمد بعضهم إلى بتر أصابع أولاده أو سمل عيونهم . فرأى « الجانب العالى » دواء لذلك « أن تلقى فى النهر بعض الأمهات اللاتى يقترفن هذه الجريمة النكراء » .

ثم ، هل كانت « الجندية » فى المدارس - أى ما يسودها من روح عسكرية هى كل السبب فى امتناع الأهالى الفقراء ، بل والبؤساء إلى هذا الحد ؟ فالمؤرخون وخاصة الغربيون منهم يسهبون فى وصف الروح المسالمة فى شعب مصر ويعزو بعضهم ذلك إلى « طول الخنوع » وما يولده من نفرة من القتال . وعلى العكس فإن «الخنوع» يكون مدعاة للاعتزاز المفرط بالسلاح، فقد أظهر الجندى المصرى كفاءته ، ولعل هذه الكفاءة هى التى جعلت إبراهيم ، كقائد ، أكثر اندماجًا بأبناء مصر الأصليين . ولكن لماذا لا نعزو ذلك إلى تلك العملية الصناعية نفسها التى يجمع عليها المؤرخون فى تعليم محمد على ؟ التى كانت تجعل من مدارس محمد على ما يشبه المؤسسات الأجنبية تشعر الأهالى كأنما يراد بانتزاع ولدهم منهم نزع ثقافته وتغيير تكوينه الدينى والخلقى . وهذا عين الصدود الذى يتميز به الشعب المستعمر فى وجه مؤسسات الاستعمار التعليمية دفاعًا عن مقوماته التاريخية . حتى إذا ما اطمأن لعدم خطورتها عليه ، وذلك بشعوره بالاستقلال ، أقبل عليها ينهل منها طائعًا مختارًا(465) .

الصحيح إن القصور ليس فى الشعب نفسه وعدم تقبله العلم الجديد . فهو نراه مايزال يقبل على الكتاتيب إلا أن البحث عن أسباب صدود الشعب عن الإقبال على مدارس « الباشا » يجب أن

نعثر عليه فى غير ما يعزى إلى القصور ، وفى غير ما كان يعزوه الخديويون من عدم الاستئناس. يجب أن نعزوه إلى أن الشعب ، الذى يشعر بعجزه عن محاربة نظام « الباشا » يجد وسيلته الوحيدة إلى ذلك بمواقفه السلبية من هذا النظام . فهو بالتأكيد لم يكن بالغريزة ، يجهل ما يسلك إليه « الباشا ». ولا يتقبله . إذ من الواضح أن « الباشا » عندما كان ينزع الأولاد ، وهم صغار ، من أسرهم كان يريد قطع صلاتهم بذويهم وتربيتهم كالمماليك « عبيد إحساناته » ويعمل على تغيير أسمائهم ، والروابط العشائرية أهم ما يكون فى الشعب العربى .

ففى قلعة محمد على جملة وثائق باللغة التركية قفز عن بعضها المؤرخون ، ولم يشر إليها الذين استقدموا من الجامعة الأمريكية فى بيروت للتأريخ لمحمد على ، نورد إحداها ، فيما يلى ترجمتها :

دفتر 2135 (مدارس تركى) ص 46

من القلم التركى بديوان المدارس إلى المبتديان

والمهندسخانة

بما أن الأمر السامى يقضى بتخصيص ألقاب لتلاميذ المدارس وندائهم بأسمائهم وألقابهم بدلاً من أسماء آبائهم كما هو جار بالمفروزة ، قد سطرنا بأعلاه ما يزيد عن ستين ومائة لقب . فلقبوا كلاً من تلاميذ المدارس التى تحت إدارتكم بلقب بدلاً من اسم أبيه واعتنوا بندائهم بأسمائهم وألقابهم دائمًا .

هامش :

إذا كان بين أسماء الطلبة المذكورين أسماء عيسى وعوض وسالم وحماد وما يشاكلها فألغوها واستبدلوها بأسماء كثيرة الاستعمال كمحمد وعلى ، وأعطوا كلاً منهم لقبًا من تلك الألقاب وأكدوا عليهم بأن يدعوا بعضهم بعضًا بأسمائهم وألقابهم ، وكذلك على المدرسين إذا نادوهم من الدفاتر . واضربوا كل من نادى صاحبه باسمه دن لقبه خمسة وعشرين سوطًا إن كان من التلاميذ فى الدفاتر ، وعاملوهم على الوجه السالف ببيانه ، حتى إذا عملتم هذا فاكتبوا قائمة عن أسمائهم وألقابهم القديمة بأن تذكر بحذائها أسماءهم وألقابهم الجديدة .

وارسلوا تلك القائمة إلى الديوان للاطلاع عليها عند مراجعة الحسابات .

فى عام 1848 أغلقت مدرسة البعثة المصرية فى فرنسا ، وأنهى أكثر طلابها الضباط دراستهم . وتناقصت نسبة الإيفاد إلى أوروبا فى زمن عباس كما فى زمن سعيد . وفقًا لأعلى التقديرات . فعلى حين يقصر أرتين وجرجى زيدان وأمين والرافعى عدد الموفدين على 19 طيلة حكم عباس (ست سنوات) فإن تقديرات الآخرين تتراوح ما بين 41 و48 طالبًا أكثرهم إلى ألمانيا والنمسا وإنجلترا . وتكون هذه التقديرات أشد اختلافًا فى عدد الموفدين فى عهد سعيد (تسع سنوات) . فإذ يقرر إسماعيل سرهنك والنديم أنه لم يرسل أحدًا تتراوح تقديرات الآخرين ما بين 14 و69 . وإذا كنا نلاحظ فى هؤلاء الموفدين جميعهم أن التخصص ينصرف إلى غير المجالات العسكرية فإن نسبة أولاد العرب بينهم تقل أيضًا عن أيام محمد على . فلم يكن بينهم سوى مصرى مسلم واحد وقبطى واحد ، والاثنان من خريجى مدارس الفرير . أما الباقىفمن الأتراك والأرمن والشركس و9 من أبناء العائلات التى سبق الإيفاد منها إلى الخارج مثل عائلة بقلة(466) وفى هذه الفترة لا ينفك هيوارث - ديون فى كتابه تاريخ التربية ، يتحدث عن خلق الطبقة الجديدة من الضباط والموظفين الذين تحتاجهم الدولة(467) .

ولم يدع عباس من المدارس ما كان يكفى لتخريج العدد اللازم لإدارة مرافق البلاد التى أصبحت محدودة، والحجج التى ساقها المؤرخون دفاعًا عنه - كالتذرع بالاقتصاد أو تلافى ما وقع فيه محمد على من شطط وقلة تقدير للحاجات الشعبية(468) أو بمحاولة النفوذ الأوروبى - لا تحول دون إدانته . فلم يكن مقتصدًا فى بناء القصور . بل أبقى على المهندسخانة لحاجته الخاصة إلى مهندسين يشرفون على أبنيته وقصوره ، ولم يكن مقتصدًا فى الإنفاق على المغنيين والمهرجين

والمنجمين الذين كان يستخدمهم من آسيا الصغرى ليرفهوا عنه(469) وبحجة ما أصاب المدارس من إهمال وتدهور فى حكم عباس « رأى الباشا » (سعيد) من الحكمة إقفالها نهائيًا(470) .

الحقيقة أن الخوف من الاضطرار لفتح أبواب المدارس لأبناء الشعب كان دافعهما لإغلاقها. إذ إن أولاد الفئات الذين يضمن جانبها لا يسدون حاجة المدارس إلى الطلاب .. وهذا ما جعل عباسًا « يجمع المدارس الحربية كلها فى مؤسسة واحدة ، ويفرز لها صفوة التلاميذ من غلمان الترك» وعلى الرغم من أن شورى الأطباء كان يختار من يتقدم إليه من خارج طلاب الأزهر لمجرد كون المتقدم « يعرف يقرأ ويكتب المطبوع » فإنه كان يرفض طلاب الأزهر متعللاً « بأن الفلاحين لا يصلحون تلامذة بمدرسة الطب » .. أما إذا اضطر الأمر إلى قبول أبناء الفلاحين فى مدارس عباس فيجب ألا يكتفى بفصلهم عن آبائهم وعائلاتهم كما جرت العادة . بل ينبغى استبدال أسمائهم بأسماء تركية والتحريم عليهم وعلى أساتذتهم المناداة بأسمائهم الحقيقية «ومن يفعل ذلك من التلاميذ جوزى بخمسة وعشرين سوطًا . فإن كان من المدرسين فجزاؤه أن يحبس تسعة أيام» .

وعلى حين كان عباس يتهدد أبناء الفلاحين بإعادتهم إلى القرية وتلبيسهم ملابس الفلاحين وسلكهم فى فلاحة الأرض لأنهم « مازالوا بطباع الخونة التى هى طباعكم الأصلية » فقد عز عليه رؤية أولاد الترك مشردين فى شوارع الإسكندرية . فأمر بجمعهم وإدخالهم مدرسة «المفروزة» المدرسة النموذجية التى أنشأها لتعليم ابنه إلهامى باشا « وبهذه الوسيلة يكسب الوطن عنصرًا صالحًا »(471) .

لم يختلف عهد إسماعيل عن هذا فى جوهره إلا بأنه كان ، كعهد محمد على ، عهد تطلع وشموخ خاصًا به . ومن هنا كان اضطراره إلى التوسع فى كل شىء ، وانطلاقًا من هذا التوسع تنصرف الجهود إلى خلق البنى التحتية فى جهاز التعليم العام .

عادت البعثات تسلك طريقها إلى أوروبا ، ولكن التقديرات متفاوتة جدًا فى إحصاء عددها يوردها أنور عبد الملك نقلاً عن مصادرها كما يلى(472) :

المصــدر

العدد

C. Sachot: Mission en Egypte, Paris 1896 P.28. :55

E. de Regny: Statistique de l' Egypte lere. Annee 1870 p. 90 :158

Y. Artin: l'instruction, publique en Egypte P. 209. :172

Angles sammarco: Said et Ismail P. 33-1. :172

إلياس الأيوبى :173

J. Heyworth - Dune: Hist. Educat. P. 394. :94

عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ص 204 :72

ويؤكد أنور عبد الملك أن مائة طالب من الموفدين قد ذهبوا لدراسة العلوم العسكرية مما يشير إلى نية الخديوى فى إنشاء أداة عسكرية قوية . وهذا ما دعاه إلى عادة فتح المدارس العسكرية ، ووضعها تحت إدارة موحدة هى « إدارة المدارس الحربية » ولكن الأزمة المالية اضطرته فى عام 1879 إلى دمج مختلف هذه المدارس فى مدرسة واحدة فى المدرسة الحربية(473) التى تظل هى نفسها حتى إعادة تنظيم الجيش المصرى بعد معاهدة 1936 .

والباحث فى عهد إسماعيل يواجه آراء متناقضة ومتطرفة تتأثر بتلك المآسى التى حلت بالبلاد نتيجة تصرفاته ، أو بتلك الهالة من الأبهة والفخفخة التى أضفاها على حكمه . ومن هذه الآراء ذلك التأكيد المبالغ فيه بأن التعليم فى عهد إسماعيل قد أخذ يهتم بالشعب ويلبى طلباته ، وينتشر بين صفوفه بمعزل عن أى اهتمام عسكرى(474) وهى آراء تخضع لتأثير المقارنة بما سبق إسماعيل وما جاء بعده ، ولا نأخذ بعين الاعتبار الظروف المتطورة والمستجدة التى أحاطت بحكم إسماعيل لتشير إلى ما كان من رغبة إسماعيل وما اضطر إليه ، تحت عوامل يقظة شعبية متعدد الجوانب سرت فى شرايين البلاد كان أهمها التغلغل الأوروبى . فمن المؤكد أنه ظل يعطى الأولوية للتعليم العسكرى إلا أنه أحيا ديوان المدارس فى 26 يناير 1863 وظل يرأسه على مبارك كديوان ، ثم كنظارة إلى أوائل مايو 1891(475) ونتيجة لمناقشات النواب عام 1866 بهدف إصلاح التعليم والتوسع فيه صدر قانون 10 رجب 1868 الذى كان أحد بنوده ضمان مساهمة الأغنياء فى تمويل برنامج التعليم . ولكن ما كان يدبر لمصر سرعان ما عصف بكل ذلك. وذهب إسماعيل ، ولم تتمكن الثورة العرابية من تنفيذ شىء ، وجاء الاحتلال ليتابع قدمًا وعلى نحو أحكم طمس وجه البلاد العربى .

يمكننا أن نستخلص من هذه النظرة فى التعليم « الحديث » أن وجوده فى مصر ارتبط بحاجات محمد على فى تطوير الجيش بتأثير مستشاريه وخبرائه الأجانب ، وتلبية لهذه الحاجات المباشرة أرسل البعثات إلى أوروبا للتخصص فى مختلف المجالات التى توفر له الاكتفاء الذاتى ، واستثمر جهود المستخدمين الأجانب ثم أعضاء هذه البعثات بإنشاء المدارس الخصوصية والعالية لتخريج

الضباط والمهندسين والأطباء مما استلزم أن تنشأ المدرسة التجهيزية لتمون المدارس الخصوصية بالطلبة ، والمدارس الابتدائية لتغذى المدرسة التجهيزية(476) فلما تحقق هدفه بالاستقلال بمصر واستنفذ الجيش أغراضه قل اهتمامه بأمر التعليم فتناقص عدد المدارس فى أواخر عهده ثم هبط هذا العدد إلى الحد الأدنى فى أيام عباس وسعيد(477) وعاد الاهتمام بها أيام إسماعيل لدوافع شبيهة بدوافع محمد على ، ولكن الظروف كانت قد تبدلت بالبلاد عن أيام محمد على فاستطاعت أن تستفيد من هذا الاهتمام وتمضى به إلى غايات أبعد .

من هنا كانت الصفة الاصطناعية التى يوصف بها هذا التعليم وتلك النهضة بالتالى . إذ كان هذا الأسلوب مسؤولا عن بقاء سلمين تعليميين(478) فى البلد لا صلة لأحدهما بالآخر . أحدهما يوصل إلى المناصب والنفوذ والثروة ، والآخر يلقى مصير أهالى البلاد الأصلين . ولذلك بقى التعليم الحديث « سطحيًا »(479) ومازالت البلاد لعدم الانطلاق فيه من تطوير نظمها الخاصة تعانى حتى الآن من هذه الازدواجية .

أما صفة هذا التعليم الثانية فإنه فضلاً عن كونه إقطاعيًا قائمًا على أساس من تقسيم العمل بين طوائف الشعب المختلفة ، هو تعليم عنصرى : ينتمى الطلاب فيه إلى منبعين جنسيين مختلفين: فعلى حين يمد أبناء المماليك والشراكسة وقلة من اليونان والأكراد والألبان والجيورجيين المدارس الحربية كانت قلة من أهالى البلاد الأصليين تمد المدارس الطبية والبيطرية والبوليتكنيك والخدمات الإدارية(480) . وهكذا كان نصيب « الذوات » الأجانب على اختلافهم القيادة ونصيب «أبناء الشعب أن يتولوا العمل فى دواوين الدولة»(481) .

القسم الثانى : طـريق التحـرر والتحـرير

الفصل العاشر

« يجب أن يكون معلومًا يا بنى أن ترقية العربى إلى رتبة نقيب سوف تكون خطرًا على مصير أسرتنا ولو بعد مائة عام .. »

من محمد على إلى إبراهيم

لم يكن محمد على يقرأ الغيب عندما كتب لابنه إبراهيم يحذره من خطر ترفيع العربى فى الجيش إلى رتبة نقيب على مصير الأسرة ، وإنما كان يعرف ظروف حكمه ويعيها ، وأنه لابد لهذا الشعب الذى يتحكم بأقداره - إذا تحسس قوته - من أن يثور به ويسقط حكمه .. لذلك جرى الحكم فى مصر بعده على قاعدة أن لا يمكّن أحدًا من أبناء البلد المصريين من الارتقاء فى الجيش ، مصدر القوة ، إلى رتبة عالية . فكان محرمًا على أبناء المصريين أن يدخلوا الكلية الحربية . فإذا رقّى المصريين فإنه يرقى من تحت السلاح . وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، دعت الظروف - فى غفلة من الخديوية والإنجليز - إلى وصول عدد من المصريين - من تحت السلاح - إلى رتبة عالية فى الجيش ، وهم الذين يلاحظ أنهم يتبعون أسماءهم دائمًا بلقب « المصرى » : عبد العال حلمى المصرى ، أحمد عرابى المصرى ، على فهمى المصرى .. إلخ تمشيًا مع نهوض الحركة الوطنية التى رفعت شعار مصر للمصريين ، وأصبح عامًا يجرى على كل شفة ولسان .. وكان من شأن هذه الظروف فى أوائل الربع الأخير من القرن التاسع عشر أن تضع هؤلاء «المصريين» فى الجيش فى مواجهة « الفئة » الشركسية فيه من ذوى الرتب العالية ، وكان بداية ذلك ، كما كتب عرابى فى مذكراته ، التى نشرها بلنت فى آخر كتابه كيف دافعنا عن عرابى وعرضها على الشيخ محمد عبده فأقرها : « .. أنه قد كثر اجتماع العنصر الشركسى فى منزل خسرو باشا الفريق، وهم يتذاكرون فى تاريخ دولة المماليك فى كل ليلة بحضور عثمان باشا رفقى ويلعنون خيرى بك لتسليمه وإذعانه للسلطان سليم ؛ ويقولون أنه قد حان الوقت لرد بضاعتهم إليهم ، وأنهم لا يغلبون من قلة ؛ وظنوا انهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك المماليك من قبل .. »(482) وكانت قد تسربت أخبار مشروع يعده عثمان رفقى (الشركسى) وزير الجهادية فى وزارة رياض ، لمنع ترقى الجندى المصرى من تحت السلاح ؛ فحتى ذلك الحق يجب أن يحرم منه الفرد المصرى - لا لأنه لا يستحقه وإنما خوفًا منه ، لضمان طواعيه هذا الجندى لتسخيره فى حفر الترع والزراعة فى أرض الخديوى .

فالفلاحون ، « الأهالى » ، الذين يسخر حكم أسرة محمد على ما يمكن أن يفيض عن استغلال أفرادها و « طائفة الباشاوات والباكوات والأفندية » التى اصطنعها هذا الحكم لمساندته فى الحكم ، من قدراتها ، لأغراض لا علاقة لها بمصالحهم .. هم العنصر المكون للجيش المصرى .

حرمت أسرة محمد على دخول أحد من أفراده المدارس الحربية ليبقى هذا الجيش تحت إمرة العناصر الأجنبية، وها هو الحكم يريد أن يحرم على أحد من أفراده الترقية من تحت السلاح. بل ويراد أن يفتت الأفراد من هؤلاء الأهالى ، أن يتفتت انتماء أفرادهم بعضهم لبعض أن يواخذ أى فرد منهم للتكلم باسمهم . ومن هنا كانت مساءلة أحمد عرابى فى محاكمته ، كيف يمنح نفسه صفة « رئيس الحزب الوطنى » ، فى الكتاب المرسل منه إلى حامد أمين ومحمد الزمر ، مع أنه لا يجوز وجود أحزاب فى الممالك المنظمة ووجود الحضرة الخديوية ، فأجاب عرابى وفى إجابته الدلالة ، قال :

« من المعلوم أن مصر مسكونة بأجناس مختلفة ، وكل جنس منهم يعتبر حزبًا . كما أن أهل البلاد حزب قائم بذاته يطلق عليه لقب فلاحين إذلالاً لهم .. »(483) .

وقفة العروبة فى عابدين

بيد أن أحمد عرابى ، لم يكن ، فى بلاده ، يتصرف كزمر المماليك ، تنقلب زمرة منهم على أخرى بدافع الحقد والضغينة ، لتحل محلها فى الحكم ، بل كانت تحركه مبادئ عامة ، يعبر بها عن أمانى البلاد . ففى حوار الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة 9 سبتمبر (أيلول) 1881 ، ساعة المقابلة التى جرت بين عرابى ومن ورائه آلايات الجيش جميعًا وجماهير الشعب المتجمهرة من جهة ، والخديوى ومعه القنصل الإنجليزى من جهة أخرى : « لعرض طلبات عادلة تتعلق بإصلاح البلاد وضمان مستقبلها » ، تتضح كل الوضوح ، من نظرة كلمن الخديوى ، الممثل للحكم الأجنبى، وابن البلاد ، الممثل لرغباتها إلى الموقف : قال الخديوى يسأل عرابى(484):

« الخديوى : ما أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟

عرابى : جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة .

الخديوى : وما هى هذه الطلبات ؟

عرابى : هى إسقاط الوزارة المستبدة وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبى وإبلاغ الجيش إلى الحد المعين فى الفرامانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها .

الخديوى : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا .

عرابى : لقد خلقنا الله احرارًا ، ولم يخلقنا تراثًا وعقارًا ، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » .

فالتفت الخديوى إلى الملقن بجانبه ، القنصل الإنجليزى ، يسشيره فأشار عليه بالعودة إلى القصر .

وأخيرًا اضطر الخديوى إلى الإذعان ، أى أن يحنى رأسه للعاصفة انتظارًا .

* * *

لم يكن يوم عابدين هذا وليد نقمة الضباط المصريين ، أولاد العرب ، على عثمان رفقى وزير الحربية وزمر الأجانب فى الجيش الذين - كما قال كرومر فى تقريره الشهرى ثم فى كتابه «مصر» - كانوا يتآمرون ، وأن الوزير « عامل الضباط المصريين معاملة غير عادلة فيما يتصل بالترقية ؛ إذ سلك فى ذلك مسلكًا كما لو كانوا - المصريين - أعداءه ، أو كما لو أن الله أرسله ليصب غضبه على المصريين ، وقد طرد الضباط من فرقهم بغير تحقيق قانونى ، فكان للشاكين منه مطلبان . أولهما إقصاءه لأنه غير كفء لهذا المنصب ، وثانيهما إجراء تحقيق فى كفاية الذين ظفروا بالترقية » .. والحقيقة ، كما قال بلنت : إن هذا التمرد الذى كان يعتلج فى نفس عرابى كان بتأثير موجة التحرر التى سرت فى الشعوب المستضعفة فى الإمبراطورية العثمانية . فقد كان مدخل الصداقة التى انعقدت بين بلنت وعرابى معرفة عرابى بقرابة بلنت للشاعر بيرون الذى ذاعت شهرته بسبب تطوعه فى حرب اليونان التحررية التى هزت أوروبا . فشجعته معرفته

هذه على مكاشفة بلنت بصراحة دون ريبة ، وانعقدت بينهما صداقة متينة . فأطلعه على « العريضة » المتضمنة مطالب الجيش ، التى دعت إلى « مقابلة عابدين ؛ وهى تشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش بمقتضى الفرامانات ، وإبطال الإجحافات ، وتعديل القوانين العسكرية لتضمن العدل والمساواة بين جميع المواطنين .. ويذكر بلنت أنه عرض هذه المعلومات على الشيخ محمد عبده ، صديقه ، قبل أن ينشرها فأقرها . وقد أفضى عرابى لبلنت فى هذه المكاشفة بما هو أخطر وأثبته فى آخر كتابه ، بصدد اجتماعه بالضباط الذين توافدوا إلى منزله طواعية قال : « ولكن قبل أن نفترق اجتمعنا فاقترحت أن نتحد ونخلع إسماعيل .. وكان خلعه يوفر على البلاد تلك الملايين الخمسة عشر التى حملها معه عندما خلع .. ولكنه لم يكن هناك يومئذ من يقود هذه الحركة ولذلك فإن مقترحى لم ينفذ وإن حاز القبول .. ولكن لو فعلنا ذلك بأنفسنا لكان أفضل . إذ إننا كنا نستطيع أن نتخلص من أسرة محمد على كلها فإنه لم يكن فيها حاكم صالح » من هنا التزم عرابى بالحزب الوطنى ، بحزب الفلاحين ، أصحاب البلاد .

كان التخلص من أسرة محمد على حينئذ سوف يكون نقلة نوعية بمصر من عهود المماليك إلى العصور الحديثة ؛ إذ أيًا ما كانت حجج مؤرخى محمد على وأسرته فى الدفاع عن « مزاعم إقامة دولة حديثة » فما نزال ، نتساءل ، بعد انقضاء قرن وحوالى نصف قرن على تأسيس حكمه، أين هى هذه الدولة الحديثة ؟ هل هى فى بناء القصور بينما الشعب « الأصلى » ، صاحب البلاد يتضور جوعًا ؛ هل هى فى امتلاك كل ثروة فى البلاد وتحويل الشعب بأكمله إلى أجراء ، تبلغ نسبة الأمية بين أبنائه فى أواخر القرن 90% ؛ هل التحديث هو إنفاق أكثر من 90 مليونًا لجعل «مصر الباشاوات» قطعة من أوروبا ، فإذا بمصر تساق لتكون ملكًا لأوروبا ورهينة لتفى ديونها .. إلخ . فلسنا نرى فارقًا « تقدميًا ، تحديثيًا » بعد أن تطبق السخرة والاحتلال على الشعب وتحول دون تعليمه . وتلزمه على البقاء فى جحوره .. زمرة من الملتزمين والمماليك باسم الدولة «العلية» والسلطان ، وبين أن تطبقها فئات تلبس أحدث ما أنتجته الحضارة الأوروبية من أزياء باسم الرأسمالية الحديثة ؛ كما لا نرى فارقًا بين المماليك الانكشارية الذين كانوا ينقضون على ثروات الشعب باسم السلطان ، وبين الخديوى والشركس والأتراك الذين تقدموا صفوف الإنجليز لمحاربة عرابى !!

وقد لاحظ كرومر فى كتابه عن الثورة العرابية لو كتب لها النجاح إن العناصر التى سوف يكتب لها البقاء هى : « الفلاحون وطبقة صغيرة من الملاك ومشايخ البلاد والعمد الذين يمثلون أصحاب الملكيات الصغيرة .. والأقباط .. وطبقة دينية على رأسها علماء الأزهر .. ذلك أن مبدأ مصر للمصريين الذى اعتنقه الثوار كان سيؤدى إلى التخلص من الأوروبيين ومن الخديوى ليحل محله رجال « أميون » كعرابى ومحمود سامى البارودى .. ومن الأرمن ومن الطبقة الأرستقراطية وأغلبها من الأتراك الذين كانت لهم أراضٍ واسعة .. »(485) وبالطبع كان هؤلاء أميين ، فى رأى كرومر ، وكان الخديوى والذين يأتمرون بأمر الإنجليز « علماء » وإن كان أكثرهم يجهل لغة أهل البلاد . !

ولم يتجاف حس أهالى البلاد بجميع فئاتهم عن ذلك ، لذا تجاوبوا مع الثورة وتدافعوا لتأييدها . فكان الناس يلتفون فى مظاهرة حارة حول الضابط من جيش عرابى أينما لمحوه ، والأغنياء يرشون الجنود بالأزاهير والرياحين والتجار يوزعون الشراب مجانًا على الناس(486) «والنفقات التى لزمت لمائة جندى مصرى أثناء الحرب كانت كلها تبرعات من الأمة المصرية بغير تمييز

بين العقــائد . فقد بدأت الحرب، ولم يكن هناك أكثر من عشـــرة آلاف جندى تحت السلاح ولا أكثر من ألف ومائتى حلة فى المخازن ، ولم يكن لدى الجيش ، كما قال عرابى فى رسالته إلى صابونجى- أكثر من ألف وخمسمائة عدل من الحبوب.. ولكنه عند نهاية الحرب كان لدى الجيش وفى مستودعاته وفى المديريات المختلفة والمخازن ما يزيد على مليون من الجنيهات من المال والمنتجات الزراعية والبقر والجاموس والغنم والأقمشة، وكل ذلك قدم هدايا من الأمة للجيش المدافع عن وطنها .. ولم ينفق على الجيش أثناء القتال درهم واحد من خزينة الحكومة .. »(487) .

ويصف الشيخ محمد عبده تلك الأيام لبرودلى قائلاً : « لقد رأيت المواطنين جميعًا ينفرون إلى الحرب فى شوق وحمية لقتال المعتدين . لا فرق بين فلاح وبدوى ومدنى ، وكانت الغيرة الوطنية تملأ قلوب الجميع .. وكانت شوارع القاهرة تغص فى المساء بالاستعراضات العسكرية من الشبان يجولون فى شوارعها وهم ينشدون الأناشيد الوطنية التى تشيد ببطل الحرية(488) « ولم يشترك المشايخ والعلماء فى تأييد الثورة بالكتابة والخطابة فحسب ولكن بالنضال أيضًا .. »(489) وعلى الرغم مما كان يشيعه تواجد الخديوى والأتراك والإنجليز فى الإسكندرية ، وعلى الرغم مما كان يبذله « مكتب المخابرات العسكرية » وما كان يوزعه سلطان « باشا » من النقود ، تارة باسم الإنجليز ، وأخرى باسم الخديوى والسلطات ، كما ذكر الشيخ محمد عبده (الإمام فيما بعد) فى مذكراته .. فإن كارتبريت أبرق إلى جرانفيل ، فى 22 يوليو 1882 يقول : « وإنه ليؤسفنى أن أقرر أنه على نقيض ما يذكر الخديوى بشأن الإسكندرية لايزال يغادرها كثير من العرب لينضموا إلى عرابى ... » . ذلك أن جيش عرابى كان يمثل تطلعات الشعب ، ويعبر عنها كما قال عرابى نفسه لبلنت : « فالجيش إن هو إلاّممثل الشعب وحاميه حتى يأتى الوقت الذى لا يحتاج فيه إليه »(490) . ومن هنا كانت صرخة الشعب أينما ذهب « الله ينصرك يا عرابى » .

مصر حصن العرب

ثمة أمر آخر ، لم ينوه إليه كرومر ، لو نحّى الخديوى عن الحكم ، وأبطل نفوذ الفئات والقوى المساندة له ، وإن كان يعلم أن فيما ظهر من تصرفات إنجلترا ما يكشف عن أهميته بالنسبة لها بل وخطورته عليها فى المنطقة . وهذا الأمر هو اتصال مصر بما يجاورها من البلاد العربية المحيطة وبخاصة المشرق منها ؛ أو بمعنى آخر عودة مصر إلى مكانها فى الأمة ، إذ ما إن لاحت لها تحركات عرابى حتى سارعت بأخذ احتياطاتها بإيفاد من يقطع اللاسلكى ويحول دون الاتصالات(491) ثم ليس هناك أدنى شك ، وإن لم تصرح بذلك فى أنها كانت تبيّت النية لاحتلال مصر منذ زمن بعيد ، وأنها كانت تتحين الفرصة المواتية . وكانت نية عرابى ، ويعرفها البارودى إذ ذكر عنه أنه قال : « لقد كنا نهدف منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية .. وعندئذ كانت تنضم إلينا سوريا ويليها الحجاز ... »(492) وذكر عن كرومر نفسه أيضًا أنه قال : « إن الهمس قد زاد عن قيام حركة سرية ترمى إلى إنشاء دولة عربية من مصر وسوريا .. فلو فرضنا لهذه الحركة النجاح فماذا كان يصبح مصير أجزاء إمبراطورية آل عثمان ومصيرهم .. » ذلك «... إن إنشاء دولة عربية فى مصر والشام ، تقوم على مثل تلك الأسس الدستورية التى يدعو إليها عرابى من شأنه أن يؤدى إلى تعرض الدولة العثمانية لتلك السياسة التى تقضى عليها...»(493) ولعل هذه الحقائق هى أهم ما استخدمه الإنجليز والخديوى لإقناع السلطان بالتخلى عن عرابى والوقوف ضده . وواضح من الربط بين فكرة تغيير نظام الحكم وفكرة إقامة دولة عربية ، أن رجال الثورة كانوا يدركون الأغراض الاستعمارية من وراء عزل مصر عن البلاد العربية ، وكان هذا جليًا فى كلام خطيبها عبد الله النديم الذى ألقاه يوم 20 يوليو 1882 فقال : « يا أهل مصر إن الإنجليز يقولون مصر حصن البلاد العربية من فتحها فقد أخذ بلاد المسلمين ، فهبوا للدفاع عن وطنكم ، وتقوّوا واحفظوا حصن البلاد الإسلامية ، وجاهدوا فى الله حق جهاده لتحفظوا هذا الدين العظيم ، وتدفعوا عدوًا يريد أن يدخل بالخيل والرجل بلدًا لله ، يريد أن يدخل الكعبة المشرفة عن طريق بلادكم »(494) .

الوجـه العـربى للثـورة

لم يكن عرابى جاهلاً ، كما اتهم ، فارتقاؤه من تحت السلاح يكذب ذلك ، وورود ذكر بعض من قراءاته فى مذكراته ، واقتناعه أن بلاده بحاجة إلى حكومة دستورية كان دافعًا لمطالعة كثير من « التواريخ العربية »(495) وفيما كتبه بلنت إلا جلادستون ، إثر المقابلات والمناقشات التى جرت بينه وبين عرابى جاء : « إن الآراء التى يفصح عنها ليست تكرارًا للعبارات المتداولة فى أوروبا الحديثة ، ولكنها تقوم على أساس من معرفته بالتاريخ والتقاليد الحرة للفكر العربى ، تلك التقاليد الموروثة من عهد حرية الإسلام »(496) ، يؤيد هذا ، او أن هذا يؤيد ما جاء فيما بعد بمذكراته نفسه أنه ابن شيخ عربى فقيه ، وأنه بالأصل من قرية صغيرة ببطائح العراق ، وبأمر من والده رتب درس فقه فى المسجد للعامة بعد عصر كل يوم . إذ كان شديد الاهتمام بتعليم قومه وأهل بلده(497) .

وفى مصر فإن عرابى من سكان الشرقية - أى من المناطق التى ماتزال لم تنقطع صلاتها بالبداوة . بل يذكر الرافعى أنه مما كان يعاب عليه هى بدويته . وأنه تعلم فى الأزهر ، فالحمية العربية وليدة تلك « التقاليد العربية المعروفة عند الفلاحين فى مصر » ، كما يقول أنيس صايغ ، هى التى كانت تحرك غيرته الوطنية . لذلك أطلق على يوم 9 سبتمبر (أيلول) التاريخى فى ساحة عابدين « يوم العروبة » كأنه يوم انتصاف العرب من العجم ، كيوم ذى قار (فى الجاهلية) . من هنا كان اعتزازه بالانتماء إلى حزب الفلاحين، واعتباره الحزب الوطنى ، صاحب البلاد . ويلاحظ من خطب رجال « الثورة » أنهم واعون موقف دول أوروبا واختلافها فيه بين مطالب بلغاريا ومطالب مصر والتعصب البادى فيه . فعلى حين حصلت بلغاريا على برلمان ، وحق إنشاء المدارس العسكرية ، ولم يقل أحد فى أوروبا إنها غير مؤهلة « تزعم أوروبا أن مصر لم يئن لها بعد أوان تمتعها بالحرية لكونها لم تتوفر فيها شروط التقليدات الأوروبية » والحقيقة أنها فى هذه المواقف تريد أن تستفرد البلدان العربية الواحدة تلو الأخرى : « فإن إيطاليا تسوق جيوشها للاستيلاء على طرابلس الغرب ، وفرنسا تشرئب بأعناقها إلى سوريا .. وتصرفات هذه الدول لا تخفى فى مصر..»(498) فمن تقرير محمد سلطان باشا، المقدم إلى رئيس «قومسيون» التحقيق الخاص بمحاكمة « العرابيية» فى 3 تشرين الأول (أكتوبر) 1882(499) ، يتضح أن النواب قد دعوا فى 12 مايو (أيار) لعقد جلسة تعرض عليهم فيها أعمال مشينة ارتكبها الخديوى بحق البلاد للحصول منهم على قرار بخلعه . فعارض رئيس المجلس سلطان باشا بقانون المجلس الذى لا يسمح بدعوة النواب إلا بأمر من الخديوى . فرد عليه أحد النظار كيف يطلب من الخديوى هذا ، وهو الذى عكف على بيع مصر للأجانب والذى خاننا . فإن هذا من حق الشعب وحده ، وإنما نحن الذين نقوم بتمثيله هنا ندعو النواب إلى القاهرة » .

فبدافع من خلفيته تلك ، التى يتحسس من خلالها روابط البلدان العربية بعضها ببعض وروابطها جميعًا بالعالم الإسلامى ، ويقدر أهميتها فى الوقوف لمساندة مصر ، أرسل المبعوثين المصريين إلى شتى أرجاء العالمين العربى والإسلامى يشعلون الحماسة فيهما « وبخاصة سوريا - بلاد الشام - التى بدا فيها استعداد ما للأخذ بمبادئ الحزب الوطنى »(500) وهو لم يخطر ببال سعد زغلول

للاختلاف بين الخلفيتين : خلفية عرابى التى تربطه بقاعدة الفلاحين العريضة ، وخلفية سعد التى تشده إلى طبقة الباشاوات ، ويرنو ببصره وبصيرته إليها .

فطيلة عمل سعد فى الدولة ، فى ظل الحكم البريطانى ، لم يذكر عنه أنه أبدى امتعاضه أو استياءه ، أو أنه انتصر للدفاع عن الشعب لحيف وقع عليه . بل على العكس كان يطلب الرضا من الأعلى ، ففى مذكراته أو يومياته وميزته أنه صادق يقول للمعتمد البريطانى : إذ خرج وراءه يودعه بالباب : « أرجو أن نظل على البال »(501) ويمكن القول بلا تحامل أنه كان سائرًا مع الماء ، لم يشهد له أحد بنفس للتغيير ، وفاجأه الشعب فى مصر بثورته وهو فى المنفى ، ولم يكن الشعب صفرًا . كانت تعوزه القيادة ، ولو دامت ثورته كان قمينًا بإفرازها . وكانت فلسطين وسوريا والعراق حينئذ تشهد ثورات متأججة تنتظر قيادات توحدها ولم تكن كذلك أصفارًا .

ففى بلاد الشام ، تلبيةً ، لنداء عرابى « حمل الرجال السلاح وأعدوا الكتائب من المجاهدين ، ولكن جنود السلطان منعتهم من الإبحار إلى مصر .. وفى تونس كان العربى يهمس فى أذن الآخر : لقد ظهر أخيرًا منقذ الإسلام ومخلص لبلاد العروبة من الاستعمار .. وأشادت الصحافة بعرابى ولقبته حامى الإسلام والعرب ، وصلى الناس فى المساجد يدعون الله أن ينصر عرابى وأن يخذل الإنجليز .. »(502) .

إلا أن ما جرى فى السودان يستحق وقفة لدلالته . ذلك أن الإنجليز الذين تمكنوا من تقليص أثر الثورة العرابية فى المشرق العربى بالعمل على قطع وسائل الاتصال وإيفاد خبرائهم لبذل المال وتوجيه سياستهم للضغط على السلطان .. وكان المغرب العربى منشغلاً بمصائبه المماثلة مع الاستعمار الفرنسى . فلم يملك أكثر من الدعاء . فإن الإنجليز لم يستطيعوا أن يمنعوا تفاعل السودان تفاعلاً عميقًا مع الأحداث فى مصر لاتصاله المباشر بها .

فقد أجمع أكثر الكتاب والمحللين لثورة السودان على اعتبارها ثورة وطنية للتحرر من الأتراك والإنجليز اتخذت سبيلاً لذلك الدين ، وأسطورة المهدى المنتظر التى انتشرت بين العامة فتعلقت بها الأبصار للخلاص من الفساد المزمن المستشرى . يؤخذ من تقرير المبعوث العثمانى مختار باشا أن استعار نيران ثورة السودان يرجع إلى وجود الجيش الإنجليزى ، ويقترح لتهدئة الحالة وإشاعة الاطمئنان فى نفوس أهالى السودان ، انسحاب الإنجليز وتسليم الأمر لجيش مصرى(503) . وكتب الشيخ محمد عبده فى العروة الوثقى : « وأى حجة لمحمد أحمد فى دعوة السودان إليه ، وأى نفقة تجمع القلوب عليه أقوى من أن يقول إن الإنجليز نيتهم الاستيلاء على أرض مصر ، وهى فى عداد الأرض المقدسة وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ودعاة القوة الإسلامية .. »(504) . كما قال فى مقالة أخرى إنه « ليس من المبالغة أن نقول أن حلول الجيش كان وسيكون من أعظم الأسباب لقوة محمد أحمد ، ولولا وجود العساكر الإنجليزية فى مصر ما تمكن الرجل من الجهر بهذه الدعوة العظيمة »(505) . وعندما سئل عرابى عن رأيه فى إرسال الحكومة المصرية لقتال المهدى جيشًا قوامه عشرون ألفًا بقيادة رجل إنجليزى اسمه (هكس) وهل يكفى للتغلب عليه أجاب : « نحن نرى أن وجود قائد إنجليزى هلى جيش مصرى يكون من صالح المهدى . فإنه يحكم بكفر المصريين الذين يقاتلون المسلمين تحت قيادة مسيحية، ويستبيح قتلهم بسبب هذه القيادة، وإذا استولى على أسلحة الجيش وذخيرته أصبح قويًا يخشى جانبه »(506) فليس ثمة خطر من المهدية يخشى على مصر « ... إنما الاحتلال البريطانى الذى إذا

تركها فلن يهاجمها المهدى ، وأنه الآن محبوب من الشعب المصرى . لأن المصريين يرون فيه المنقذ لهم من الاحتلال الأوروبى ، وسوف ينضمون إليه عند قدومه »(507) .

ولقد أسهم السودانيون والمصريون على حد سواء ممن اشتركوا بالثورة العربية ثم نكصوا إلى السودان خائبين تشحذ هممهم مرارة الفشل فى إشعال نار النقمة على الإنجليز . فمن جهة كان السودانيون قد سارعوا إلى مصر وعلى رأسهم الشاعر يحيى السلاوى الذى كانت قصائده فى الثورة تلقى على جموع الناس فى الميادين والشوارع ويتخاطفونها بأغلى الأثمان ، فعادوا إلى ديارهم وقد أدركوا حقيقة المؤامرة على العروبة . ومن جهة أخرى لعب المصريون أنفسهم فى الثورة المهدية دورًا كبيرًا ، وخاصة فى صفوف الموظفين لكسب ولائهم لها، أو فى صفوف الجيش لعدم قتالها أو التسليم لها . وكان أبرزهم أحمد العوام أحد خطباء الثورة العرابية فى الإسكندرية. الذى هرب إلى الخرطوم فأسس فيها حزب « الجمعية الوطنية » واتصل بالمهدى وبالموظفين المتعاونين يحرضهم على خذلان الإنجليز ، ويبث فيهم روح الوطنية ، وزود الثائرين بالذخائر وناظر كبار الإنجليز . وأخيرًا تمكن الإنجليز من اعتقاله والحكم عليه بالإعدام(508) . ويروى بيزمان فى كتابه عن المهدى أن بعض طلاب الأزهر -من اتباع عرابى ومن الحزب الوطنى قد تركوا دراستهم والتحقوا بثورة المهدى(509) . وكتب الشيخ محمد عبده يعلل نكول الجنود المصريين عن محاربة المهديين قائلاً : « ولم يختلج فى صدورنا ولا فى خطرات أنفسنا أن انهزامهم فى هذه المواقع منشأه الجبن .. أو الاختلال أو النقص فى الآداب العسكرية ، ولكن نعلم أنهم كانوا يفضلون الموت بيد إخوانهم على الظفر بهم لتكون أموالهم وديارهم غنيمة لصاحب أمرهم من الأجانب »(510) .

ولم يقف التجاوب بين البلدين فى هذه الثورة عند هذا الحد . بل تعداه إلى تحريض المهدية على تجاوز حدود السودان إلى الأقطار العربية الأخرى فى محاربتها للإنجليز والأتراك ، وإلى تحريض الشعب فى مصر على الثورة لمساندتها وإشغال قوى الإنجليز عنها . فقد جاء فى العروة الوثقى أنه « لم يتم له أمر - للمهدى - ولن تتمكن له سلطة فى بقعة من بقاع الأرض سودانًا كان أو مصر أو غيرها من البلدان إلا بتقدمه إلى ما وراءها حتى يعلى كلمة دينه ، ويرد إلى الحق من انحرف عنه .. »(511) . وأخذت تحرض المصريين على الثورة من جهة أخرى : « ... لايزال دينكم يترقب منكم حمية عليه وغيرة لدفع الغائلة عنه . إن صاحب الدين ينتظر فيما يعرض عليه من أعمالكم نهضة لإعلاء كلمة الحق وإنقاذه من مخالب أعدائه »(512) ذلك أنكم « لو تركتم عدوكم حتى ينتهى لمقره ويقوى على أمره ويدوخ السودان ويحيط بجيوشه البلاد المصرية - لا أنا له الله ذلك - صعب بعد ذلك تعريفه بقدره وإيقافه عند حده .. - فإنما الكلام الآن فى الدفاع عن الحياة وصيانة ضروريات المعيشة . فإن لم يستفزكم طلب العلا وسمو الهمم فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر الذى رأيتم بوادره ، ونعوذ بالله أن تدرككم أواخره »(513) . ثم تضرب للمصريين مثلاً من قوة اليقين المسلح بها هؤلاء العرب » التى سببت نجاح ثورة السودان وسقوط هيبة بريطانيا فى ربوعه(514) .

ويستدل مما كتبته التايمس فى 26 نوفمبر (تشرين الثانى) 1883 وما كتبه يارنج إلى جرانفيل فى 31 ديسمبر (كانون الأول) 1883 وكليفورن ليود المستشار البريطانى فى وزارة الداخلية أن تأييد المهدية قد أخذ يتزايد من الجنوب إلى الشمال(515) تبعًا لانتشار أخبار انتصاراتها ودعاتها . كما يشير بعض تلك التقارير إلى هياج القبائل ، وقد ذكر أحد المؤرخين أن الخديوى

توفيق « قد أرسل أخاه الأمير حسن باشا - لما خافت مصر على حدودها من مهاجمات المهدى - إلى الحدود السودانية فى 25 فبراير (شباط) 1885 لمخاطبة رؤساءالقبائل الثائرة ودعوتهم للطاعة ، ولبث بجهات حلفًا زمنًا دون جدوى »(516) مما دعا إلى قيام الحكومة بعمليات تفتيش عن السلاح فى صعيد مصر ، وإلى مراقبة حدود مصر الغربية لمنع تهريب السلاح »(517) وذلك بقصد محاصرة الثورة . وعندما انتشرت أنباء الاضطرابات فى جنوب مصر ، وخاصة فى جرجا وأسوان كتبت العروة الوثقى تدعو صراحة للثورة وإشعال نارها ضد الإنجليز فى الشرقية والبحيرة والفيوم . إذ لو تم هذا « لارتبك الإنجليز وخارت عزائمهم والتجأوا إلى ترك البلاد لأهلها»(518) .

وذهب الإنجليز فى مخاوفهم إلى أبعد من ذلك فقد توقعوا زحف المهديين . إذ جاء فى مذكرة مالت عن السودان المؤرخة فى 18 أكتوبر (تشرين الأول) 1882 « إن المهدى يريد بعد الاستيلاء على الخرطوم أن يزحف بمن لديه شمالاً . إما بطريق النيل وإما بطريق سواكنوالبحر الأحمر والسويس للاستيلاء على مصر التى يبغى منها الانتقال إلى مكة .. »(519) لذلك كان رأى أليسون القائد الأعلى للقوات البريطانية فى مصر « أن لا يترك المهدى يتقدم حتى يصل قريبًا من القاهرة بأى حال من الأحوال حتى لا يجد أهالى الدلتا المسلمين فى هذا التقدم ما يشجعهم على القيام فى وجه الحكومة والانضمام إلى المهدى ... » .

هكذا من الواضح أن جماهير مصر كانت ترى فى ثورة السودان استمرارًا لثورة عرابى وكان السودانيون يعتبرونها حربًا على الإنجليز الكفار ، وعلى الترك الذين أفسدوا العقيدة «فالمهدى وعرابى ندان فى عمل أصيل مشترك لتحطيم الكفار الإنجليز فى مصر .. والكفار الترك» وقد قصد المهدى من الأمر الذى وجهه إلى أنصاره « بالتحفظ على غوردون وإحضاره إليه سليمًا معافى »« أن يفتدى به عرابى حين بلغته هذه الأنباء - أمة واحدة ، وشريعتهم واحدة ، وحكومتهم واحدة ، وعوايدهم واحدة ، ولغتهم واحدة شعارهم (الوطن الوطن) » .

هل حقًا فعل عرابى ما يعيب ؟

هل يعاب على من يدافع عن وطنه ؟ هل يتهم من يكون حسه الوطنى تام بالتهور والهوج ؟

فقد كيلت الاتهامات لعرابى جزافًا وطمست الحقائق ، كانت ديون مصر ، وهى الغنية قد بلغت تسعين مليونًا من الجنيهات بسعر ذلك الوقت طبعًا ، وهو ما يعادل بقيمة اليوم أكثر من تسعين مليارًا من الجنيهات ، مما أدى ، بتحايل مكن الدول الكبرى وعلى رأسها إنجلترا إلى إقامة «صندوق الدين العام» . ومع أن المالى الذى انتدبته إنجلترا لدراسة قدرات مالية مصر قال بعبارة صريحة : « إن مصر تستطيع أن تدفع ما عليها من الديون إذا أحسنت إدارة البلاد » إلا أن الحكم المهلهل الذى كانت تدار به البلاد ، والسفه فى التبذير الذى أدى إلى بيع قناة السويس زاد فى تراكم المديونية .. فهل كان خطأً من عرابى التحامه بالحركة الوطنية المطالبة بالإصلاح ؟ وإذا كانت ظروف حياته قد وضعته موضع من يحس بالظلم والاستبداد . فينشأ على حب العدل وكراهية الظلم ، فهل كان ذلك خطأً ؟ وعلم عرابى أنه يجرى التداول فى اجتماعات الضباط الشركس الذين تكاثر عددهم فى وزارة عثمان رفقى ، فى إعادة دولة المماليك الشراكسة ، وتأكد من أن عثمان رفقى ، وزير الجهادية ، معدّ مشروع قانون يمنع على المصرى الترقية من تحت السلاح أيضًا فوق المنع على المصرى دخول الكلية الحربية ، فهل كان على عرابى، عندما تكتل الضباط المصريين حوله حينئذ وأنابوه للوقوف فى وجه عثمان رفقى ، أن يخذلهم ، ويرفض ثقتهم به ، وهو الشجاع والأفصح والأقدر على الدفاع عنهم ؟ وهل كان عليه أن يلزم الصمت ، ويغض النظر ، ويتبالد وهو يرى الجند تسخّر لشق الترع فى أرض الخديوى ؟!! وهل كان فى عمل عرابى هذا ما يعيب ؟

وثمة « عريضة » تحتوى مجمل المطالب الوطنية ، مدنية وعسكرية اختلف الرأى حول بنودها ، فمن قائل أنها لم تحتو إلا على مطلب واحد هو تنحيه عثمان رفقى عن الجهادية ، لثبوت تعصبه لبنى جنسه ، ولخطورة ما ينتويه من إحداثات ؛ ومن قائل أن العريضة تضمنت :

1 - عزل ناظر الجهادية ..

2 - تشكيل نواب من نبهاء الأمة ، تنفيذًا لأمر الخديوى الصادر عقب ارتقائه مسند الخديوية.

3 - إبلاغ الجيش العامل إلى 18.000 تطبيقًا للفرمان السلطانى .

4 - تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للعدل والمساواة لجميع الموظفين بصرف النظر عن اختلاف الأجناس والمذاهب - أى مساواة أبناء البلد المصريين أصحاب البلاد بالجركس والأتراك والأرمن !! الوافدين .. كل هذا وذاك جميعه يشكل اتهامات تكال لعرابى !

وعلى كل حال ، أيًا كان مضمون العريضة ، التى تقدم بها الضباط الثلاثة أحمد عرابى المصرى وعبد العال حلمى المصرى وعلى فهمى المصرى ، وتحملوا بها خطورة مواجهة رياض ، فكانت بعد تعسر مفتاحًا للتغيير ، فإنها لا تختلف كثيرًا عن محتوى المطالب التى تقدم بها عرابى فى وقفة عابدين ؛ ولم يعرف عن عرابى ، فى سعيه لمقابلة رياض وما لحقه فيها من أذى كادت تؤدى إلى تسريحه وإبعاده عن آلايه على الأقل لولا تدخل قطعات الجيش لحسابه ، كذلك لم يعرف عن

عرابى أنه تطفل فى « وقفة » عابدين وندب نفسه وحشد جيشه والأهالى وراءه . ولكنه كما قال ، وهو رافع الرأس للقنصل البريطانى : « اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم اعمد إليها إلا لأنهم أقامونى نائبًا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن إخوانهم وأولادهم . فهم القوة التى تنفذ بها كل ما يعود على الوطن بخير والمنعفة » .

طبيعى أن يؤثر الفشل على عرابى ، ويبدد إلهامه وينفض السامر من حوله .. ولكن ما ليس طبيعيًا هو أن يقال فى أن كل ما لحق مصر من أذى سببه عرابى حتى بلغ الافتراء حد القول أنه لولا عرابى ما كان الاحتلال ، وبالتالى ما كانت جميع مصائبه . فضلاً عن أنه ألصقت بعرابى صفات سيئة لا حصر لها . ولعل ما كتبه بلنت إلى غلادستون فى 20 ديسمبر بعد ان جرت مناقشات عدة ومقابلات بينه وبين عرابى جاء فيه : « إن الآراء التى يفصح عنها ليست تكرارًا للعبارات المتداولة فى أوروبا الحديثة ، ولكنها تقوم على أساس من معرفته بالتاريخ والتقاليد الحرة للفكر العربى ، تلك التقاليد الموروثة من عهد حرية الإسلام ، وهو ينكر كل مطمع شخصى، وليس هناك شك فى إخلاص الجيش والأمة له .. وقد تحدث عن مكانه فى تواضع قائلاً : إنى أمثل الجيش . لأن الظروف جعلت الجيش يثق بى ولكن الجيش نفسه إن هو إلا ممثل الشعب وحامية حتى يأتى الوقت الذى لا يحتاج فيه إليه ... »(520) .

المدافعون عن بلادهم يصبحون عصـاة

كانت نتيجة « حملة فريزر » التى قصدت أن تمكّن للألفى ، عميل بريطانيا ، قبل أن يستقر الحكم لمحمد على .. أن انكسر وانسحب يجر أذيال الخيبة ، ولم يكن يواجه هذه الحملة جيش مدرب ولا مدفعية ومعدات ؛ كان يواجهها الشعب ، المؤمن ببلاده أن لا يدنسها أجنبى . وبعد حكم أسرة محمد على لم يعد الأمر ، فى زمن الحركة الوطنية ، وهيبة عرابى ، كما كان ؛ إذ نشأت فئات ، أو أنشئت ، دخيلة من الأتراك والشركس والأرمن وشرذام من « الشوام » مقطوعى الجذور ومن الأوروبيين ، تغلغلوا فى البلاد وامتلكوا عصبها .. وهذه الفئات لا تعبر عنها المشتقات الأيديولوجية الحديثة التى راجت كثيرًا كالرأسمالية والبورجوازية والبروليتاريا .. إلخ. إنها فئات عدائية ومحرك عدائيتها أشد من العنصرية. إنه أحساس المغتصب ، المهدد دومًا باسترداد ما اغتصبه . فتوتنجى الخديوى ، أى حامل غليونه وخادمه وسائس خيوله الذين لثموا يديه ليأذن لهم بزيارة عرابى فى سجنه ليشتمونه ويبصقون فى وجهه ، وهؤلاء هم والخديوى والأمراء وولسى قائد جيش الاحتلال ودوق كنوت نجل الملكة فكتوريا وإدوارد مالت المعتمد البريطانى فى مصر . ومحمد سلطان باشا ورياض باشا وشريف باشا والكبراء من العلماء ورجال الدولة وبعض الأعيان .. على حد سواء ؛ تجمعهم جميعًا مشاعر العداء للشعب صاحب البلاد بقدر متفاوت ، وتجمعهـم بقدر متفاوت أيضًا مشـــاعر الاعتماد على النفـوذ الأجنبى ، الخارجى، لا الانتماء للشعب والاعتماد عليه . فبهؤلاء جميعًا اخترق الاحتلال وطنية البلاد . فى وقت فريزر لم تكن مخترقة ، ولذلك صمدت ونجحت .

فركونًا من عرابى إلى الشرف المتعارف عليه فى الحروب بين الرجال سلّم نفسه للجنرال لو ممثل القائد العام للجند البريطانى وألقى سيفه إليه ، وما دام فى حوزة الإنجليز ، حوفظ على كرامته وهيبته كزعيم - للحق - إلا أن الصغار الذى لحق بعرابى ، ولم يكن خليقًا بالأحرار الكرماء من الرجال ، الذين يقدرون قيمة الكفاح فى خدمة الشعوب ورفعتها . لحقه بعد أن نقل عرابى وصحبه من رجال « الحركة الوطنية » من « قشلاق عابدين إلى سجن الدائرة السنية » وأودع كل منهم فى غرفة منفردة ، ليس فيها شىء ، حتى ولا كرسى ولم يسمح بإدخال شىء إليها ، إلا « بساطًا وملحفة » . لا يزيد اتساع حجرة عرابى ، نفسه ، زعيم الثورة وقائد جيشها ، والوزير السابق عن أربعة عشر قدمًا ، لا ينفذ إليها النور إلا من طاقتين صغيرتين تطلان على الشارع ، كانت فى الليل تصير حالكة الظلمة . لا يسمح فيها بمصابيح أو شموع .

وفى هذا « السجن » دأب الخديوى توفيق ، أن يرسل إلى السجناء ليلة كل يوم وبخاصة إلى عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى ، من القادة خدمه وأعوانه لإهانتهم بأحط أسلوب : يدخل أحدهم ، تلفه الظلمة على السجين ويناديه بصوت عال قائلاً أتعرفنى يا فلان !! أنا ، فلان ، سنريكم يا أولاد الكلب ! ثم يبصق فى وجهه ويلطمه ثم يخرج .. فقد كتب عرابى وهو فى سجنه لمحاميه المستر برودلى مما أثبته هذا فى آخر كتابه : كيف دافعنا عن عرابى : « ... وعقب ذلك أقبل فريق ممن أرسلوا لإهانة السجناء وتهديدهم .. وبعد هذا جاء فريق ثان ومعظمهم من موظفى الخديوى ، وكان بينهم عثمان بك القائم على شؤون خيله ، وحسين أفندى فوزى ، وله صلة

بشؤون الخديوى المنزلية الخاصة ، ومعهما آغا تركى هو الذى يركب أمام سموه حيث إنه أحد رجال حرسه الخاص ، وقد أعاد هؤلاء تفتيشى ، حتى نزعوا قميصى » .

« وبعد ساعة جاء ليزورنى بشارة تكلا محرر جريدة الأهرام ، وظننت أنه قدم ليعزينى ، وليبدى عواطفه نحوى ، وقد كان ممن يدينون بمبدئنا قبل الحرب ، وقد أقسم بدينه وشرفه أنه واحد منا، وأنه يعمل لحرية وطننا ، وقد عددناه فى الحق من الوطنيين، ولكنه لما دخل على تواقح أشد التوقح، ثم قال : أى عرابى ماذا صنعت وما حل بك ؟ ورأيت ان الرجل خائن ولا شرف له ؛ ولما لم اجبه أدار ظهره وانصرف » . وما هى إلا دقيقة ثم جاء فريق ثالث معظمهم من خدم الخديوى وأتباعه ، وفيهم أتراك وخدم من حرسه وفتشوا بساطى وملحفتى وقلبوها ظهرًا لوجه ثم انصرفوا ، وأقاموا طول الليل على باب غرفتى حراسًا على وعلى السجناء ..

« وفى ليلة التاسع من أكتوبر سمعت البابا يفتح حوالى التاسعة والنصف ، وقد خلعت ملابسى واضطجعت لأنام ، ودخل على جماعة تتألف من عشرة أو اثنى عشر شخصًا ؛ ولما كان الظلام حالكًا لم أستطع أن أتبيّن منهم أحدًا ، وصاح أحدهم فجأة .. إه . عرابى ؛ ألا تعرفنى . وحسبت أنه قادم ليقتلنى فنهضت قائلاً : كلا لست لأعرفك فصاح أنا إبراهيم آغا ثم أخذ يقسم الإيمان متوعدًا وقال لى أيها الكلب .. أيها الخنزير وبصق على ثلاث مرات . فوقفت ساكنًا فى هدوء . ثم تبينت شيئًا فشيئًا أنه إبراهيم آغا حقًا توتونجى الخديوى » .

الأوسمة والمكافآت للخونة

ليس العجيب أن يكسر « الولى عرابى » والحركة الوطنية ، بل العجيب أن تنتصر الحركة الوطنية وينتصر الصمود العرابى فى وجه الاحتلال الإنجليزى طالما يجد تحالفًا من حاكم البلاد الأول والفئات المتعاونة معه ، التى أوجدت أصلاً لمساندة الحكم . ولعل موقف الخديوى توفيق لم يكن حازمًا ، صارمًا طيلة حياته كموقفه فى قبول مذكرة الدول الأوروبية الثانية ، وقبول استقالة الوزارة الوطنية الذى أتبعه بالأمر إلى المديرين فى كافة أنحاء القطر يفرط فيه التعبئة العامة ويطمئن الناس بأن المراكب الحربية الأجنبية التى حضرت إلى الإسكندرية لم يكن حضورها إلا بوجه سلمى فقط ، قال فيه : « ... بما أن هيئة النظار استعفت ، وصار قبول استعفائها . فليكن معلومًا ذلك لديكم لتصرفوا جهودكم واقتداركم فى المحافظة التامة منكم ومن مأمورى المديرية الموكلة لإداراتهم ، والدقة والانتباه لحسن سير الأشغال والمصالح المتعلقة بكم ، كما أنه من حيث إن المراكب الحربية الأجنبية التى حضرت إلى الإسكندرية لم يكن حضورها إلا بوجه سلمى فقط، ولم يكن هناك شيء آخر خلاف ذلك ، فليس هناك لزوم لإرسال أحد من عساكر الإمدادية الذين صار طلبهم أخيرًا بمعرفة الجهادية ، بل إن الموجود منهم تحت الحضور لهذا الظرف يصير إعادته لبلده . والذى تحت الحضور يتنبه بصرف النظر عن حضوره ، وإعلان المراكز والأقسام بالتنبيه على مشايخ وعمد البلاد بهذا المضمون للعلم بعدم الاقتضاء لجمع عساكر ، وانتباه كل لأشغاله وزراعته بدون اشتغاله فى غير ذلك ، هذا وإن الأمور المهمة التى كان قد جرى العرض عنها لنظارة الداخلية يجب ن يعرض عنها من الآن لمعيتنا إلى أن تشكل هيئة نظارة جديدة كما هو مطلوبنا »(521) .

لئن كانت فتنة الإسكندرية افتعلت لتبرير تدخل الأسطول الإنجليزى . فإن اجتياح الجيوش الإنجليزية جرت بأمر « الحضرة الخديوية لتأديب العصاة » المتمردين من أهل البلاد طلبًا لتقدم البلاد ! إذ إن الجنرال ولسلى ، قائد الجيوش الإنجليزية أذاع على الأهالى البلاغ التالى : « بأمر الحضرة الخديوية يعلن قائد الجيوش الإنجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية فى إرسالها تجريدة عسكرية إلى القطر المصرى ليست إلا لتأييد سلطة الحضرة الخديوية . وعساكرنا يحاربون فقط حاملى السلاح ضد سموه . فعموم الأهالى الذين فى سلم وسكينة تصير معاملتهم بكل تودد وإنسانية . ولا يحصل لهم أدنى ضرر »(522) إلا أن وقاحة الخديوى توفيق وأركان حكمه لم تحتج فى دخـوله فى القاهرة إلى تغطية . فبعد اثنى عشــر يومًا من آخر معركة ســـافر الخديوى بقطاره الخاص من الإسكندرية إلى القاهرة ، وفى معيته كبير وزرائه شريف باشا والوزراء إلا رياض الذى كان فى القاهرة يعد العدة لاستقباله ... وقد زينت العاصمة بالأعلام على جانبى الشوارع وفى الشرفات والمنافذ .. حيث توارى أهل البلاد وخلت من المدافعين عنها . لأن توفيقًا حل الجيش وانفرط عقده ، وذهب أفراده يلعقون جراحهم فى ديارهم .

وبلغ القطار القاهرة حيث نزل الخديوى فتقدم لتحيته الأمراء ، ثم ولسلى قائد جيش الاحتلال ودوق كنوت نجل الملكة فكتوريا ، وإدوارد مالت المعتمد البريطانى ... ثم محمد سلطان باشا ورياض باشا والكبراء .. وكانت المحطة مفروشة بالبسط مزينة بالرايات والرياحين وقد حشد فيها رياض ما أمكنه حشده .. وهتف رياض باشا عند مرور الخديوى : يعيش الجناب العالى مؤيدًا بالنصر

والإجلال ، ورد الحاضرون هتافه، وكانت مدافع المحطة ترسل طلقاتها مدوية احتفاءً بالخديوى « الظافر » تجاوبها مدافع القلعة ، كما كانت الموسيقى تصدح بالسلام للخديوى . وفى الطريق إلى قصره جلس على يساره دوق كنوت وجلس أمامه ولسلى ومالت وأحاطت بمركبته كوكبة من الفرسان الإنجليز ومن ورائهـم الأمراء والوزراء ورجال الدولة ..(523) ولا يكتفى الأستاذ محمود الخفيف فى وصفه لدخول الخديوى إلى القاهرة يحف به الفاتحون ، بذلك الزهو السفيه . فما لبث أن أقام حفلاً ساهرًا راقصًا فى سراى الجزيرة تكريمًا للقواد والضباط الإنجليز ، كان فى مقدمة من شهدها سيمور وولسلى ودوق كنوت ومالت ولو ، وفى هذه الحفلة الكبرى أنعم الخديوى على ستين من هؤلاء الإنجليز بالأوسمة المختلفة(524) .

وفى مذكرات عرابى التى ماتزال مخطوطة ، تنتظر النشر أنه فى 28 سبتمبر 1882 : «وفد على نظارة الداخلية محمد سلطان باشا وأحمد بك السيوفى وغيرهما من المخدوعين وأبلغوا رياض باشا بأنهم على عزم أن يقدموا من الأسلحة الفاخرة المحلاة بالجواهر الثمينة هدية منهم إلى الأدميرال سيمور قائد الدونمة الإنجليزية وللجنرال ولسلى قائد الجيش الإنجليزى وللجنرال لو الذى كان أول قادم إلى القاهرة بعد سقوط التل الكبير، فاستحسن رياض باشا منهم تلك الأريحية ، ورخص لهم فى تقديم الأسلحة الفاخرة المذكورة للقواد المومأ إليهم » . وكانوا قد عزموا قبل ذلك على أن يؤلفوا لجانًا من كل جهة ينشئون فيها اكتتابًا لجمع نقود كافية لإنفاذ هذا القصد ولكنهم فشلوا فى ذلك ، واكتفوا بشراء الهدية من مالهم الخاص فأعطوا الجنرال ولسلى سيفًا مجوهرًا ، وكذلك الجنرال لو سيفًا ، وأما الأميرال سيمور فأهدوه طبنجة مجوهرة بالماس مكافأة لهم على احتقارهم الأمة المصرية وإذلالها . وكان أول من حظى بالثواب من المرحبين محمد سلطان باشا ، الرئيس الأول للحزب الوطنى ، بالإنعام عليه بالوسام المجيدى من الدرجة الأولى «جزاءً له على بث روح الخيانة فى الجيش المصرى» ثم منحه فوق ذلك عشرة آلاف جنيهًا ذهبًا من خزينة الدولة ، ولا من الذهب المزيف ، الذى بذرته إنجلترا(525) ، وذلك كما قال الخديوى توفيق جزاءً « ما أظهره من الصداقة لحكومتنا الخديوية ومعارضته للعصاة فى جميع أمورهم وعزائمهم بالمخاطرة على حياته » وكانت مكافأة إنجلترا له لقب سيرو وسامى سان ميشيل وسان جورج جزاء إسهامه فى إفشال معركة التل الكبير .

كان هذا فى أواخر القرن التاسع عشر ، فأين أصبح أولاد هؤلاء الذين من رضاعة حليب الخيانة فى مواقعهم وأى مراكز تبوءوا ؟

لا ريب أن الذين رأوا وسمعوا بهذه المهزلة قد تحسروا على ساعة واتت عرابى والبلاد لخلع الخديوى توفيق وإخراجه من البلاد . ولو خلع توفيق لانكشفت هذه الفئات الغريبة ، الأجنبية ، المتسترة بالخديوية . فمنذ استقالة سامى البارودى وقبول الخديوى « اللائحة » وقر فى نفس كل وطنى أن الخديوى أصبح فى قبضة الإنجليز ، وأن القنصل البريطانى مالت يحركه كما يريد ؛ وظهرت لديه صرامة غير مألوفة منه . إذ أصر على قبول استقالة الوزارة مع أن الوطنيين الشرفاء كشريف ومصطفى فهمى وغيرهما أبوا تأليف وزارة جديدة ، وبادر الخديوى توفيق بالتعميم على المديرين بإعفاء الوزارة ، والطلب منهم تطمين بأن قدوم « المراكب (أى الأسطول) التى حضرت هى مراكب مسالمة » وأنه ليس لزوم لإرسال أحد من عساكر الإمدادية » أى أنه أنهى الاستنفار والتعبئة . مع أن التفاقم باد ، وبات الناس يتوقعون الاعتداء فى كل لحظة . وقد وصف عرابى نفسه الحالة فى مذكراته التى مازالت مخطوطة بما يلى :

« وما طيّر البرق خبر استعفاء الوزارة واحتجاجها على قبول الخديوى للائحة إنجلترا وفرنسا حتى بلغ الاضطراب فى جميع بلاد القطر مبلغًا عظيمًا ، وأخذ القلق من النفوس مأخذًا جسيمًا ، فكثر اللغط ، وزادت بواعث الإيجاس والخوف ثم حضر إلى العاصمة جميع أعيان البلاد ومستخدمى الحكومة ، وقدموا لنا مئات من العرائض بواسطة مديريهم محتجين فيها على عمل الخديوى هذا ومتطلبين أحد أمرين ، إما رفض اللائحة المشتركة المذكورة ، وإما عزل الخديوى الذى قبل تداخل الأجانب فى أحوال البلاد الداخلية »(526) .

إلا أن الخديوى توفيق ، مع ذلك ، إزاء إصرار شريف باشا على اعتذاره وهو محط ثقة الوطنيين ، رغم ورود برقية من الحكومة الفرنسية إلى قنصلها تعده بتعضيدها ، أعلن المجتمعين لديه بسراى الإسماعيلية ، غداة اليوم التالى ، من النواب وكبار العلماء والأعيان وكبار الموظفين أنه سوف يشكل الوزارة بنفسه وبرئاسته ، ويتولى وزارة الجهادية وعاد يبيّن للمجتمعين ما حدا به إلى قبول مذكرة الدولتين ؛ وتهدد وتوعد(527) وقال إنه مع عفوه عما مضى لن يسمح بعصيان أو مخالفة فى المستقبل ، ثم أراد أن يخفف من وقع البوارج الحربية فعاد يؤكد أنها ما جاءت إلا لأغراض سلمية .. فانبرى من الحاضرين طلبة باشا عصمت أحد الزعماء العسكريين يرد على تهديد الخديوى ، فقال : « إننا مطيعون جميعًا للجناب السلطانى الشاهانى وللجناب الخديوى ، ولكن هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها ، ولا حق للدولتين فى طلب تنفيذها، فهى تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالى أن ينظر فيها ، ويستحيل علينا قبول أحد رئيسًا للجهادية خلاف رئيسنا أحمد عرابى باشا »(528) كما يذكر الأستاذ محمود الخفيف ورود برقية إلى الخديوى من كبار رجال الجيش والشرطة بالإسكندرية جاء فيها « أنهم لا يطمئنون لغير عرابى ناظرًا للجهادية ، وأنه إذا مضت اثنا عشر ساعة ولم يعد عرابى إلى منصبه فهم غير مسؤولين عما تفضى به الحوادث » .

وفى نفس اليوم الذى عقد فيه الخديوى اجتماعين صباحًا ومساءًا ، بسراى الإسماعيلية وأعلن عن تصميمه بتشكيل الوزارة وأعلن تهديده ووعيده ، عقد اجتماع شعبى فى دار سلطان باشا « رئيس المجلس الوطنى » ، كتب عرابى يصفه فى مذكراته فقال : « فى ليلة السبت 27 مايو دعيت إلى منزل محمد سلطان باشا ، رئيس مجلس النواب فذهبت إليه ومعى إخوتى على باشا فهمى وعبد العال باشا حلمى ومحمد بك عبيد وغيرهم من الإخوان فلما وصلنا المنزل المذكور وجدناه غاصًا بأعضاء مجلس النواب ومعهم قاضى قضاة مصر الشيخ عبد الرحمن نافذ والشيخ عبد الهادى الإبيارى إمام المعية ، وحصل الاتفاق على ملازمة الراحة والسكون ، وأن الخديوى يرفض اللائحة الثنائية ويأمر برجوعى إلى نظارة الجهادية والبحرية ، أو يعزل عزلاً ، وفى أثناء ذلك حضر بحديقة المنزل جماعة من الضباط والنبهاء من الملكية وغيرهم وصاحوا بقولهم : اعزلوا الخديوى الذى دعا الأجانب للتدخل فى أمرنا وتهديدنا بأساطيلهم » .

« ثم خرجت بمن معى من الضباط وتوجهنا إلى منزل محمود باشا سامى فوجدنا كثيرًا من الذوات هناك ينتظرون ما عسى أن يحدث من مخبئات الدهر فقابلنا عبد الله باشا فكرى الذى كان أستاذًا أو مربيًا للخديوى فى صغره وقال لنا - إن قتلتموه ؟ فقلت له من تعنى ؟ فقال أعنى الخديوى لم يقتل ؟ فقلت له أننا لا نقتل أحدًا بغير حكم شرعى فلا يليق بك أن تتكلم بهذا الكلام ، ثم توجه كل منا إلى منزله » .

وجرى فى المحاكمة استجواب عرابى حول تهمة خلع الخديوى فقال ولم ينكر : « مما توضح يعلم أنه لشدة تأثير « اللائحة » المذكورة التى قبلها الجناب الخديوى ، ما كان يمكن قبولها ولو أدى ذلك إلى خلع الخديوى ، وكنت أنا وكل الناس على هذا الرأى » .

إلا أن ما يثير الإعجاب فى هذا الاستجواب حقًا هى إجابة الشيخ حسن العدوى التى رواها برودلى فى كتابه كيف دافعنا عن عرابى ص 370 وهو شيخ فى الثمانين من عمره لم تقل السن ولا السجن من شجاعته قال : « وفى صوت كصوت الرعد سأل إسماعيل أيوب باشا (رئيس اللجنة) الشيخ الضعيف ، الطاعن فى السن ألم يوقع ويختم بخاتمة على قرار يقضى بأن سمو الخديوى توفيق باشا يستحق العزل وظهر على حسن العدوى كأنما يستعير حمية شبابه واتكأ على المنضدة وبسط يده وأثبت نظره فى وجه إسماعيل أيوب وقال : أيها الباشا لم أر الورقة التى تتحدث عنها ولا يمكن أن أقول شيئًا عما إذا كنت قد وقعت عليها أو ختمتها بخاتمى .

ولكن أقول لك ما يأتى إنك إذا أحضرت إلى ورقة تحتوى على مثل المعنى الذى ذكرته فإنى أبادر بالتوقيع عليها أو ختمها بخاتمى فى حضورك الآن . أإذا كنتم مسلمين أتستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا وقد خان بلاده وذهب إلى الإنجليز لم يعد يصلح لأن يحكمنا ، وعلق برودلى على جواب الشيخ قائلاً :

« ولو أن قذيفة ألقيت فجأة وسط الحجرة ما أعقبت من الوجوم والغم مثل ما أعقبته كلمات الشيخ . لقد ظهرت الصفرة فى وجنتى إسماعيل أيوب السمراويين ولم ينبس أحد ببنت شفة ، ثم طلب إلى الشيخ فى رفق أن يبرح الحجــرة ، ولم يفكر بعدها فى استجوابه قط ولا استجواب غيره فى هذا الأمر How We Defended Arabic » .

فشل الثورة يكشف عن حقيقة الحكم

مرت اليقظة التى أدت إلى وقفة عابدين فى وجه الخديوى والإنجليز فى يوم 9 سبتمبر 1881 ، وهو ما أطلق عليه حينها " يوم العروبة " ، ومضةً ، سريعة كالحلم فى حياة الناس ، وسط ليل طويل ثم تلاشى وعاد اليأس يستولى عليهم ويغتال ما دب فيهم من نخوة . ففشا فيهم ، بعد الهزيمة روح التخاذل . إذ سحن زعماؤها أو شتتوا ، وذل بعض قادتها وتنكر لهم أكثر من كان يناصرهم ،ـ وبدأت السعايات تدب . فكل من كانت له خصومة مالية أو عائلية سعى فى الإيقاع بخصمه يتهمه بعمل من أعمال الثورة ، وامتلأت المجالس المشكلة للنظر فى الدعاوى والتهم وامتلأت السجون بأكثر من ثلاثين ألفًا ، وأخذ كثيرون ممن اشتركوا فى الثورة يتبرأون مما قالوا وما فعلوا(529) ممّا جعل الهزيمة الخلقية أقسى من الهزيمة الحربية . لقد تفرق الربع وترك كل واحد منهم الآخر يواجه مصيره المؤلم :

وكنـــا جــميعًا فلمــــــا وقعـ ــت صبرت وغادرنى معشرى

وتضافر الفقر والمرض والأوبئة على الشعب المهزوم ، اجتاحت الكوليرا – أو الشوطة – كما كانوا يسمونها – فى السنة التالية للاحتلال فراح ضحيتها أكثر من ستين ألفًا(530) . فبعد أن كان الشعار الذى يتردد على كل شفة ولسان كلما مر جندى بين المارة أو جاء ذكر عرابى : «الله ينصرك يا عرابى» – انقلب الحال وحملت تبعة ما حل بالشعب لعرابى ورفاقه . وتشاءم الناس وعادوا إلى انطوائهم القديم ، الذى وقعوا فيه جراء مجريات الأمور التى آلت إليها ارتدادات الحكم بنكول محمد على للعهود الوطنية وعبث أسرته من بعده . واستفظع ما حدث لعرابى من الغش والخداع والخيانة . حتى لقد ذهب بينهم مثلاً كلما أراد أحدهم أن يعبر عن سوء العاقبة قال : « الولس كسر عرابى »(531) .

وفى 29 سبتمبر 1882 ظهرت الأهرام « حاملة على العاصى عرابى ورفاقه البغاة » ، ناشرة فى صدرها صورة الجنرال ولسلى ، قائد الحملة الإنجليزية ، وكتبت جريدة الوطن تفاخر بأنها ، « دون غيرها ، طالما وافقت على سياسة إنجلترا ونشرت مآثر أهلها ومكارمأخلاقهم »(532) واستؤجرت الأقلام لتزييف الحقيقة ، وبذل المال بسخاء لتشويه التاريخ وطمس الوقائع ، حيث تخلخلت المناعة ، وأصبحت العقول ممهدة بما أصابها من زيغ للتقبل بدون تمحيص . وعيب على عرابى جهله ولجوؤه إلى الإنجليز لا إلى حكام البلاد(533) ، كأن الخديوى عالم العلماء وأنه لم يمش فى ركاب الإنجليز !! . وانهال الباشاوات والبكوات الأتراك والشراكس فى ردة سواء يهاجمون الثورة وينفثون حقدهم على عرابى وعلى « الضباط الفلاحين » وعلى « أولاد العرب » المنحطين الذين لا يصلحون للحكم . فنظم مصطفى باشا صبحى وقدرى بك التركى قصائد ركيكة فى هجاء عرابى وشتم العرب(534) كانت تقرأ فى كل مناسبة .

كان من الطبيعى ، والحالة هذه ، إخفاق ثورة عرابى . كما كان من الطبيعى أن تبقى الأحزاب فى مصر تراوح مكانها فلا تصل أبدًا إلى قلع جذور الاحتلال الإنجليزى والتخلص من النفوذ الأجنبى طالما بقى نفوذ الفئات التى ملّكها محمد على وأسرته عصب مصر ولم تعد القيادة إلى أهل البلاد . وما دام الخديوى رأس الأفعى ، كبير « الفئات » التى ملكها محمد على على البلاد ، موجودًا على

رأسها ، وسيطها إلى التعامل مع المستعمر فمن المتعذر التمييز بين الصدق والكذب، بين التمثيل الحقيقى والتظاهر به ، فمنذ تولى محمد على وإنشاء المدارس الحديثة والإيفاد إلى الخارج تلبية لخدمة أغراضه جرت العادة على تغيير أسماء الطلاب وإعطائهم أسماء جديدة غير أسماء عائلاتهم ، بحيث أصبح المرء يعرف باسمه واسم أبيه إلا ما ندر ، واختفى الانتماء إلى اسم العائلات فطمس الانتساب إلى الأسر . فلا يتعرف الإنسان من الأسماء للأخ وأخيه . واختلط الأمر . وضاعت أصول تلك الفئات التى اصطنعها محمد على لقيادة المجتمع . وإذا كان عرف كثيرًا عن المصريين الأصلاء تبدلاً بالانتماءات . فقلما عرف عن الفئات العثمانية والشركسية والأرمنية والمملوكية إلخ .. ذلك وقلما يعرف عن أفراد هذه الفئات اندماجًا للشعب وزوال نظرة الاحتقار ، وعلى الأقل الازدراء إليه . وليس المقصود هنا التشديد على العرق للاندماج بالشعب ، وإنما التحـــرر من مشاعر العرقية للاندماج بالمشـــاعر الشعبية حتى إذا ما تصـــدى المرء للقيادة لا يكون تصديه تزلفًا مصطنعًا لأغراض شخصية فقط . فثمة أشخاص قاموا بأدوار ظاهرة الوطنية أى تعبر عن أهداف شعبية .. فإذا بهم بعد زمن طويل ينكشفون عن أنهم يمثلون أدوارهم لخدمة الأجنبى ، أو ينقلبون على اتحادهم الذى مثلوه إلى اتجاه فى خدمة الأجنبى . فإذا لم يرد هذا التحول إلى الانتماء الأجنبى أصلاً فإلى ماذا يرد ؟ . فبماذا نفسر موقف محمد سلطان باشا رئيس المجلس الوطنى وانقلابه على الحركة الوطنية . فإذا به مع الإنجليز فى احتلال البلاد ؟ وبماذا نفسر موقف على مبارك من الثورة ثم انضمامه إلى الخديوى توفيق والإنجليز؟! بغير أنه من أصول مملوكية أو عثمانية أو شركسية إلخ .. لا يمت لأهالى البلاد بصلة . وبماذا نفسر – فيما بعد – وجود إسماعيل صدقى باشا فى « الوفد » وانسياقه زمنًا طويلاً فى الحركة الوطنية ثم انسلاخه عنها . ثم يكشف لنا هو نفسه فى مذكراته أنه كان صاحب صياغة تصريح 28 فبراير الذى كان البريطان يبحثون عنه ؟

إن مظاهر المرحلة التى أعقبت فشل الثورة العرابية ونجاح الإنجليز فى السيطرة على مصر والانفراد بهذه السيطرة تكشف أن الفئات الأجنبية التى زرعها محمد على مازالت تهيمن وأنها ماتزال غريبة عن البلاد ، وأن شعار مصر للمصريين الذى رفعته الحركة الوطنية زادها شعورًا بغربتها ومضيًا فى الكيد لها .

ففضلاً عن أن وزر الاحتلال وما أصاب البلاد من تدمير ألقى على عرابى ورفاقه ، ولم تترك الفئات المقربة من الخديوى والإنجليز عيبًا إلا ألحقته بهم ؛ ولم يرتفع وهم فى طريقهم من قصر النيل إلى القطار الذى سينقلهم إلى المنفى إلا صوت واحد هتف « حماكم الله » ثم اندس صاحبه متواريًا بين الجمع . ولدى مغادرته البلاد إلى منفاه فى سرنديب بسيلان هو وصحبه ، لم يكن فى جيبه جنيهًا واحدً ليشترى ثيابًا وهو الذى كان بالأمس يملك جباية مليون جنيه لو أراد ، كما قال ببيمان ، صحفى إنجليزى فى مجلة فور نايتى عدد نوفمبر لعام 1883 : « إن عرابيًا الذى كان يستطيع أن يجمع لنفسه مليونًا من الجنيهات لم يجد ما يشترى به ملابس له عند سفره ، وقد أرسل له بعض أصدقائه حقيبه ملأى بالملابس والقطار على أهبة السير ، وكانت أسرته تعيش وهو فى السجن على صدقات يدفعها بعض محبيه سرًا ، وكنت أنا أحملها إليها بيدى »(535) وغير جماهير العامة الذين يرنون بأبصارهم إلى القطار لم يصعد إليه لتحية عرابى ورفاقه قبل أن يتحرك بقليل غير بعض الضباط الإنجليز وفريزر الذى جلس بجواره يواسيه(536) .

ولم تكن لعرابى سـلطة ، لأنه حتى أيام سلطته لم يستعملها على أحد ، ولا كانت له كاريزمة ، وإنما عرابى كان يمثل شيئًا ما لعامة الناس وللفلاحين ، هذا الشيء هو أملهم ، الذى افتقدوه منذ أيام محمد على ، والذى يحسون أن يتجسد فى هذا الفلاح وهم يسمعون شخصًا حاكمًا فى مصر يفاخر بأنه فلاح ، فقد كتب السيد ماكنزى ولاس ، بعد أن عاد من زيارته لمصر برفقة الورد دوفرين فى كتابه : « مسألة مصر والمصريين صفحة 379 » ، قال : « لم يظهر من عهد محمد على أو من قبل ذلك بزمن بعيد رجل فى مصر كان له على البلاد من السيطرة مثل ما كان لعرابى ، فإنه لم يقتصر أمره على أن الشرطة والجيش كانا رهن إشارته بحيث يستطيع أن يأخذ بالإرهاب كيف يشاء ، بل كان يتمتع كذلك بعطف كل الطبقات فى مصر تقريبًا . ولم يحصل عرابى على نفوذه أو يحافظ عليه بالإرهاب . لأنه عند بدء حركته لم يكن لديه أى قوة يضرّ بها أحدًا ، ولم يعلم أنه فى أثناء قوته ذبح شخصًا أو شنقه أو رماه بالرصاص ؛ ولو أنه خاض معركة انتخابية خالية من وسائل الغش وكان خصمه فيها توفيق (الخديوى) لفاز عليه بأغلبية هائلة من أصوات الناخبين الأحرار » ثم قال يوجه النقد لإنجلترا : « إذا كنا لم نرم أن نقيم نظامًا دائمًا فى مصر فلماذا ذهبنا إلى هناك ؟ وإذا كنا لم نرم إلى إقامة حكومة صالحة فلماذا قضينا على الحزب الوطنى القومى الذى كان لديه فرصة إقامة نظام من أى نوع ، كان خيرًا مما يصنع الخديوى الذى أعدناه إلى السلطة » .

لعل ما جرى لعرابى وصحبه ولحقهم من غبن يبقى كله أهون وأقل تأثيرًا على النفس مما صادفه من نكران فى بلاده بعد عودته إليها ، بعد غياب تسعة عشر عامًا وقد وجد إنجلترا تحكم قبضتها الاستعمارية على مصر بعد أن أعلنت أنها لا تنوى ولا تريد من اقتحام مصر إلا إعادة الشرعية ، المتمثلة بالخديوى توفيق وطرد« العصاة » ، فى حين أن إنجلترا ألغت الرقابة الثنائية واستبدلتها بمستشار مالى ، نصائحه واجبة التنفيذ ، وألغت الدستور ، وأنشأت بدلاً عنه مجلس شورى القوانين ، وأنشأت الجمعية العمومية وهما هيئتان لا سلطة لهما ولا شبه سلطة أريد بهما مخادعة البلاد ، وكانا منبرًا للمباراة بفصاحة الكلام وعجم عود المشاركين فى حسن الطاعة . وكان الاحتلال يكيل الإهانة ، تلو الإهانة ، لذاك الذى ادعى بأنه جاء لأجله ، الخديوى .

ففى مذكرات عرابى جاء قوله إنه بعد أن منع فى عودته من المنفى إلى السـويس : « وهناك نزلنا فى بيت الشيخ البخارى ، بعد أن كتبنا إلى محافظ البندر مصطفى بك ماهر الذى كان من تلاميذ السيد عبد الله النديم ، وكان معروفًا بحب الحرية والوطنية فأنكرنا وأعرض عنا ولم يتنازل إلى الرد علينا » ثم و« ... أول سنة 1901 برحنا السويس ووصلنا المحروسة قبيل الغروب وكان ازدحام الناس لتوديعنا فى محطة السويس عظيمًا ، وكذلك لاستقبالنا فى الزقازيق وخصوصًا فى القاهرة . فإن اجتماع الناس بلغ حده الأقصى بالرغم من تنبيه المحافظة الشديد بعدم التجمهر والاحتفاء .. » .

إلا أن أوساط الحكم اختلف استقبالها لعودة عرابى عن الناس العاديين . فقد هبوا لمقابلته باستهانة وازدراء، وافترت عليه جريدة اللواء الموالية للخديوى فنشرت بمانشيت عريض إن كرومر بنفسه جاء إلى محطة القاهرة لاستقباله. ونشر شوقى شاعر القصر قصيدة قال فى مطلعها:

صغار فى الذهاب وفى الإياب أهـذا كـل شـأنك يا عرابـى ؟

وبلغ السفه بالفئات « الساكنة ، المتنعمة » بالاحتلال أن راحت تتهم عرابى كما قال بمذكراته : « إننا بعنا الوطن للإنجليز على اتفاق بيننا وبينهم .. » .

بينما الحقيقة أن كرومر أصدر أمرًا للوزراء ألا يتصل بعرابى أحد مخافة استغلال اسمه فى تنبيه الأذهان إلى مذلة الاحتلال ، ولولا ما كان يحس به من دفء فى تزاحم الناس البسطاء العاديين بعفوية لدى خروجه من الجامع للصلاة أو إذا كان جالسًا فى دكان وسماعه سؤال بعضهم: أرأيت عرابيًا ؟ هذا هو .. لشعر بأنه غريب فى الوطن الذى بذل حياته من أجله ؛ حيث كان يدس عليه من يتحيّن جلوسه منفردًا ليشتمه ويبصق عليه . فى حين أنه قام بزيارة الوزراء فى بيوتهم « وما فعلنا ذلك إلا قيامًا بالواجب » فتجاهلوه ولم يرد أحدهم له الزيارة . ومع ذلك لم يترك وسيلة للمطالبة بإعادة ما أخذ منه من أملاكه إليه فلم يحصل على درهم واحد يسد به عوزه ويستر حاله ، وكان الجواب صمتًا مطبقًا . واشتكى عرابى إلى من كانوا السبب فى نفيه ، إلى الإنجليز ، ولكن الإنجليز كانوا يحيلون شكواه إلى الحكومة المصرية بحجة أنهم لا يستطيعون التدخل فى مسألة هى من اختصاص الحكومة المصرية ، وهم يتدخلون عمليًا فى كل شىء . وكان حقه أن يسترد كل ممتلكاته ، إذ إنها لم تصادر وتؤخذ سلبًا استنادًا لأى قانون أو شرع أو مفهوم . وعندما يئس من الوصول إلى حقه المغصوب كتب فى مذكراته :

« من حيث إن الحكومة المصرية لا تريد أن تسمع الحق ولا ترد على من يتظلم إليها ، أو هى لا تقدر على الإجابة ولا على أى عمل يغاير إرادة الإنجليز. كما أن الحكومة الإنجليزية لا تريد أن تتوسط فى إقامة العدل ودحض الظلم ورد أملاكى المنهوبة بقوة الاحتلال وتحيل شكواى على حكومة سمو الخديوى ، وهى لا تقدر على عمل ما بدون أمر الإنجليز ، فقد تركت لأولادى وحفيدتى من بعدى وذريتى جيلاً بعد جيل الحق فى المطالبة بحقوقى وأملاكى المنهوبة من الحكومة المصرية ، ومن المجلس النيابى المصرى حين تسترد الأمة حريتها واستقلالها ومجلسها النيابى . وإنى واثق بأن أمتى المصرية الكريمة لن تنسانى ، ولن تترك أولادى حين يأتى اليوم الذى تعرف فيه حقيقة أعمالى الوطنية الواجبة على كل وطنى حر .. » .

مرت سبعون عامًا قبل أن تسترد مصر روحها التى تحركت بالوطنية ورفعت شعارها «مصر للمصريين» الذى كاد ينتصر بثورة عرابى لولا الخيانة ، وعلى الرغم مما تخلّل هذه الأعوام السبعين من هبات وطنية عاصفة أدت إلى إرغام الاستعمار على الطـأطأة وإحناء الرأس إلا أنها لم تصل إلى حد كشف النقاب عن ثورة عرابى . ظل الكلام عن الثورة وأبطالها كأنما هو محرم . غير تشبيه سعد زغلول أنه من فئة الفلاحين كعرابى ، مرة أو مرتين ، وهو تشبيه غير متوافق . إلى أن جاءت ثورة 23 يوليو .

فعلى العكس ، بعد ثورة 23 يوليو ، أصبح لزامًا العودة إلى الجذور . فغير أنه كشف عن وجه عرابى البطولى وأعيدت حقوقه وكرامته إليه راحت المرحلة تأخذ حيّزها من الاهتمام والبحث فما عدا بعض الكتب المخصصة لدراسة المرحلة : صلاح عيسى ، د. لطيفة سالم .. إلخ يقوم عدد لا حصر له من الباحثين الطلبة فى الجامعات المصرية بتقديم رسائل للحصول على ماجستير ودكتوراه فى دراسة جوانبها .

من لا يتمثل تاريخ البلاد لا يمكنه أن يمثلها ويعـبر عنها . كيـف يكون زعيمًا لأمة لا يعرف تاريخها .

تصفية حساب

ألا تثير خيانة محمد على للمواثيق التى قطعها على نفسه لواعج النفوس ؟ ضابط عثمانى فى مهمة بمصر يقع تحت اختيار حركة وطنية ناشئة . فتختاره وتسانده حتى إذا ما تمكن منها فتك بها وبدد شملها . ألا تثير لواعج الثورة فى النفوس أعمال الخديوى سعيد الذى أسلم رقبة مصر، بعد أن تم ترويضها ، لاقتياد 120 ألفًا من أبنائها مسخرين لشق قناة بين البحر الأحمر والأبيض خدمة لتجارات أوروبا ومصالحها قبل أن تنمو مصر لتصبح بحاجة إليها ؟ أليست أعمال الخديوى إسماعيل الذى نفخت أوداجه فقادته عنجهيته بالوهم والتوهم إلى اعتماد مصر قطعة من أوروبا ، فبدد أكثر من تسعين مليون جنيه ، ما يعادل أكثر من مائة مليار اليوم كفتها بثمن قناة السويس نفسها ، ولم ينس أن ينضح من مصر خمسة عشر مليونًا ذهبًا لحسابه الخاص قبل أن يغادر مصر وإذا به ، بدلاً من جعل مصر قطعة من أوروبا يرهن مصر لسماسرة أوروبا ، أفلا يثير هذا لواعج الثورة فى النفوس ، ويبتعث القهر والنقمة العارمة وأنت تقرأ وتسمع التمجيد والمديح ، تبريح أقلام الكتاب الذين صيغت عقولهم وتكونت نفوسهم فى مناخ « ثقافة محمد على » ؟ ثم أفليست خدعة الخديوى توفيق للحزب الوطنى الناشئ ولحركة « مصر للمصريين » ولمجاراته لجمال الدين الأفغانى فى المحفل الماسونى .. ثم مجاراته لحركة المطالبة بالدستور وإيهام عرابى أنه وافقه على مطالب البلاد بينما هو يعمل مع الإنجليز ومع السلطان العثمانى ويشارك فى تدبير الفتن للإيقاع بقيادة الثورة وتسليم البلاد للاحتلال ، ومن ثم دخوله ، دخول المنتصر إلى القاهرة على أشلاء أبناء البلاد ليتوّج خيانته بحفلة ساهرة راقصة ، يوزع فيها الأوسمة والنياشين والأسلحة المذهبة .. أليس هذا كله مما يثير الغضب اللاهب ؟! ويثير النخوة فى الرؤوس ؟! .

وبإخماد الأنفاس الأبية ، عادت الحياة تجرى مجراها ، بعد هذا الانكسار فى ظل ردة استحكمت بتمجيد الاحتلال ومحاسنه ، وإلقاء الملامة ومغبة هذا المصير على تطرف عرابى فكان سببًا فى كل ما حاق بالبلاد .. حتى بات مجرد التلميح له محرمًا ، فهو جالب الكوليرا وسبب كل داء . وفيما عدا « هبات » كانت تحدث هنا وهناك ، كان يطفح فيها الكيل ويفقد الشعب صبره - مثلما جرى بعد حادثة دنشواى ؛ لا يبرز بظاهر البلاد غير الهدوء .. ولكن ما إن سكتت جلبة الحرب العامة الأولى وسعت وفود الدول الكبرى إلى باريس ولندن للتفاهم على اقتسام العالم. حتى راح وجه الحياة فى مصر يتفجر . كأن ما مر بها بعد عرابى كان فترة احتقان تنتظر الفرصة . وعلى الرغم من أن الجماعة التى تصدت للمطالبة بحقوق ليست من المعدن المطلوب والجدير بقيادة المرحلة ، وعلى الرغم من وســيلة التوكيلات التى تفتقت عنها ذهنها كانت هزيلة لا تفى بالمرحلة .. فإن الشعب والمعبأ والذى خنقته الظروف ولم يتريث الإمعان فيها وإنما انفجر وراحت ثورته تنتشر فى أرجاء البلاد فشملت القطر كله . فكان الشعب كريمًا بتضحياته ، سخيًا. وكانت القيادة متهالكة فى مواقفها ، والملفت فى هذا المناخ تشكل «إمبراطورية زفتى» وإعلان استقلالها بالقرب من « زعامات » القاهرة ودون استشارتهم ، وما يحمل هذه التشكل ، على هذا النحو ، من معانٍ . ومن بعده تشكيل تنظيمات سرية أحدها اغتال السردار حاكم إدارة البوليس فى القاهرة دون علم من سعد زغلول .

فهل كان هؤلاء الذين تجرءوا أن يرصعوا صدورهم بأوسمة ملكة بريطانيا لبقاء خيانتهم للشعب المصرىولثورة عرابى ، والتزامهم جانب الخديوى والإنجليز من الشعب المصرى حقًا ، أو تهمهم مصر التى يعيشون فيها ومنها ويستنزفون خيراتها ؟ وهل هؤلاء الذين ملئوا جيوبهم من ذهب الإنجليز المزيف لقاء خيانتهم يمتون إلى العروبة . وهل كان مما يضير حركة عرابى أو كل تغير صحيح تهم به البلاد إذا هم أزيحوا من الطريق أو شلّت إراداتهم وحركتهم على الأقل وعلى رأسهم الخديوى . كما سوف تفعل ثورة 23 يوليو فيما بعد ، ولو أن ثورة 23يوليو أشركت الذين ينحدرون من الفئات التى اشتركت مع عرابى فهل كان يمكن لها أن تنجح ؟! إن هذه «الفئات» من الأتراك والشركس والأرمن وبقايا المماليك واليهود والشوام وحثالة الأوروبيين الذين ملكهم محمد على وأسرته زرعوا واجهة لمصر ليحولوا دون تفتح الشعب ويقظته . فكيف يمكن لثورة أن تنجح بقيادتهم ؟ أو ينجح أى تغيير حقيقى ؟

يتضمن شعار « مصر للمصريين » الذى ارتفع ثم عم وأصبح شعار الحركة الوطنية فى مصر وانضم إليه أحمد عرابى الإحساس بأنه ثمة قوى تزاحم المصريين فى ثروات مصر . سواء أكان المزاحمون مستوطنين ، مقيمين أو أغراب . وهو شعار رفع فى وجه التكتل الشركسى أو أى تكتل آخر للاستغلال ، كان ينتقص من حقوق وكفاءات أولاد البلاد . بدءًا من الوظائف إلى أى مجال آخر . حتى الاستعمار الذى راح يهاجم ويقتحم بشراسة من كل جانب ، وفى مقالات النديم وخطبه النارية فى الحث على الثورة ، وتوضيح أهدافها عبارات كثيرة وإن كانت متفرقة ، ترسم آفاق التحرر الذى ترنو إليه الثورة . وفى مذكرات عرابى أن أبناء البلد ، بدأوا يحسون منذ أيام الخديوى إسماعيل بتحيز الخديوية ضد أبناء البلد لصالح الفئات الأجنبية . وأن فكرة التخلص من الخديوية هو بداية الوعى لتطهير البلاد من العنصر الدخيل الذى زرعه محمد على ، وصار يحدث خللاً فى اتجاهات البلاد وحرفها . فالخديوية هى صمام هذه الاتجاهات الأجنبية الغريبة . فإذا ما أزيلت تنكشف جميعها وتتبلور. لأن هذه الخديوية الأجنبية التى لا تشعر بأى ولاء أصيل لشعب البلاد كانت منذ البداية وسيلة الاستعمار إلى حكم البلاد واستغلالها . فهذه الفئات الأجنبية هى فى البلاد ، بمعنى من المعانى ، « الكومبرادورات » لابتزازها ما لم تندمج ، إلا أن معظمها لم يندمج وثمة بؤر فى مصر ، حتى بعد مضى زمن على ثورة 23 يوليو ، لم تندمج بعد.

كما حدث فى ثورة 23 يوليو – مع فارق الزمـــن والظروف ، عندما أزيح فـاروق مــن الحكم ، وأبعد عن البلاد والسلطة ، فإنه تكشف ، حتى فى الأحزاب ، المتشكلة حديثًا ، ألوان من النوايا تعتمد على بقائه ، فإن زعزعة مركز الخديوى توفيق ، بانحـــيازه إلى جانب الإنجليز ثم بانتصــــاره ودخـــوله إلى القاهرة .. كشف عن تيار الوطنية الحقيقيـة فى أوســاط الشــعب المختلفة وعن تيارات الخيانة والعمالة فى أوساط الفئات الداخلية ، التى لم تندمج ، ومازالت كما يقول عرابى « ... يعاملونا معاملة الخارجين على النظام ونحن فى بلادنا وهم الأجانب .. » .

الهدف خلق كيانات مصطنعة

كان المراد من عزل مصر عن المشرق العربى ، أن تتطور الأقطار العربية ، كل منها فى واد، المشرق العربى من جهة ، بتفرقة إلى حكومات متنافرة بل متعادية أحيانًا ، ومصر وما يليها من الأقطار العربية غربًا ، بالحكم الاستعمارى المباشر ، الذى يعتبر بعضها امتدادًا لأوروبا عبر البحر فى إفريقيا ، وذلك لتتطور فى اتجاهات مختلفة ، متناقضة ، بما يحول دون يقظة العرب أو يؤخرها أو يعيقها ، وهذا عين ما حدث أو قريبًا منه : فإن معاناة المشرق العربى لوطأة الحكم العثمانى لقربه من سلطة العاصمة ، وتجربته فى مساعيه للتحرر ولدت فيه نظرة مثالية للغرب ، وتأثر بالعلمانية ، وتطرف بالقومية العربية ، واعتبر منجاته فيها من طغيان العثمانلية . فى حين فقد هذا الغرب مصداقيته فى مصر وما يليها من الأقطار العربية والثقة بأخلاقياته ، وبقيت جميعها متحصنة بدينها ، تستوعب الرياح القومية الهابة لا تزعزع علاقتها الروحية بالسلطنة ، ولم يتبدد أملها ، الغامض ، المبهم ، حتى فى أحلك ليالى الاحتلال وأظلم أيامه ، وظلت تحتفظ بروابط عجيبة لم يعرف العالم لها مثيلاً ، غير شبه من الروابط التى نشأت والكاثوليكية بروما(537) .

فمن ناحية أسفر دخول الغرب ، وبخاصة فرنسا ، إلى بلدان المشرق ، بمدارسه التبشيرية ، ومؤسساته الفكرية والثقافية وما رافقها وسبقها من تنقيبات آثارية ، وبنى عليها من نظريات مغرضة ، تجتزئها من أصولها وأنشأ حولها ، من اتجاهات فكرية ، ذات صبغة محلية وإقليمية تتجاوب مع بذور فئوية ضيّقة ، طارئة . وهكذا ، ففى بلاد الشام ، التى بدئ فيها بنشر بذور فكرة « قلب العروبة » النابض .. حيث كانت وطأة التتريك شديدة ، وأحصيت على العرب أنفاسهم ، وطوردت اللغة العربية فى معاهد التعليم ولم تعد تجد ملجأ سوى مراكز الإرساليات التبشيرية التى حدث نشاطها فى الحقل الدينى المسيحى والحقل الثقافى البحت(538) فأفسحت صدرها لهما ، حيث أفقدت هذه اللغة من نزعاتها الوحدوية الشمولية ، إذ إن غنى اللغة العربية، الذى هو فى كثرة مفرداتها وتعددها يرتبط فى تعدد منشئها ومصادرها ، وفى حين كانت الإرساليات التبشيرية فى مصر وشمال إفريقيا تدرس مختلف المواد التعليمية ، فى مدارسها بلغاتها الأجنبية ، بدأت هذه المدارس الإرسالية فى بلاد الشام تدرسها باللغة العربية، واستمرت على هذا المنوال حتى أواخر القرن التاسع عشر . ومن خلال نشاط وتنافس هذه المراكز التبشرية فى بيروت وحلب ودمشق وبيت المقدس واحتدامها أتيحت الفرصة أمام بعض المسيحيين من أمثال اليازجى والبستانى للتنقيب فى تاريخ العرب وآدابهم فأسدوا خدمات عظيمة فى إحياء الدراسات العربية وإخراج الفكرة العربية التى انبنت عليها إلى حد كبير معتقدات القوميين العرب فى ذلك الوقت ، والقائلة بأنه كان للعرب قبل الإسلام حضارة ثم ازدهرت على يد الإسلام، وأن المسيحيين لعبوا دورًا خلاقًا فى بناء الحضارة العربية(539) ثم داخل هذه الحقيقة كثير من التجسيم فبولغ فى تقدير هذا الدور حتى لقد جعل بعضهم أكثر أدباء وشعراء بل ورجالات « الحقبة الجاهلية » مسيحيين(540) دون التفريق بين مرحلتين من انتشار المسيحية فى تلك الأزمان : ففى المرحلة الأولى كانت المسيحية تعتبر ثورة على الإمبراطورية الرومانية وتحررًا وانعتاقًا من قوانينها(541) وكان مئات الشهداء وآلاف المضطهدين من معتنقيها يفرون بدينهم إلى صحارى العرب لا يجدون ملاذًا إلا فيها . وهى مرحلة تمتد إلى قيام « كرسى فلسطين الثالثة palestnie

542)« terlia) التى امتدت فروعه إلى أيلة وفاران وتغلغلت . ووصلت قريب من مكة المكرمة ، وهى مسيحية لا يفرقها عمّا يعرف عن « حنيفية » إبراهيم الخليل ، فارق .. حيث كان الاضطهاد يزيد التعلق بها ويحفز إلى اعتنقاها ، وهى تختلف اختلافًا بينًا عن مسيحية حركة التنصير التالية حيث راحت الدولة ترغم الناس على الدخول فيها .

وهكذا انحرف اتجاه التطور عن المسار الطبيعى الذى كانت تقتضيه فكرة إعادة ترميم أمة أبعدها الحكم العثمانى الطويل عن دورها فى العالم لتنمو من جديد بالتساوق مع الظروف القاهرة المحيطة بها والخطر المحدق بها .

الهدف من التقسيم صياغة فكر إقليمى

لم تكن النية من وراء عزلة محمد على بمصر وفى مصر ، ومن إقامة حاجز بشرى ، معاد بين مصر والمشرق العربى ، ولا فى نية دول الغرب الاستعمارية من وراء تقسيم البلاد العربية ووعد بلفور .. إلخ توفير القدرة على احتواء الأرض .. وإنما كان الغرض الرئيسى احتواء الشعوب والحيلولة دون تفاعلها ، ذلك التفاعل الذى جرت العادة أن يتمخض فى فترات من التاريخ عن أيديولوجية جديدة يندفع بها الشعب العربى الموحد . وراء رؤىً ليغيّر ويهدم ويبنى .. واستطاعت بذلك دول الغرب أن تؤخر وتعيق وتفوّت فرصًا ، ذلك أن مقام مصر من أمتها هو منذ زمن طويل الأمد مقام حبة العقد ، فإذا اختل مكانها انفرط العقد وتبعثر ..

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، بعد أن أغرق مصر بالديون وأغرق مصر معه ، وجهت الأنظار إلى الجنوب حيث نجحت بعثات اكتشاف منابع النيل يرافقها الإحساس بأن المستقبل والأمن هناك فى الجنوب وليس فى أى مكان آخر .. والقول بانتماء مصر إلى الجنوب كالقول فيما بعد بانتمائها إلى الشمال : إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط ، وبالتالى إلى أوروبا سواء بسواء كما يفعل الدكتور طه حسين – علمًا بأن حضارة كريت فى هذا البحر كانت نقلة بدايةً من مصر ، ثم اليونان . وكلاهما ، الجنوب أو الشمال ، انتزاع لمصر من ذاتها . ولم يكن الانتزاع من الذات فى يوم من الأيام هوية أو تقدمًا إلى الأمام ، وأقله هروب من مواجهة الحقائق والمصاعب وتعطيل للزمن والتطور ! ..

وترافقت الحيرة فى الانتماءات ، المتأثرة بالـ « اكتشافات الجغرافية » جنوبًا أو شمالاً مع اكتشافات تاريخية من حفائر مصر الفرعونية ، مما شده أبصار « أنصاف المثقفين » ولفت نظرهم إلى أن خاصية مصر هى فى تاريخها القديم وداخلهم « أن المستقبل هو مجد بناة الأهرام والمعابد والمسلات » .. ولم يتمكنوا – وليس من طبيعة الأمور أن يتمكنوا قبل إمعان فى الدوائر المحيط، وتلمس الحقائق فى الانتماء الأكبر – من معرفة روابط هذه الحضارة المبهرة التى تراكمت فى مصر ، بالمنطقة المحيطة من الخليج إلى المحيط .. فكما عمل «قاصرو» : العلم من «الفئويين» فى لبنان وسوريا وفلسطين والعراق – من النظر إلى المكتشفات الأثرية قوميات إقليمية : فينيقية وسورية قومية .. إلخ . عملت فئة من مصر على ربط مصر القرن التاسع عشر بمصر ما قبل المسيح باسم القومية المصرية .. وهكذا كأنما بهذا التنظير « الإقليمى » ، التجزءوى ، يلبون هنا وهناك الاستعمار فى تكريس تجزئة البلاد العربية وتأصيلها ، بل يمهدون لما تنويه الدول الاستعمارية من التقسيم .

ولقد كادت الظروف التى ساقت إليها سياسات الأسرة محمد على فى مصر بالتعاون مع الإنجليز ، وسياسات الدولة العثمانية وملاينتها لتغلغل نفوذ الدول الاستعمارية فى المشرق ، أن تؤدى إلى التناقض . فبينما كان الشعب فى مصر يحسّ ، تحت وطأة الاحتلال البريطانى ، بأن جميع المنافذ سدت فى وجهه ، ولم يبق لمناضليه أمل يقوى من عزائمهم ، سوى تلك الشرعية الواهية، التى تربطهم بالدولة العلية ، ولم تفصمها إنجلترا ، ومن خلالها بالأقطار العربية والإسلامية الأخرى . فباستثناء قلة انصرفت إلى الفكر والأدب كانت خدماتها ذات مدى عربى شامل : المقتطف ، الهلال

، الأهرام ، والمقطم التى أصاب تصرفاتها واتجاهاتها الزيغ ، وكان بين مراسليها صهاينة ، كانت غالبية الذين نزحوا إلى مصر من بلاد الشام ممن نمت فيهم تلك المشاعر القومية نموًا كبيرًا ، فلم يعودوا يطيقون أية علاقة مع الدولة العثمانية ، فهاجروا إلى مصر ولم يتخذوها ملاذًا للابتعاد عن جواسيس السلطان عبد الحميد فحسب ، وإنما قاعدة للتآمر على السلطة وللعمل على سلخ سوريا عنها . واختلف كثيرون منهم باتجاهاتهم الفكرية وانتماءاتهم السياسية عن إخوانهم المصريين ن مع أن معظمهم من خريجى المدارس الأجنبية : ووصل الأمر بقصر النظرة « القومية » ببعض « الشوام » ، الذين جاءوا إلى مصر بتشجيع من الغرب أن استحلوا أعمال الإنجليز فى مصر ورموا جنودهم ، الذين تقطر أيديهم من دماء جنود عرابى ، بالرياحــين واستقبلوهم بالزغاريد . فعـــاتبهم عبد الله النديم بمرارة بقوله : « أنا أخــوك فلماذا أنكرتنى » . وهذا عين مت كان يرمى إليه المستعمر من وراء تشجيع بعض « الطوائف » من لبنان لامتلاك أسهم من قناة السويس فى مصر .

لكن الأمم ، وبخاصة كالأمة العربية التى توزعت ووقعت تحت مؤثرات متباينة ، لا يمكن أن يحتويها اتجاه نافر ، شاذ كاتجاه بعض « شوام » القاهرة ، فما هى إلا أيان بلغت خلالها مقالة النديم أسماع الشام حتى راحت جنباتها تردد أصداء جواب شاعرها الذى انتقض لفعله أبناء بلده تلك فى القاهرة ، نشرها فى جريد ألف الدمشقية لصاحبها « يوسف العيسى » ، لا أدرى كيف وصلت ذلك الحين إلى القاهرة ، عثرت عليها محفوظة فى دوريات دار الكتب بالقاهرة : جاء فيها :

الذيـــن تجـافـى عنهــم الشـــرف الشام تبرأ من عار الذى اقتــرفوا

كادوا لها قبل أن كادوا لمصر فلا تواخــذوها بذنب منـــه تنتصــف

إخواننـــا ولنا فى الصـــالحات يد لكننـــا لكـم بالســـبق نعــــترف

حلفت بالدم فى القطرين جيد به وهـــــل وراء جــــدنا بـــه حلـــف

أنا على العهـد نصفـيك ، مودتنا مــا فــى مودتنـــا منّ ولا ســـرف

النظرية المشرقية تسقط مصر وشمال أفريقيا من حسابها

فى العقد الأول من القرن العشرين – إبان الفترة التى كانت الدول الغربية الكبرى تعد فيها، للحرب العالمية ، أو الأصح للحروب الأوروبية الأولى ، لإنهاء « المسألة الشرقية » وتقسيم الإمبراطورية العثمانية ، كثرت الجمعيات العربية والأحزاب. فى الآسـتانة - جمعية المنتدى الأدبى (1909) وجمعية العهد والجمعية القحطانية (فى الجيش) (1909) وفى باريس (1911) العربية الفتاة ، وفى بيروت جمعية الإصلاح (1912) ، وحزب اللامركزية الإدارية العثمانى فى القاهرة بين السوريين ، وفى بغداد . إلخ ؛ وتردد أن بعض رجال الحزب اللامركزية الإدارية العثمانى فى القاهرة كانوا على علاقة ودية مع المعتمد البريطانى اللورد كتشنر ، كما كانت الجمعيات الأخرى فى بلاد الشام على صلة بالقنصل الفرنسى فى بيروت حتى لقد ظن أن القائمة بالأسماء التى عثر عليها جمال باشا ، احتوت على أسماء منها لتدينها بدولة أجنبية ، تركت فيها كطعم .

وفى يوم الثانى عشر من حزيران (يونيو) 1913 : بمبادرة من العربية الفتاة ، عقد أربعة وعشرون مندوبًا « معتمدًا » من مجموع خمسة وعشرون يمثلون مختلف الجمعيات – بالتساوى – بين المسيحيين والمسلمين – أول مؤتمر لهم فى قاعة الجغرافيا ، بشارع سانجرمان فى باريس ، دام ستة أيام – كانت المداولات فيه تدور باللغة الفرنسية(543) وجاءت قراراته تردادًا للمبادئ التى أعلنها حزب اللامركزية الإدارية العثمانى وللاقتراحات التى قدمتها لجنة الإصلاح ببيروت . مع تأكيد مطالب العرب بالحقوق السياسية الكاملة وبنصيبيهم فى الاشتراك اشتراكًا كاملاً فعالاً فى إدارة شؤون الدولة .. ولم يدر أى حديث عن الانفصال أو الانشقاق ، وبذل المتكلمون أقصى الجهد فى تأكيد الرغبة العامة فى الاحتفاظ بوحدة الدولة بشرط الاعتراف بحقوق العرب من حيث هم شركاء فى الدولة ، وأن يتاح لأهدافهم الفكرية مجال حر فى نظام لا مركزى للحكم(544) . ومع ذلك بادرت الحكومة العثمانية ، لتستدرك مغبات المؤتمر وتفاعلاته ، بإرسال الاتحاد والترقى وفدًا إلى باريس « للاتفاق مع المؤتمر على ما يطلبه العرب » وتم الاتفاق على مطالب العرب فى وثيقة وقع عليها رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوى ومندوب حكومة الاتحاد والترقى(545) . مما يدعو إلى الالتزام بهذا الاتفاق من الطرفين ، وعدم الانسياق للإغراءات البريطانية والفرنسية للقيام بحركة للانتفاضة ضد الإمبراطورية العثمانية كانت برمتها لصالح الحلفاء ، كبدت العرب ما كبدتهم ، وعمقت التجزئة بين أقطارهم .

والملفت فى هذا المؤتمر أنه لم يتطرق لكافة الموضوعات التى أعلن ضرورة بحثها ، وكانت من الأمور الهامة التى تقلق الرأى العام العربى ، وقد أثيرت فى مجلس « المبعوثان » ورفعت بها عرائض إلى السلطان . فقد كان مقررًا البحث فى موضوع الهجرة إلى سوريا . إلا أنه اكتفى بالبحث فى المهاجرة من سوريا إلى الخارج فقط . لما فى ذلك من نقد للدوافع التى تضير الحكم التركى . وبالبحث والتقصّى تبيّن أن الصهيونية حاصرت المؤتمرين . إذ إن جاكسون الزعيم الصهيونى المقيم حينئذ فى استنبول انتدب هوغنبرج Hochberg ، رئيس تحرير جون ترك Jeune Rure اليومية التى تمولها الصهيونية لهذه المهمة فكتب آخذًا على نفسه بالقول إن مسألة الاستيطان هذه « تهمنا من نواحٍ متعددة ؛ ونستطيع أيضًا إذا وجدنا الفرصة مواتية أن نجعل

المؤتمر يتخذ قرارًا فى صالح الاستيطان اليهودى » . وكلفت الوكالةاليهودية صحفيًا آخر من فلسطين مراسلاً للمقطم ، يهوديًا ، صهيونيًا بثياب عربى ، راح ينافس هوغنبرج بإرسال التقارير من باريس إلى الوكالة عن مدى تأثيره فى المؤتمرين ، ويطلب فى إحدى برقياته زيادة مخصصاته لتعرضه لمزيد من الإنفاق(546) .

كانت « القومية » فى بلاد الشام تتأرجح والمشاعر بالعروبة تحتدم ، تختلف نبرتها عن مصر تكاد تكون خالية من المضمون على عكس ما بدأ يعبر عنها الكواكبى فى كتابه أم القرى المنشور فى مصر (1900) الذى لاقى رواجًا فى جميع الأوساط . وعلى الرغم من هذا الزخم فى القومية فى بلاد الشام فإن الجمعيات والأحزاب التى نشأت فيها وفى العراق اقتصرت فى تعاريفها لمدى ما تشمله هذه القومية من البلدان العربية على المشرق العربى . فأسقطت مصر وشمال أفريقيا . وإن كان العريسى فى كلمته التى قدمها لمؤتمر باريس 1913 اقتصر على تعريف حق الجماعة وأن العرب كجماعة حافظت هلى خصائصها منذ عصور ، لعل دافع قصور هذه التعاريف مجاملة لحكم الإنجليز فى مصر والفرنسيين فى شمال أفريقيا .

فالبلاد العربية كما حددها أحد أعضاء هذه الجمعيات : « هى البلاد التى يحدها من الشمال جبال طوروس ومن الشرق إيران وخليج فارس وبحر عمان ومن الجنوب البحر المحيط الهندى ومن الغرب البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وتشمل سوريا والعراق وشبه جزيرة العرب»(547) وحدد الأمير عبد الله ابن الحسين (الملك فيما بعد) فى مذكراته : « من إسكندرونة شمالاً إلى الحدود المصرية برفح ثم التيه فالبحر غربًا حتى باب المندب ثم يشرق مارًا بمسقط وعمان ، وينحرف إلى الشمال مخترقًا حدود البحرين والكويت ، ثم يشرق على حدود ولاية البصرة فحدود إيران ، ثم يشمل إلى التقاء البلاد العربية ببلاد الكرد ، ثم يغرب فيدخل الجزيرة والموصل ويترك ولاية حلب إلى الجنوب فينتهى عند الإسكندرونة »(548) .

وفى المذكرة المشتركة التى قدمت باسم جمعيتى العهد والعربية الفتاة ، إلى السلطات البريطانية متضمنة شروطهما للتعاون ، لم تخرج حدود الدولة العربية العتيدة ، المطالب بها ، عن تلك الحدود التى حددها عبد الله وأحد أعضاء الجمعيات العربية ، وكانت كلها تستثنى مصر وشمال أفريقيا العربية . ولم تتطرق مباحثات حسين مكماهون ولا أية مباحثات أخرى لهما بقليل أو كثير . واقتصرت أبحاث المؤتمرين « القوميين » اللذين عقدا فى دمشق فى أعقاب الحرب العالمية الأولى فى 2 حزيران (يونيو) (1919) وفى 7-8 آذار (مارس) 1920 وحضرهما مندوبون عن الأقطار التى تدعى حاليًا : لبنان وفلسطين والأردن وسوريا ومراقبون من العراق – اقتصرت على المشرق العربى . فقرر المؤتمرون توحيد سوريا بمختلف أقطارها والعمل على ضم العراق فى المستقبل إليها . ولم يرد فى الخمسة آلاف وثمانمائة عريضة التى قدمت للجنة كينغ – كراين الأمريكية ، الموفدة من مؤتمر السلم فى باريس ، مطالبة بالاستقلال والوحدة .. ، أى ذكر لمصر وسائر البلاد العربية الأخرى على ما يذكر الدكتور أنيس صايغ ، وما لبث رجال هذه الجمعيات أن انقسموا أو قسموا إلى « سوريين » و« عراقيين » بحجة أن « دول التحالف لا توافق على تأليف دولة عربية واحدة مستقلة »(549) وأصدر أعضاء جمعية العهد العراقى بيانًا جاء فى مادته الأولى أن غاية الجمعية الأساسية هى « استقلال العراق استقلالاً تامًا ضمن الوحدة العربية وداخل حدوده الطبيعية » ، تمامًا كما سيجئ فى سيرة البعث العربى الاشتراكى ، الحزب الواحد ،

بعد الاستقلال ، أن استووا فى حكم قطرين : سوريا والعراق ، ولم يتوحدوا ، وأصبح القطران علة من علل التشتت العربى .

كان ما خططه الاستعمار ومحمد على لعزل مصر عن المشرق العربى مخالفًا لطبائع الأمور ، فإن عملية العزل التى تواصلت خطاها من معاهدة 1840 وحتى صدور وعد بلفور وتقسيم سايكس – بيكو تخللتها ضرورات هى بحد ذاتها عمليات لاغية ، على المدى الطويل لخطط العزل، إذ من المستحيل أن تحول الخطط أيًا كانت دون انتقال الأفكار وإرادات الأمم والشعوب والأفراد. خصوصًا إذا كانت مثل الشعوب العربية لم ينقطع التواصل بينها ، بسبب من طبيعة حياتها منذ آلاف السنين . فمثلاً إن قضية الاستيطان الصهيونى فى فلسطين ، التى أريد بها أن تكون العازل الأساسى قامت على نظرية هرتزل الخاطئة بأنها « أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » كان لابد لها من الاصطدام على أرض الواقع بأصحاب البلاد وأصحاب الأرض . وإذا لم يؤخذ بالشرارات الأولى التى تولدت عن الاحتكاكات الأولى ، وأشار لها بن غوريون فى مذكراته منذ وصوله إلى فلسطين فإن أصوات عقلاء كثر تعالت منذ البداية يتشكك بأن مشروع هرتزل لن يمر بسلام . فإن ماكس مورو ، وهو صديق حميم لهرتزل . بدافع من التأكد من صحة مقولته التى يبنى عليها دعوته لبناء دولة فلسطين أنها : « أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » أوفد حاخامين ليستكشفا فلسطين قبل حضور المؤتمر الصهيونى الأولى فى بازل . 1897 ، فإذا بوصفهما يجىء مكذبًا لهذه المقولة ، وتضمن هذا الوصف ما هو أهم : « استعلاء المستوطنين إلى درجة الاحتقار والكراهية وعنف فى التصرف ليس له ما يبرره ، وافتعال لأسباب ليس لها هدف ، إلا أن نضع بين الطرفين مسافة بحيث لا يستطيع أحدهما أن يرى الآخر أو ينظر إليه فى وجهه » . فاليهودية الوافدة ، المنعتقة من إسار المجتمعات العالمية الكابتة الكاتمة لأنفاسها راحت تظهر عللها وآفاتها .

ومضت الصهيونية سادرة فى غيّها . مصــــرة على أن فلسطين : « أرض بلا شـــعب لشعب بلا أرض » وراحت توزع مع نشراتها الأولى صورة فلاح يهودى وراء محراثه يعمل فى صحراء جرداء بالكاد يبدو فى أقصى الصورة « بيت شعر » لبدوى أو كمثل بيت الشعر . وكان هذا الإصرار على إنكار وجود الآخر ، أى العربى الفلسطينى ، والاستعلاء عليه يتضمن الصدام بحد ذاته . لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار النظرة التى كانت تحصلت لليهودى عبر القرون ، ناهيك عن مظاهر القوة والنية فى الاغتصاب التى رافقت تصرفات المستوطنين : لم تتجل روح العسكرية فى تاريخ اليهود ، عرف عنهم شيئًا آخر تمامًا ، إلا أنه منذ أواخر الثامن عشر وأوائل التاسع عشر بدئ بالكتابة عن « العسكرية اليهودية » ووجوب إعدادها ، وقد وجه نابليون لهم فى ندائه : « أيها الإسرائيليون : انهضوا فهذه هى اللحظة المناسبة » .

ومع قيام الحرب العالمية الأولى أخذت أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود تأخذ طريقها إلى فلسطين ، وإذا لم تكن تستطيع الوصول كانت الوكالة اليهودية تحولهم إلى معسكرات تدريب خاضعة لعمليات تعبئة . وبطلب من زعماء يهود كان الجنرالات الإنجليز يرتبون لكتائب من هذه الأفواج المدربة أن تلتحق بجيش اللبنى . حتى لقد أصبح مجتمع المستوطنين مجتمع محاربين ، إذا لم يكن السكان الأصليون يقفون فى وجه مطامعه ، كان هو يستفزهم ويتحرش بهم ليعمل على إجلائهم من منازلهم ، إن لم يكن ليستولى على أراضيهم فلكى تضيع عليهم مواسمهم ويصيبهم الجوع .

بتكرر العدوانات الصارخة ، وبتكشف الخطط الجهنمية التى بيّتها الاستعمار بالتدبير المشترك من اليهودية العالمية والصهيونية والوكالة اليهودية والدول الكبرى وتواطؤ بعض العرب. على شعب غافل .. كان لابد من أن تتجاوب أصداء كل ذلك فى جنبات الأوطان العربية رغم جميع الحواجز ، التى يقيمها الاستعمار أو تقيمها الحكومات الإقليمية . واتضح لبصيرة الواعين من العرب أن الغرض الحقيقى للتخطيط لفرقتهم وتشتيت مشارب قياداتهم . هو التمكين – فى غياب قوتهم – لاقتسام بلادهم ، كما حصل بالفعل بسايكس – بيكو .

* * *

الفصل الحادى عشر : عودة مصر إلى تولى دورها القيادى

عودة مصر إلى تولى دورها القيادى

على الرغم من ضعف حركة الاتصال والتواصل والتعامل بين الأقطار العربية ، أثناء انحطاط مستوى الحكم المملوكى فى فترة احتضاره .. فإن « حملة نابليون » التى احتجزت مصر « رهينة » بعد فشلها على أبواب عكا وانكفائها ، واقفة حائلاً دون عودة التواصل إلى عهدها الطبيعى .
غير أن هذه الحيلولة ، المخالفة لطبائع الأمور ، لا يمكن أن تكون تامة ، فالأزهر ظل قائمًا يجذب طلابه من كل مكان فى الأقطار العربية ، وبخاصة من مدارس فلسطين بالذات ، والجاليات العربية فى مصر ، لم تكن بعيدة عن التفاعل بالأجواء ، وسليمان الحلبى بطل اغتيال « كليبر » القائد الفرنسى ، كان مقيمًا فى القاهرة ، والجبرتى ، المؤرخ ، مؤرخ الحملة الفرنسية ومحمد على ، من جبرت.. إلخ. وحتى بعد انكسار محمد على وانكفائه إلى داخل مصر، وما جر هذا الانكسار من حسرات هنا وهناك وخلف من ويلات ، ظلت الأمة العربية فى المشرق تعتبر القاهرة عاصمتها، تتأثر بأهم ما يجرى فيها . فلم يكن من الممكن قطع التواصل من وإلى ، وإن كان التفاوت فى الحركة أكيدًا ، والحال هذه ، ما دام الحج إلى الحجاز قائمًا ، فطريق الحج من الشمال ، من مراكز الإمبراطورية يمر بالقاهرة ذهابًا وإيابًا ، وقبل أن تتشكل الدول « الإقليمية » لم تكن تعترض أية عقبة ، هذا أو ذاك . وحالات تغيير الإقامة فى جنبات الوطن العربى لا تعد ولا تحصى ، وجميعها تحمل وتنقل أفكارًا . وكانت منذ أقدم أيام الأمة العربية هى التى تنشر المذاهب .

عدم جدوى استعارة « هوية » لمصر

جرت العـــادة ، بعد حركة الوفـــد فى مصر ، التى جـــاءت مفاجأة ، بعد نيام طويـــل ، أن يستشهد على حالة الأمة العربية بقول سـعد زغلول لعبد الرحمن عزام عندما جاءه ينبهــــه إلى أهمية البلاد العــربية ، فرد عليه سعد زغلول بســؤال : « صفر زائد صفر يساوى كم يا عزام »(550) رواها حسنين هيكل على هذا النحو ؛ وكانت دائمًا تضرب مثلاً على عدم وجود فعلى للأقطار العربية ؛ إلا أن هذه الذريعة ، بالتحليل ، تكشف عن القصور . فهى تكشف عن أنه بمشاعره وتفكيره، لم يصبح بعد منتميًا لأمة ، اسمها الأمة العربية ؛ يعانى مشاكلها ويحمل همومها ويوقظ مطامحها . ولم يبد عليه ذلك فى حياته حتى بالنسبة لمصر . فلم تشعّ فى نفسه ولا فى ذهنه ومضات تنير له الطريق للوطنية ضد الإنجليز .ولا راوده البحث عن طريق له ربما غير عادى إلا بعد العنف الذى واجههم به المعتمد البريطانى والسلطات البريطانية ، هو ورفيقه ، فى مقابلتهم له للمطالبة بحضور مؤتمر الصلح للدفاع عن حقوق مصر فى نهاية الحرب العامة الأولى . تلك المقابلة المزرية ؛ وكان تشكيل الوفد و« زعامة الأمة » بتوكيلات ذات صيغة أزرى : « نحن الموقعين على هذا أنبنا عنا ... فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجد للسعى سبيلاً، لاستقلال مصر . تطبيقًا لمبادئ الحرية والعدل التى تنشر رايتها دولة بريطانيا العظمى وحلفاؤها »(551) . ففى أى بلد نشرتهما بريطانيا العظمى ؟

ولم يكن الشعب فى مصـــر عام 1880 عندما تولاه عرابى وربعــه ولا كان شـعب مصر ولا كانت الشعوب العربية فى الشام والعراق والمغرب عندما تفجرت ثورات هذه الشعوب ، فيها من الحرب العالمية الأولى أصفارًا . كما قرر سعد ، وراح كلامه « حكمة » تتردد على الأفواه . بل كان القادة والزعماء هم الأصفار ، كانت هذه الشعوب فى ثوراتها تتقدم القادة والزعماء المتكالبين على الحكم ، الذين امتطوا موجاتها وأجهضوها بسياساتهم المتهالكة ؛ فلكم من فرصة لالتئام شمل هذه الأمة أضاعها هؤلاء الحكام !! إنهم لم يحسوا بنبضات هذه الأمة ولا أحسوا وتحسسوا تطورات العالم أثناء الحرب العامة الأولى وبعدها . على الأقل فإن الرابطة الواهية ، البالية ، التى كانت تشدهم ، بالخلافة العثمانية ، من وراء بريطانيا ، غشت على أبصارهم ، رؤية النضالات القوميــة التى قام بها مصطفى كمال للمحافظــة على تركيا . ولم تكن لديهـــم الإرادة ولا الهمة ولا الفكر المحرك ليسيروا سيرة مثل الآخرين ولا سيرة شعوبهم . وإذا كانت الظروف تتطلب أن تفرز الشعوب فى بعض مراحل مخاضها أفرادًا يسبقونها ، ويتصدون لتمهيد الطريق لها . فإن ظروفًا أخرى تتطلب ظهور قيادات أبطال يسبقون ليعبروا عن روح هذه الشعوب ويحددون مستوى تطلعها . ولم تحظ المرحلة لا بهذا النوع من الرجال ولا بذاك .

وأيا ما كانت التعلاّت التى تساق لتبرير تلكؤ مصر فى عودتها من عزلتها إلى الالتئام بأمتها العربية ، التى تكون تارة بمد بصرها جنوبًا إلى منابع النيل .. وبالتالى ، التوهم بأنها تنتمى إلى أفريقيا ، أو بأنها تبقى قابعة مكانها فى ظل خيالات الماضى ، مبهورة ، مشدوهة بما تكشفت عنه أرضها من كنوز أثرية فتكتفى بأمجاد « الفراعنة » ؛ يحاول مثقفوها ، الذين مازالوا « مخدّرين » بأمجاد محمد على « الدونكيشوتية » العثور لها على هوية . ولعل أخطر ما نظر له فى قضية الهوية هذه هى الاختبار لمصر « هوية البحر الأبيض المتوسط .. »« ، نظّر لها الدكتور طه

حسين ، حديثًا ، وإن كانت قديمة من زمن إسماعيل ، فى كتاب من جزأين هو : مستقبل الثقافة فى مصر ؛ والدكتور طه حسين ، وإن كان عميد الأدب ، إلا أنه لم يكن عميد التاريخ ، وخاصة فى هذا الكتاب . ولست أريد هنا أن أعرض لكل المغالطات التى ترد فى هذا الكتاب ، وإنما أكتفى بما يعنينى هذا فى هذا السياق .

يحاول الدكتور طه حسين أن يسند آراءه ، فى جوانب عديدة من كتابه إلى ما ذهب إليه الخديوى إسماعيل فيقول فى أهمها : « ولا ينبغى أن يفهم المصرى أن الكلمة التى قالها إسماعيل وجعل بها مصر جزءًا من أوروبا ، قد كانت فنًا من فنون المدح ، أو لونًا من ألوان المفاخرة ، وإنما كانت مصر دائمًا جزءًا من أوروبا ، فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها »(552) .

ويستطرد الدكتور طه حسين فى سياق تفكيره ، لإظهار مصر فى كيان مستقل عبر التاريخ، وراء أفكاره الخاطئة ، التى يهيّأ لنا أنه كان يقر بها بوجل ولم يبلغ درجة التصريح بها تمامًا ، فيقول : « والتاريخ يحدثنا كذلك بأن رضاها (رضا مصر) عن السلطان العربى بعد الفتح لم يبرأ من السخط ، ولم يخلص من المقاومة والثورة ، وبأنها لم تهدأ ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة فى ظل ابن طولون ، وفى ظل الدول المختلفة التى قامت بعده .. »(553) .

وفى هذا السياق أيضًا لإبراز شخصية مصر وانفراديتها تحوم أفكار كثيرة لطه حسين حول قوله الشهير بمشابهة العـرب بالفرس والرومان فى مصر ، دون أن يجرؤ بذكرها، وهى التى أثارت ضجة فى العالم العربى فى حينها ، وخرجت فى دمشق مظاهرة تنديد ، جمعت أثناءها كتب له وأحرقت فى المرجة .. ولم يكن منطق الدكتور طه فى كل حججه سليمًا ، ولا كانت براهينه مقنعة.. كان شاغله فيما يسوقه أن يبرهن بأن مصر إذ تسترد شخصيتها وتسترجع كيانها القديم من « أسس الدولة الإسلامية » ، تصبح جزءًا من أوروبا وتعود إلى حالها القديم . كأنما كانت فى حالها القديم قبل الإسلام جزءًا من أوروبا . ويتساءل ما دامت المسيحية التى نبعت من الشرق لم تجعل الغرب الذى اعتنقها شرقيًا ، فلماذا يجعل الإسلام وهو من نفس المصدر ، مصر باعتناقه ، شرقية ، فلم لم تتغير طبيعة العقل الأوروبى بالمسيحية فيصبح شرقيًا . فلماذا يصبح العقل المصرى شرقيًا بالإسلام ؟ فإنه « من المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة . لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الدول » .. إلخ .

إلا أن مصر - لعلم الدكتور طه حسين « التاريخى » - هى « دولة بر وليست دولة بحر ، على حد تعبير الدكتور جمال حمدان ، فإن طريقها إلى البلاد العربية - بعد الزمن البعيد الذى كان فيه باب المندب متصلاً بها - أصبح إليها ، عبر سيناء ، هو الأشد فعلاً وأثرًا فى تكوينها وتشكيلها الحضارى من أى طريق آخر(554) منه جاءتها الهجرات والغزوات والديانات، ومنه جاءتها معظم عناصر التكوين والتشكيل الإنسانى والحضارى .. ومنه خرجت مصر إلى حكم جيرانها .

ولئن دل هذا البحث عن « هوية » لمصر خارج « جلدها » كما يقال على شيء لإبعادها عن أصلها ، فإنما يدل على أن المؤشرات التى بنيت عليها عزلة محمد على بمصر وأسرته وأغراض الاستعمار والصهيونية ، ماتزال على شأنها لم تزل .

لعل الدكتور طه حسين ، بدافع « الموضوعية » ، التى عاد متشبعًا بها من الغرب ، أو لعله بـ... لا أدرى لم يحرص على انتمائه لأمته ، وهو الصعيدى المنبت ، أو لعله ازداد انسياقًا ، للابتعاد

عن هويته العربية ، بتأثير دعوة الدكتور « ماجنس » ، مدير الجامعة العبرية ، الذى كان يقود « دعوة موجهة إلى مجتمع المفكرين والأدباء المصريين يدعوهم إلى المشاركة وبحث مستقبل مجتمع البحر الأبيض .. »(555) وعلى كل حال ، من دون أن أذهب مذهب السخف فى اتهام طه حسين أنه كان يعمل لليهود ، يكفى القول بأن مجرد العزوف عن الوقوف أو تبنى وجهة نظر جهة من الجهتين المتخاصمتين - ولا يمكن لأحد ان يقول عندئذ إن المعركة بين العرب والصهيونية لم تكن محتدمة - هو إضعاف لإحدى الجهتين ، ناهيك عن أنه باتجاهه هذا الاتجاه إلى البحر الأبيض يكون قد تنكر ضمنًا ، لمطالب القومية العربية . حيث يجب أن يكون - تمامًا بما يشبه موقف الجماعة القائلة بالتطبيع الآن ، بخلاف الاتجاه المعاكس الآن ؛ ولكم كان حريًا به لان يقتدى موقفه ، بموقف ماكس نوردو ، المفكر الألمانى الصهيونى عندما اختلف مع صديقه هرتزل فى المؤتمر الصهيونى الأول ، إذ توقف ليتأكد من صحة مقولة هرتزل التى بنى عليها دعوته للهجرة إلى فلسطين بأنها : « أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » فأوفد حاخامين يستكشفان الحقيقة . فعدل عن حضور المؤتمر بنتيجة تحقيقاتهما .

حتى لو أنه نظر إلى مصر كرأى الدكتور طه حسين بدون الإسلام والعرب الذين جاء بهم الإسلام ، يبقى تواصل مصر الاجتماعى والسياسى والفكرى والحضارى بما يليها شرقًا ، بفلسطين وبلاد الشام عمومًا وبالعراق والحجاز ، بل واليمن أقوى وأبعد أثرًا وتأثيرًا مستمرًا ، ومتبادلاً منه بحوض البحر الأبيض المتوسط الشمالى والغربى . ففى التاريخ أنه عندما انتقلت عدوى الحضارة من مصر عبر حوض البحر شمالاً ، لم تنتقل إلى اليونان أو الرومان وإنما انتقلت إلى كريت أولاً ثم إليهما بعد ذلك ، ولا نجد فى جميع أساطير مصر القديمة ، أسطورة وحدة تروى علاقة مصر بشمال البحر .. وإنما نجد لجميع أساطيرها الحضارية علاقة ببلاد الشام والعراق . ولننظر بعد أن أجلى العرب بالإسلام كل نفوذ أجنبى واستقر ، كيف صار متميزًا فى ديار العرب عن العالم الإسلامى حوله .

ووقائع التاريخ تذكر أنه عندما انهار سد الشرق أمام جحافل المغول بإغراء مراسلات البابوية إلى قره قورم ، تحطمت فى عين جالوت عند حدود مصر ، وعندما سقطت بغداد أمام الاجتياح حملت قبائل العراق آخر الخلفاء العباسيين ، ولجأت به إلى كنف قبائل مصر . وفهم «الصليبيون» أن إرادة الأمة العربية بالإسلام انكفأت وتحصنت فى مصر ، فأرادوا كسرها فى دمياط .. فإلى أين يريد الدكتور طه حسين ومن سار سيرته أن يفروا بمصر من قدرها ؟

عودة مصر إلى دورها :

من ناحية ثانية شهدت مصر ، بالمقابل ، تحولات اجتماعية كبيرة ، مع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، كانت لها أعظم الأثر فى تطورها السياسى والقومى ، إلا أن التحول الأعظم والأهم ، من وجهة نظر ما يعنينا هنا من الأهداف العربية القومية . كان انفتاحها ، من فوق إرادة الاستعمار وخروجها من عزلتها ، التى لم يفطن لها أحد . ففقد تكتلت عوامل الاحتكام التى ولدها الاستعمار من جديد والقضايا المستجدة بإعادة ما انقطع من التواصل الطبيعى ، بمعاهدة 1840 ن وإنماء التعاطف والتراحم من جديد . ولم يعد غريبًا أن تصبح مصر التى أسقطها « العرب » المشارقة من « حسابهم » وعمل الاستعمار وأسرة محمد على على عزلها عن البلاد العربية ، أهم بلد من البلدان العربية التى تأخذ بيد سائر البلدان الأخرى من أجل الاستقلال والتحرر من الاستعمار ، فما أن سنحت لها أول فرصة بمعركة محمد الخامس ، ملك المغرب ضد الاستعمار حتى هبت تضع ثقلها لمساندته وإعادته منتصرًا إلى بلاده(556) ثم ثنتها بتونس والجزائر ، التى كدنا أن نصدق فيها فرنسا وهى تنادى أنها أرض فرنسية ممتدة عبر البحر، طيلة مائة وثلاثين عامًا . وهل نسينا عدن ومساندة ثورة اليمن وإخراجها من حياة القرون الوسطى ، وهل ترانا مبالغين إذا قلنا إن معارك مصر ضد الأحلاف الغربية وانتصاراتها هى التى سوف تدق باب العراق للتحرر والثورة .

ولا غرو فإنه لمستقر فى ذهن التاريخ أن مصر منذ أقدم العصور . بل منذ أن كانت ، هى الامتداد المقابل للعراق فى الهلال الخصيب الذى يظلل شبه الجزيرة العربية . وهكذا فالطريف أن مصر التى أسقطها « القوميون العرب » المشرقيون من حسابهم ، وعمل الاستعمار وأسرة محمد على على عزلها عن البلاد العربية ، أو هى ملتقى العرب من كل مكان : مثقفين ومفكرين وكتّاب وناشرين ومضطهدين ، هى المركز الذى انطلقت منه أكثر الحركات الثورية والأعمال التى كان لها أثر حاسم فى مصير العرب الحديث . ففضلاً عن أسرة الأهرام والمقطم والهلال كان يقيم فيها الشيخ عبد القادر المغربى الليبى الأصل وإسماعيل صديق المفتش الجزائرى الأصل ورشيد رضا الطرابلسى الأصل ، والكواكبى الحلبى الأصل ، وكلما كانت قبضة الاستعمار على الأقطار العربية الأخرى ، وعلى الحركات الوطنية والقومية فيها كانت حركة الالتجاء إلى مصر تزداد ، والإقبال عليها يكثر . ففى عام 1911 لجأ إليها من تونس أول زعيم لأول حزب عربى قومى ينشأ فى شمال أفريقيا (عام 1904) وهو عبد العزيز الثعالبى - عندما نفته السلطات الفرنسية من بلاده ، وما لبث الحبيب بورقيبة أن لحق به . وعندما اتضحت أهداف الحركة الصهيونية ومرامى الاستعمار فى المشرق العربى كثر توافد الفلسطينيين والأردنيين والسوريين واللبنانيين والعراقيين. وفى عام 1922 لجأ إليها السنوسى ، وفى عام 1936 نفت إليها السلطات الفرنسية من مراكش علال الفاسى أحد زعماء حزب الحركة المراكشية الذى تأسس عام 1930 وفى عام 1926 استقر بعض الهاربين من وجه الفرنسيين فى سوريا فى القاهرة ، وتألفت فيها لجنة لإمداد رجال الثورة النازحين إلى الأردن ، واستوطنها شكرى القوتلى وسامى البكرى وحقى العظم من رؤساء سوريا .

وفى مصر قابل عبد الله بن الحسين اللورد كتشنر قنصل بريطانيا العام فى مصر لأول مرة فى شباط (فبراير) 1914 حينما تباحثا بشأن « الثورة العربية » ومن مصر جرت المكاتبات بين السلطات البريطانية والحسين ، وفيها قابل زعماء الثورة العربية المختصين من الإنجليز : رونالد ستورز وكلايتون وهنرى ماكماهون ورينجالد وينجت ، وكانت القاعدة الأولى التى تضع فيها إنجلترا أنبغ رجالها بمراقبة البلاد العربية ومعرفة تطوراتها والتأثير فيها . وفيها طبخت (الثورة العربية الكبرى) ووضعت خطوطها ، وكانت قاعدة إمدادها مالاً وعتادًا ومراقبة تطوراتها ، حتى الحركة الصهيونية اتخذت من خطر التحام مصر بالعالم العربى على مصالح الغرب وسيلة لإقناع الغرب بإعطائها فلسطين وطنًا قوميًا . واتخذ وايزمن من القاهرة قاعدة لإقناع العرب بتأييد الإنجليز والصهيونيين معًا. كما أن مصر كانت مركز المباحثات البريطانية السنوسية سنة 1915. وكان سكرتير وفد الصلح البريطانى بين السنوسيين والإيطاليين مصريًا . وظلت القاهرة مركزًا للمباحثات البريطانية مدة طويلة مثل مباحثات السوريين السبعة مع اللورد ملنر ومباحثات فيصل - تشرشل فى آذار (مارس) 1921 ومباحثات الأمير عبد الله بن الحسين (الملك فيما بعد) ومندوب تشرشل فى صيف ذلك العام بخصوص مصير الحجاز وبخصوص الأردن ، ومباحثات تشرشل والملك عبد العزيز بن سعود إبان الحرب العالمية الثانية ، وبالنظر لأهمية مصر خاصة والبلاد العربية عامة فإن سياسة المدرسة الاستعمارية فيها هى التى كانت تفوز على المدرسة الاستعمارية الهندية فى الشؤون المتعلقة بالمنطقة كلها .

وعندما أخذت وسائل الإعلام الحديثة تنتشر وتكثر من نقل أخبار البلاد العربية بدا واضحًا من تفاعل الشعب المصرى وشدة تأثره بالأحداث التى تلم بالأقطار العربية ، كأن سدًا عاليًا كان قائمًا بينه وبينها ثم انهار . فقد هبت مصر - لدى احتلال الإيطاليين لولايتى طرابلس وبنى غازى ، تجمع الأموال لتقديمها للمجاهدين ، وفى نصف ساعة تمكن عمر طوسون فقط من جمع مائة ألف جنيه مصرى وستة آلاف جنيه ذهب . وأرسلت مصر إلى جبهات القتال بعثات طبية لإسعاف المنكوبين ، واشترك بعض المصريين فى القتال ضد الإيطاليين . ونظم شعراء مصر عدة قصائد حماسية فى نصرة القطر الجار . نذكر منهم حافظ إبراهيم ، مصطفى الرافعى ، أحمد محرم، حسن القاياتى وزكى أبو شادى .

انفتاح مصر على العالم العربى وبداية التفاعل

فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بدأت مرحلة جديدة فى العلاقات بين مصر والشرق العربى. فقد أظهرت ثورة 1919 أن مصر لم تكن متقدمة فى مؤسساتها الحديثة فحسب . بل وفى التفافها حول زعامتها . فإلى جانب نهضتها الثقافية وذيوع أدب أعلامها فى أرجاء الوطنالعربى فإنها ما لبثت بما فازت به من صيغ الحكم على علاته ونواقصه ، أن أصبحت قدوة سياسية لبلدان المشرق العربى(557) الذى أخذ تقسيمه يلوح للأذهان . فعاد ينظر إلى سعد لا « كرافع لواء الحرية والاستقلال فى مصر وحدها بل فى الشرق الأدنى »(558) . وكانت جرائد المشرق تعقد الافتتاحيات الطوال فى شرح القضية المصرية أو ما يدور فى أنديتها وما يلقى فى مجالسها من خطب ، وكأنها تحث الناس على اقتفاء آثار مصر(559) . وعندما دعا أحدهم لتخليد أعمال مصر فى إقامة تذكار له فى السودان ، كتب آخر – وهو من فلسطين – يذكر « السوريين للاشتراك مع إخوانهم المصريين حتى يكون هذا الاشتراك المبارك أداة طيبة لتوثيق عرى الرابطة الشرقية عمليًا »(560) . وعندما قيل إن بعض السوريين المقيمين بالقاهرة رموا الإنجليز بالرياحين ، هبت الشام بأكملها تستنكر فعلتهم وتتبرأ منهم بلسان شاعرها خليل مردم . « براءة الشام من اللئام » .

وهكذا فمن جهة عملت الهبات الوطنية التى أقامت ربوع الشام والعراق فى وجه الفرنسيين والإنجليز على تبديد الغيوم التى لبدت جو مصر إزاء المشرق من جراء تحالفهم مع الغرب ضد الأتراك ، لا حبًا بالأتراك ، ولكن كراهية بالغرب . ومن جهة أخرى عمل ذلك التعاطف مع مصر فى نضالها على إخراجها من عزلتها والعودة للاتجاه إلى المشرق .

فعلى الرغم مما اتسمت به سياسة سعد من انعزالية ، ولعلها كانت من أسباب فشل ثورة 1919 وقصورها عن أهدافها لم يكن منه ، بعد ذلك ، أثر اندلاع الثورة السورية الكبرى إلا أنه وجه « نداء إلى الأمة » من أجل نجدة « سوريا التى تربطنا بها روابط وثيقة من تاريخ ولغة ودين وعادة وجوار » ، كما قام يفتتح به التبرع ويستحث الناس للمشاركة ، وأخذت الصحف توسع صدرها للمقالات التحليلية تعريفًا بسوريا وتأكيدًات لعلاقاتها التاريخية بمصر ، كان من أوقعها مقال للسيدة زينب أحمد محمد – من حى السيد زينب – عبرت فيه عن « عواطف الأهل » نحو بلاد الشام(561) . وراحت صحف المشرق والصحف العربية فى الأمريكتين تنقل هذه المقالات عن الصحافة المصرية أو تلخصها لقرائها . فقد أعربت جريدة « البيان » الصادرة فى نيويورك ، فى ذلك عن سرورها بأن تكون « الحكومة المصرية الحرة صارفة بعض اهتمامها لقضيتنا السورية فى الوقت الحاضر - رغمًا عما لديها من المشاكل الجمـــة والمباحث الكبيرة عن قطرها العزيز . فإننا لا نكاد نتصفح عددًا من أعداد هذه الزميلات الراقية العشرة إلا ونجد فيه شيئًا من المدافعة عن حقوق السوريين والمباحث المتعلقة بتثقيفهم »(562) .

لكن هذا الاهتمام من جانب الصحافة لم يقتصر فى حقيقة الأمر على معالجة القضية السياسية فى المشرق والتعريف بها ، وإنما كان تقربًا شاملاً . ففضلاً عما نجده من أبحاث فى الهلال والمقتطف والرسالة الثقافية التى كانت ملتقى ومنبرًا لرجال الفكر والعلم من كافة الأقطار العربية. فقد اتخذ

الطابع العربى ، إلى جانب الأنباء وبعض المقالات الإخبارية فى الصحف اليومية، يعم شيئًا فشيئًا . فانتشرت عبارات : العالم العربى والشعوب العربية والأمة العربية والدول العربية.. إلخ وخاصة فى صحافة المعارضة وفى الصحافة الأسبوعية التى اتسعت صفحاتها للمقالات التحليلية والأبحاث التاريخية . حتى لقد خرجت إحدى الصحف عن الطابع الإقليمى إلى الطابع القومى ، عندما حددت سياستها فقالت أنها « كانت وستظل دائمًا توطيد العلائق وتمتين الصلات بين بلاد العالم العربى والبلاد الشرقية جميعًا وخلق رابطة التضامن . وإذا كانت «السياسة الأسبوعية» مصرية فى نشأتها وتحريرها فهى شرقية عربية فى مراميها وغاياتها اقتناعًا منها بأن الشرق العربى المرتبط بالتاريخ بأوثق الصلات لم يكن يومًا من الأيام رغم الفوارق السياسية والأحداث العالمية التى تؤدى إلى هذه الفوارق إلا ولايات متحدة »(563) ! وعندما راحت تنشأ المجلات الأدبية والفكرية فى دمشق كالطليعة ، وفى بيروت كالدهور والقصور فى القاهرة كالرسالة صارت تتصدرها الأسماء المصرية اللامعة إلى جانب الأسماء السورية والعراقية واللبنانية .

وكان من الطبيعى فى هذه المرحلة ، أن تشهر القاهرة قيام عدد من التجمعات على المبادئ العربية ، فكانت جمعية الرابطة الشرقية « أسست فى القاهرة عام 1341 هـ » أقدمها ، وقد نشطت فى البحث والتنقيب عن مختلف روابط مصر بالمشرق ، وأبرز ما قامت به عقد مؤتمر عربى عام فى القاهرة لتكريم « أمير الشعراء أحمد شوقى » عام 1927 . نذكر منها كذلك جمعية الرابطة العربية والاتحاد العربى العام الذى قرر فى البيان الذى أعلن عن وجوده « أن العرب أمة واحدة بالجنس أو بالاستعراب لا فرق بين مسلم وقبطى » لكن جمعية الوحدة العربية التى شكلها سوريون ومصريون كانت أبرز تلك الإرهاصات لما تضمنته بياناتها من وعى متقدم ومن نضج فكرى . غير أنها حصرت جهودها – كما يستدل على ذلك من قانونها الأساسى (المادة الرابعة): فى إصدار جريدة باسم « الوحدة العربية » وإنشاء فروع للجمعية فى القطر المصرى وسائر الأقطار العربية تدعو لتوحيد الثقافة ، وتوثيق الروابط الاجتماعية والصلات الأدبية(564) وعلى وجه العموم كان رجال الأحزاب الأقلية كالأحرار الدستوريين أكثر رجالات مصر نشاطًا ، بل وأسبق حماسًا للفكرة العربية ، حيث كانوا يلجأون إلى العالم العربى للتشهير بالوفد ، ولكن من المؤكد أنهم كانوا أكثر ثقافة ، وكانوا يرتاحون لذلك الترحيب الواسع الذى أخذ العالم العربى يلقاهم به.. ومن هنا كان لابد للوفد من أن يحسب حسابًا للرأى العام العربى . إلا أن ذلك كله ظل حتى الثلاثينيات ، محصورًا فى نطاق الفكر وفى الترويج للفكرة العربية وفى مقارعة الدعوات الأخرى ، الإقليمية ، بالحجة ، وفى نشر الأحاديث فى الصحف عن أهمية إيجاد موسوعة عربية فى تدعيم العلاقات العربية وتوثيق الثقافة وفى فوائدها ومزايا الاتحاد العربى والوحدة العربية .. وبالتالى فى الحفلات والمآدب وبعض المظاهر التمثيلية .

لقد صارت بعض البلاد العربية بوسائل المواصلات المستحدثة بعد الحرب العالمية الأولى ، أقرب إلى عاصمة مصر من بعض بلاد الصعيد .. فتكثف الاتصال والاحتكاك فى المؤتمرات التى كثرت ، أو شهور الاصطياف فى لبنان وفى بلودان ، أو الزيارات المنظمة أو الرحلات الرياضية والكشفية ، عن حقائق قومية بديهية كانت غائبة عن الأذهان أو طمستها الثقافة الحديثة أو حجبتها الإقليمية . فبعد أن كان المرء يذهب إلى فلسطين وسوريا والعراق وهو يظن انه ذاهب إلى بلاد أجنبية ، إذ به يخرج من تجواله بأن « الجميع عرب فى ميولهم وطريقة تفكيرهم مع المصريين على السواء . وأن هناك أمة عربية فعلت الأيام فيها الأفاعيل فيوقن على الرغم من ذلك أن الأمة

العربية تمتد من جبال طارق إلى بلاد الفرس ، وأن هذه الأمة ثابتة مهما كان فيها من انقسام صناعى ، ولكن هذا الانقسام لا يمكن ولن يمكن أن يكون أبديًا .. ويحس أنه بعد ذلك ليس فردًا من أمة لا يبلغ مجموعها إلا ثلاثة عشر مليونًا .. بل فرد منم أمة مجموعها نحو ثمانين مليونًا » . على حد قول محمد على علوبة باشا(565) . ووسط مظاهر الحفاوة التى أحيط بها فريق خريجى الجامعة المصرية الرياضى – أثناء زيارته لدمشق – لم يتمالك أحد أعضائه إلا أن ينبرى قائلاً : « إننا نشعر من صميم نفوسنا أننا لسنا غرباء : نحن إخوان التقوا بإخوانهم » . وكانت أحداث فلسطين قد بدأت ، أثناء هذه الاتصالات ، وفيما تناقلته الصحف من أنبائها تشد إليها الانتباه . وكان عاملا الدين والقومية ، وهما فى قضية فلسطين بالنسبة للعرب شىء واحد ، من أهم العوامل التى تضافرت لجذب مصر إلى الوعى بشخصيتها العربية وتبوء مكانتها فى الشؤون العربية .

من جهة لأن مختلف السياسات فى المشرق العربى ظلت فى الظاهر على الأقل تنطلق من وحدة أقطاره ، وتقوم على هذا المبدأ . وكانت « قضية فلسطين » كلما اتضحت أبعادها ازدادت ارتباطًا – فى أذهان المناضلين – بالقومية العربية وبالوحدة العربية كتحقيق سياسى لهذه القومية باعتبارها منبع القوة ، فكان خيالها يسود جميع المؤتمرات والمطمح إليها شعار لا يهدأ للخطب السياسية .. وبما يشبه الإجماع كانت جميعها تطالب بوجود مصر . ومن جهة أخرى لأنه إن كان تجمع « مصر مع الأقاليم العراقى واليمانى والحجازى والجزائرى والمراكشى والتونسى جامعتا اللغة والدين . فإن روابط أخرى متينة تجمعها بفلسطين : ففلسطين مصرية وأهلها مصريون ودماء المصريين تحت كل حجر فى أرض فلسطين . هذا بيت الله أنفق عليه خراج مصر سبع سنين .. » فضلاً عن أن مصر منذ أيام كتشنر كانت ترى حدود دفاعها وحماية السويس فى أقصى الشمال من سوريا « فنحن(566) – كما قال أحد رجال مصر من الكتاب – متاخمون من الجهة الشمالية الشرقية لفلسطين فيجب علينا أن نتواصى بالاحتفاظ بصحراء سيناء وجعلها معقلاً حصينًا يدفع عنا غوائل المغيرين . ولقد أثبتت الحرب الماضية قيمة هذه الصحراء العزيزة فى صيانة بلادنا . كما نرجو ونعاهد أنفسنا على أن ندافع عن فلسطين العربية حتى نكون بجوار أهلنا وأصدقائنا . فإنه لا تقوم سلامة لنا إلا بسلامة هذا البلد . فإن جرح فلسطين جرح لمصر ، وعدم إبقائها عربية تهديد لمصر نفسها .. فإن الصهيونية إذا قامت بفلسطين لا يقتصر أذاها على فلسطين نفسها . بل يتعداها إلى مصر والبلاد العربية المجاورة جميعًا ، ويهددها فى اقتصادها وصناعتها وتجارتها وثروتها واستقلالها .. » وهكذا يلاحظ من رصد الوقائع أنه كلما كانت تتصاعد القضية الفلسطينية وتحتدم الصهيونية فى عدوانها كانت مصر تستعيد الإحساس بعروبتها ، وإذا كانت قضية فلسطين – كما أدركها المناضلون الأوائل من أهلها ، مرتبطة بالقومية العربية ويقظتها فإن يقظة العروبة فى مصر مرتبطة بها ، حتى قيل إن من خطأ الصهيونية أنها فى التحليل الأخير لم تحسب حساب عروبة مصر .

وقد لاحظ أحد الساسة السوريين الكبار أثر تلك الأحداث التى تكشفت عنها الحرب العامة الأولى وما تلاها ، على الرأى العام فى مصر وانفتاحه على القضايا العربية ، وقد مكنه من ذلك لجوؤه إلى مصر فى فترات مختلفة ، قبل الحرب العامة وبعدها ، ثم بعد ثورات المشرق الأولى(567) إلا أن تحقيق الفكرة العربية ، فى أى شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد ، ظل أملاً بعيدًا فى رأى مفكرى مصر العروبيين ، فالدكتور محمد حسين هيكل الذى لم يشك أن « مصر وفلسطين وسورية ولبنان والعراق وبلاد العرب وبلاد المغرب كلها وطن واحد لأبنائها جميعًا .. وإن دول

الغرب المستعمرة الباغية قد قسمتنا وجزأتنا وجعلت النضال بيننا فى مختلف الميادين .. » ، ومع قناعته بأن الوحدة العربية قوة مانعة فى وجه الاستعمار ، ظل يراها بعيدة عن التحقيق . فهى المثل الأعلى للأجيال القادمة قال : «أنا ممن يؤمنون بالفكرة على أن تكون أساسًا لمثل أعلى..»(568) – لا يقلل من شأن الوحدة العربية المقصود بها إلى تحرير أمم الشرق العربى وإلى تحسين أحوالهم ، ولكنها ليست خيرًا من الفكرة القومية – إلا أن « المثل الأعلى الذى دعا إليه الأنبياء مايزال هو الجدير بأن يكون المثل الأعلى الذى يدعو إليه الشرق ويعمل لإقراره فى العالم. وعلى هذا الأساس يمكن أن تتحقق الوحدة العربية ، وهى إنما تتحقق يوم يقوم فيها الرجل الموهوب .. ليحقق المثل الأعلى الذى ابتغته الأجيال لينشئ حضارة تقوم مقام حضارة الغرب التى أتمت مهمتها واستنفذت جهدها » .

كان الشعب العربى فى فلسطين منذ عام 1920 يخوض معركة لا تتعلق باستقلاله فحسب ولكن بوجوده المادى ، ولا تتعلق ببلده وحدها ولكن بالأمة العربية كلها . كان مطعن الرمح الاستعمارى فى الجسد العربى كله ، فعلا صوت الاستغاثة . باسم كل القوى : العروبة والإسلام والأخوة والجوار . فبادر الوفد الذى كان أيام سعد زغلول يعتبر الدول العربية أصفارًا إلى أصفار ، إلى حضور المؤتمر الإسلامى الذى انعقد بالقدس 1931 ، كما اشترك فى المؤتمر العربى الذى اجتمع بعده ، وتبنى فى المؤتمر الأول وجهة النظر الدينية الإسلامية ،كما تبنى فى المؤتمر الثانى وجهة النظر العربية القومية(569) . وألقى عبد الرحمن عزام ممثل الوفد فى المؤتمر رسالة مصطفى النحاس إلى المؤتمر باسم مصر والوفد كما انتخب ممثل الوفد فى عضوية اللجنة التنفيذية والسكرتارية العامة للمؤتمر . وكان من أهم القرارات التى اتخذت الدعوة إلى توحيد البلاد العربية ، واستنكار تجزئة فلسطين ، وتأسيس مصرف عربى لمنع بيع الأراضى إلى اليهود ، وإنشاء جامعة عربية بالقدس .

وقد تكون حزب مصر الفتاة، وكان أول تنظيم سياسى مصرى يضع فى برنامجه التحالف مع الدول العربية(570) وكان هناك تجاوب بين حركة مصر الفتاة التى نشأت بمشروع القرش مستهدفة السعى لبناء الاقتصاد الوطنى ، بطريقة شعبية وإن كانت غير علمية، بجمع التبرعات ومقاطعة البضائع الأجنبية وبين حركة الشباب العربى لفلسطين الذى عقد مؤتمره الأول فى كانون الأول - ديسمبر - 1932 وبحث تشجيع المصنوعات الوطنية ، ومشروع صندوق الأمة ، وتنشيط الحركة الكشفية ، ودعا للوحدة العربية ، والذى طالب فى مؤتمره الثانى سنة 1935 بأن تقوم نهضة الشباب على أساس « الإخلاص لله والوطن » وهو شعار شبيه بشعار مصر الفتاة . كما دعا لتكوين جبهة واحدة من الأحزاب على غرار ما فعلت حركة الشباب فى مصر وقتها .

وهكذا نرى أنه كلما كان صوت فلسطين يعلو كان وجه مصر العربى ينكشف وتزداد بالمشرق التحامًا . كما أنه بقدر ما تقل الكتابات عن الفرعونية كانت تكثر الكتابات المشيدة بعروبة مصر ، وكما أدرك ميشيل عفلق وهو يتعرض لثورة 1919 فى مصر فى افتتاحية البعث عام 1957 أن سبب فشلها يعود لعزلتها عن العرب ، نجد أن عبد القادر المازنى يكتب فى عام 1935 : « فشلت الثورة المصرية لأننا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين . ذلك أنى أؤمن بما أسميه القومية العربية ، وأعتقد أن خطل السياسة وضلال الرأى أن تنفرد كل واحدة من الأمم العربية بسعيها غير عابئة بشقيقاتها » وفى مجلة الهلال كتب محمود عزمى يفضل رابطة القومية العــربية على جميع الروابط . واشـــتهر زكى مبارك ، صاحب ليالى بغداد ، بالكتابات القوميـــة التى دعا فيها إلى

القومية العربية والتوحيد العربى ، حتى صار يعرف بها . وزكى مبارك هذا من جيل الأساتذة المصريين الذين أعيروا فى الثلاثينيات للتدريس فى معـاهد العراق . وتركوا آثارًا لا تمحى .

وجاء إبرام الوفد لمعاهدة 1936 تزامنًا مع نشوب ثورة 1936 فى فلسطين التى استمرت ثلاثة أعوام، و« كان من آثارها إن نمت الاتجاه العربى فى مصر وتخطت السياسة المصرية - رسمية وشعبية- حدود إظهار التعاطف مع شعب فلسطين، وبدأت تتجه إلى مشاركة الفلسطينيين وتأييدهم فى نضالهم » وإذا كانت الفكرة العربية ماتزال مختلطة بفكرة الرابطة الشرقية عند حزب الوفد على لسان أحمد ماهر - قبل خروجه من الوفد إلا أننا نجدها تصدر على لسان مكرم عبيد «الزعيم القبطى» وعبد الرحمن عزام لا تخالف فى شىء عن كلام القوميين المشارقة . فقد كتب مكرم عبيد يدافع عن عروبة مصر مقالاً فى مجلة الهلال ، نيسان - إبريل - 1939 تحت عنوان « المصريون العرب » يقول إن الجهاد من أجل الحرية هو أساس الرابطة التى تجمع مصر والبلاد العربية . فضلاً عن روابط اللغة والتقاليد والخصائص الاجتماعية ، وذكر أن الوحدة العربية موجودة ، ولكنها فى حاجة إلى تنظيم و« الغرض من التنظيم إيجاد جبهة تناهض الاستعمار ، وتحفظ القوميات ، وتوفر الرخاء ، وتنمى الموارد الاقتصادية ، وتشجع الإنتاج المحلى، وتزيد فى تبادل المنافع وتنسيق المعاملات » . وكتب عبد الرحمن عزام « ... ولا شك أن الوحدة العربية تحت الظروف الحديثة ستبرز العنصر العربى متهيئًا بقوى جديدة ومميزات مضافة إلى تلك التى كانت له فى ظهوره الأول على الرومان والفرس وأمم الشرق والغرب منذ ثلاثة عشر قرنًا ... » وفى عام 1939 ، سعيًا وراء الاستفادة من قوى المحور الصاعد لمنافسة الاستعمار البريطانى عين على ماهر رئيسًا للديوان الملكى، ثم رئيسًا للوزراء، ورغبة فى الاستفادة من هذا التيار العربى وتوثيقًا للصلات به اختار معه للوزراة عبد الرحمن عزام ومحمد على علوبة كبير المدافعين عن ملكية حائط المبكى للعرب أمام لجنة عصبة الأمم ، وصالح حرب رئيس الشبان المسلمين ، كما اختار لرئاسة الجيش عزيز على المصرى ، أحد منشئى الجمعيات العربية فى الآستانة ، وكان لكل من هؤلاء صلته بالحركات السياسية العربية ونشاط فى هذا المجال .

وبمناسبة ما أعلنته بريطانيا بلسان إيدن تأييدها لفكرة إنشاء الجامعة العربية أعلن صبرى أبو علم لمجلس الشيوخ باسم مصطفى النحاس رئيس الحكومة : «إننى معنى من قديم بأحوال الأمم العربية والمعاونة فى تحقيق آمالها فى الحرية والاستقلال . سواء كنت فى الحكم أو خارج الحكم» ثم أوضح فكرة إنشاء الجامعة (البشرى ص 251 وهو ينقل عن محمد على الطاهر : ظلام السجن ص 574) ولا شك أن تصريح إيدن الذى كان مدعاة لانحثاث الدول العربية للاجتماع، وإنشاء الجامعة العربية لهو من قبيلة استباق تطور الأمور فى البلاد العربية ، وخشية أن لا يكون هذا التطور فى صالحها ، وهو أمر محتمل قطعًا ، ومن الخطل القول مع جورج طرابيشى : « إن الهدف من إنشائها كان على وجه التحديد حماية هذا الاستقلال » أى استقلال سبع دول عربية قريبة العهد بالفوز باستقلالها . فأى استقلال هذا الذى كان يتمتع به العراق أو السعودية أو مصر التى كانت ماتزال تعانى الاحتلال .. إلخ ، إن إنشاء الجامعة هدفه الحفاظ على كيان هذه الدول الإقليمية . حتى أنه لم يكن خطوة فى سبيل تحقيق الوحدة . ولأسباب كثيرة لم تتمكن من تأدية رسالتها . رسالة الوحدة بل تمكنت من الحيلولة حقًا دون قيام الوحدة . لأنه هكذا كان الغرض من قيامها ، وككل عمل تقوم به « البيروقراطية » العربية لم يكن همها فقط المحافظة على استقلالها هى والحيلولة دون تفجر قوى الجماهير باتجاه الوحدة الحقيقية ، وإنما الحصول على مكاسب . كما

حصل فى محاكاتها لهيئة الأمم فى الوظائف . فقد ثبت أن الوحدة التى قامت بين دولتين من دول الجامعة عملت دول الجامعة الأخرى على فصلها . ثم لا ننسى أن العالم - حين قيام الجامعة العربية - كانت تهب عليه رياح التحرر والانعتاق من الاستعمار .

وعليه أن قطرًا هذا موقعه كحبة العقد فى الأمة العربية ، وهذه هى أدواره ، فلا عجب أن يكتب عنه ساطع الحصرى منذ عام 1936 فيقول : « لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى إنهاض الدولة العربية . لأنها تقع فى مركز البلاد العربية بين القسمين الإفريقى والآسيوى منها . كما انها تكون أكبر كتلة من الكتل التى انقسم إليها العالم العربى بحكم السياسة والظروف ، وهذه الكتل قد أخذت حظًا أكثر من غيرها من الحضارة العالمية الحديثة، وأصبحت أهم مركز من مراكز الثقافة فى البلاد العربية ، وهى أغنى هذه البلاد بأجمعها كما أنها أقدمها فى تشكيلات الدول العصرية ، وأقواها فى البلاد وأرقاها فى الفصاحة .. وكل ذلك مما يجعل مصر الزعيمة الطبيعية للقومية العربية » .

وفى مجال التنظير الأحدث كتب ياسين الحافظ الماركسى يقول : « إن مصر هى بالأساس ، وهى وحدها قاعدة العمل الوحدوى : أولاً - إن مصر هى مركز الثقل البشرى فى الوطن العربى (فى مصر أكثر من ثلث الأمة العربية) وهى مركز الثقل الحضارى (مصر أول بلد عربى حقق تماسكًا مع الحضارة الحديثة) وهى نقطة المركز العربية جغرافيًا (مصر هى صلة الوصل بين مشرق الوطن العربى ومغربه) . ثانيًا - وفى مصر أيضًا الطبقة العاملة العربية الأكبر عددًا والأكثر تطورًا وراديكالية من أى طبقة عمالية عربية أخرى فى الوطن العربى - أى أن فى مصر بروليتاريا بالمعنى الماركسى للكلمة . ثالثًا - وفى مصر وحدها يتوفر شعب عربى مندمج ومتكامل . رابعًا - وفى مصر أخيرًا المشاكل الأكثر راديكالية والأكثر قابلية للانفجار الثورى - وعلى هذا فإن مصر هى على الصعيد التاريخى عتلة النهضة العربية المرتقبة وموقدها الثورى ، ومناط أملها فى التحرر من الإمبريالية والصهيونية ، ومعقد رجائها » .

وليس غريبًا على مصر أن تتبوأ هذه المكانة وتقوم بهذا الدور الملح اليوم . فهو لم يكن غريبًا عليها من قبل ، فجيوشها هى التى تحطمت أمامها موجات المغول فى عين جالوت ، وهى التى تحطمت فيها فى دمياط آخر آمال الصليبيين . وعندما سقطت بغداد أمام اجتياح المغول حملت قبائل العراق آخر الخلفاء العباسيين ولجأت به إلى كنف مصر . (جمال سرور - الظاهر بيبرس) وفى أيامنا لو انطلقت نهضة بغداد من مصر لما منيت بهذا الانكسار ، ولما أمكن محاصرتها هذه المحاصرة الشنيعة .

* * *

نقلة أخرى نحو الهدف

ثـورة 1919 المجهضـة

الفصل الثانى عشر : اعتقال سعد وربعه

اعتقـال سـعد وربعـه

بعضهم زعم ، من إسقاطاته أن الاعتقال كان سببًا فى ثورة 1919 ولكن حتى ذلك الحين لم يكن معروفًا عن سعد الدعوة لا للتذمر وللاحتجاج بله للثورة على الإنجليز ، ولا كان الشعب يرى فيه أملاً له . ففى 1921 كان سعد قد أصبح زعيمًا ، بل زعيم الأمة لا ينافسه فى زعامتها أحد ، وقد اعتقل إلا أن الشعب لم يحرك ساكنًا فى أى مكان . أما فى عام 1919 يمكن أن نقول أن الشعب كان ينتظر سببًا فوجده فى اعتقال سعد . وإذا كان فعلاً هو الشرارة التى أشعلت النار فقد كان الاحتقان فى صدر الشعب فى مصر طافحًا جراء تراكمات ما أحدثه الاستعمار ، وبخاصة إبان الحرب العامة .

وهكذا فإن الثورة لم تكن وليدة سعد ، ولا وليدة الوفد ، وإنما الأقرب إلى الصحة أنهما كانا كلاهما وليد الثورة . وللحقيقة يجب أن نفصل بين موقف سعد قبل الثورة وموقفه من الثورة بعد الثورة . فالثورة جعلت منه شخصية جديدة بما كان له من قدرة على الخطابة وتمرس عليها فى المحاماة والمعارضة فى الهيئة التشريعية ، وبما ورثه من اعتداد بالنفس .. وهذا ما كان يتوق إليه الشعب ويتمنى زعيمًا مثله . ولكنه لم يكن مهيئًا لغير هذا ، لم يكن معدًا ولا أعد نفسه لقيادة ثورة . فالثورة فاجأته . ويتضح من دراسة حياته وخطبه أنه لم يكن قد أدرك بعد العناصر المكوّنة للمجتمع فى مصر ويحس بنبضه . وواضح أن لعبة السياسة بين الاحتلال والقصر وبعض الفئات المشاركة معهما لم تكن مفهومة تمامًا لديه .

فالثورة التى بدأت فى القاهرة بمظاهرة طلاب سارت بنظام وسكينة تتقدمهم أعلامهم ، وهم يهتفون بحياة مصر وسقوط الحماية الإنجليزية ، وزادت حدة الإضراب فى اليوم التالى، وفى الثالث صارت أشد ، شارك سائقو التاكسى ، وتعطلت المواصلات ، وأغلق معظم التجار متاجرهم . ثم لكثرة المظاهرات واتساعها وتشعبها أصدر القائد العام أمرًا بمنعها وإنذارًا للمخالفين بالحاكمة . هذا نصه :

« جناب قائد عموم القوات فى القطر المصرى : بلغ الجمهور إلى أنه لما كانت البلاد لاتزال تحت الأحكام العرفية . فلا يجوز القيام بأى اجتماع عمومى أو أية مظاهرة ،وكل شخص يخالف هذا الأمر يحاكم بصفة مستعجلة » .

وراحت الدوريات تطوف الشوارع لتنفيذ هذا الأمر . فأطلقت النار على من صادفها . وعلّلت سلطات الاحتلال سقوط القتلى فى هذا اليوم ، أى اليوم الثالث . كما يلى : « نظم الطلبة مظاهرة يوم 11 الجارى فانتهز الرعاع (كذا كانت تسمى المتظاهرين) فى الحال هذه الفرصة للتدمير والنهب ، فتدخل الجنود ومنعوا هذا العمل ، وحدثت مشاغبات صغيرة مختلفة فى هذا اليوم والأيام التالية قمعت بأقل ما يمكن من استخدام القوة ، فلم تحدث غير ست وفيات ، وإحدى وثلاثون إصابة منها 22 بنيران البنادق » .

وكان هذا البيان كاذبًا ، كما كان التعليل : لأن الطلبة احتاطوا للأمر منذ اليوم الأول فأذاعوا بيانًا يدعو إلى تطمين الأجانب ، واعتبارهم إخوانًا ، ويدعو إلى عدم الإساءة بأى عمل وعدم الإخلال.

وتوالت المظاهرات فى الأيام التالية ، وتوالى وقوع وحدوث الإصابات وشملت الموظفين ثم المحامين وتوجتها مظاهرات النساء التى حياها شاعر النيل ، حافظ إبراهيم .

وامتدت الثورة إلى الأقاليم حتى شملت مصر كلها ، وفى تقرير اللنبى (2 يوليو 1919) أن عدد شهداء الثورة حتى تاريخ كتابة التقرير بلغ 800 قتيل و1600 جريح ، وهى أرقام أقل كثيرًا من الواقع . غير المحكومين بالإعدام والسحن . كانت تنطلق عفويًا ، ذاتية التنظيم ، لم يلاحظ صدور أى تنظيم لقيادة نصبت نفسها أو دعيت . كما أنه لم يلاحظ غير الشعارات التى رفعها المتظاهرون منشورًا صدر أو بيانًا . على العكس انتشرت المطبوعات والصحافة السرية التى كانت تحمل الحملات الشديدة على الإنجليز وعلى الوزارة وعلى السراى ، وصار للطلبة جريدة سرية باسم (المصرى الحر)(571) .

ولها مطبعة سرية خاصة ، كان الناس يتلقفونها بلهفة ، ويتبادلون الإطلاع عليها ، ويتناقلون معلوماتها . لأن الصحافة كانت مقيدة لا تنشر إلا ما تأذن به الرقابة ، مما دعا السلطة العسكرية إلى مقاومة هذه الحركة بإصدار قرار بمعاقبة من يشترك بإخراج نشرات أو توزيعها .

* * *

وكانت الظروف تدعو إلى تشكيل قيادة للثورة ، كما تشكلت لجان لتعويضات الحوادث.. وكان ما يجرى هو العكس إصدار نداءات بالتهدئة . وظل سعد والوفد محافظين على ما استنوه منذ البداية للوفد من مهمة : « السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجد للسعى سبيلاً .. » علمًا بأن هذا الأسلوب لزحزحة السلطات البريطانية ذلك الوقت كان عقيمًا . فلم يذكر عن الاستعمار ، فى طول الدنيا وعرضها ، أنه تخلى عن مكسب أو مطمع برضاه .

وهكذا فإن « الوفد » الذى تشكل - بصرف النظر عن صيغة تشكيله - المزرية المتهافتة ، فى مناخ مفعم بالثورة ومشاعر القهر والنقمة والتحفز للثأر .. راح يسلك أسلوب الملاينة ، بالنداءات لتهدئة الثورة ، كأنما يخشى المغبة ويخاف من المزيد ، بدلاً من أن يجعل الملاينة هى سلوك الخصم المغتصب . انقلب الحال : مصر المقهورة ، المغتصبة يستجدى قادتها الحق ، بينما تدعمهم الثورة فى كل مكان ، ويحيطهم انفراج دولى ، والادعاءات بالتحرر والتحرير ، تقف قبالتهم متعنتة، إنجلترا الغاصبة ، الخارقة منهكة من حرب عامة تظهر بمظهر المانح ، الواهب .

لذلك نراها أثناء ثورة الشعب المصرى وهى فى أوج اشتعالها من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال تشكل « لجنة » وتعلن عن مهمتها فى انتقالها إلى مصر ، لدراسة الأوضاع وتقترح العلاج . وإلى هنا لا غرابة . ولكن الغرابة أن ترسل إلى بعض « الأعيان » فى مصر نشرات مطبوعة تتضمن عدة أسئلة ، طلب إليهم فيها الإجابة عنها لعرض الأجوبة على اللجنة يلخصها الرافعى بما يلى :

1 - ما هى الحوادث التى دفعت الفلاح المصرى فى الحوادث الأخيرة إلى الهياج ؟

لقد كتب كثيرًا عن بلادة الدولة المستعمرة وجهلها وتجاهلها لمطالب الشعب الخاضع لاستعمارها ، وأن هذه المستعمرة تعرف وتتقن ، وهى بارعة كل البراعة فى حسن تنفيذ ما جاءت من أجله . فإنجلترا تعرف أنها افتعلت فتنة الإسكندرية ذريعة لعرقلة مسار عرابى فى الحكم ، وهى تعرف ماذا يؤدى لها الحصول على مصر من دور لإمبراطوريتها ؛ وهى تعرف ألوان الاستغلال التى

تفيدها من وجودها فى مصر ... إلخ . ولكنها تجهل وتتجاهل طبيعة حكمها لمصر، وأنها أجنبية ، غريبة ، مغتصبة ، وأنها مهما فعلت من تمويهات واختلقت من أعذار وأسباب وهوّنت من شأن أمور حكمها .. فإن أول عثرة يصادفها الشعب المحكوم عليه تفطّنه بوجودها فيرد إلى هذا الوجود جميع مصائبه .

ففى خطبة اللورد كيرزن وزير الخارجية بمجلس العموم ، فى 25 نوفمبر - تشرين الثانى - 1919 قال : « إن الفلاحين وهم نحو تسعين فى المائة من مجموع السكان يتمتعون برغد لم يسبق له مثيل ، مما أنساهم عواصف الفترة التى مرت بهم أثناء الحرب .. » ، مفترضًا أن هؤلاء الفلاحين فد نسوا مصادرات الإنجليز لغلالهم على قلتها بالأسعار التى شرطوها ، وشقاء المليون عامل منهم الذين كان الاحتلال يتصيدهم أثناء الحرب للعمل فى ساحات القتال .. ويفترض أيضًا أن هؤلاء الفلاحين يجهلون الاحتلال فيما هم بالفطرة يعرفون معنى وجود الإنجليز فى مصر . ويعرفون أن الإنجليز فى مصر يختلفون عن غيرهم كالهنود والفرس والأحباش والزنوج . فإن كلابهم كما يقول النديم لم تنبح قط أحدًا من هؤلاء ، وإنما كانت تنبح الأوروبى . لأنهم يعرفون غرض الأوروبى من مجيئه إليهم . إنه يختلف ، فلم يقصد يومًا من الأيام هذه البلاد مسالمًا .

ثم يمضى اللورد كيرزن فى خطابه كاشفًا دور بريطانيا فى مصر فيقول : « .. ولم يكن اللورد اللنبى قد وفق إلى اختيار خلف لوزارة رشدى باشا ، وبعد ذلك بأيام قلائل تقلد محمد سعيد باشا الوزارة ، التى سبق له تقلدها من سنة 1910 إلى 1914 فألف إدارة مصرية ، وكانت مهمته الأولى إعادة النظام والسكينة فى البلاد التى كانت لاتزال مضطربة بآثار الثورة الفجائية..».

إذًا كانت السلطة تسعى فى التفتيش وفى اختيار « رئيس الوزارة » لمصر ، للمندوب السامى البريطانى اللورد اللنبى ، رئيسًا للوزارة اسمًا ورئيس إدارة حقيقية . ومن حيث الشكل فإن الخديوى أو السلطان هو الذى يعلن للشعب أنه اختار شخصًا ليشكل الوزارة . ولا فرق فى التنفيذ بين الخديوى أو السلطان أو الملك وحاشيته والفئات التى تدور فى فلكه وبين الإنجليز ، السلطة الوافدة التى « تحمى » مصر . « وهذه الحماية هى مصلحة مصرية ، وهى أيضًا مصلحة بريطانية ، ذات أهمية رئيسية ولا يوجد إلا قليل من الناس ينكرون أنها كذلك مصلحة تهم العالم أجمع ، ولا ضمانة لمصلحة العالم أفضل من بقاء مصر تحت إشراف دولة عظيمة متمدنة ..» على نحو ما حددها اللورد كيرزن فى خطابه بمجلس العموم .

2 - ما رأيكم فى اشتراك الأجانب فى التشريع ؟

3 - ما هى حالة النظام النيابى الحالى والتعديلات المرغوب فيها لتوسيع اختصاص الهيئات العامة والإصلاح الإدارى ؟

4 - أسئلة تتعلق بمجالس المديريات ونظام تأليفها وسلطتها والتعديل المطلوب لها .

5 - أسئلة عن نظام البلديات وما يراد إدخاله عليها من الإصلاحات .

6 - التعليم ووسائل ترقيته وأسباب الشكوى منه .

كأنما هى بذلك تستفتى فى صيغة حكمها .

ولم يصدر عن « القيادات » المنتظرة ما يشير إلى أن مبدأ الاستفتاء يجب أن ينصب على وجود الإنكليز أو عدم وجودهم . كأنما كان وجود الإنكليز لحماية مصر أمرًا مسلمًا به .

وكان اعتراف الرئيس ويلسن بالحماية البريطانية على مصر أول اختبار لمصداقية المبادئ الأربعة عشر التى أعلنها رئيس الولايات المتحدة الأميركية من على منبر أمام جورج واشنطن مؤسس أمريكا . إيهامًا بأن ثمة مبادئ إنسانية وأخلاقية جديدة سوف تحكم علاقات الشعوب لتقرير العدل مع إطلالة أمريكا على العالم . أحيت الآمال ورفعت المعنويات فإذا بها خلّبية ، تضليلية ، لأكبر كذبة فى تاريخ أمريكا .

ولشدة فرحتها بذلك بادرت « دار الحماية » إلى إذاعة هذا الاعتراف فى بلاغ بتاريخ 22 إبريل (نيسان) 1919 أوردت فيه الكتاب الذى تلقته من معتمد الولايات المتحدة الأميركية فى القطر المصرى ، وكأنما تريد أن تقول : أرأيتم ؟ رأى أمريكا لا يختلف عن رأينا .

لم تكن صيغة « التوكيلات » المزرية لتؤدى إلى استقلال مصر . لا ولا إلى أدنى حق تتمتع به أمة تعتز بكرامتها ، مهما أدت من التضحيات . فلم تكن صيغة التوكيلات تؤهل إلى أكثر من الاستجداء ، إذا شاءت الدولة الحاكمة أعطت. إذ لا حول للوفد ولا قوة . جميع السلطات صارت بيد الإنجليز . فإذا تنازلوا فى المفاوضات عن شىء ، لا يمس جوهر هذه السلطات اعتبروه منحة . والغريب أن « الوفد » نجح نجاحًا باهرًا فى مقاطعة « لجنة » ملنر ، ولكن إذا بنا نراه ، خارج مصر ، يتفاوض معها ، ويكاد يصل إلى عقد معاهدة ، ثم يظهر أن أمر المفاوضة لا يعدو كونه اختبارًا . يتوهم سعد ومن معه أن الوضع فى البلاد تطور والعلاقات تغيرت فى حين لم يتغير غير التعابير والواقع وراءها مازال كما هو . ففى نفس الوقت الذى توهم فيه سعد ورفاقه أن الظروف آخذة بالتغيّر كان الواقع خلفها يسير سيرته الطبيعية بين الاحتلال وبين السلطان فؤاد ، رأس الحكم فى البلاد . فعندما رزق السلطان فؤاد (الملك فؤاد الأول) وليًا للعهد ، هو الأمير فاروق (الملك فارق الأول) وفت السلطات الاستعمارية وعدها بمناسبة وعدها بوضع نظام لولاية العهد فى كتاب ، قال الرافعى أن اللورد اللنبى « رفعه » إلى السلطان بمناسبة تهنئته بولى العهد مؤرخ فى 16 إبريل (نيسان) 1920 نشرته «الوقائع المصرية» فى عدد غير اعتيادى فى 17 منه ، وفى الحقيقة أنه أبلغه قرار تملك بريطانيا بنظام العرش ، فأرسل السلطان فؤاد لبرقية شكر فى ذلك بنفس اليوم .

* * *

وهكذا بدا واضحًا أن ثورة 1919 ، آلت إلى سلطته فملكيته وولاية عهد .. وبالتالى إلى تحقيق نهائى « لحكم » محمد على .. واستقرت « القيادة » المفترض أنها قيادة الثورة ، فى «وفد» نال شرعيته بتوكيل عام يمنحه الحق بتمثيل الأكثرية ، وراح يستعيد الفرص لتولى الحكم، ويماحك خصومه فى أحقيته هو بمفاوضة الإنكليز لا هم . هذه هى الحدود القصوى فقط .

واكتسب الإنكليز شرعية وجودهم واحتلالهم ، وكشفوا فى قول اللورد ملنر لسعد عن أسباب دعمهم لمحمد على منذ مائة عام : « ... نحن نبحث عن مصر منذ أكثر من مائة عام ، وهى الآن فى قبضتنا فعلاً ، ونريد أن يكون مركزنا شرعيًا بقبولكم .. » .

كان « الوفد » يفاوض بأمل الحصول على « الاستقلال التام » وكانت إنجلترا تهدف من المفاوضة كما قال اللورد ملنر لسعد : « .. إننا الآن فى مصر واضعون يدنا على كل شىء ، ونريد أن نتخلى عنها فى مقابل شىء واحد ، وهو أن تعترفوا بمركزنا فيها ، لأنه الآن فعلى ، ونريد أن يكون شرعيًا ، مستندًا إلى قوة عسكرية ، نحن نبحث عن مصر منذ أكثر من مائة عام.

وهى الآن فى قبضتنا فعلاً ، ونريد أن يكون مركزنا شرعيًا بقبولكم »(572) . ومؤدى هذا الكلام يذهب بنا إلى مصدر تأييد محمد على فى سعيه للاستقلال بمصر .

لا شك أن منطق سعد وحجته أقوى كثيرًا من المفاوض البريطانى . لأنه يمثل أصحاب البلاد والمعتدى عليهم . إلا أن سعد اختار الوسيلة الضعيفة ، ولم يكن يعرف بالتأكيد ولا يتوقع أن يكون موقف البلاد بهذا الزخم . فإن أحدًا فى إنجلترا ولا فى الفئات الحاكمة فى مصر كان يتوقع أن يثور الشعب المصرى الهادئ ، الوديع ، وأن تكون ثورته بهذه العزيمة وبهذه الجرأة فى وجه إنجلترا المنتصرة ، تعم الثورة كافة الأقاليم بهذا الغليان العارم . بينما السلطات البريطانية ماضية فى غيّها والمفاوض البريطانى مصر على أن يبقى هو الطرف الوحيد « صاحب الحق والصفة مع الدول بشأن تعديل الامتيازات فى مصر - أى دوام الاعتراف بحماية 1914 »(573) ، أى بداية الحكم البريطانى ، وفى الفترة التى اســتولت فيها إنجلترا على زمام الســلطة ، بعد انكسار عرابى قامت بإجراءات لا حصر لها للتملك ، منها مثلاً الأمر الصادر من القائد العام فى 19 أغسطس (آب) 1919 القاضى بأن تكون 562 فدانًا فى أبى قير بحيازة وزير حربية إنجلترا وملكًا له بصفة مستديمة لأغراض عسكرية(574) .

إن زعامة يدعمها شعب بهذه الحيوية والاستعداد للتضحية لا يليق بها سلوك هذا المسلك التخاذلى ، الاستجدائى . فعدوانية كعدوانية الإنجليز التى وقعت عام 1882 ، بعد سبق الإصرار والتصميم فكيف يمكن لاستعمار هذا شأنه أن يتنازل ، وهو يعلم أن سلسبيل الحياة الذى يغذى بقاءه يقع وراء مصر ، ومصر طريقه إليه . شىء واحد هو سبيل مصر إلى حقها ، هو شعور إنجلترا أن هؤلاء « المتمصريين » الذين أمامها ، يفاوضونها « ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة .. » على نحو ما سوف يدرك جمال عبد الناصر فيما بعد . فإنجلترا تعلم علم اليقين طبيعة الحكم فى مصر . إذ هى شاركت فى تركيبته : هى تعلم أن الخديوى طوع بنانها والحلقة المحيطة به خادمة مطيعة لها . وهى قادرة فى كل وقت على تفريقها . لذا ما إن بدا للخديوى والإنجليز أنه أخذ يغير اتجاهه ويلتفت بأنظاره نحو الشعب ، بتأثير رذاذ الثورة ، وربما هبوب نسائمها من أجواء مختلفة من العالم ، جعلت النشوة فى جوانحه والناس من حوله تتحرك . فإذا ببيت سعد يصبح بيت الأمة .. وإذا بزعيم « الوفد » يصير زعيم الأمة .. وإذا كان بيت سعد هو بيت الأمة.. وإذا كان سعد هو زعيم الأمة . فما هو مقام القابع فى قصر عابدين إذًا ؟

لم يكن من الصعب على الإنجليز ولا على من يحكم باسمهم ، الخديوى وحاشيته - ما دامت هدّئت الثورة وأطفئت نيرانها - ان يشقّوا الصفوف . وجاء شق صفوف « الوفد » أول ما جاء بإظهار عدلى يكن ليكون مفاوضًا مقابل سعد . وعدلى يكن أقرب إلى الأسرة الحاكمة منه إلى الباشوات. حتى ، وبعيدًا عن أن يفكر بالشعب . حين صار سعد يشكل خطرًا بمغازلة الـ « تسعين بالمائة » من أهل البلاد التى قال عنها كيرزن وزير خارجية إنجلترا إنها ناقمة - ببعض العبارات فى خطبه مما لا يجوز التفوه بها ، مع أن سعد كان حتى آخر أيامه مايزال بعيدًا عن اندماجه بالشعب والأخذ بثورته ، وإدراك ما أدركه عرابى من تركيبة الحكم . ولا نظنن أن قولته الشهيرة التى وصم بها مفوضات عدلى يكن إن « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » تذهب فى مدلولها بعيدًا، ولم يكتف بذلك . بل راحوا يقيمــون فى وجهه العقبة تلو الأخرى فلا يخــرج من « مطب » إلا ويقع فى آخر .

وفى عام 1923 كان قد أصبح ممكنًا للحكم فى مصر أن ييسر وضع دستور ، ويدعو إلى انتخابات ، إذ كان قد تخرج من « مدرسة » محمد على عدد وافر ممن يضمن تعاونهم وتنفيذ أغراضه ، ويعمل بتنافساتهم على تصديع وحدة الشعب وإشغال الشعب بالمنافسات والتوظيفات والمناصب فى الحكم عن أمانيه ، وقد تحقق للخديوى (الملك فؤاد شقيق توفيق) وللإنجليز ما أرادوه من ذلك . فتصدعت وحدة الشعب التى زلزلت كيان بريطانيا عام 1919 وصار الشعب أحزابًا وشعبًا يكيد بعضهم لبعض ، ويتربص بعضهم لبعض وشغلهم الصراع على المناصب عن الكفاح لتحقيق الاستقلال ، ورأى فؤاد (الملك) الفرصة مناسبة له ليسترد الدستور سنة 1930 الذى أعلنه 1923 ، ليعود إلى نوع من حكم الفرد مموه بعنوان دستورى زائف فأعلن إلغاء الدستور ، واستبدل به دستورًا آخر لا يحقق لشعب سلطة ولا سيادة ، وقهر البلاد بالعنف على الاستسلام والرضا ، وفرض عليها حكومة استبدادية تنتحل صفة دستورية زائفة بضع سنين ، ولكن الشعب لم يخضع ، ولم يتخل عن مثله العليا وأمانيه القومية التى يكافح فى سبيلها منذ سنين ، فما هى إلا أن أتيحت له الفرصة فى سنة 1935 حتى ثار ثورة حاطبة ، مطالبًا بعودة دستور 1923 . وطأطأ فؤاد رأسه للشعب . كما طأطأ أخوه من قبل للثورة العرابية ، ورد للشعب دستور 1923 ودعاه لانتخاب ممثليه فى البرلمان على النظام الذى يرتضيه ..

ولكن كما كان خضوع توفيق فى سنة 1881 تمهيدًا للاحتلال البريطانى فى سنة 1882 ، كان خضوع فؤاد من بعد تمهيدًا لمعاهدة سنة 1936 التى تربط مصر إلى عجلة بريطانيا رباطًا أبديًا لا فكاك منه . فعلى أثر عودة الدستور تألفت الجبهة الوطنية التى تضم زعماءالأحزاب جميعًا ، لتدخل مع بريطانيا فى مفاوضة جديدة لحل المسائل المتعلقة بين البلدين انتهت هذه المفاوضات إلى المعاهدة الأبدية ، التى مزقتها الثورة الشعبية بعد ذلك ، وأكرهت الإنجليز على الجلاء الذى لا رجعة فيه !(575) .

لم تتشكل الجبهة بدوافع ذاتية من « زعماء » البلاد ، رغم حاجة البلاد الملحة لاتفاق كلمتهم فى وجه جبروت المستعمر . وإنما جاءت تحقيقًا لضغط لجان الطلاب التى طافت ببيوتهم بعد ما كانت تطوف بالشوارع هاتفة حتى بحت حناجرها بوجوب الاجتماع والتصافى للمطالبة باستقلال البلاد ، لا « بانتزاع » هذا الاستقلال ، انتزاعه ، انتزاعًا ، فهذا ما تقصر عن التفكير به عقولهم حتى بينهم وبين أنفسهم . والذى كان يعكر هذا التصافى بين قادة الأحزاب لم يكن خلافًا على كيفية معالجة الفساد فى الحكم والإدارة ومعالجة « الخلل » الحائق بالبلاد بين الفلاحين، أهالى البلاد وبين الطبقة المالكة وغالبيتها وافدة .. ولا على كيفية معالجة النقص فى المدارس والمستشفيات والمستوصفات ، والبطالة ، بل والتسول فى بلد أغنى بلاد الله .. وإنما الخلاف على أى من الأحزاب أحق بوظائف الدولة . فمنذ أن أرخت بريطانيا قبضتها فى مصر للحكم المحلى أن يتطور من « خديوية إلى سلطنة إلى ملكية » ، ونشوء « أحزاب » ، .. لم يعرض هذا « الحكم المحلى » برنامجًا يتضمن تلبية لحاجات الشعب كله .. كان فى حقيقته يعنى بفئة لا بالكل .

تلك هى الصورة الظاهرة ، ولكن ثمة صورة أخرى لم يلتفت إليها . سعى إليها كشف جانب منها محمد التابعى ، باتصاله ببيرم التونسى فى منفاه فى باريس تظهر ما آلت إليه البلاد .

أجاب التونسى على سؤال التابعى من موطن تشرده فى باريس قال :

وإذا اندلعت الثورة بدون أن تكون لها قيادة تخطط وتعرف ماذا تريد وظلت كذلك . وهذه الثورة من النوع الذى لا يبقى ولا يذر ، « تركها الإنكليز تتأجج وتتآكل إلى أن يخمد أوارها ثم يعالجونها بالطرق الناعمة .

وإذا أيقن الشعب أن أمانيه الوطنية أصبحت فى يديه قال الإنكليز : نعم، وها هو سلطانكم المستقل وبرلمانكم . وما عليكم إلا إرسال السفراء والقناصل إلى جميع نواحى العالم » .

وكانت جريدة المقطم لسان القائد العام الإنكليزى بدأت تتحدث عن الأمير فؤاد ، والذى سوف يسند إليه منصب خطير فى الدولة المصرية .

وتساءل الناس عن الأمير أحمد فؤاد . لأن رجال ذلك البيت وأميراته لم يكونوا يومئذ موضوعًا تخوض فيه الصحف إلا بقدر معلوم .

فقال القائلون :

- آه ! أحمد فؤاد المقامر الذى لا ترحب به أندية القمار لأنه مفلس ، ولا يسدد ديون القمار .

- أحمد فؤاد الذى يركب الحنتور ولا يدفع للحوذى أجرته .

- أحمد فؤاد الذى يفتح منازل أصدقائه ليلاً ويطلب الطعام .

* * *

ولكن مثل هذا الشخص هو المبتغى لدى الإنكليز ليكون سلطانًا ، فما لبث الناس أن رأوا الذى كان يتساءلون عنه سلطانًا . ثم أعلنت جريدة المقطم لسان القائد الإنكليزى عزم السلطان « التقى » على الزواج ، ودقت طبول العرس بين ضجيج المعارك القائمة بين البوليس بقيادة ضباطه الإنكليز وبين جماعات الشعب فى كل عاصمة وقرية .

وأخذ الناس يتحدثون عن العروس نازلى وأسرتها وجدها الأول ، وكيف خطفت وكيف حبست وكيف هربت . واختلطت أحداث الناس عن زواج السلطان بأحاديثهم عن بطولة البلاد التى قامت فيها الثورة .

ما أشجع طنطا .. وما أعظم وطنية دمنهور .. ولله در أسيوط ومدن الصعيد ..

ولم بسمع ، بيرم التونسى من يقول (الله در الأنفوشى) وهو مسقط رأسه فى حى رأس التين .. وفيه يعيش منذ خمسة آلاف عام أرذل أنواع البشر كما قال علماء الشعوب .

ولم يكن ، كما قال ، من هواة تحطيم المصابيح واشتعال النار فى الترام . لأنه لا يحب أن نموت « فطيس » برصاصة عسكرى ، على حد قوله .

ولكنه يريد أن تشارك فى الثورة . وطبق فرخ الورق « جاير الجاير » على ثمانية أوجه وسماه « المسلة » .. ولما كان بدون رخصة كتب فى الرأس « المسلة .. لا جريدة ، ولا مجلة » .

ولكن ماذا كتب فى « المسلة » وهو لا يعرف شيئًا فى الدساتير أو فى السياسة ؟

سلكت طريقة فتوات الأنفوشى عندما يقررون هدم العرس ، يكفى أن تحطم الكلوب أو تضع لغمًا تحت « الموتور » الذى يدير المصنع .. لكى يمسى العرس فى ظلام دامس ويتعطل المصنع كله عن العمل .

و« الموتور » هو السلطان أحمد فؤاد . والمناسبة حاضرة ، وهى قصة نازلى وما يقال عنها . وعن ظروف زواجه بها .. ومن هناك كانت افتتاحية « المسلة » وهى على وزن أغنية سورية كانت جاءت حديثًا إلى مصر وانتشرت فيها ومطلعها :

مرمر زمانى .. يا زمانى مرمر .. قلبى تولع فى هواك يا الأسمر .. ولها نغمة عذبة مرسلة فلم تحتج الثورة .. البامية السلطانى .. إلى ملحن أو موسيقار . وهى الأنشودة :

البنت ماشية من زمان تتمخطر

والغفلة ذراع فى الديوان قرع أخضر

يا راكب الفيتون وقلبك حامى

اسبق على العتبة وطير قدامى

تلق العروسة سعد محمل شامى

وجوزها يشبه فى الشوارب عنتر

البامية فى البستان تهز القرون

وجنبها القرع الملوكى اللطيف

والديدبان يرمح يجيب الزبون

ورب الجارية تجيب الغيف

شوف الميراث حصل ولا البطون

ودخل الأغراب (فاميليه) على

يابا ديشاه دنت ابنتك ظهر

ربك يبارك لك فى عمر الغلام

نزل يلغط تحت برج القمر

يا خسارة بس الشهر كان مش تمام

* * *

وافترق الطريق الرسمى عن الطريق الشعبى ، إلا أن القصة لم تكتمل . فعندما افتضح أمر حبّ الملكة نازلى ، بنت شويكار حفيدة محمد على لرئيس ديوان ابنها ، أحمد حسنين قامت زوجته لطيفة ، وهى أيضًا حفيدة محمد على بجمع أشعار بيرم التونسى وطبعها فى كراس وتوزيعها على أوسع نطاق .

وألقى البوليس القبض على بيرم التونسى ، ووضعوه على ظهر باخرة مسافرة إلى فرنسا وبقى بيرم التونسى فى المنفى نحو عشرين عامًا إلى أن قامت ثورة 23 يوليو وجاء حكم الشعب.

الحقائق فى زعامة سعد زغلول

لم يكن سعد زغلول – مع كل الاحترام والتقدير لدوره بل والإعجاب – مؤهلاً لقيادة ثورة – لا بمنشئه ولا بثقافته ، ولا بتطلعه . كان زعيمًا ، مؤهلاً ، شامخًا ، لقيادة الفئات التى هيأها محمد على وأسرته لتكون صمام أمان لبقائهما ، وقد حاول مؤرخو سيرته أن يسقطوا عليه تمنياتهم جزافًا. كانوا يقولون مثلاً ، أنه « خرج من بين طبقة الفلاحين، الذين كان الظلم يطحنهم بكلكله .. » والحقيقة أنه كان من أسرة تتمتع بالثراء ، ابن عمدة ، أدى به الحراك الاجتماعى إلى الصفوة ، ربى يتيمًا لا يخالط أبناء قريته ، فأبوه كان من أكبر أصحاب الثراء فى قريته الثرية التى كان يؤمها المصطافون قبل حركة الاصطياف ، يملك مائتى فدان ، وبيتًا فسيحًا له منظرة تتسع لأكثر من مائتى زائر، يمثل إقطاع العصور الوسطى، من حيث ثرائه وزعامته على أبناء بلدته. فهو يفرض عليهم زعامته وحمايته . ومساعدته فى نظير انطوائهم تحت لوائه وتقديم الخدمات له . لذلك نشأ سعد إلى قوة شخصيته واعتداده بنفسه متعاليًا لا يشارك لداته من الأولاد بألعابهم ؛ وأمه ، ابنة الشيخ عطية بركات ، من أغنى الأغنياء فى إقليمه بالصعيد، وأعظمهم جاهًا واحترامًا لدى الحكام الأتراك خاصة ، ويصدق القول على سعد فى نشأته أنه جمع المجد من أطرافه . ولكنه لم يعرف عنه الشعور بالتمرد أو الرغبة فى التغيير ، ومن الكتاب الذى وضعه طالبًا بالأزهـــر ومن المقالات التى كان يدبجها تحت إشراف الشيخ محمد عبده فى القسم الأدبى بالوقائع المصرية لا يحس المرء بنفس التجديد كثيرًا ولا يلمس منها أنه كان ذات يوم يسير فى تيار الثورة العرابية يحس قارؤه ومتتبع تطوره طموحًا لديه لا حدود له إلى الترقى والتفوق والكفاءة . وهذا ما برهن عليه ، فى دراسته وفى سلوكه ، فى الوظيفة وفى المحاماة، وفى القضاء، وفى الوزارة، وفى الجمعية التشريعية ، وفى رئاسة الوفد . ضمن تيار المياه الجارية . وحتى لا نظلمه أو نسقط عليه صفات ليست فيه . فإنه كان « إقطاعيًا » بين إقطاعيين لا يقبل إلا أن يكون الأول . عينه دومًا على السلطة وعلى الجاه . فمن يعرف طبيعة الحياة فى مصر يفهم لماذا فضل سعد الوظيفة بمرتب قدره أربعون جنيهًا على مهنة محامى يدر فيها مكتبه عليه أكثر من خمسمائة جنيه بالشهر . ويفهم أيضًا لماذا كانت تشغله صداقات الأمراء والأميرات أكثر من أى شىء آخر. فهو ابن الشيخ إبراهيم زغلول، وجده لأمه الشيخ عبده بركات وصهره رئيس الوزراء . كانت أنظاره تشده إلى الأعلى، ويرى نفسه فى هذا الوسط أنه الأكفأ أو الأجدر، ولم تنشر الثقافة بعد التى يمكن أن تقدم مؤشرات على فساد هذا الوسط وإفساده، وعلى العفن الذى ينخره من الداخل . كما أنه لم يستلهم بعد ، ليعد منشئه ، أن مصدر القوة ومصر السلطة التى يتوق إليها هو الشعب ، الوسط الأدنى، ولسوف يلتفت آخر أيامه؛ فالذين يسقطون على سيرته صفات الفلاح كعرابى لا يحالفهم الصواب . لقد نشأ إقطاعيًا لديه فلاحون لا فلاحًا وشتان بين النشأتين .

وقبل عام 1919 لم يسمع له صوت يرتفع بانتقاد سلطات الاحتلال . ومرت حادثة دنشواى التى أدت إلى نقل كرومر ولم ينبس ببنت شفة . وعندما أعفت بريطانيا اللورد كرومر من مهمته فى مصر بسبب الضجة التى أثارها الزعيم مصطفى كامل كان سعد أحد ثلاثة أو أربعة فى مصر أقاموا له حفلة وداع تكريمًا له . وولى نظارة المعارف (وزارة التربية والتعليم) ولم ينقل منها دانلوب الذى ينفذ سياسة إنجلترا فى عزل مصر عن العالم العربى ، وبقيت مقررات التعليم على

حالها كما وضعت فى زمن كرومر ، وبقى كتاب « سفيدج » فى تاريخ مصر هو المقرر فى المرحلة الإبتداية ، وولى وزارة الحقانية « العدل » ولم يخلف لا فى هذه الوزارة ولا فى التى قبلها أثرًا بارزًا ، يشار إليه ، يختلف فى ولايته عن غيره ، اللهم إلا استقالته من الوزارة الأخيرة بسبب انتصافه لأميرة من أميرات الأسرة الخديوية من القيِّم على أملاكها ، لا لقضية شعبية . ورضى أن يكون وكيلاً للجمعية التشريعية التى مسخ بها الخديوى عباس وسلطات الاحتلال مطلب البلاد فى إيجاد دستور ، ولا يمكن أن تخفى عليه بأنها تمويه . صحيح أنه تميز فى مناقشاته للحكومة ولكن تمييزه مكان فى سياق الحكم لا خارج تياره . ولم تكن الجمعية التشريعية تخفى عليه بأنها تمويه للديموقراطية . وليست ديموقراطية ، ولعل فقرات من بيانه الانتخابى تلقى ضوءًا على انتمائه حينئذ ؛ فقد جاء فيه :

«.. أقرأ فى الجرائد عبارات الشكوى الدائمة من سكان العاصمة «القاهرة» ولاسيما سكان الشوارع الوطنية .. تارة من قلة النور وتارة من قلة الكنس والرش ، وتارة من قلة التنظيم والرصف .. فإذا انتخبت عضوًا فى الجمعية التشريعية فإنى لن أدخر وسعًا فى عمل ما أستطيع عمله ، ضمن الحدود القانونية لحمل الحكومة على إزالة شكوى الأهالى من هذا القبيل ..» .

حينئذ ، عام 1913 كان فى مصر ، أقل من أحد عشر ألفًا من الأثرياء الكبار . يمكن تسميتهم بالإقطاعيين يملكون وحدهم سبعين فى المائة من الأراضى الزراعية . وكان فى الريف المصرى أحد عشر مليون فلاح لا يملكون سوى أجرهم اليومى ، ولم يكن يزيد فى أحسن الأحوال على ثلاثة قروش وهى بالكاد تقيته . وكان العمال وغالبيتهم فى مجال الخدمات حوالى ثلاثة ملايين يعيشون تحت ظروف قاسية .

كان ها هنا الوجه الحقيقى لمصر . ولم يكن فى تلك الشوارع التى يعنيها ، وجمع المحلات فيها أجنبية .. ما بين إنجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية ويونانية .. حتى دور السينما والمطاعم ومحلات الحلوى ، ومحلات الفاكهة كلها أجنبية .. ولم يلفته أى شىء من هذا .. !

ومع أن هذه الجمعية التشريعية جاءت مسخًا للمطلب الشعبى بدستور ما لبثت أن تأجل انعقادها بسبب الحرب العالمية الأولى ، ولم يعلن اعتراضه. بينما الدول المتحاربة نفسها لم توقف انعقاد برلماناتها ، وهى برلمانات حقيقية لا مسخ فيها ؛ وصار عقد هذه الجمعية يؤجل المرة تلو المرة ، إلى أن تأجل انعقادها إلى أجل غير مسمى ، ولم يطل عمرها الحقيقى أكثر من خمسة أشهر. وعندما انتهت الحرب العامة كانت ما تزال - شكلاً - قائمة . وكان سعد ما يزال، اسمًا، وكيلاً للجمعية التشريعية ، ولعله كان أيضًا يقبض راتبه مع على باشا شعراوى وعبد العزيز بك فهمى ، بعد إعلان الهدنة لمقابلة المندوب السامى البريطانى السر ريجنالد للـ « تحدث إليه فى مستقبل مصر » . حيث بدأت زعامته . وهكذا جاءت زعامته « صدفة » .

أين كان سعد ؟

كان دليل الحياة ، الذى يشير إلى أن الأمة مازالت حية ، لم تمت هو ما جرى فى دنشواى وحيثيات المحاكمة ، إلا أن ذلك كله لم يؤد إلا لاستقالة كرومر ومغادرة البلاد . وإن غادرها باحتفال تكريمى ؛ ولم ينهض بالمناسبة غير مصطفى كامل ؛ وهو وإن كان نهوضه عظيمًا إلا أن ما كان يصل البلاد من صداه لم يكن كافيًا .

وكان أول عمل احتجاجى على عمل الإنجليز، عندما أعلن فى الحرب العامة الأولى ، أن قرارًا بالحماية الإنجليزية على مصر ، يعد وسوف يصدر ، هو قرار المسؤولين عن جريدة « الشعب » بالاحتجاب ذلك اليوم فى عددها بـ 27 فبراير – شباط – 1914 ، لئلا تضطر إلى نشره . وكان الثانى هو « مظاهرة » غير معلنة ، قام بها طلاب من كلية الحقوق ، وليس طلاب الحقوق كلهم ، عندما جاء السلطان حسين كامل لزيارة المدرسة فى 18 فبراير – شباط – 1915 ، فتغيبوا عن الحضور، ولوحظ فراغ كبير فى صفوفهم مما دعا الوزارة إلى التحقيق فتقرر فصل 54 طالبًا . وما بين هذه « المظاهرة غير المعلنة » وذلك « العمل الاحتجاجى » من المسؤولين فى الجريدة كان قد تعاظم عدد المنتفيين والمعتقلين بصمت وكتمان . وكان عذر السلطان حسين كامل – كبير أسرة محمد على الذى أسندت إليه الخديوية – بالرضى والقبول بنظام الحماية وقبول العرش فى ظلها ، قوله إنه فعل ذلك ، لإنقاذ عرش محمد على والاحتفاظ به لأسرته ، وهو أمر صحيح ولم يخطر بباله وهو يقرر هذا أية مصلحة وطنية .

وبارتقاء حسين كامل كما بارتقاء أحمد فؤاد بعده ، عرش مصر ، على هذا النحو ، جعلت الحكومة البريطانية نفسها ، مصدر ولاية العرش ، بقولها : « إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبوء هذا العرش السامى »(576) ، كدأبها منذ أن احتلت مصر ، تتجاوز حقها ، ثم بعد أن تقرر هذا التجاوز فتجعله حقًا شرعيًا تتجاوزه إلى غيره . ويعمل الخديوى على التثبيت . ففى كتابه الذى عهد به إلى السلطان الجديد لرئيس الوزراء بتأليف وزارته جاء قوله : « قد تولينا بالاتفاق مع الدولة الحامية عرش السلطنة المصرية . على أن يكون هذا العرش من بعدنا لورثتنا طبقًا للنظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بيننا وبينها »(577) . وهكذا أصبح تولى عرش مصر يتم بالإرادة البريطانية ، تخضع له الفئات المتنفذة ، التى أوجدها محمد على وأسرته .

يوم إعلان الهدنة بانتهاء الحرب العامة الأولى فى 11 نوفمبر – تشرين الثانى – 1914 . وكان ولسن ، رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية قد أعلن مبادئه الأربعة عشر التى سحرت العالم مصدقًا لمال تضمنته ، فقد جاء فى رسالته المؤرخة فى يناير – كانون الثانى – 1917 إلى الكونغرس : « والرأى عندى أن تتفق الأمم على قبول مبدأ الرئيس مونرو ، وتعميم تطبيقه فى أنحاء الأرض ، فلا يصح لأمة أن تكره أمة على اتباع سياستها ، وإنما يجب أن يترك لكل شعب الحق وحده فى تقرير سياسته ورسم طريقه الذى يراه مؤديًا إلى التقدمبدون إحراج أو تهديد أو إرهاب ، لا فرق فى ذلك بين شعب ضعيف وشعب قوى .. »(578) إلخ .

واندفع بعض أفراد الجمعية التشريعية المعطلة إلى التداول فى 11 نوفمبر – تشرين الثانى – 1918 يوم إعلان الهدنة ، واستقر الرأى أن يشكل وفد من سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى ، لمقابلة المندوب السامى البريطانى السر ريجنالد ونجت للتحدث إليه فىمستقبل مصر . وتمتا المقابلة صبيحة(579) الأربعاء 13 نوفمبر – تشرين الثانى – 1918 . وبارك رئيس الوزراء حسين رشدى هذا العمل ، وأيدهم لدى تقابله مع المندوب السامى . الذى أبدى دهشته من أن يتكلم ثلاثة رجال عن أمة بأسرها . دون أن يكون لهم الحق بذلك ، وكان رد رشدى بأن لهم هذا الحق ، لأن سعدًا هو وكيل الجمعية التشريعية المنتخب وزميليه أعضاء فى هذه الجمعية وعندما نقل رشدى باشا إلى سعد زغلول ما دار بينه وبين المندوب السامى ، ظهرت فكرة «التوكيلات» ، بحصول « هيئة الوفد » هذه التى ستتشكل على توكيلات ، يوقعها « أعضاء الهيئات النيابية القائمة فى ذلك الحين ، كالجمعية التشريعية ومجالس المديريات والمجالس البلدية وغيرها ، وأكثر عدد ممكن من ذوى الرأى والأعيان وسائر طبقات الشعب »(580) .

وكان نص هذا التوكيل كما يلى :

« نحن الموقعين أدناه على هذا قد أنبنا عنا حضرات ... ولهم أن يضموا إليهم من يختارون ، فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة ، حيثما وجد للسعى سبيلاً فى استقلال مصر ، تطبيقًا لمبادئ الحرية والعدل التى تنشر رايتها دولة بريطانيا العظمى وحلفاؤها، ويؤيدون بموجبها تحرير الشعوب ، « وقد اعترض كثيرون على هذه الصيغة المزرية منهم أعضاء من الحزب الوطنى » لخلوها من النص على الاستقلال التام ومنافاتها للكرامة القومية ، إذ جعلت المطالبة باستقلال مصر فى حدود مبادئ الحرية والعدل التى تنشر رايتها دولة بريطانيا العظمى ، فى حين أن جهاد الأمة وشكواها من الاحتلال إنما يرجعان إلى السياسة التى اتبعتها بريطانيا العظمى منذ الاحتلال أى منذ 1882 .. »(581) .

ولما نشرت هذه الصيغة وتداولتها الأيدى ذهب عدد من أعضاء الحزب الوطنى – وربما غيرهم لم يذكرهم الرافعى، مؤرخ المرحلة إلى دار سعد يناقشونه فى صيغة هذا التوكيل، واشتدت المناقشة حتى غضب سعد واعتبر فى هذا الاعتراض إهانة له وإذ قال لهم : كيف تسمحون لأنفسكم بهذه الحدة وإهانتى فى منزلى ؟ ، أجابه أحدهم إننا لسنا فى منزل سعد الخاص ، وإنما نحن فى بيت الأمة . فسر سعد لهذه التسمية وابتسم لمحدثيه وقال تنازلت عن ملاحظتى . ومنذ ذلك صار يطلق على بيت سعد « بيت الأمة » . وهذه هى المصادفة الثانية .

وبحث فى تعديل صيغة التوكيلات فصارت : « نحن الموقعين على هذا قد أنبنا حضرات ... فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلاً فى استقلال مصر استقلالاً تامًا » .

ومع ذلك فحتى هذا التعديل لا يعبر عن المطلوب، ولا يعدو تعديلاً التماسيًا بعيدًا كل البعد عن كونه يعبر عن « روح الأمة » وغير ذلك من العبارات التى أسقطت على سعد زغلول جزافًا ؟ فإذا به بدليل ما سيتلو زعيم الأمة وقلب الأمة ... إلخ . بل إن الوفد الذى تشكل نفسه لا يعبر عن الحالة الظاهرة قبل أن تتفجر الثورة فى كل مكان من القطر ، وإذا لم يتبرأ منها عمل على تهدئتها .

ومن بين المراكز التى تولت أمورها بنفسها فى فترة اشتعال الثورة وأعلنت استقلالها عن القاهرة : المنيا وزفتى التى عرفت بإمبراطورية زفتى .. وكذلك أسيوط التى كانت أشدها اشتعالاً.. ومن هذه المراكز ما لم يكن بعيدًا عن القاهرة ، بل كان من زعماء الوفد من كان أصلاً من سكانها .. ومع ذلك يعلن استقلاله عن القاهرة ؛ ولهذا الاستقلال دلالة هامة ، وهى أنه لو كان المركز الذى يعلن استقلاله عن القاهرة يشعر بالولاء لهذا الباشا الساكن فى القاهرة لما استقل عنها . فلعل سعد كان زعيمًا لهؤلاء الباشوات ساكنى القاهرة وزعيمًا لسائر الشعب فى «الأرياف» بالتمنى .

ثم بعد مرور الوقت ، المفروض أن تكون فيه الحقائق تكشفت والوعى ازداد ، بعد حدوث ثورة 23 يوليو والإطاحة بالأسرة الخديوية وبـ « باشوات » القاهرة التى اتسع قلبها لآمال وآلام الأمة وكل العرب لا لباشوات مصر فحسب ، يأتينا مؤرخ من « مؤرخى آخر الوقت »ليصف سعد ، تعريضًا فى غيره فيقول : « فقد كان قلب الأمة بآمالها وآلامها ، ولم يجئ به جيش ليتزعم»(582) (كذا) .

ذلك أنه وإن كانت مصر لم تشترك فى الحرب العامة الأولى إلا أن نصيبها من المشاركة كان كبيرًا وتحملت كثيرًا ، وما فتئ أن انتشر خبر هذه المشاركة بانتهاء الحرب . فقد بدأت بتجنيد «فرقة عمل وفرقة نقل بالجمال» بالتطوع ، ثم صارت الحاجة ترد بطلبات ملحة بعد أن أظهرت فرقة عمال مصر صغيرة أرسلت إلى مودروس من الكفاءة ما سرى صيته فى جميع الميادين(583) وكان هؤلاء العمال يرسلون تارة إلى سيناء وتارة إلى غاليبولى ، ويتعرضون لقنابل الطائرات بلا حماية ، واستمر جمعهم طوال أيام الحرب حتى بلغ عددهم نيّفًا ومليون من عدد المصريين فى ذلك التاريخ ، ومن الطبيعى أن يكون أكثرهم من أبناء الصعيد .

وعندما بدأ يقل عدد المتطوعين صارت الحكومة البريطانية « المتمدنة » ، « الحضارية » وأجيرتها الحكومة المحلية يلجأون إلى أساليب تعسفية غاية فى الظلم والإكراه بالإرغام بقوة السلاح دون النظر إلى مصالح الفرد . فقد نقل الرافعى فى كتابه ثورة 1919 عن جريدة رائد العمال البريطانية فى 12 إبريل (نيسان) 1919 قولها : « .. وكان رجال الحكومة يدخلون القرية ، وينتظرون رجوع أهاليها إلى منازلهم فى الغروب ، فيحدقون بهم كالأغنام ، وينتقون خيرهم للخدمة ، فإذا رفض أحدهم هذا التطوع الإجبارى جلد حتى يقر بالقبول ، وعلىهذا النحو سيق أطفال من سن الرابعة عشرة وشيوخ فى سن السبعين ويزيد .. »(584) ؛ وهو أسلوب يذكر بعهد محمد على ومآسيه .

بالإضافة إلى ما كان يحيق بفئات الشعب من الفلاحين ، الذين هم بحاجة إلى عملهم اليومى ، من حيف جراء هذا العسف ، تعرض هؤلاء الفلاحون إلى مصادرة الحيوانات والحبوب بأنجس الأثمان وبأسعار أقل كثيرًا من أسعارها فى الأسواق ، وأحيانًا يفرض مقدار على كل مركز أكثر من إنتاجه . فيضطر الأهالى إلى شراء المطلوب ويقدمونه بالسعر البخس .

ولعلنا نستطيع تصور مشاعر الحقد والنقمة الذى كان يكبتها ذلك الفلاح ، الذى لا نصير له ، وهى تمازج ذلك التطوع الإجبارى ونهب رزقه من أمام عياله لصالح دولة عدوة تقهره باحتلالها (هى بريطانيا) ضد دولة « إسلامية » المظنون أنها صديقة هى الدولة العثمانية .

كانت مصر ، طولاً وعرضًا ، إذن معبأة ، لا تنتظر غير مناسبة تشعلها أيًا كانت ، فجاءت حماقة « الحماية البريطانية « تقدم لها هذه المناسبة ، بمنعها الوفد الموكل للمطالبة بحقوق البلاد، من

السفر .. ثم بنفيه .. فالتهبت مشاعرها وانفجرت تعبر عن الكبت الذى عانته مدة الحرب وقبل الحرب . ولم يبق مركز أو قرية أو حى لم يظهر انفعالاته .

* * *

الثــورة

مطلبًا للتوحيد والتحرير والكرامة

الفصل الثالث عشر : بلدان عربية مفككة يتألب عليها « الغرب »

التداعيات

بلدان عربية مفككة يتألب عليها « الغرب »

كانت البلدان العربية ، فى أعقاب الحرب العالمية الأولى تترنح ، لا تستبين طريقها ، وهى إذ تفاجأ بتقسيم مشرقها وتألب الاستعمار عليه ، وإذا به دويلات متفرقة آخذة كل منها فى شد قبضتها ؛ ليس فى أرجائها جميعًا ، مشرقها ومغربها ، منظومة واحدة يبدو أنها تعى المرحلة وتمد أبصارها إلى المستقبل . ولم تكن المعرفة الحديثة متيسرة ليصح التفكير ؛ حتى الصحف والمجلات التى تصدر فى باريس ولندن .. كانت تحمل فى طياتها إلى بلدان المشرق ما لا تحمله إلى بلدان المغرب وتخفيه عنها ، مستهدفةً التوجيه .. وكان أهم ما تعنى به حركات المشرق المنتشرة ، وفى مقدمتها « العربية الفتاة » هو « التمرد » على الإمبراطورية العثمانية ، نهضت «بؤر» فى المغرب ، رغم كابوس الاستعمار المطبق ، تصدر مناشير تدينها وتنكر عليها ادعاءات تمثيلها ..

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وكان قد تحصّل المشرق ، بثورته « العربية الكبرى » ، وبانتفاضاته ، عن عروش بلا أيديولوجية أو بأيديولوجية مهترئة ، وعن تكاثر الأحزاب وتكاثر التشرذم ، فالبلدان التى كان يجمعها ويوحّدها النهوض فى وجه الاستعمار الأجنبى وتتناسى مصالحها الفردية والعشائرية ، صارت مرحلة البناء التى جاء بها «الاستقلال» الشكلى تفرقها، وتتنسيها ما هى فيه ؛ وما هى فيه أهم من محاربة الأجنبى ، وأهم من الوظائف والمراكز .. هو بناء الإنسان : بإعادته إلى حاضنته الحميمة الأصلية التى قوّضها الاستعمار بجميع أشكاله وألوانه، وأفقدها لونها ومميزاتها جهل ظلمة العصور الخوالى ؛ ومع تكاثر الصحف وتزايد عدد الكتب ، وتدفق تيارات الدعاية للأيديولوجيات المتزاحمة ، المتنافسة ، وفى غياب البنية النفسية والفكرية المتماسكة ، انفتحت الأبواب مشرّعة للتشكك والتشكيك فى كل شىء ، وكان أخطر ما استهدف بهذا التشكك والتشكيك ، هو تفكيك بنية الإنسان العربى بتشكيكه فى وحدة أمته؛ والتشكك فى وحدة الأمة ينسحب إلى التشكك بتراثها ، وبالتالى يصيب فى الفرد مقتلاً فى المستقبل .. وأصبحت اللغة العربية ، التى هى فى أصل تركيبها لغة موحدة ، لغة فردانية ؛ وبلغ الأمر حدًا أنك إذا واجهت المتشككين فى « وجود وحدة أمة عربية » بحجة اللغة الواحدة والدين الواحد والمصير الواحد طالبوك بإثبات « نفسية واحدة » !! وراحوا ، أمام جميع هذه الأخطار المهولة الحائقة بالوطن يجيزون تقسيمه إلى « قوميات » .

هذا الوطن الذى عاش منذ ألف وأربعمائة عام فى لحمة حميمية ، وكتب عنه مؤرخ معاصر وهو ألبير حورانى يقول : « إن عالمًا تستطيع فيه عائلة من جنوب الجزيرة العربية أن تنتقل إلى إسبانيا ، وبعد ستة قرون تعود إلى قرب مكان نشأتها وتجد نفسها فيه فى بيئة مألوفة ، فإن عالمً كهذا فيه وحدة تتخطى انقسامات الوقت والمدى .. » ، وعلى الرغم من سقوط الخلافة فى طور الانحلال ، ومن انقسامها إلى خلافتين وإلى ثلاثة (فى بغداد والقاهرة وإسبانيا) » ، فإن الوحدة الاجتماعية والثقافية التى كانت قد نشأت فيها ظلت مستمرة .. » ، فهذا الوطن ، المميز بتاريخه

وجغرافيته وموقعه لا تجد وطنًا فى العالم مثله تتوفر فيه مقوّمات الوحدة ، كما أنك لا تجد فى العالم كله وطنًا يتوفر فيه هذا العدد المهول من القيادات المتنافرين المبعثرين ! .

هذا الوطن وجد نفسه فى مواجهة هجمة الاستعمار العالمى الحديثة ، فى مطلع القرن ، المغرب ، بعد الحرب العالمية الأولى، نهبًا بين المطامع، مقسمًا، لا تتبين له مسيرة واحدة مشتركة، كل قسم من أقسامه اختلق له الاستعمار أو أبناؤه المصلون أيديولوجية مختلفة، تدير تكوينه وتعبث باتجاهاته ، وتموه ظروفه مما ييسر ظهور قيادات ، تمثل هذا العبث والتمويه ، لا مرامى الشعوب ورغباتها . ولا تعكس تصرفاتها ومواقفها ، وجهة نظر شعوبها . هذا الوطن ، وهذا شأنه كان عليه أن يواجه إضافة لتقسيمه منح جزء هام منه هو فلسطين بوعد من إحدى الدول المستعمرة لليهود المشردين فى الأرض الذين أخذوا ينظمون أنفسهم فى حركة صهيونية قومية بمقولة كاذبة : «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» وفوق هذا الافتراء على الحق، وتأييدًا لمزاعمها راحت الصهيونية توزع فى العالم ، تزييفًا ، صورة فلاح يهودى وراء محراثه يشق أرضًا بورًا جرداء إلا من بيت بدوى من الشعر يرعى غنيمات . فى الوقت كانت الشعوب العربية ، بالكاد تفتح عيونها على العالم بعد ظلام أربعة قرون من الحكم المملوكى - التركى . وحتى 15 مايو (أيار) 1948 ظل موقف العرب موقف الدفاع لصد هذا الاغتصاب ، بحماية البيوت الآمنة ..

الانتداب البريطانى :

كثيرة هى الأمم التى تعرضت وتتعرض فى تاريخها لمثل ما حاق ويحيق بالأمة العربية .. لكن الأمم التى فقدت إرادتها لمواجهة مستقبلها نادرة : فمن الإشارات التى تصدر عن الشعوب العربية من هنا وهناك ما يدل على أنها لم تفقد هذه الإرادة .

وفقًا لاتفاقية سايكس - بيكو التى صدقت عليها عصبة الأمم وضعت فلسطين تحت الانتداب ، بنية الإشراف على تطبيق وتنفيذ « وعد بلفور » للصهيونية . ومنذ البداية كانت الصهيونية تبيت النية فى استفزاز السكان العرب . حتى قبل ان يقع الانتداب كان اليهود «المستعمرين» يحتاطون لأنفسهم باقتناء السلاح ، ويتضح اتجاه تطبيق هذا « الوعد » من الاطلاع على نص المرسوم الذى رفعه تيودور هرتزل إلى السلطان عبد الحميد للموافقة عليه عام 1898 ولم يوافقه الحظ حينئذ بالسماح بإقامة « الجمعية الاستعمارية اليهودية » التنمهدت لما يسمى الاتحاد اليهودى الاستعمارى المقام فى سنة 1899 «Calaniol Trust Jewish» . وكان أحد بنوده إعطاء تلك الجمعية سلطة نفى وإجلاء السكان الأصليين(585) . وتكرر النص على مثل هذا فى أحكام وقواعد « الاتحاد اليهودى للأرض Jewish land Trust » ، التى تقضى بأن تكون جميع ممتلكاته لليهود ، دون غيرهم ، وهذه الأحكام تخوّل اليهود إجبار غيرهم على الرحيل لإيجاد فرص عمل فى الخارج .

هذه الأحكام مستوحاة من التوراة والتلمود ، كتب اليهود المقدسة . ففى سفر التثنية إن : « أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوبًا كثيرة من أمامك ، الحيثيين والجرجائيين والأموريين والكنعانيين والغزريين والحويين واليبوسيين ، سبع شعوب أكثر وأعظم منك ، ودفعهم الرب أمامكم وضربهم ، فإنك تحرمهم ، لا تقطع لهم عهدًا ولا تشفق عليهم.. »(586) ثم ولا تشفق عيناك عليهم ولا تعبد آلهتهم لأن ذلك شرك لك .. » ومن قبل ، فى الإصحاح السادس كان إلههم نهاهم أن يتساهلوا قائلاً : « ستملكون البلاد وتقيمون فيها لأنى منحتكم إياها .. ولكن إذا لم تطردوا أمامكم سكان البلاد فأولئك الذين سيبقون منهم بينكم سيكونون أشواكًا فى عيونكم وإبرًا فى أجنابكم .. » .

ولا يخفى هرتزل فى سيرته وفى مذكراته الروح الاستعمارية التى يوقد فى داخل حركته وفى تأسيس الصهيونية ، ودفعها إلى إقامة دولة . بل لا يتورع فيما يذهب إليه عن تشبيهه بما قام به رودس فى جنوب إفريقيا . حتى أنه لا يتقبل بأية حال من الأحوال تفسير التوراة بمعانى إنسانية تخفف من حدة الإجرام الظاهرة ، بل راح ممثلو الصهيونية يتباهون بها ويزدهون ؛ فقد كتب يوسف Weitz ويتز ، مدير الصندوق القومى اليهودى ، فى مذكراته الصادرة فى تل أبيب عام 1965 قوله : « يجب أن يكون واضحًا لدينا أنه ليس هناك محل لشعبين فى هذا البلد (أعنى فلسطين) فإذا غادر العرب فسيكون لنا متسع فيه (...) ليس هناك من حل سوى ترحيلهم جميعًا ؛ ينبغى ألا ندع أية قرية أو أية قبيلة ... ينبغى ان نشرح لروزفلت ولجميع رؤساء الدول الصديقة أن أرض إسرائيل لا تضيق بنا إذا رحل العرب ، وإذا اتسعت الحدود قليلاً لناحية الشمال على طول مجرى الليطانى وناحية الشرق صوب مرتفعات الجولان » .

وكتب يورام باربورات فى صحيفة يديعوت أحرونوت فى 14 تموز 1972 يشدد ويذكر بالهدف الذى ينبغى بلوغه : « أنه لمن واجب القادة الإسرائيليين أن ينشروا على الرأى العام بوضوح وشجاعة عددًا من الأمـــور التى يطويها النســيان على مر الزمن ، وأول هذه الأمــور أن لا وجود للصهيونية ولا لبناء المستعمرات ولا للدولة اليهودية ما لم يطرد العرب ويستولى على أراضيهم » .

يصوغ الحاخام كوهين المبدأ الأساسى فى كتابه التلمود Le Talmud ، منشورات بايو Payot 1986 ، ص109 : « إن سكان العالم يمكن تصنيفهم بين إسرائيل من ناحية وبين الأمم مجتمعة من ناحية أخرى : إسرائيل هى الشعب المختار : هذه عقيدة أساسية » .

من هنا تنبع ضرورة طرد كل من هم ليسوا يهودًا من أرض الميعاد لصاحبها الشعب المختار . هذا إذا لم يكن هناك ضرورة لإبادتهم (والإبادات والمجازر التى ارتكبها يهوشع هى صورة رمزية) .. إلخ .

* * *

بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها ، وخص إنجلترا بفلسطين ، أصبح من المقتضى وضع وثيقة الانتداب . ثم تعرض مسودتها على عصبة الأمم فى جنيف لتصدر بها قرارًا . وفى مذكرات وايزمن « التجربة والخطأ » أنه بعد أن غادر لندن ... وكان فيها للتأكيد الأخير على وعد بلفور لليهود بفلسطين دعى إلى العودة ليشرف على كتابة مشروع وثيقة الانتداب البريطانى فى فلسطين ، قبل أن تعرض على عصبة الأمم ، وفى هذه الأثناء كان ذهب بلفور من وزارة الخارجية وجاء كرزن . ويتابع هرتزل روايته : « .. وكان معنا فى لندن القانونى الشهير ابن كوهين وهو من أقدر واضعى الصيغ القانونية فى العالم ، وكان إيريك فوريس آدم سكرتير كرزن يتعاون معنا « ووقع بيننا وبين كيرزن خلاف أول وأخير » .

« كتبنا نحن فى مشروع الوثيقة عبارة أردنا بها أن نقيد بريطانيا بوعد بلفور ، وبأن تكون خطتها فى فلسطين قائمة على أساس الوطن القومى لليهود ، وكان نص العبارة التى كتبناها نحن :

« والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية فى فلسطين » .

« وقال كرزن أنه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب عند قراءتها . وقال أنه يرى أن تكون كما يلى :

« والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية فى فلسطين » .

وعلى كل صدرت وثيقة الانتداب لتغلغل الصهيونية واستقرارها فى فلسطين . إذ جاءت تعترف بالـ « وكالة اليهودية » لإسداء المشورة إلى الإدارة فى فلسطين والتعاون معها فى الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، وتعترف باللغة العبرية على قدم المساواة مع العربية والإنجليزية ، وتضع اليهود الذين لم تكن نسبتهم تتجاوز 7% من السكان على قدم المساواة مع العرب .

لماذا خسرنا حرب 1948 فى فلسطين :

أعلنت الحكومة البريطانية المنتدبة أن انتدابها سينتهى فى 15 أيار 1948 . وكان هذا يعنى أن « الوكالة اليهودية » التى كانت تهمها من انتدابها ، قد بلغت سن الرشد ولم تعد قاصرًا . حينها كانت المناوشات بين العرب واليهود الصهيونيين فى فلسطين تقتصر على الفدائيين، المتطوعين ، يقفون فى وجه اليهود لصدهم عن إجلاء الأهالى العزل من قراهم ، وفقًا لخطة دالات . ولست أدرى فى رأس من لعبت خطة تدخل « جيوش » « جامعة الدول العربية » الأول فأدارها فى رؤوس الدول العربية ، بوهم وتوهم أنه بالإمكان حسم القضية فى أيام ، وراح الحماس ، والتسابق إلى الحماس يضلل عقول الناس . وبالنظر إلى واقع الجيوش العربية المتهلهلة وواقع بلدان الجامعة العربية العفن وواقع التناقض بل والعداوات الضارية بين الرؤساء العرب ، فإن دخول جيوش الجامعة إلى فلسطين « لتحريرها » ، كان توريطًا ، إذ كانت نتيجة المعركة لدى الغرب معروفة سلفًا ، كان ربما ، أكثر اطلاعًا على حالة هذه الجيوش من حكامها . ففى حين كانت قيادات الصهيونية فى الداخل والخارج قادرة على الدراسة والسير ومهيأة للاطلاع لاتخاذ قرار ، كانت القيادات العربية تصدر قرارات مبتسرة لا تلتزم بها . حتى وإن كانت بالإجماع .. ونحن نجنح إلى القول (وإن كان فى هذا القول جرأة على الحقيقة) إن هذا التوريط كان بقصد الوصول مع العرب إلى صلح ، إلى تسوية ممكنة مع الحكومات ، متعذرة مع الشعب .

فى الجبهة الشمالية ، كشف الأديب السورى عبد السلام العجيلى ، فى مقال بعث به إلى جريدة الجمهور جاء فيه : « .. فى هذه المناطق يحلو للإنجليز أن يبيد اليهود العرب بوسائلهم الغادرة ، فما أكثر تغاضى الجنود البريطانيين عن سياراتهم التى يخطفها الصهيونيون ليملأوها متفجرات ويتركونها فى الشوارع العربية ، وما أسهل تنكر اليهود بالأزياء البريطانية فيحرقون أحياء العرب بصفتهم جيشًا حاميًا، وينقلبون إلى مجرمين أثمة يصبون النار على النساء والأطفال؛ أما فى المناطق التى اعتبرت من الدولة العربية فإن بريطانيا تسحب قواتها يومًا بعد يوم متجهة نحو الداخل . ويجيئنا السكان العرب يبشرونا بهذا ، ونحن إذا لم نعتبره نذير شر لا نعدّه دلالة خير . فحيث يكون السكان عربًا صرفًا لا يهم الإنجليز أن تضع فى منطقتهم قواتها . إنما يهمها ان تركز قواها حول مستعمرات اليهود لتحميها . كأنها لا تكتفى بسلاح الصهيونيين الذى يملأ كل قرية ، ولا بمسلحيهم الذين تزودوا بالرشاشات وبمدافع الهاون وبالمحاريث التى تنقلب إلى دبابات علنًا . فى حين أن خمس رصاصات فى جعبة عربى كانت كافية للحكم عليه خمسًا وعشرين سنة من قبل قضاة بريطانيين ، باسم صاحب الجلالة البريطانية »(587) .

وفى الجنوب فى الجبهة ، حيث يجرى القتال الصحيح بلا مواربة يقدم لنا أحد الضباط اللامعين شهادته من المعركة فيقول مستذكرًا : « لقد لاحظت أن الجيش المصرى يعانى عجزًا شديدًا فى الأسلحة والذخائر فى مختلف الأسلحة ، وأنه يحارب بأسلحة بدائية تم إلغاؤها منذ زمن طويل .. وقد تأكد لنا أن الإنجليز خدعونا حين شجعونا على دخول الحرب ضد اليهود فى 15 مايو 1948 ففتحوا لنا مخازن الجيش الإنجليزى بالقناة لنأخذ منها ما نحتاجه من الأسلحة وذخائر .. ولكن عندما بدأت الحرب ، أغلق الإنجليز فى وجوهنا مخازن الأسلحة والذخيرة .ولم يعد أمامنا إلا ما كان فى أيدينا من أسلحة وذخيرة ، وهى كميات لم تكن تكفى مطلقًا للاستمرار فى معارك امتدت

لمدة شهور بعد ذلك »(588) . وفى مكان آخر يقول لكى يشجعونا على الاشتراك فى هذه الحرب فتحوا لنا مخازن قواتهم فى منطقة القناة لنأخذ بعض ما نحتاجه من الأسلحة ، وبعد الحرب أغلقوا فى وجوهنا باب مخازنهم .

« ولم يكتف الإنجليز بذلك بل انضموا كلية إلى الجانب الإسرائيلى فى العمليات الحربية (فعلى سبيل المثال) خرجت خمس طائرات مصرية يوم 14 مايو للاستطلاع ولتقوم بعمل الغطاء الجوى اللازم لعبور القوات المصرية شبه جزيرة سيناء ، فخرجت عليها الطائراتالإنجليزية وأسقطت أربع طائرات من الطائرات المصرية الخمس فكانت عملية غدر خسيسة لا يمكن أن تنسى »(589) ويؤيد هذا ثروت عكاشة (من الضباط الأحرار) فى مذكرات فى السياسة والثقافة ..

* * *

من المحتمل أن مندوبى الحكومات ، الأعضاء بالجامعة العربية ، الذين قرروا دخول الجيوش العربية إلى فلسطين ، بعد إعلان الإنجليز نهاية الانتداب ، كانوا غير واثقين من النصر ، أو بالأحرى أنهم كانوا واثقين من الفشل ؛ وإلا ما كانوا أسندوا قيادة هذه الجيوش إلى « الملك » عبد الله ، ملك الأردن الذى لم يكن مضى زمن طويل « على ترقيته من أمير إلى ملك » ، ولم ينل الأردن بعد تمام استقلاله . وكان عماد جيشه المدرب أحسن تدريب ، يدين لقائده الإنجليزى ، قبل كل إنسان ، والذى مازال على رأسه ، يعاونه ضباط إنجليز آخرون ويظن أنه سلّح ودرّب لأغراض غير عربية فى فلسطين وفى الأردن أيضًا .. ويستذكر أحد ضباطه الذين اشتركوا فى «حرب 1948» وأصبح فيما بعد قائدًا لهذا الجيش أنه : « لم يكن الأردنيون ولا الشعوب العربية الأخرى تعلم المهمة المنوطة بجيوشها .. »(590) ثم يستطرد فى أقواله : « .. ولذا فقد فجعتهم نتائج الحرب التى تمثلت واضحة فى فقدان الأراضى وتشريد الشعب الفلسطينى .. » .. قال « أمة العربية فى المشرق أدركت أن بريطانيا مكنت اليهود من فرص عظيمة للسيطرة على فلسطين ، وأن إنهاء انتدابها فجأة مع ما رافقه من ظهور القوة الإسرائيلية العسكرية كان مؤامرة عظيمة لخلق إسرائيل .. » .

ولم تبق أهداف دخول الجيوش إلى فلسطين غائمة . لكن هذه الجيوش كانت فى فلسطين ، كأنما تحارب ، حينما تتمركز فى فلسطين ، دفاعًا عن مواقعها ، لا يعنيها الجبهات الأخرى . فالتنسيق بين الجبهات يكاد يكون معدومًا وتبادل المعلومات بله التعاون . إذا لم يكن الحال أقرب إلى التآمر والعلاقات إلى التوريط . وما كان يجرى بينها ، فى مستوى صفوف القيادات ، بالكاد يجرى بين الأعداء لا بين محاربين من أجل قضية واحدة .

كتب أحد القادة فى جبهة القتال الجنوبية : « .. فقد اكتشفنا أن قائد أحد الجيوش العربية التى كنا نمدها بالسلاح لمواصلة الحرب ، كان يقوم بمقايضة تلك الأسلحة بالمخدرات مع اليهود ، وكانت الخطة أن يواصل استنزاف الذى فى حوزتنا ، مهددًا بإيقاف القتال إذا لم نمده بالسلاح ، فإذا حصل على ما يطلبه قام بتسليمه لليهود مقابل شحنات من المخدرات ، كان يتاجر فيها هو وبعض الضباط العاملين معه . والغريب أن حكومته التى عينته قائدًا لجيشها فى فلسطين لم تكن تعلم شيئًا عن ذلك .. إذ إنه كان يفعل ذلك لحسابه الخاص مع مساعديه من كبار الضباط . وحينما علم بذلك اللواء فؤاد صادق قائد القوات المصرية أصدر أوامره بسحب تلك الكتيبة إلى الخطوط الخلفية ، وأن تحل محلها قوات مصرية(591) .

كذلك فقد ارتكب قائد عام الجيوش العربية خيانة لا تغتفر حيث كانت تصب عنده كل المعلومات عن موقف الجيوش العربية بدعوى التنسيق فيما بينها ، ولكن ظهر أنه كان يقوم بإيصال تلك المعلومات أولاً بأول للحكومة الإنجليزية وللقيادة الإسرائيلية التى كان يجتمع بعدد من ضباطها من وقت لآخر . فتغير إسرائيل من خططها وتحركاتها العسكرية بمقتضى المعلومات التى تصلها عن طريق هذا الملك العربى !

كذلك فقد أمر بسحب الجيش من المواقع التى كان يحتلها فى مواجهة القوات الإسرائيلية عند مدخل مدينة الخليل دون أن يقوم بإخطار القوات المصرية المساندة ، وكان هناك تنسيق تام بينها وبين القوات الأردنية بقيادة العقيد عبد الله التل فى العمليات العسكرية التى تجرى فى ميدان القتال وفوجئ المصريون ذات صباح بسيل من القذائف ينهمر عليهم من التلال التى كانت تتمركز فيها القوات الأردنية ثم تبين بعد قليل أن القوات الأردنية قد تم سحبها بمنتهى السرية لتخلى مواقعها للقوات الإسرائيلية .. ولما احتج عبد الله التل عزل على الفور ، وأبعد ليبقى الجيش الأردنى تحت إمرة الجنرال جلوب البريطانى »(592) .

« ماكـو » أوامـر :

كان المصريون فى الجبهة الجنوبية نجحوا فى تجنيد ضابط سويدى فجاءهم بتقرير فى أواخر شباط 1948 يقول فيه إن القوات الإسرائيلية يجرى تجميعها من جميع الجبهات باتجاه الجنوب لمواجهة القوات المصرية حيث لم يبق غيرها . وتبين بالاستطلاع الجوى ، صحة هذا الكلام ، وبانسحاب القوات اليهودية من أمام القوات العراقية فإنها تخلى الطريق أمام هذه القوات العراقية فإنها تخلى الطريق أمام هذه القوات لى حيفا وتل أبيب ، الواقعتين على بعد اثنى عشر كيلومترًا فقط .

وبادر اللواء فؤاد صادق قائد الجبهة على الفور بطلب إرسال برقية عاجلة إلى اللواء نور الدين قائد القوات العراقية يطالبه بالتقدم لاحتلال حيفا وتل أبيب ، وتم الاتصال به شخصيًا ورد اللواء نور الدين محمود : « وصلتنا إشارتكم وسنقوم بتنفيذها فورًا » .

ويقول أمين شاكر مسؤول الاتصالات السلكية واللاسلكية انتظرنا يومًا ويومين، وانتظرنا على أحر من الجمر أن تأتينا معلومات من القيادة العراقية تفيد بتحركها لاحتلال حيفا وتل أبيب فقد كان ذلك يعنى انتهاء الحرب لصالح الجيوش العربية ، ولكننا انتظرنا دون جدوى . وأخيرًا بعد القيام بالاستكشاف الطيرانى ومحاولات الاتصال اتضحت أمامنا الصورة على حد قول القيادة المصرية بأن هناك أمورًا تجرى من وراء ظهور القيادة فى الجبهة « على مستوى الحكومات وبريطانيا . لأن انسحاب القوات العراقية إلى الشرق هو بلا شك جزء من مخطط سياسى تم الاتفاق عليه مع بريطانيا ، ولا حيلة إلا أن تواصل مصر القتال وحدها بعد أن انسحبت كل الجيوش العربية من المعركة » . وتحصلت الأوضاع فى الجبهة أخيرًا على الصورة التى نقلها إلينا فقال :

« كان نور الدين محمود ومعه عدد كبير من كبار الضباط العراقيين فى منتهى الإخلاص للقضية العربية ، وكان إحساسهم بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم لا يقل عن إحساس أى قائد عربى مخلص .. وكانوا على استعداد للتضحية بأى شىء فى سبيل كسب المعركة والانتصار على الصهاينة، ولكن الذى حدث كان بأوامر السلطات العليا ، لأن نورى السعيد بالاتفاق مع السفارة البريطانية فى بغداد أقنعوا الملك فيصل (الثانى) بإقالة رئيس الوزراء مزاحم الباجهجى واعتقاله وبتكليف نورى السعيد بتشكيل حكومة جديدة ، هى التى أصدرت أوامرها للقوات العراقية .. ففى الوقت الذى اتصلت فيه بالقائد العراقى لأبلغه بضرورة تحريك القوات العراقية تجاه حيفا وتل أبيب ، تحدثت مع مزاحم الباجهجى رئيس الوزراء العراقى فى ذلك الوقت .. وقد كان رجلاً وطنيًا مخلصًا .. وأبلغته عن رغبة القيادة المصرية فى إصدار أوامره هو أيضًا إلى نور الدين محمود لاحتلال حيفا وتل أبيب . فوافق الباجهجى مباشرة على ذلك وطلب منى أن أبلغ القائد المصرى بأن الأمر سيصدر فورًا بذلك إلى القوات العراقية » .

« وبالفعل أصدر الباجهجى من بغداد أوامره إلى نور الدين محمود بالتحرك فورًا لاحتلال حيفا وتل أبيب ، ولكن حينما علم نورى السعيد بذلك ذهب إلى الملك فيصل (الذى كان لا حول له ولا قوة) وكان الذى يتولى كل السلطات الملكية خاله الأمير عبد الإله . فصدرت أوامر الملك .. على

غير رغبته .. بإقالة مزاحم الباجهجي وتكليف نورى السعيد بتشكيل وزارة جديدة . وقد تم تشكيل هذه الوزارة الجديدة فى أقل من 24 ساعة .

« وفور تولى نورى السعيد الوزارة أصدر أوامره على القائد نور الدين محمود بالانسحاب والعودة إلى العراق . ولما أخبره نور الدين محمود بوجود أوامر لديه بالتحرك لاحتلال حيفا وتل أبيب ، وأنه بدأ التحرك فعلاً قال له نورى السعيد « ماكو أوامر » . انسحب فورًا باتجاه بغداد»(593).

ولم يكن هذا كل شيء حصل من قيادات الأردن والعراق فى حرب فلسطين لعرقلة المسيرة إلى النصر فى القضية العربية .

ولعل فرصة النصرة الشعبية (إذا جاز لنا إبداء الرأى فرديًا فى قضية تخص الشعوب العربية جميعها وتقتضى دراسة عامة) تظل أفضل وأسلم عاقبة ؛ وربما كانت المخاوف من الاحتمالات التى يتمخض عنها التدخل الشعبى هو ما عجل فى إعلان بريطانيا انتهاء مدة انتدابها لتوريط دول الجامعة العربية (التى تعرف هى قبل غيرها تركيبتها) للمحاربة فى فلسطين بوهم وتوهم سرعة حسم القضية . ولا شك أن القصد من توريط الدول العربية ، وهى على هذا النحو من التفكك وفقدان الثقة ، هو التقنية لها لعقد الصلح مع إسرائيل ، فجميع المؤشرات بل جميع الوقائع تدل على أن جميع حكام جامعة الدول العربية لم يجلسوا جلسة تصارحوا حقيقة فيها واتفقوا ، وإذا صدف أن اتفقوا مجاملةً ، أو مكرًا فإنهم ما إن كانوا يخرجون من اجتماعهم حتى يعملوا بعكس ما اتفقوا عليه . فعلى سبيل المثال : اتفق الأمير عبد الله ، الذى منح نفسه لقب ملك ، مع الإنجليز واليهود ، ثم مع قسم من الفلسطينيين على أن يضم الأراضى العربية التى خصصت للعرب فى التقسيم إلى الأردن ، فهل طرح هذا الأمر للدراسة ؟ وهناك مثل هذا الأمر أمور كثيرة لم تطرح بل لم ينوّه عنها ولم تدرس .

هناك أمر كان يجرى خارج نطاق الجامعة العربية وحكامها ، نوّه به عدد من الذين كتبوا مذكراتهم عن تلك الفترة كان يحمل وعودًا لو ترك على طبيعته ، إلا أن الحكومات العربية حريصة كل الحرص على أن لا يجرى أمر فى إطارها ، بله إذا كان يحمل نفسًا ثوريًا يرمى إلى التغيير .

كان ذلك بقيام عناصر وطنية من الجيش بتدريب فدائيتن لمهاجمة الإنجليز فى القناة وتعكير صفوهم بعد أن اضطر النحاس باشا تحت الضغط الشعبى إلى أن يلغى المعاهدة من جانب واحد. وامتد هذا التدريب إلى الشباب المتحمسين للتطوع للذهاب إلى فلسطين للدفاع عن القرى الآمنة ، العزلاء من السلاح بعد أن كثرت اعتداءات المنظمات الصهيونية عليها ، وكان الغضب قد عم العالم العربى بأسره نتيجة قرار هيئة الأمم الخاص بالتقسيم 1947 . وذكر عبد اللطيف بغدادى بمذكراته قوله : « .. إننا قمنا بتدريب الإخوان المسلمين عسكريًا وأمددناهم بالأسلحة والذخيرة التى كان قد أمكننا تهريبها من مخازن الجيش ، وعملنا على تشكيل كتائب فدائية تحت قيادة ضباط من الطيران والجيش بغرض القيام بغارات فدائية على القاعدة البريطانية فى منطقة السويس ، كما سبق وتكونت منهم كتائب فدائية قام بتدريبها وإعدادها ضباط من الجيش قبل ذهابها لمقابلة المنظمات العسكرية اليهودية فى فلسطين فى نهاية 1947 .. »(594) . وكان أول المتطوعين من الضباط المصريين الشهيد أحمد عبد العزيز .

بوادر تشكيل جيش النضال العربى :

تشكلت قوات فوزى القاوقجى ، من « المتطوعين العرب » بهدف حماية عرب فلسطين من عدوانية المنظمات العسكرية كالهاجاناة وشتيرن وأرجون زفاى ليومى . وقد تولى قيادة هذا الجيش فوزى القاوقجى ، وطلب بعض ضباط الجيش المصرى من رئاستهم السماح لهم بالتطوع فيه ولكن السلطات المصرية كانت تحول دون ذلك . متذرعة بحجج مختلفة منها عدم توفر المطارات. وكان عبد اللطيف بغدادى باعتباره طيارًا يقوم مع بعض زملائه الطيارين من حين لآخر بنقل بعض الأسلحة الخفيفة والذخائر من مصر إلى جيش التحرير ، ينزلون بطائراتهم فى أغلب الأحيان بمطار دمشق وأحيانًا بمطار المفرق بالأردن لهذا الغرض . وذات مرة انتهز فرصة وجوده فى دمشق فذهب لمقابلة فوزى القاوقجى لينقل إليه رغبة الكثيرين من زملائه الطيارين بالتطوع للقتال مع جيش التحرير بخلاف موقف رئاستهم . وتقدم الطيار عبد اللطيف بغدادى باقتراح إمكانية مساندة جيش التحرير ببعض من الطائرات المقاتلة مع سلاح الجو المصرى ، وذلك عن طريق الهروب بعدد من تلك الطائرات إلى سوريا ثم المشاركة بها فى المعركة(595) . وكان فوزى القاوقجى ، بما له من صلات بالعراق ، يهم بالعمل من جانبه على إقناع طيارين عراقيين للانضمام إليه بطائراتهم . وخطأ فوزى القاوقجى حينئذ كان ، لأمر ما ، أنه أرجأ تطبيق هذه الفكرة لحين « الوقت المناسب للدخول فى معركة فاصلة مع اليهود .. » مع أن التهيئة العملية للتطبيق بوشِرَ بها ، وهى تنفيذ طلب الطيارين المصريين بإعداد مطار سرى على بعد ستين كيلومترًا شرق دمشق بانتداب الطيار حسن إبراهيم لإعداده وانتداب زكريا سليمان (من قسم التسليح) للإشراف على إنتاج القنابل ، ونفد الطلب(596) .

ويرجع جمال عبد الناصر فى استذكاره إلى المنطلق فيقول : « وأذكر يومًا ، عقب صدور قرار التقسيم فى شهر سبتمبر 1947 عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعًا واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة فى فلسطين ، وذهبت فى اليوم التالى أطرق باب بيت الحاج أمين الحسينى ، مفتى فلسطين (وكان لايزال يعيش فى الزيتون) بالقاهرة وأقول له :

- إنكم فى حاجة إلى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين ! وفى الجيش المصرى عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع وهم تحت أمرك فى أى وقت تشاء .

وقال لى الحاج أمين الحسينى أنه سعيد بهذه الروح ، ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئًا .

ثم قال لى الحاج أمين : شوف أعطيك ردى بعد استئذان الحكومة .

وعدت إليه بعد أيام ، وكان رده وهو الرد الذى حصل عليه من الحكومة ، هو الرفض .

ولم نسكت ...

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تدك المستعمرات اليهودية جنوبى القدس . وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التى تحولت اليوم إلى قيادة مجلس الثورة .

وأذكر سرًا آخر كان ذات يوم أعلى أسرار الضباط الأحرار .

كان حسن إبراهيم قد سافر إلى دمشق واتصل ببعض ضباط فوزى القاوقجى وكان القاوقجى يقود قوات التحرير العربية ، ويستعد لمعركة حاسمة فاصلة فى المنطقة الشمالية من فلسطين ، ووضع حسن إبراهيم وعبد اللطيف بغدادى خطة جريئة للقيام بعمل حاسم فى المعركة التى تستعد لها قوات التحرير .

« وكانت الخطوط البارزة فى تلك الخطة هى أن قوات التحرير العربية ، لا تملك طيرانًا يساعدها فى المعركة ويرجح النصر إلى كفتها ، ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركّز فوق ميدان العملية ، لكان ذلك عاملاً فاصلاً ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية الطيران لتحقيق هذا الحلم .

ولم يتردد حسن إبراهيم وعبد اللطيف بغدادى وإنما قررا أن يقوم سلاح الجو المصرى ، بهذه المهمة ، ولكن كيف .؟ ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو المراقبة على القوات المسلحة (بما فيها سلاح الطيران) حذرًا ، متيقظًا ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ إلى تفاصيل الخطة .

بدأت فى مطار سلاح الطيران حركة عجيبة .. وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح طائرات وإعدادها ، وجهود واضحة فى التدريب سرت كالحمى فى نفوس عدد من الطيارين .

ولم يكن هناك إلا قلائل يعرفون السر ..

يعرفون أن الطائرات وقوادها قد اعدوا ليوم تجئ فيه إشارة سرية ، ينطلقون بعدها إلى الجو ليشتركوا بكل قوتهم فى معركة حاسمة على الأرض المقدسة ، ثم يتجهون بعد ذلك إلى مطار قريب من دمشق ينزلون فيه ويترقبون الأحوال فى مصر . ويتعرفون صدى هذه المعركة التى أقدموا عليها ، ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها ! ... » .

وهكذا أجهضت خطة للحرب الشعبية .

* * *

الفصل الرابع عشر : لا فرار من القدر

لا فـرار من القـدر

عندما تفجرت قضية « الصهيونية » فى فلسطين تفجرت المشاعر العربية فى صدور طليعة شباب مصر وطليعتها ، فهبوا للدفاع عن قرى فلسطين ، شاكى السلاح ، فى وجه الصهيونية ، الماكرة ، المدججة ، بسلاحها حتى الأسنان ، المدربة والمحصنة فى « كيبوتزاتها » ، مزارعها ؛ وكان هذا القطر العـربى وهو أكبر الأقطار العربية وأدعاهــا للمســؤولية يكاد حتى ذلك الحــين لا يكترث بما يجرى حــوله ، استطاعت أن تحيّده ، إذا لم تكن قد بلّدت مشــاعره الطوائف التى أقطعها محمد على وأسرته مصر واستوفدوها وكشفت عن عدائيتها ، سافرة بعد فشل هبة عرابى. واختفاء الصفة الوطنية ، صفة « المصرى » التى كانت ترفق باسم كل وطنى من أهل البلاد ، شعارًا يميّزه عن « الأعراب » .

وبدخول « الخديوى » والإنجليز إلى القاهرة وتمركزهم ، تحف بهم وترحب « جوقة » من تلك الفئات ، راحت تتبدل المظاهر وتتطور ويختفى بعضها ويظهر آخر بتأثير الأنجلزة والفرنسة بعد العثمنة والشركسة .. ومع تطور « الخديوية » إلى سلطنة ثم إلى ملكية تطورت الدولة حولها، ومن خلال هذا التطور تلاشت أصول « الجوقة » التى فرشت الرياحين للخديوى والإنجليز. وتغيّر كل شىء فى حياة المجتمع المصرى وتدبل إلا شىء واحد هو موقف « الفئات العليا » من الشعب المصرى ، صاحب البلاد . فقد ظلت تحمل فى نظراتها جميع معانى الازدراء والاستهانة بشعب البلاد . فلم تفرق حالها فى أوائل القرن العشرين عن حالها فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر عندما اعتبر عرابى نفسه ممثلاً لحزب الفلاحين أصحاب البلاد . وإذا كان مبررًا لحكم مصر ، بصداقة محمد على لفرنسا وبمطامحه وتطلعاته ، إبقاء مصر منعزلة ومعزولة عمّا كانت يجــرى فى الشمال الإفريقى العــربى ، وإذا كان مبررًا لهذا الحكم أن يعمى ويتبلد إزاء ما كان يختلج فى النفوس من مشاعر التحرر فى البلقان بحكم ولائه للدولة العثمانية وانصياعه لأوامرها ، فيتوجه لقمع ثورات التحرر ، رغم تعاطف الشعوب العربية معها .. فلم يعد له أى مبرر أن تبقى مصر فى عزلتها ، بعيدة هذا البعد عن أمتها ، بينما تقرر مصائرها فى أوروبا ، بل وأحيانًا فى عاصمتها نفسها : القاهرة . وكان أخطر قرار فى مصائر الأمة العربية ، قرار سايكس-بيكو لتقسيم جناح مصر الشرقى ، وللإعداد لوعد بلفور الذى يستهدف عزل مصر نهائيًا عن الأمة العربية .

من المؤسف الوصول فى أوضاع الأمة إلى مستوى من التردى للاضطرار للكلام فى عروبة قطر أكثر من قطر . فإن عروبة مصر ، ليست أمرًا مستعارًا ولا مستحدثًا ، ولم يحدثه الإسلام كما لم يحدث عروبة اليمن وفلسطين .. وإنما حررها الإسلام ، كما حرر سائر الأقطار العربية من الحكم الأجنبى .. ولم يفرض الإسلام ، ما لم يفرض فى أى مكان خارج شبه الجزيرة وإنما تقبلته .

فلا خيار فى عروبة مصر ولا خيار فى دورها . فقد جرب بعضهم فى مصر استعارة انتمائها الإفريقى ، واستعارة انتمائها إلى البحر الأبيض المتوسط وانتمائها إلى أوروبا ، واستعاروا لها العزلة . ولكن الحقيقة أقوى والقدر أثبت .

فالحقيقة التاريخية أن تطور الأمور آل فى الدولة العربية الإسلامية ، بعد المدينة ودمشق وبغداد ، إلى مصر وأن تتحصن بالقاهرة ,. بفرض من التاريخ والجغرافيا باركته الطبيعة . فليس عبثًا أن تتراجع الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامى وبهما العروبة ، أمام إغارة المغول (بتحريض قرة قورم فى الشرق ، ومن مسيحية أوروبا فى الغرب ، الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة) إلى مصر فآوت وحمت وأنقذت عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى عين جالوت . فصار على مصر وحدها أن تحمى تراث الحضارة . وأن تنشر آثارها ، فقد ذهب كل التراث فى كل البلاد ولم يبق إلا مصر . ولم يبق بلد واحد يستنجد به ؛ فلم تجد دولة الأندلس فى مأزقها الأخير سوى القاهرة تستنجد بها .

وقد عرفت مصر واجبها فى هذا الشأن . فأعادت الخلافة العباسية وآوتها ، وحفظت لها رسومها وحقها فى التوجيه والنصح والإرشاد ولاءمت بين حالة مصر السياسية فى ذلك الزمان وبين واجبها الجديد ، فلم تلبث أن صارت حاضرة الإسلام ، عليها عبء التوجيه العام فى كل بلاد المسلمين . وأدركت أوروبا ، بقيادة ملك فرنسا ، التاسع ، أنها لا تستطيع اقتحام المشرق وكسر شوكته إلا من قلعتها مصر ، فوقع هذا الملك فى أسرها بدمياط ، وكان ما كان وانتهت الحروب الصليبية : إلا أن ما لم ينته إليه الحال هو الظهور العربى . صحيح أن « الإسلام » فى هذا الخلط بين الإسلام والعروبة هو المنتصر . إلا أن الإرادة العربية كانت وراءه وما لم تعد الإرادة العربية إلى صحوتها فى قيادته فإنه سيستمر فى تخبطه .

وظلت الدولة العثمانية مع أنها أهملت وتجافت على كثير من القيم والمقدسات العربية ، حريصة على سلامة مصر كقلعة تحرس الأماكن المقدسة فى الحجاز ، فى كافة عصورها ، حتى جاء محمد على وأسرته فأباحوها لأوروبا .

لذلك فإن أحوال البلدان العربية هى الأخرى أيضًا تدعوها إلى الثورة ، فالناظر حينئذ إلى الأمة العربية ، بعد انعتاق مشرقها من إسار الإمبراطورية العثمانية ووقوعه فى إسار الاستعمار ، لابد من أن يكون على جانب كبير من اليقين بروابطه التاريخية وقيمه الموروثة ، حتى لا يتلاشى هو أيضًا مع تلاشيها ويضمحل ، فشمال إفريقيا منها فى قبضة الغرب « بدعوى أنه امتداد لأوروبا عبر البحر » ؛ ومصر والسودان تحكمهما فئة ، خير ما يقال فيها أنها مازالت تتغذى من عزلة محمد على لم تندمج ، وشبه الجزيرة : السعودية واليمن خامدة ، مستكينة ، تحت غطاء إسلامى فقد حيويته الحضارية وغاياته الحقيقية بعد أن أفرغت حركة محمد بن عبد الوهاب (الوهابية) من مضمونها ، وجردت من أهدافها التحررية لتحويلها إلى خدمة أسرة حاكمة ، تولت منفردة شؤون الدولة ، باعتقاد منها أن البلاد ملك لها حصلت عليه بالسيف ، شعارها . وكان همها بعد تقسيم المشرق أن لا يتحقق بين أقسامه تحالف ضد مصالحها - أى أن لا تتحقق وحدة أو التئام بين أجزائه . وهذا التقسيم الذى جرى أجرته دول أوروبا كانت إلى وقت قريب تحارب المنطقة بحجة إسلامها وهى تجيئها اليوم ، تمويهًا ، تحمل لواء الحضارة والمدنية والتقدم ، كما كانت تجارتها ، فيما مضى تحت راية الصليب ، وفى الحقيقة لا تسعى إلا إلى خيراتها والعبور منها إلى كنوز الشرق .

وحده هذا يقتضى ثورة . ثورة تزيل آثاره . وليس من الممكن إعادة الالتحام ، أو أن الطريق إلى إعادة الالتحام هو إزاحة القوى التى كانت سببًا فى الانفصام . وهذه القوى ، بالتحليل الصحيح قد

تركزت : فى الملك والأحزاب والاحتلال البريطانى ، وهى القوى التى تقف قناعًا أمام أبصار الشعب العربى فيه ، حائلاً دون قيامه بدوره .

* * *

وفضلاً عن مغبة التجزئة التى أوقعها الاستعمار لتقسيم المشرق العربى : إلى سورية ولبنان وفلسطين والأردن والعراق وما يتاح فى ظل التقسيم من إفساد وتخريب لوحدة الأمة وتفكيكها فإن الثورات والانقلابات العسكرية التى حدثت فى العراق وسورية . بقصد تغيير الواقع ومعالجة الخلل فى الأحوال السائدة لم تؤد إلى التحسين ، ولم يشعر الناس معها بتحسين أمانيهم ، ولم ترض تطلعاتهم الظاهرة والكامنة . ففى العراق حيث هيّئ للعاملين فى القضية العربية ، من أقطار عدة ، أن مركـز العمل انتقل إلى بغداد بانتقـــال فيصل إليها ما لبثوا أن خاب أملهـم وبـــدأ الحال يتكشف لهم أن المسؤولين الذين يعــلقون عليهم آمالهم مكبلين بمواثيق لقـــاء مراكزهـــم لا يستطيعون تجاوزها مما دعا إلى تكوين ترابط أسرى للعمل القومى يهدف إلى الوحدة باسم «الحزب القومى العربى»، أول من كشف عنه المرحوم الشهيد يونس السبعاوى فى العراق ، ونوه عنه جلال السيد فى كتابه عن البعث ، ولم يذكر اسم أحد من أعضائه إلا أسماء الذين توفوا واستشهدوا ، وفى مذكرات أكرم الحورانى التى نشرت مؤخرًا فقرة تشير إلى أن هذا الحزب كان منتشرًا فى حلب وسعى – أثناء ثورة رشيد عالى ، إلى عقد تحالفات لتأييدها .

فى وقت مبكر من تاريخ استقلال العراق ، بدأت الانقلابات العسكرية ، افتتحها بكر صدقى ، كانت دوافعه بالدرجة الأولى حلحلة تناقضات عرقية مستحكمة ، لم تكن تعنيه القومية العربية ، ولكن راح ضحية انقلابه قوميون عرب واعدون ، ضحية رخيصة . ذلك أن العراق المعبأ ربما أكثر من أى قطر عربى آخر ، مشحونًا بظروفه الداخلية وبما حاق به فى الحرب العامة وبانفعاله بقضية فلسطين : صار عرضة « للاستفزاز » ، من قبل الإنجليز مباشرة ، أو من قبل عملائهم الكثر .. ومع أنه جيئ بالملكية كعامل استقرار ، فإنه ظل متفجرًا .. بحركات وانتفاضات ولكن ميسّرة .. ، وكانت « ثورة رشيد عالى » « المأساوية » ، مثلاً للاستفزاز . الذى تفجرت فى ظروف مواتية لوحدة المشرق لو هيّئ لها النجاح ..

فمنطقة المشرق العربى كلها كانت متأججة بمشاعر العروبة ، وشائج روابطها حيّة لم تكن الإرادات المحلية قد توصلت بعد ، بقصد أو بغير قصد ، إلى تفكيكها بقوانين مشبوهة .. وكان فيصل ، الملك فيصل ، فى آخر أيامه قد أخذ يعتصره الندم ويفتح قلبه على تطلعات المنطقة ، حتى قيل إن وفاته لم تكن لذلك طبيعية(597) .. وجاء الملك غازى تحركه رغبة الشباب العارمة لتحقيق وحدة المنطقة لإنقاذ فلسطين ترافقه إذاعته فى سيارته المفضلة ، تحرّض وتدعو حتى لقد ملأ قلوب الناس وأيقظهم فى بلاد الشام كلها .. قبل أن يعاجله الإنجليز وعملاؤهم بمؤامرة تودى بحياته(598) وينصبون ، بالتواطؤ عميلهم الأمير عبد الإله وصيًا على فيصل الثانى ..

وبالقضاء على الملك غازى ، تلميذ داعية الوحدة العربية ، ساطع الحصرى ، المتربى على يديه ، لم تخل العراق وتصف للإنجليز وعملائهم ؛ كان مايزال هناك يتهددهم « المربع الذهبى » الواعد المتمثل فى صلاح الدين الصباغ (سورى الأصل) وفهمى سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب ؛ وكذلك فى الحزب القومى العربى ، البارز منه على السطح درويش المقدادى ويونس السبعاوى الذى ساومه نورى السعيد على عدم تنفيذ حكم الإعدام فيه لقاء الإعلان عن ندمه لاشتراكه مع

رشيد عالى فأبى .. وكان استفزاز الحكومة البريطانية لحكومة رشيد عالى يرمى فضلاً عن التخلص من هذه الرؤوس الواعدة وما تخفيه وراءها من مكامن الخطر على وجود الاستعمار .. إلى إطفاء شعلة القومية المتأججة فى العراق فى فترة كان الحال فيها بسورية ، بعد انهيار فرنسا وقيام حكومة فيشى وحكومة « المديرين » فى دمشق قد طغت فيها على الألسن بقوله : « فلتنصرف فرنسا إلى تحرير فرنسا من الألمان قبل أن تستعمرنا » ؛ وبدأ التحفز للتحرر عامًا . وكان من دواعى الحماس لثورة العراق فى سوريا ، والسعى للالتحام بها ما راج من أن وقوف حكومة العراق فى وجه مطالب الإنجليز هو امتناعها عن إعطاء وعد بالتخلى عن وعد بلفور لليهود بفلسطين . ومن المؤكد أن اتخاذ المفتى ، الحاج أمين الحسينى وحوله عدد كبير من فدائيى فلسطين مقرًا دائمًا له فى بغداد يشير إلى العلاقة الحميمة بالثورة .

ولم تكن أحوال العراق هذه بعيدة عن ذهن شباب الجيل المتفتح باتجاه البلاد العربية خارج حدود مصر . فقد كان عزيز على المصرى ، وهو أحد رجالات القومية العربية وثيق الصلة بالعراق. وكان الإنجليز يراهنون عليه ، فى تحرير البلاد العربية من الإمبراطورية العثمانية(599) وكان الألمان من جهتهم يأملون بقيادته لثورة رشيد عالى للتحرر من الإنجليز ، وحاول عزيز على الهرب بطائرة من مصر للالتحاق بها فلم يفلح . وكان محمد صبيح وشباب مصر الفتاة يتعاطفون معها . وذكر محمد سلمان أحد وزراء رشيد عالى وهو عضو فى الحزب القومى العربى، أنه تلقى رسالة من جمال عبد الناصر يسأله فيها عن الوسيلة لمساعدة ثورة العراق(600) وكتب صلاح نصر قائد الكتيبة التى نفذت خطة 23 يوليو فى مذكراته إنه عندما سأله جمال عبد الناصر رأيه فى عزل الملك فاروق أجابه قائلاً : « لن يستقيمالأمر للثورة إلا بإلغاء النظام الملكى وطرد فاروق ، وإلا سيتأهب للانقضاض علينا كما حدث فى ثورة رشيد عالى بالعراق »(601) مما يدل على أنها كانت موضع درس . وكان ما وصـــل إلى علم « الضباط الأحـــرار » فى حرب فلســطين (1948) عن طريقزميلهم أمين شاكر رئيس مصلحة الإشارة ، عن أسباب نكوص الجيش العراقى عن تطبيق خطة الإطباق على تل أبيب بحجة « ماكو أوامر »(602) وحده يكفى لإعطائهم فكرة عن كيف يستطيع الاستعمار بواسطة عملائه المحليين ، كنورى السعيد ، حبس طاقة شعب عن المشاركة فى تحرير بلاده وتحويلها إلى خيانة قومية(603) وهكذا كانت الاستغاثة فى أنين الشعب العراقى من تحت كابوس الاستعمار ، تنظر من يستجيب . وقد حملت مذكرة الشهيد العقيد صلاح الدين صباغ إلى جمال عبد الناصر وما تضمنته كلمة ابنه نزار إليه ، وقت أوج احتدام المعركة بين القومية العربية وحلف بغداد، أقوى معنى لاستجابة ثورة 23 لأنين الشعب العراقى(604).

ولم تكن سوريا أقل تطلبًا إلى الثورة التى تحمل التغيير .. كانت فى غليان .. وبتأثير هذا الغليان كان امتناع قسم كبير من « الفيلق العربى » على أوامر جون باغوت كلوب للذهاب إلى العراق لإخماد ثورة رشيد عالى ؛ وكانت المبادرة للتطوع للذهاب إلى العراق للانضمام إلى الكفاح ضد الإنجليز من سوريا ولبنان وفلسطين ، وسرعان ما تشكل المقاتلون حول فوزى القاوقجى الذى ظل يقاتل فى العراق حتى إلى ما بعد انفراط عقد وزارة رشيد عالى . واتخذ الحاج أمين الحسينى ، مفتى فلسطين بغداد مقرًا ، وساد رأى أن وقوف وزارة رشيد عالى فى وجه رغبات الإنجليز كان من أجل فلسطين . وكان على رأس المتطوعين للقتال ومازال أسماؤهم بارزة مؤثرة فى العمل بسوريا حتى الآن الدكتور جمال أتاسى ، منير الريس ، أكرم الحورانى ..

وكان مجيئ حكم فيشى المهلهل مناسبة لسوريا « قلب العروبة » ومنطلق «الفكرة العربية» أن يرتفع صوت منها ، وأن تتحرك باتجاه الأهداف القومية ، ولكن ولا صوت : كانت قيادات سورية حينئذ : شكرى القوتلى ، هاشم الأتاسى ، سعد الله الجابرى ، جميل مردم ... إلخ معنيين بالموازنة بين مراكز القوى فى البلاد أكثر من عنايتهم بالوحدة القومية ، أو بالأحرى ليس بينهم الكفء لها .

ولعل السبب يعود إلى ما جاء فى كتاب فيليب خورى الموثق أن « الدعوة الألمانية تصاعدت منذ قام المسؤول النازى فن هنتغ فى شتاء وربيع 1941 بزيارة سوريا ، ووزع هبات سخية على عدد من الأفراد والتنظيمات بمن فى ذلك شكرى القوتلى والكتلة الوطنية ومجموعةمن الملاكين الكبار وعدة مجموعات من الشبيبة الراديكالية »(605) . ومن يقرأ مذكرات قادة العدو الإسرائيلى حينئذ يحس بخوفهم من أن يغتنم رجالات سوريا والعراق الواقع المواتى فيقيموا وحدة بينهم ، وأكثر ما نبههم إلى ذلكم فتك أهالى بغداد بالحىّ اليهودى ؛ وتجنبًا لتكرار ذلك قاموا بتهريب الأسلحة إلى العراق وتسليح اليهود(606) .

وعندما قدمت إدارة فيشى فى سوريا ولبنان إلى دول المحور قواعد جوية وتسهيلات أخرى لمؤازرة حركة رشيد عالى أخذت بريطانيا تعد لغزوهما فبدأت بإرسال منشورات عربية مطبوعة فى الأردن تدعو إلى الوحدة العربية وزّعت فى دمشق ، ثم أوفدت أسمهان ، آمال الأطرش ، المغنية ن عن طريق فلسطين اتخذت من فندق الشرق بدمشق مركزًا لها ، وراحت تتصل برجالات سوريا وتقدم لهم هدايا ، وكان الغرض مما اتضح من اتصالها بأسرتها من آل الأطرش فى جبل العرب ، العمل على تحييد ، إن لم يكن كسب القوى الشعبية إلى جانب الغزو البريطانى – الديغولى القادم وإذ أحست بأنها لفتت نظر السلطات الفيشية هربت عائدة إلى فلسطين فى زى عبد للأمير فاعور الفاعور بطريق قبيلته فى الحولة . وما لبثت بعد لأى أن ظهرت إلى جانب الجنرال سبيرز فى سيارته قادمة من بغداد . وعندما استفحل دور أسمهان ، ولم تعد القوى التى استخدمتها قادرة – على ما يبدو – على ضبط اتصالاتها ، التى تعدت البريطانيين إلى الديغوليين إلى الألمان فى تركيا ، تدبرت أمر تصريفها بحادث مريب . فراحت وراح معها معرفة مجال نشاطها . وأيًا كان الأمر فلم يكن ينتظر من رجال سوريا المتنطحين للقيادة أن يعدوا لثورة تستهدف تحقيق الآمال وتشفى الغليل بالتحدى . كان همهم التزاحم على الصدارة ، فدبروا تصريف الدكتور عبد الرحمن الشهبندر – وإن برأهم القضاء من اغتياله إلا أن أصابع الاتهام مازالت تشير إلى بعضهم حتى الآن ؛ ولئن كان الوجود الفرنسى فى حكم فيشى ، بات كسيف الهيبة ، بانكسار فرنسا أمام الألمان وشماتة الناس بها ، فإن الغزو البريطانى – الديغولى لم يرفع من مستوى فرنسا كثيرًا .

فبهذا الغزو باتت الهيمنة للبريطانيين ؛ وأصبحت « مشكلة » المتزعمين هى كيف يستطيعون التحول من فلك السياسة الفرنسية إلى الفلك البريطانى . وليس لديهم الوقت لطرح « الفكرة العربية » والمنـــاداة بها والترويج لها . خصـــوصًا وأنه ليس فى الساحة زعيـــم قادر على التحرر من القطبين الممسكين بسوريا : السعودية والعراق . فقد حصر شكرى القوتلى مشكلته الرئيسية فى إقناع بريطانيا بأنه « لم يكن أداة لدول المحور » وبأن علاقته الحميمة السابقة بالألمان لم تكن سوى تكتيك بحـــت . ذلك بأن بسط نفوذ بريطانى مباشر فى سوريا وســع نطاق خيارات القادة الوطنيين ، وشكرى القوتلى ، وفقًا لتقليد أعيان المدن السوريين ، سارع إلى التحرك للاستفادة من الموقف الجديد(607) ، والأمر الذى وسع اتصالات القوتلى بمسؤولين بريطانيين – على حد ما يقول الدكتور فيليب خورى هو قراره استغلال مناسبة الحج إلى مكة كى يقصد منفى من اختياره

انتهى به إلى بغداد فى آخر الأمر(608) . حيث وجد أمامه لطفى الحفار وجميل مردم بك ، فارين من دمشق أو أفسح لهما المجال للفرار ، خشية الاتهام باغتيال الشهبندر .

وبات جليًا ابتداء من عام 1942 تحمس البريطانيين لفكرة التعاون مع القوتلى . أحس بذلك حقى العظم الذى جاء من محل إقامته فى القاهرة بمصر بقصد جس النبض لترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية ، بل حسبه بذلك رفاقه الفرنسيون(609) كذلك كان رأى فوزى البكرى الذى جاء من القاهرة لهذا الغرض أيضًا .

حينئذ فى هذا الزحام على المصالح كان زخم القومية العربية فى الأوج ، وكان من المتزاحمين من شارك فيها . وكانت سوريا الكبرى بالكاد خرجت من محنة « حركة الثورة » أو حركة الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية التى آلت إلى عروش للهاشميين ؛ ومازال أكبر تحدى لهذه القومية هو الوصول بها إلى نوع من الوحدة .. ودون أن يقصد أحد فقد برزت خلال الحرب العالمية الثانية حقيقة كبرى تلك هى أن المنطقة من وادى الفرات إلى وادى النيل – وسوريا وسطها . أصبحت وحدة واحدة ، لها خصائص مشتركة وبينها تكامل جغرافى لا يمكن قطعه وأمن يصعب الفصل بين مقتضياته ، ومصالح متصلة ، وتمثل ثقافى من نوع فريد ومركز متصل واحد . فى القاهرة ليس من السهل تقويضه . وقد أسكت مركز التنازع : السعودى والهاشمى وأبطل عملهما . وكان المرء يستطيع الانطلاق من بغداد بالسيارة أو بالقطار إلى القاهرة، وكان وزير التموين البريطانى اللورد موين من القاهرة يتحرك بقدرات المنطقة التموينية . ولم يرتفع رأس عربى واحد مستوعب للمرحلة ، يرفع علم الأمة ، جميع الرؤوس كانت غارقة بمصالحها الجزئية .

بخلاف الانقلابات فى العراق بدأت الانقلابات فى سوريا بعد إخفاق « الجيوش » العربية فى تحقيق مهامها فى فلسطين ونكوصها تجر أذيال الخيبة . فهال الناس كثيرًا أن تنكسر هذه الجيوش أمام اليهود ، وهم يعرفون من يكون اليهود ، ولكن لم يكونوا يعرفون الصهيونية وكيف يمكن لتنظيم حديث أن يغير الشعب . بدأها حسنى الزعيم وظن الناس أن انقلابه على الفساد لمداواة جروحهم وهلّلوا له . فقد كان التسيّب يعم أطراف البلاد والمحسوبية ، والسـرقات والتخريب والتجارات المحرمة ، لم تشفِ الغليل فيها الدعاوى التى لا جدوى منها أمام المحاكم . وهم رئيس البلاد تكريس زعامته ، وربما كان الحزم الوحيد فى البلاد ملاحقة « رعاع » الكتلة الوطنية إضرابات الطلاب بالهراوات . وقيل إن حسنى الزعيم طاف بشكرى القوتلى فى مصفحة يريه فرحة الناس بالشوارع مما أقنعه بالاستقالة. وما عتم أن خاب الظن، وظهر أن دافع الانقلاب كان الموافقة على توقيع اتفاقية التابلاين التى طال الجدال فيها ، وإخفاءً لفضائح تموينه بالجيش، فأراد حسنى الزعيم أن « يتغذى » الحكم قبل أن « يتعشاه »(610) .

ثم تبعه انقلاب سامى الحناوى عليه لـ « تصحيح « الأوضاع وتغيير الاتجاه من السير فى فلك السعودية إلى الدخول فى فلك « الهاشميين » .. وجاء انقلاب الشيشكلى ليرد البلاد ، وهى توشك على الاتفاق مع بغداد ، إلى لعبة التوازن .. وكانت المبادئ القومية ، فى كل هذه الانقلابات ، للإعلان ! وما دام هذا هو شأن سوريا . فلم يبق للأمة العربية إلا الترقب .

كانت التجربة فى فلسطين أدعى للثورة وللوصول بها إلى امتلاك زمام قوة لا خديعة فيها ولا تآمر . فحرب فلسطين وحدها ، لا تكشف بالتجربة عن التخلف والتفكك والصراع العشائرى ومداخلات الاستعمار وغياب القيادة المالكة لزمام الوعى بالواقع وبما تريد.. إلخ، ولكنها تكشف أيضًا عن

الخلل فى المجتمع العربى كله أيضًا . فإنها تكشف بالتالى أن الأمة العربية أخذت فى حرب فلسطين على حين غرة . سواء فى المناوشات التى كانت تحدث قبل الانتداب بين الذين أتوا للاستيطان وإقامة المشاريع من الصهاينة وبين أصحاب البلاد ، أو المقاتلة فى ظل الانتداب أو فى الكمين المقصود من وراء إنهاء الانتداب البريطانى لاستجرار « الجامعة العربية « إلى قرار بدخول الجيوش العربية وهى عارفة سلفًا بأن فشلها أكيد .. إلخ فالمنظمة الصهيونية تعرف بوضوح ماذا تريد فى فلسطين ، وفد أرست القواعد التى تمكنها مما تريد ؛ بينما العرب لم يتوصلوا لمعرفة قوة الوافد لامتلاك قطعة من بلادهم ، ولا مدى أبعادها ، ولم يستوعبوا تقسيم بلادهم ؛ بدأوا بالاستيعاب بعد التجربة ؛ وكشفت حرب فلسطين عن الصلة العفوية التى تربك مصر التى فصلها محمد على بالبلاد العربية .

فى ظل هذه الأوضاع جرت تجربة الحرب فى فلسطين .. وقد عبر عن شعوره بها وهو يستذكرها قائد التنظيم الذى كان يسوق إلى الثورة ، بعد خروجه من المعركة بأقل من أربع سنين، فقال : وأحيانًا كنت أهبط من ارتفاع النجوم إلى سطح الأرض ، فأحس بأننى أدافع عن بيتى وأولادى ، ولا تعنينى الحدود الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ !

« وكان ذلك عندما ألتقى فى تجوالى فوق الأطلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا فى براثن الحصار بعد أن خربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون ؛ وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت فى مثل عمر ابنتى ، وكنت أراها وقد خرجت إلى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش .

وكنت دائمًا أقول لنفسى : « قد يحدث هذا لابنتى » .

« وكنت مؤمنًا بأن الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث - ومازال احتمال حدوثه قائمًا - لأى بلد فى هذه المنطقة ما دام مستسلمًا للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن .

« ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك فى فلسطين وعدت إلى الوطن كانت المنطقة كلها فى تصورى أصبحت كلاً واحدًا » . فهل هناك كلام قومى أبلغ من هذا الكلام .

وهكذا أصبحت عودة الأجزاء المنقسمة إلى التحامها حقًا طبيعيًا ، لا افتعالاً وسعيًا للتوسع، كما توهم الجاهلون ، المغرضون . وهذا هو الدرس الأول الذى يجب أن نعيه من قضية فلسطين ومن وعد بلفور ، ومن الصراع مع الصهيونية : وهو أن القوى المعادية عمدت إلى تقسيم الأمة العربية لإفساح المجال لتحقيق هذه الأغراض ..

ومن خلال شعوره بالانتماء ، الرافض لكل ما أجراه الاستعمار ، الثائر على كل ما حدث لمصر من قيود ومن إبعاد .. بدت له المنطقة كلاً واحدًا موحدًا معطلاً ، ينتظر من يحرره ويطلق طاقاته . وهو يرى فى ذلك القيام « بدور تفاعل وتجاوب مع كل العوامل المتبدية يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها ، وتقوم بدور إيجابى فى بناء مستقبل البشر».

كان إحساسه بالظروف التى نشأ وسطها ، ثم ظروف الإسكندرية التى انتقل إليها ، ثم ظروف القاهرة بعدها وبظروف الحياة التى يمارسها تدعوه أن يستجيب لفهمها فيقرأ ويبحث ويسأل ويضع كل ما يصل إليه فى خدمة ما بدأ يرتسم فى ذهنه ؛ لا تستغرقه القراءة ، وليست للتسلية وتقطيع

الوقت ، ولا هى كما قال ريمون أرون فى كتابه أفيون المثقفين للذة ذاتية وإنما كرجل عملى يحس إحساس من يتوق أن يكون له دور ما ، يوظف ما يقرأ فى خدمة هذا الدور . فينفعل بما يقرأ انفعال الفاعل ؛ فقد اختار الجندية ، ولم تكن تبرح باله قضية مصر ؛ وقضية مصر من خلال قضية الأمة العربية ، مندمجة غير منفصلة .

لقد اختار الجيش لأنه على الأقل يتلقى تعليمًا واحدًا متجانسًا ، ويواجه قضايا لا خلاف عليها ، يختلف تلقيه أيًا كان عن تلقى التشتت الذى يتلقاه المدنيون من المناهل العلمية المتعددة المتناقضة . ومن أوج الفوران الذى كانت تفور فيه الأمة العربية استذكر مسرحية للكاتب الإيطالى الشهير : « ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف « فراح يتساءل عن دور مصر فقال :

« ولست أدرى لماذا أذكر دائمًا عندما أصل إلى هذه المرحلة من أفكارى قصة الكاتب الإيطالى الشهير ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف :

« إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه، ولست أدرى لماذا يخيّل إلى دائمًا فى هذه المنطقة التى نعيش فيها إن دورًا هائمًا على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست أدرى لماذا يخيّل إلى أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعبًا منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه، فإن أحدًا غيرنا لا يستطيع القيام به . (كان بحس المنتمى يعى بأن هذه الأمة بحاجة إلى أن تسترد وحدتها) وأن مصر يجب أن تؤدى دورها فى تحقيق هذه الوحدة .

« ثم يتابع سلسلة أفكاره فيقول : « أن الدور ليس دور زعامة » .

« إنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل يكون شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها ، وتقوم بدور إيجابى فى بناء مستقبل البشر » .

لم يكن جمال عبد الناصر وحده الذى ينفعل بواقع الحال ، ولا كانت مصر وحدها حائرة أمام مآزق المصير التى تواجهها أثناء تلك الموجة القومية العاصفة التى تجتاح العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، كان هذا حال الأقطار العربية الأخرى وإن تفاوت أحدها عن الآخر . وكان هناك فى أحد الأقطار شخص آخر يتميز بالتأثر بمسرحية بيراندللو . بينما هو يتحفز للإقلاع عن مهنة الأديب للقيام بدور تأسيس حزب وحدة عربية استجابة لدواعى القومية ، يتساءل ليقطع فى تردده يحسم قلقه ، بحس الفنان : إذا أنا لم أقم بهذا الدور فمن ذا يقوم به ؟

إلا أن جمال عبد الناصر كان يطرح التساؤل على نحو آخر « كان يقول « وكنا نقول إذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به ؟ » .

« لكن الأهم من كل ما كنا نقوله أننا كنا تشعـر شعورًا يمتد إلى أعماق وجودنا بأن هذا الواجب ، واجبنا وأننا إذا لم نقم به فإننا نكون قد تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حملها .. » .

كان تساؤل جمال عبد الناصر باسمه واسم رفاقه فى تنظيم الضباط الأحرار ، وكان تساؤل ميشيل عفلق عن دوره وحده(611) هو قبال أن يبدأ فى تجميع نواة الحزب . وهو مايزال فى مرحلة التردد ما بين الاستمرار فى طريق الأدب الذى بدأه أو انتهاج طريق جديد فى العمل القومى . وقد

اعترف هو نفسه بهذا التردد ، وكان لجمال عبد الناصر فى إيمانه الدينى عاصم من القلق ، وبل من التردد أيضًا . وكان تطوافه بالحركات : كالإخوان ومصر الفتاة والشيوعيين .. إلخ . التى تقدمته ، بمثابة اختبار وتأكد لا من قبيل التردد والانتهازية ، كما يزعم قصير النظر .

تنظيم الضباط الأحرار يقتحم الساحة بقيادة جمال عبد الناصر

مساء 22 يوليو / تموز 1952 وفجر 23 يوليو / تموز 1952 ، كان تنظيم الضباط الأحرار، داخل الجيش المصرى هو الذى اقتحم الساحة ،واستطاع بلورة وتوجيه واستغلال الحالة الثورية ، وأطاح بأسرة محمد على ، وبكل النظام الذى كان يمثل السلطة تحتها .

كان تنظيم الضباط الأحرار هذا قد أنشئ بفكر وجهد ضابط شاب ولد سنة 1918 لأب من أقاصى الصعيد فى قرية تدعى الخطاطبة وأم من شواطئ بحر الإسكندرية ، وقد عاش حياة مصر بحياته فترة ما بين الحربين ، طفولته وشبابه ، واكتشف مبكرًا أن اهتماماته العامة تتعدى همومه الخاصة .

وفى ميادين اهتماماته العامة حاول أن يستكشف كل مراكز التأثير الظاهر : شدته حركة مصر الفتاة فى مرحلة ، ثم تأثر بالوفد فى مرحلة ، ثم اقترب من الماركسيين فى مرحلة حتى قيل أنه كان له اسم حركى ، واقترب من الإخوان المسلمين وحضر للشيخ حسن البنا ؛ ومنذ اليفوعة بدا أنه يتحرك بشعور وطنى غريزى . فقد كتب رسالة لرفيق له يحرضه على العمل الوطنى ويقول له محرضًا : « .. وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. فإذا أعددنا »(612) ولعله اختار الانخراط بسلك الجندية بهذا الدافع . وقد رفض القصر ؛ كما نأى بنفسه أيضًا عن تيار سرى بين ضباط الجيش الشبان مشايع للقصر .. وكان « الدين فى يقينه أكبر من كل صراعات السياسة والحكم والمذاهب .. » فنأى به عن الماركسية . بل وعن القلق الفكرى .

وشتاء الظروف أن يخدم فى السودان ، ضمن الكتيبة المصرية المرابطة فيه بمقتضى اتفاقية الحكم الثنائى للسودان بين مصر وبريطانيا ، ثم تقوده نفس الظروف فإذا هو ضابط يحارب فى فلسطين ، حيث يمتحن أشد الامتحانات فى حصار الفالوجا وعراق المنشية ، ثم يعود إلى مصر بعد الحرب ليعمل أستاذًا للتاريخ العسكرى للشرق الأوسط وللاستراتيجية العامة .

وقد قاده هذا كله إلى قراءات واسعة فى التاريخ والاستراتيجية ، وبالتالى فى السياسة ، متفقة مع اهتماماته ، وفى نفس الوقت ضرورية لعمله . فقد صنف جورج فوشيه(613) الذى تتبع قراءات جمال عبد الناصر منذ أن كان طالبًا فى مدرسة النهضة الثانوية إلى ثلاث فئات ، ويذكر عددًا من أهم قراءاته: فى رأس القائمة : المدافعون عن الإسلام، وهو كتاب قدم له الزعيم الوطنى مصطفى كامل ، وقرأ سيرة مصطفى كامل التى دفعته مرات عديدة للتوجه إلى المكتبة الوطنية لينقب بين الصحف عن المقالات التى كان ينشرها الزعيم الوطنى . وقرأ حينئذ طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبى ، التى تنشر بدون إشارة لاسم المؤلف ، وقرأ « أم القرى » ، المغفل أيضًا من ذكر اسم المؤلف ، وهو كتاب يتخيل فيه المؤلف : عبد الرحمن الكواكبى مؤتمرًا عقد فى مكة واشتركت فيه كل الشعوب الإسلامية . يبحث المؤتمرون فيه عن الأسباب التى أدت إلى تخلف الشرق ، والوسائل التى يستطيع بها التخلص من أخطائه ويتحرر من الأجنبى . إن نظام الحكم ملكى فى بعض بلدان الغرب ، ومع ذلك فإن هذه البلدان فى تقدم مستمر . والمصيبة بالنسبة للبلدان الشرقية هى أن أمراءها يعيشون فى البذخ والترف دون أن يوجهوا أدنى اهتمام إلى حقوق الشعب وحاجاته

. وغير هذا ففى الكتاب وقفات لابد أن جمال عبد الناصر أطال النظر فيها . فممثل الإسكندرية فى المؤتمر وقف ليعلن :

« إن تخلفنا ناتج عن كبوتنا التى انقلبت إلى غفوة طويلة ، والذى ينقصنا هو القائد ، الزعيم ، الذى يكون شريفًا وقدوة للشعب ، وينقصنا أيضًا رأى عام قوى .. » .

وفى ختام المؤتمر بعد تحديد جوهر الإسلام ، يختار المؤتمر مصر مركزًا لهذه الحركة بسبب تقدمها فى حقل العلوم ، والدور البارز الذى تلعبه بين الشعوب الإسلامية .

ويذكر جورج فوشيه غير ما كان جمال عبد الناصر يلتهمه التهامًا مما تكتبه الصحف الوطنية.. أنه قرأ كتابًا يحتوى على سير أكبر رجالات فرنسا فى التاريخ، وأعجب من بينهم باثنين منهم هما فولتير وروسو . وأنه « بعد تعيينه فى لجنة تحرير مجلة مدرسة «النهضة المصرية » كتب فى تلك المجلة مقــالاً بعنوان : « فولتير رجل الحـــرية » وفى المقالة برز إعجابه بصفات فولتير. ولا سيما ثورته ضد الفساد فى الحكم والروتين ورجال الدين والكنيسة . حيث قال فيها : « لقد كافح المفكر طويلاً كى يبقى دائمًا مفكرًا حرًا من كل قيد » .

« إن روسو وفولتير اللذين أعدا إعدادًا كافيًا ثورة سنة 1789 يأتيان فى طليعة قادة القرن الثامن عشر .. » .

وإلى جانب رواية البؤساء لفكتور هيغو ، ترجمة الشاعر الكبير حافظ إبراهيم التى قرأها بشغف ، قرأ سيرة نابليون وغاندى والإسكندر الكبير ويوليوس قيصر . قراءة من يريد أن يفهم الحياة ، ويدرس المجتمع ويفتش عن حلول للمشكلات التى تبرز فى الحياة لا قراءة من يدرس لتقديم امتحان . فقد قرأ رواية ديكنز « قصة مدينتين » التى تدور حوادثها بين باريس ولندن وخرج من قراءتها ، وقد استنتج ان العنف لا يقود إلا إلى العنف ، وأن السياسة الفضلى هى تلك التى تتحاشى إراقة الدماء ، وفى كثير من المواقف كان هـــذا هو رأيه . ففى مجلس الثورة كان جـــمال عبد الناصر يعارض زملاءه ، ويذكرهم بكتاب ديكنز ، وينصحهم بقراءته(614) وجاء رأيه هذا المخالف للعنف وللاغتيالات واضحًا فى فلسفة الثورة .

وهكذا فإن قراءاته الواسعة فى التاريخ والاستراتيجية وفى السياسة والأدب .. كانت مثقفة مع اهتماماته فى الثورة ومعاناته لقضية بلاده : قراءات عقل كالمرجل يغلى قادر على الصهر ، والتمثل ، لا ذاكرة للحفظ .

وكل من قرأ « فلسفة الثورة » ، لابد أنه لفت نظره كلامه عن مسرحية بيراندللو .. فى تحريضه على العمل ، كما أثرت فيه قصة مدينتين ، التى ذكرها فوشيه .. كما كان واضحًا تأثير قراءاته المبكرة . وكان ذلك كله عمل تأهيل قدير وعميق لحلمه فى الثورة . وبفضل انصهار ما يقرأه وعمق معاناته وحرصه على النجاح .. جاءت نظريته فى تحقيق الثورة على النظام الملكى المتهالك محصلة بالغة الدقة والكفاءة ، بل والبساطة ، لهذه الترجمة الواسعة كلها .. بمحاكمة كما يلى :

1 - إن مصر مهيأة للثورة (وهى تعيش حالة الثورة : ثورة حقيقية بمجمل أوضاعها وظروفها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى وصلت إلى طريق مسدود بحريق القاهرة وتآمر رأس السلطة وما يعنيه ..) .

2 - إن الشعب غير قادر على التحرك لأن النظام الملكى يستعمل الجيش ضده كسلاح للإرهاب ، وتغلغل التيارات الأجنبية جعل الفئات الواعية فى الشعب بؤرًا متنافرة .

3- إذا انتقلت أداة القوة وهى الجيش من سيطرة الملك ، وانحازت للشعب فإن الشعب سوف يتحرك ضد النظام .

وهكذا كانت خطة الثورة متناهية فى بساطتها ، متناهية فى كفاءتها فى ذات الوقت(615) .

وبدافع شبه غريزى كان اختياره للجندية ، وربما كان عدم قبوله فى أول دورة للكلية الحربية بعد حصوله على الشهادة الثانوية حافزًا إضافيًا لذلك الدافع . ومن هنا ليس من المستبعد أن يكون قد بدأ بتنظيمه « الضباط الأحرار » ، منذ خطوته الأولى فى الكلية الحربية ، فإذا لم يكن تنظيمًا بالمعنى الصحيح . فعلى الأقل كان اختبارًا للأشخاص والصداقات . لواحد مثله ، متلهف للعمل والمشاركة ، وبدخوله إلى الكلية ، دخل إلى الوسط الآمن ، نسبيًا ، ففى سنة قبوله بالكلية الحربية بدأت على ما يذكر ثروت عكاشة : « .. أولى تكوين مجموعة من الضباط هى مجموعة من الضباط الذين يدينون لمصر ، بدأها الملازم محمد وجيه خليل أسماها « رجال الفداء »(616) انضم إليها هو ثروت عكاشة نفسه ومحمد أحمد صادق ، وأصدر تنظيم هذه المجموعة أولى النشرات المحرضة. وفى أوائل الأربعينيات، وبالتحديد عام 1942نشطت فى الجيش التنظيمات حتى بات لكل سلاح تنظيمه الخاص(617) وشاعت منشورات مختلفة تصدرها تلك التنظيمات منها ما هو صادق ، ومنها ما هو مدسوس بقصد التشتيت . وحينئذ انتشرت أخبار تنظيم الملك ، التنظيم الحديدى وتعقبه للضباط الوطنيين بالاغتيال . وكانت مرحلة من الصراع داخل الجيش تكشف فيه التيار الوطنى وتعمق ، وبرزت الولاءات فيه ، وراحت الانتماءات تتبلور .

فى هذا المناخ اكتشف جمال عبد الناصر طريقه . لأن الجيش ، فى هذه المرحلة ، نتيجة ظروف كثيرة ، صار بالمحصلة هو البيئة الوطنية الأفضل ولعلها الأسلم ، رغم كل ما يتخلله من ملاحقات البوليس السياسى ، حيث يجد المرء : « .. حياة عسكرية صارمة مليئة بالمشاق حافلة بالدروس البناءة فى تنشئة الشخصية .. من اعتماد على النفس . ومنافسة شريفة وتعاون كامل مع الفريق، وتمرس روح الجماعة، والشعور بالانتماء الذى لا يفارق الرجل مدى حياته..»(618) وكان ينعقد بين الأفراد المتجانسين « أمل السعى إلى تطهير الجيش أولاً ، ثم خلاص الوطن من الاستعمار ومن الظلم ومن الطغيان .. » وقد وصف ثروت عكاشة ذهنية رفاقه من الضباط الوطنيين قال : « ولم يكن معدى من أن تغدو الأحوال السياسية المضطربة فى تلك الظروف التى كانت تمر بها البلاد والثورات الشعبية المكتومة والاضطهاد والعسف هى محور الحديث الشائع بيننا، والذى تجرى به ألسنتنا، وكنا نحس فى هذا الوقت والجيش فى ظل كثرة من القادة ليس لهم من ثقتنا نصيب أنه لزام علينا أن تتناول أحاديثنا ما عليه الحال العامة ، وكنا نحن الضباط أنفسنا أولى الناس بالحديث عن هذا ، فكم كنا نحسّ أن الشعب الساخط يرانا شركاء فيما ترتطم به البلاد من فساد ، وأننا حماة هذا الفساد ، ومعنى هذا أن الشعب كان يرانا العقبة الكأداء فى سبيل تحقيق ما يطمح إليه . وما من شك أن هذا كان يجرح كبرياءنا ، ونحن مع الشعب ومنه»(619). وهكذا بدأ يتشكل الحلف بين الضباط الوطنيين والشعب ، فى ظل تلك الظروف العصيبة . بل يتشكل الاندماج لتصبح الأهداف واحدة ، ويصبح الجيش وطنيًا .. مما مكن جمال عبد الناصر من صياغة مبادئ الثورة الستة ، والوصول إلى انعقاد الإجماع عليها . ولعل أحد جوانب عبقريته يكمن هنا ، فمن

الواضح أن تطلّعه ، منذ البداية ، يتجاوز حدود هذه المبادئ ، بل لعل قصور همم رفاقه عن اللحاق به كان السبب فى تساقطهم على الطريق ، وتنحيهم ، تباعًا عن مراكز السلطة .

ليس ذلك ، لأن الجيش لكونه مؤسسة عريقة منذ زمن محمد على ، كان هو الملاذ ، كما يظن الأستاذ محمد حسنين هيكل ويجاريه كثيرون(620) . ولكن بحكم الظروف المستجدة ومقتضياتها ، كان الضباط الصغار الوطنيون قد أحسوا باتجاه إرادة مصر ، والتقطوا زمامها ، وكان الشعب يحسّ بأن إرادته فيهم وتتحول إليهم . وبدأ الاندماج يأخذ طريقه .

لم يكن الجيش ، فى مصر ، يومًا من الأيام ، باستثناء فترة عرابى ، مؤسسة وطنية ، فهل ننسى بأن مؤسسه كان سليمان باشا الفرنساوى ، أسسه لحساب محمد على من منطلق أنه أجنبى غريب عن الشعب ليحميه ، وقد جاء إلى حكم مصر بردّة نكراء على حركة وطنية قادها عمر مكرم . ولم يكن الشعب المصرى ، شعب الفلاحين يحب جندية محمد على قط بواقع أن الأمهات كن يسملن أعين أولادهن هربًا منها(621) . وكان قادة هذا الجيش من الأتراك والشركس والأرمن وكل الأغراب ما عدا العربى الذى حرَّم عليه دخول المدارس الحربية . التى كان دخولها مقصورًا على كل أجنبى لضمان ولائه . وكان المصريون يرقون من تحت السلاح ، فيميّزوا فى زمن عرابى باتباع أسمائهم بلفظ مصرى فصاروا يعرفون هكذا : أحمد عرابى المصرى ، وعبد العال حلمى المصرى ... إلخ لتمييزهم عن الأغراب فى الجيش الذين يأنفون الانتماء إلى الشعب المصرى ، شعب الفلاحين ، ولكن لا يأنفون من ابتزازه . وصار « هؤلاء الأغراب ، هم الذين يتحكمون بمصائر الجيش فى مصر بزمن الاحتلال ، الذين عرفوا بالرؤوس الكبيرة ، ولم يكونوا يقبلون فى الكلية الحربية من عرف عنهم أنهم شاركوا فى المظاهرات أو فى أى لون من ألوان «المشاغبات» ، أى المواقف الوطنية ، أو أنهم ليسوا من الملاكين كما حصل مع جمال عبد الناصر فى الدورة الأولى . ولأسباب لم تكن لصالح الوطن تم التوسع فى الجيش بعد معاهدة 1936. فكان دخول جمال عبد الناصر وآخرين .

هذه « الرؤوس الكبيرة » كانت ماتزال أمينة على سيرة الذين ملّكهم محمد على وأسرته والإنجليز رقبة مصر ، حافظةً لها ، مطيعة لاتجاهات « الخديوية » ، لا تراعى فى طاعتها مصلحة مصر . ولم تكن طينتها تختلف عن الطينة الطافية على وجه الوفد ، حزب الأكثرية وأحزاب الأقلية، وهى إذا لم تكن بعدها طافية على السطح بأصولها العرقية فإنها ما زالت محافظة على نفس البعد عن الشعب والجفوة اللذين أوجدهما محمد على .. ويجعلان ما بينها وبين الشعب المصرى متمثلاً ، ليس بصفات الإقطاع والرأسمالية .. وإنما بالكراهية والحقد والازدراء . بل والأنفة من الانتماء . فليس ثمة من فرق كبير .. إذا لم نقل ليس ثمة من فرق على الإطلاق .. ما بين سريرة تلك « الفئات » إزاء الشعب ونظرتها إليه والسريرة التى يبطنها البريطانيون والمستعمرون إجمالاً . فمن يوم أن أرسى محمد على حكمه فى مصر كانت الدولة كابوسًا على الشعب، ويتمثل هذا الكابوس بصورة هذه الفئات. ولم يكن أحدها يقبل على الوظيفة لحاجته إلى مرتبها بقدر حاجته إلى ما فى هذه الوظيفة ن أيًا كانت ، من سلطة وهيبة . ولدينا مثل لا ينسى فى سعد زغلول الذى فضل الوظيفة بمرتب أربعين جنيهًا على المحاماة التى تدر عليه خمسمائة جنيه فى الشهر ، بعضهم يعلل ذلك بأن مهنة المحاماة كانت فى بدايتها ، لا ينظر إليها باحترام ، ولسنا نعزو ذل إلا حبًا بالسلطة فإن السفور . كان فى بدايتها أيضًا ، وكانت زوجته تقود حركة السفور . كما كان هو يحتضن قاسم أمين ، ولا شك أنه كان يقدر أهمية المحاماة ، لأنه شهد الدفاع عن عرابى ...

* * *

كانت الحال فى منتصف القرن العشرين عند قيام الثورة قد وصلت إلى حد انعدام الثقة بين الحكم والشعب ، بل تكاد تكون قطيعة بينهما . فبالعودة إلى مذكرات الذين ذهبوا ، لأول مرة ، إلى الفلاحين ، ليسلموهم الأرض ، فى الإصلاح الزراعى ، وكانت أول قطعة اختارتها الدولة هى أرض الأمير يوسف كمال . كان الفلاحون يرفضون هذا العطاء .

كان رفض الفلاحين لاستلام القطعة من الإصلاح الزراعى يصدر من تبرير دينى عاطفى ، ولم يكونوا يعرفون . بل ربما ما كانت الدولة تعرف أن الأصل فى ملكية هذه الأرض اغتصاب محمد على لها من أصحابها أهل البلاد ، ثم وهبها لأفراد الأسرة الحاكمة ، ولم يكن ثمة من يعرف بهذه الحقائق .

لقد دهمت عملية توزيع الأرض على الفلاحين ، فأصابهم الاندهاش ، فى غياب التوجيه والتوعية .. لذلك عندما كان رجال الإصلاح الزراعى يستفسرون كان الفلاحون يردون عليهم :

- متشكرين .. إيه حكاية الحكومة . لماذا تمنحونا كل الحاجات دى ، عايزين منا إيه ؟ جايين تقطعوا كلاً منا أرضًا بدون مقابل .

قولوا إنتم يا حكومة .. عايزين منا إيه بالضبط .

لم يكن الفلاحون يصدقون أنهم سيُمنحون أرضًا بالمجان .

إنهم لم يعتادوا حكومة تعطى .. كانوا معتادين فى جميع أجيالهم حكومة تأخذ .. تبتز .. كان يقال لهم فتح مصرف من أجلهم للتسهيل عليهم .. فإذا بهم يدفعون فائدة على ما يقترضونه فى الموسم 40% من محصولهم ، وكان المرابى – الأجنبى فى الغالب – يسلبهم ، تحت بصر الحكومة، بل بمساعدة الحكومة .

مطلب التغيير بطرق الأبواب

حتى مستهل القرن العشرين ظلت دول أوروبا تحسب أنها ورثت الأرض لا سبيل إلى زلزلة هيبتها ، وبالفعل بلغ غرورها حدًا استصدرت مرسومًا بابويًا تقتسم بموجبه الكرة الأرضية . توج الشاعر البريطانى ، من مكانه فى الهند ، أسطورة الرجل الأبيض بفكرة سرمدية بقائه بقصيدته الشهيرة « عبء الرجل الأبيض »(622) .

غير أن خلاف هذه الدول « البيضاء » على اقتسام « نهب » الأرض فى حربين عالميتين متتاليتين لا يفصل بينهما أكثر من عقدين من الزمان ، كان كفيلاً بإسقاط هذه الأسطورة .. ففى الحرب العالمية الأولى دكّت قلاع الرجعية الحصينة ، وأسقط الحلف المقدس الذى وضع لقيد حركة الشعوب .. وفى الحرب العالمية الثانية ، انطلقت حركات التحرر غير آبهة بالرجل الأبيض ، الذى بدأ ينكسر أمام أعينها ملقيًا سلاحه بين أحضانها ، « على طول المساحة الطويلة ، الممتدة من أندونسيا والملايو ، إلى الدار البيضاء فى المغرب العربى » ، تفرز قيادات جديدة ، تفرض جاذبيتها ؛ وبين شواطئ المحيط الهادى ، أقصى شرق آسيا ، إلى شواطئ الأطلنطى ، أقصى غرب أفريقيا ,. كانت المنطقة العربية فى الوسط ، هى أكثر المواقع حيوية وسخونة ، تنتظر إفراز قياداتها ، ومصر قلبها ، الطافح كيلها راح يضخ بصورة متسارعة ؛ وقد وصف صحفى ذكى ، لماح ، ناشئ حينئذ محب لوطنه القاهرة يومئذ هكذا :

وكان جو القاهرة فى تلك الأيام معجزة من معجزات التاريخ لا تتكرر بسهولة . كان البحر الأبيض هو بؤرة الحرب وأصبحت القاهرة بشكل ما عاصمة الحرب وعاصمة العالم . كانت كل عواصم الشمال الكبرى فى أوروبا – لندن وباريس وروما وغيرها مكشوفة لحريق القنابل أو مكبوتة بظلام الاحتلال . والقاهرة وحدها فى مركز فريد ، قريبة من بركان الحرب بدرجة كافية، وبعيدة بنفس الوقت عنه بدرجة كافية ، وأصبحت ملتقى النخب من كل نوع : قادة الحرب فى السياسة وفى ميادين القتال ، يعيدون بقراراتهم كتابة المقادير . صحفيون ومراسلون رفعتهم الكلمة إلى مصاف النجوم . كتاب ومفكرون وفنانون ولاجئون وثوار من كل جنس ومذهب واتجاه ، يحلمون بعالم جديد بعد الحرب ، ويظنون أنهم يرونه فى لحظة الخلق الأولى هناك عند الينابيع المقدسة التى طهرتها النار »(623) .

وعلى الرغم أنها منيت ، مبكرًا بصحافة مأجورة ، على قدر متفاوت ، لم يكن بينها صحيفة واحدة ترقى إلى المستوى المطلوب ، فهى إما حزبية وإما إخبارية وجميعها يشترك فى العسف بالعقول ، والنفس تكاد لا تترك نافذة ترى منها الحقائق .. إلا أن الانفعال بالقضايا الوطنية بدأ يشق طريقه إلى الوجود ، وبدأ التساؤل عمن يجرؤ لاقتحام الساحة ويحقق الآمال . فمن سنوات الحرب العامة الثانية إلى عام 1952 عام الثورة زخرت المرحلة بالأحداث المتلاحقة جعلت الذين يهمهم الوطن وشؤونه أن يبقوا معبئين : رومل فى العلمين ، بريطانيا تفكر بالانسحاب من الحوض الشرقى للبحر المتوسط وحصر الدفاع فى جبل طارق ، فرض الوفد فى الحكم بقوة المدرعات ، فكرة الوحدة العربية مبتسرة فى جامعة عربية ، مناوشات بين العرب والصهيونية على الحدود ، انتخابات نادى الضباط ، دخول الجيش إلى فلسطين ، الخيانات فى حرب فلسطين ، الأسلحة

الفاسدة .. جميعها آخذ بعضها برقاب بعض كانت تدفع شباب مصر إلى العزوف عن مباذله والانصراف للتفكير بمستقبل وطنه ، وها هنا تفسير نشـــوء كثير من التنظيمات ، وهـا هنا أيضًا تفسير قيام تنظيم فى كل سلاح من أسلحة الجيش بين صفوف الضباط . فمن حريق القاهرة فى كانون الثانى / يناير 1952 وخلال ستة شهور إلى تموز / يوليو 1952 ؛ كان الشعور العام يحس أن التغيير قد أصبح على الأبواب . فما هو شكل التغيير ؟ وما هو المطلوب من التغيير ؟ لم يكن متبلورًا ، مازالت صورته غامضة: التذمر من قصور الأحزاب عام، التشكك بقدرة التنظيمات اليسارية . موجة الإخوان المسلمون والتخوف لعدم وعيهم بضرورات العصر .. إلخ ، وكان المتوقع أن يأتى التغيير من الجيش، ولكنه توقع مشوب بالشك والريبة . إلا أنه يراود الأذهان .

الجماهير المصرية حائرة ، أينما التفتت وجدت فسادًا وتآكلاً وانهيارًا ليس هناك من يصده أو يرده .. والجيش فى حالة قلق ، والقلق يعكس نفسه فيما حدث وقتها فى انتخابات مجلس إدارة نادى ضباط الجيش ، وقد تحولت الانتخابات بالفعل إلى معركة بين القصر وحركة سرية فى الجيش أطلقت على نفسها اسم « الضباط الأحرار » ، وقد رشح الملك لمجلس إدارة النادى أحد رجاله ورشح الضباط الأحرار أمامه منافسًا فاز عليه ، وصدر قرار ملكى بحل المجلس المنتخب وتعيين رجل الملك رئيسًا مؤقتًا للنادى ، وإذا رجل الملك يتعرض لمحاولة لاغتياله .

والوزارات تقوم وتقسط بغير سبب ظاهر أو بغير توضيح لسبب خفى ، ففى ستة شهور من سنة 1952 شهدت مصر وزارة النحاس تقال ووزارة على ماهر بعدها ترغم على الاستقالة ، ووزارة نجيب الهلالى الأولى تضطر للتخلى عن الحكم . ووزارة حسين سرى عاجزةعن الاستمرار ، ثم وزارة خاصة برئاسة نجيب الهلالى تحاول تدارك الأمور .. رئيس وزارة جديد كل شهر تقريبًا(624) .

ففى أول عام 1952 أثناء « متابعة حريق القاهرة فى 26 كانون الثانى / يناير من اللهب إلى الرماد « التقى صحفى بحاثة بضباط مسؤولين – ولم يكن يعرف أنهم من الضباط الأحرار ، يستكشفون مثله . وفى 18 يوليو / تموز من نفس العام يلتقى نفس الصحفى بنفس الضباط مصادفة ويدور بينهم نقاش ساخن يحمل معانى مؤشرة هامة ، وكان النقاش حول ما يجرى بالبلاد ودور الجيش فيه ، فقال الصحفى متحمسًا :

« إن الجيش عاجز عن رد كرامته إزاء عدوان الملك عليه » .

ورد أحد الضباط ، وكان جمال عبد الناصر بالتساؤل عما يمكن أن يفعله الجيش « أو ليست أى حركة من جانبه يمكن أن تؤدى إلى تدخل بريطانى يعيد فيه الملك فاروق تمثيل دور الخديوى توفيق ، ويعود فيه الجيش إلى مأساة عرابى » . وتطوع الصحفى فقال « إن الإنجليز لن يتدخلوا لأنهم لا يملكون وسائل التدخل » . وأحس الصحفى أن عبارته رنت جرسًا فى رأس جمال عبد الناصر . لأنه التفت إليه وسأله عن الأسباب إلى القول بذلك . وبعد أن شرح الصحفى وجهة نظره وأجمل ما لديه من معلومات سأله جمال عبد الناصر : « هل نستطيع أن نواصل الحديث لأن الموضوع يهمنى . فاقترح الصحفى عليه أن يذهبا إلى مكتبه فى أخبار اليوم ، فكان تعليقه على الفور : لا .. ليس فى أخبار اليوم(625) ..

ويعلق الصحفى بفطنة على هذا اللقاء والحديث كله بقوله :

« وأعتقد أنه كان قد حزم أمره ورتب خطته على ما ينوى عمله وراح يدير فى رأسه كل المحتملات ، وإذا صحفى من وسط المصادفات يثير أمامه علنًا كل ما كان يدور فى أعماق تفكيره».

ولعل هذه المرحلة هى التى اتسمت بالتردد فى موعد تحديد ساعة الصفر . ففى ساعات الشدائد يتضح التفكير المتوازن . كما يظهر تداخل الوهم فى اتخاذ القرارات . فأمين شاكر يذكر أن البغدادى ، رغم إخلاصه فى وطنيته ، اعتزل فى الشهور الأخيرة قبل قيام الثورة ، ولم يحضر أى اجتماعات لمجلس القيادة بحجة التأجيل فى تنفيذ الثورة بدون مبررات حقيقية ، وقال فى آخر مرة حضر فيها .. « لما تعملوا الثورة ابقوا اندهولى »(626) .

ليلة 23 يوليو

إن ثروت عكاشة (سلاح الفرسان) هو الوحيد من بين جميع من كتبوا عن ليلة 23 يوليو الذى أرفق « صورة بخط عبد الحكيم عامر ، وإضافات زكريا محيى الدين وتعقيبات جمال عبد الناصر ، وما عليها من ترمح وحذف وتعديل وإضافة رموز عسكرية . وقد استهلتالخطة بأن تكون الوحدات المشتركة فى العملية فى أماكنها فى الوحدة بعد منتصف الليل على أن يمنع استخدام التليفونات ، وأن يوكل إلى فصيلة من السيارات المدرعة مهمة التحفظ على مصلحة التليفونات بصحبة أنور (السادات)(627) وقد اختارته الخطة لهذه المهمة لأنه كان ضابطًا فى سلاح الإشارة . ولكنه لم يحضر ليصحب فصيلة السيارات لأداء مهمتها مما اقتضى ثروت عكاشة أن يطلب من زكريا محيى الدين أن يرسل له غيره ليؤدى الدور الذى كان منوطًا به »(628) .

ويمضى ثروت عكاشة بعد هذا الاستهلال فى تلخيص الخطة تسهيلاً لقراءتها وفك رموزها : « تحرص الخطة على تحديد التعليمات الخاصة بمن سيعتقل من الضباط ، تأمينًا للحركة ، وقد وكل هذا الاعتقال إلى فريقين من الضباط تصحبهما سيارتان مدرعتان من سلاح الفرسان . وتلا هذا فى الخطة إقامة كوردون (حصار) من الواحدة والنصف صباحًا للمنطقة التى تشمل بوابة العباسية وبوابة مدخل سلاح الصيانة وبوابة رقم 6 من قشلاقات العباسية والطريق الموصل من حدائق القبة إلى إدارة التجنيد ، وكوبرى المترو أمام المستشفى العسكرى العام وتقاطع شارع الخليفة المأمون بشارع نادى سبورتنج ، إلى أن خصصت الخطة فصيلتين من دبابات سلاح الفرسان لتأمين مطارى مصر الجديدة وألماظة ، وفصيلة سيارات مدرعة وفصيلة من كتيبة المشاة الثالثة عشر للتحفظ على دار الإذاعة منذ الرابعة صباحًا ، وفصيلة دبابات مع سرية من كتيبة المشاة الثالثة عشر لاحتلال رئاسة الحدود ابتداء من الساعة الخامسة صباحًا ، على أن يؤمن مجدى حسنين ثكنة الحدود بالجبل الأصغر ، وأن يحتل جنود لواء الأساس مبنى قسم القاهرة . وأنيط بمركز تدريب المدفعية سد طريق مصر الجديدة وهايكستب وقفل طريق قناة السويس فى اتجاه الكيلو 4.5 ، وتسيير دوريات بين ميدان الجولف ومعهد الصحراء ، إلى أن يتم لفصيلة من كتيبة ماكينة المدافع الثانية وفصيلة مدرعات من سلاح الفرسان الاستيلاء على رئاسة الجيش . وكانت الخطة العامة قد حددت تشكيلاً احتياطيًا مكونًا من إحدى وحدات مدفعية الميدان وكتيبة المشاة الثالثة عشر ، وكتيبة دبابات فضلاً عن بقية سلاح الفرسان التى رابضت بثكناتها .

« وتنتقل الخطة إلى شبكة المواصلات اللاسلكية ، فخصّصت عربة بجهاز لا سلكى لرياسة الجيش ، وأخرى لسلاح الفرسان ، وثالثة مع يوسف صديق ، ورابعة مع الكتيبة الثالثة عشر وخامسة مع رئاسة المدفعية. على أن تقدم كل مجموعة من هذه المجموعات تقريرًا دوريًا كل ربع ساعة إلى مجموعة رئاسة الجيش منذ ابتداء العملية حتى العاشرة من صباح يوم 23 يوليو .

« وأسندت الخطة واجبات خاصة لأربعة ضباط ، فأناطت بجمال عبد الناصر عقد مؤتمر برياسة أركان حرب الجيش ، وبعبد الحكيم عامر إعلان السياسة العامة ، وبكمال حسين الاجتماع بالمستشارين الألمان ، كما أناطت بزكريا واجبًا حيويًا رئيسيًا هو أركان حرب العملية كلها الذى أداه بهدوئه المعهود على خير وجه وتفان ملحوظ .

« ونصت الخطة على إنشاء شبكة لتلقى المعلومات العسكرية تتولاها المخابرات الحربية ، والمدنية ، وتتولاها الصحف والإخوان المسلمون ، لمعرفة جميع التطورات السياسية فى المملكة عامة والجيش خاصة ، وكذلك تطور الأمور فى الإسكندرية . وكلفت الخطة سلاح خدمة الجيش بسد المنطقة المحاصرة بالبراميل ، كما أوضحت أن إخطار القوات المسلحة المرابطة بفلسطين يبدأ بعد إذاعة بيان الراديو ، وكذا نصت الخطة على أنه بعد نجاح الانقلاب أن تطوف دوريات من الاحتياط فى السابعة صباحًا بالقاهرة مكونة من الدبابات والسيارات المدرعة وبطاريات مدفعية وسرية مشاة مخترقة شارع الملكة / نازلى / (رمسيس الآن) وميدان المحطة وشارع إبراهيم باشا (الجمهورية الآن) وميدان الأوبرا ، وكان على قوات الكوردون توجيه الضباط من رتبة بكباشى فما فوق وغير المرغوب فيهم من الرتب الأخرى إلى صالة السينما بالتدريب الحربى فى رياسة الجيش حيث يستمعون إلى كلمة يلقيها عليهم رئيس هيئة أركان الحرب فى الثامنة والنصف صباحًا .

« وكان ثمة بيانان سيذاعان عقب نجاح الحركة فى الساعة السابعة والنصف فى الإذاعة . إحداهما موجه للشعب والآخر موجه للجيش ، على أن يحلق سلاح الطيران فى العاشرة صباحًا فى سماء القاهرة والإسكندرية ، ويتوجه ضابط اتصال مع دورية مسلحة إلى وزارة الداخلية للمحافظة على الأمن »(629) .

كان هذا هو مجمل ما جاء فى الخطة ، وتفصيل ما أعده منها لتنفيذ الثورة ثروت عكاشة أحد قيادات سلاح الفرسان، فى منزله، تمّ له عند بلوغ الساعة التاسعة مساءً بحضور ثلاثة آخرين من قيادة سلاح الفرسان، وهم حسين الشافعى وخالد محيى الدين وعثمان فوزى الذين كانوا قد اجتمعوا قبل يومين فى منزل حسين الشافعى، وشكلوا منهم قيادة رباعية لسلاح الفرسان أسندوا رياستها لأقدمهم وهو حسين الشافعى ، ومهمة هيئة أركانها لثروت عكاشة أثناء التنفيذ ، وإلى خالد محيى الدين قيادة الكتيبة الميكانيكية وإلى عثمان فوزى قيادة الخيالة(630) .

ويبدو بعد أن استلم المسؤولون عن التنظيم فى كل سلاح مهماتهم فى الخطة طاف جمال عبد الناصر بهم للاطمئنان وللتتميم . ولعلنا بمعرفة ما جرى معه فى قيادة « الفرسان » نلمس جانبًا من « الأخوة » الذى كان يربط الضباط الأحرار . قال ثروت عكاشة : بعد أن فرغنا جلسنا نتناول عشاءنا إذا بجمال عبد الناصر يدخل علينا والإرهاق الشديد باد عليه بلباس مدنى وما كاد يطالعنا حتى بدت على وجهه بسمة ارتياح فقال لنا : « ما جئت فى هذه الساعة وعلى غير موعد إلا لأطمئن إلى ما سينهض سلاح الفرسان » ، فقال عكاشة مداعبًا تخفيفًا لحدة الموقف وتوتر الأعصاب : « عجبًا .. عشنا ورأينا سلاح المشاة يريد أن يطمئن على سلاح الفرسان » وأضاف هامسًا : « هل تحب أن أصارحك مرة ثانية ؟ بأن الله خلق أول ما خلق ضابط الفرسان ثم أردفه بالحصان . وبعد أمد طويل .. خلق الله ضابط المشاة ! » وانفجر الضحك ، ثم أعيدت مناقشة الخطة بعجالة سريعة .. ولدى مغادرة جمال عبد الناصر المنزل مشى ثروت عكاشة خلفه مودعًا التفت إليه وقال له : « اهجر عاطفيتك الليلة ، ولا تفلت من يعترض طريقك ، نحن فى مفترق الطرق ، إما الحياة وإما الموت « وقال ثروت عكاشة : « فشددت على يديه مؤكدًا أننا على العهد لن نفتر ولن نلين ، وأن الفرسان على قدم الاستعداد ، وأحببت أن أبدد كل مخاوفه فقلت له : نحن محيطون بك كسرب من النحل اللاذع فتوكل على الله ، سننتزع الفوز معًا »(631) .

ويتابع ثروت عكاشة وصفه لليلة ثورة 23 يوليو قائلاً :

وبعد العشاء صحبت حسين فى سيارته إلى ثكناتنا ، ومضى خالد فى سيارته متوجهًا إلى وحدته للخروج بها فى الموعد الذى حددناه . ودخلت برفقة حسين من باب خلفى مهجور وعندما وصلت فوجئنا بانطفاء الأنوار . فظننا أول الأمر أن أمرنا انكشف .. وحمدنا الله على أننا بكرنا بالحضور إلى أن تبين لنا أن انقطاع الكهرباء كان لعطل فنى .. وعلى الرغم من هذا فقد أخذت فى التنفيذ فى ضوء البطاريات والشموع وأخرجت الوريقات التى دونت عليها كل عملية على حدة ، ومضيت أصدر الأوامر لضباط آلأى السيارات المدرعة الأول ... وسلمت كل ضابط نسخة من أوامر العمليات التى كنت قد أعددتها مع احتفاظى بصورة من كل نسخة .. وبعد أن فرغت من إناطة كل ضابط بواجبه فوجئت بضابط شاب (ممدوح إسماعيل) يتقدم إلى محتجًا على أنه ليس له كغيره نصيب فى هذا العمل .. فأسندت إليه مهمة تعزيز الحصار على مداخل مصر الجديدة لتحفيف العبء الشديد على خالد محيى الدين »(632) .

هذا مجمل ما مكان يتعلق بخطة سلاح الفرسان ليلة 23 يوليو . أما سلاح المشاة فقد وقع العبء الأكبر فيه على الكتيبة الثالثة عشرة وهى كتيبة صلاح نصر لأسباب إجرائية .. وذلك لأن الأوامر كانت قد أصدرت إليها فى أواخر يونيو 1952 بالتحرك من العريش إلى معسكر العباسية بالقاهرة بعد انتهاء خدمتها فى سيناء للانتقال إلى السودان . وكان من المفروض وفقًا لتنقلات وحدات الجيش أن تبقى الكتيبة فى هذا المعسكر شهرين ريثما تستعد للتحرك إلى مكان انتقالها لتحل مكان أخرى انتهت خدمتها . حيث تتسلم منها ما تبقيه من أسلحتها ولا تحتفظ إلا برشاشاتها وذخيرة الخط الأول . ولعل هذا كان سبب استبعاد فكرة القيام بالثورة فى شهر مارس(633) .

وفى عصر يوم 22 يوليو عقد الاجتماع الأخير فى بيت صلاح نصر لضباط الكتيبة الثالثة عشرة ومعهم جمال عبد الناصر لوضع اللمسات الأخيرة للخطة ثم الانصراف للاجتماع فرادى فى وحداتهم ساعة الصفر . وكان عدد الضباط الأحرار الذين شاركوا بالثورة من الكتيبةالثالثة عشرة ، مشاة ، كتيبة صلاح نصر أحد عشر ضابطًا ، برتبة صاغ وملازم ثان ، منهم من نسّب ليلة قيامها(634) .

وكانت « كتيبة مدافع الماكينة » الثالثة كلفت بتحرك سرية منها بقيادة البكباشى يوسف صديق ، وبعض ضباطها إلى مبنى رئاسة أركان حرب الجيش لتنضم إلى سرية الكتيبة الثالثة عشرة.. أما باقى كتيبة يوسف صديق فعليها أن تسد الطريق المؤدى من الهايكستب إلى القاهرة، وكان يوسف صديق ماركسيًا ولم يعرف بالماركسية غيره من سريته . وقد جعلت الشيوعية من خطأ يوسف بالتحرك بسريته قبل الموعد « أسطورة » أنقذت الثورة ، مؤداها أنه وصل إلى رئاسة أركان الجيش بكوبرى القبة ، حيث كان اللواء حسين فريد قد أصدر أمرًا لقيادة الجيش بالاجتماع فى مكتبه بعد أن بلغه خبر الثورة ، وبوصول يوسف صديق إلى القيادة قبل الموعد تسلق السور وفاجأ القادة وهم مجتمعين ، قبل أن يهموا بقطع الطريق على الثورة واعتقلهم .

وحقيقة الواقعة غير ذلك : صحيح أن يوسف صديق بكّر بتحركه قبل الموعد ، ولكن الصحيح أيضًا أنه قابل جمال عبد الناصر عند منشية البكرى ومعه عبد الحكيم عامر فتحركا معه إلى مبنى رئاسة الجيش . وكان اليوزباشى عمر محمود على من الكتيبة الثالثة عشرة قد وصل فى موعده. فوجد قوات يوسف صديق تقف عند بوابة مبنى رئاسة الجيش وكادت قواتهما تصطدمان لولا أن أنقذ الموقف ظهور عبد الحكيم عامر الذى أمر جندى الحراسة بفتح البوابة الحديدية فلم يستجب للأمر ، وهم بالاستنجاد بالقوة المرابطة داخل المبنى . فأطلق عليه عبد الحكيم عامر النار فقتله .

وكان أول شهيد للثورة . واتجه الضباط إلى مكتب رئيس أركان حرب الجيش فى الدور الثانى ، واعتقلوا الضباط الموجودين وتوجهوا بهم فرادى إلى مبنى الكلية الحربية ..

وبطبيعة الحال قلما يتسنى للمرء أن يقف أمام الإشاعة ليحاكم إمكانية مطابقتها للواقع : فكيف كان يمكن ليوسف صديق أن يتسلق سور القيادة بوجود قوة مرابطة داخل المبنى ، ثم يتمكن من فتح بوابة الحديد من الداخل دون حدوث اصطدام مع الحراسة ، أو أنه يتجه إلى اعتقال الضباط الموجودين فى القيادة ..

مثل الذى نسج حول اسم يوسف صديق ، نسج حول خالد محيى الدين فى أزمة «الفرسان» بمبالغات لا مبرر لها من الواقع غير عبث تحالفات يمينية من الوفد والإخوان المسلمين ومحمد نجيب لعرقلة مسيرة الثوار ، أو كسر زخمها فى نفوس الشعب . فخالد محيى الدين كان واحدًا من أربعة « ضباط أحرار » فى قيادة الفرسان : حسين الشافعى وثروت عكاشة وعثمان فوزى وخالد محيى الدين . وقد اجتمع الأربعة وانتخبوا حسين الشافعى قائدًا وثروت عكاشة رئيس أركان حرب ، وكان لكل من الاثنين الآخرين مهمة اضطلع بها ونفذها . وكان ضباط الدبابات ليلة الثورة هم الوحيدون الذين وقفوا بعد تسليم مهامهم ينبئونهم « بأن الليلة ليلة طوارئ ، ولكنها طوارئ من نوع جديد ، فلقد كانت الطوارئ من قبل لردع الشعب عن أن يثور بالملك . أما طوارئ الليلة فهى لردع الملك عن أن يعبث بحقوق الشعب ، فإذا بنفوس الجند تلتهب حماسًا ، وإذا تطلعهم للحرية يعمهم جميعًا ويهز منهم القلوب »(635) .

وإذا كان اليسار واليمين قد وجدوا فى دور يوسف صديق ودور خالد محيى الدين اليساريين تعلاّت للمبالغة بقصد التقليل من فعالية قيادة جمال عبد الناصر وعموميتها .. فما هى تعلّة أعداء الثورة التى يتشبثون بها فى دور السادات ، للانتكاس بالثورة وتبهيت صورة جمال عبد الناصر .
فالسادات كلن طيلة حياة جمال عبد الناصر صوتًا فى جيبه ، وبوقًا فى خطبه وفى مقالاته ، وبعد وفاته أراد أن يجعل من جمال عبد الناصر « نائبًا » أنابه لتنفيذ الثورة(636) .

* * *

الخطة العامة

الفصل الخامس عشر: الثورة تحقق أهدافها

إسـقاط الملك فـاروق

يذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه بين الصحافة والسياسة أن بين من لقيهم وسط الدخان وهو يشاهد حريق القاهرة : « البكباشى جمال عبد الناصر .. الذى نزل مع غيره من الضباط إلى شوارع العاصمة المشتعلة بالنار بعد أن عجز البوليس عن السيطرة على الموقف . ومن ثم اقتضت الأمور نزول الجيش .. »(637) ثم إنه يذكر لقاءه بجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مصادفة يوم 18 يوليو ودار نقاش ساخن بينهم « حول ما يجرى فى البلاد ودور الجيش فيه وأنه تحمس أثناء المناقشة وقال لجمال عبد الناصر « إن الجيش عاجز عن رد كرامته إزاء عدوان الملك عليه » ورد جمال عبد الناصر بالتساؤل عما يمكن أن يفعله الجيش « أو ليست أى حركة من جانبه يمكن أن تؤدى إلى تدخل بريطانى يعيد فيه الملك فاروق دور الخديوى توفيق ويعود فيه الجيش إلى مأساة عرابى » . ويردف هكيل قوله إنه تطوع فقال : « الإنجليز لن يتدخلوا لأنهـم لا يملكون وسائل التدخل » . ويتابع الأستاذ هكيل قوله : « وأحسست أن عبارتى رنت جرسًا فى رأس جمال عبد الناصر . لأنه التفت إلى ، وسألنى عن الأسباب التى تدعونى إلى القول بذلك.. كيف أستطيع أن أقطع على هذا النحو بأن الإنجليز لن يتدخلوا ورحت أشرح وجهة نظرى.. »(638) قال :

« إذا أراد الإنجليز التدخل ضد أى حدث يجرى فى القاهرة فليس أمامهم غير احتلال مصر كلها ، وهم لا يملكون القوات الكافية لذلك . فالمعلومات أن كل ما لديهم فى منطقة القناة هو فرقة واحدة وهى على وجه القطع لن تستطيع احتلال مصر .. » وبعد أن شرح الحكم فى لندن وموانع تدخله قال :

« ثم إنه كان فى عشاء قبل أيام .. وكان بين الحضور البريجادير « جولبرن » الملحق العسكرى البريطانى ، ومنه عرف أن السفير السير رالف ستيفنسون فى إجازة ، وكذلك قائد القوات فى منطقة القناة . بل إنه هو نفسه يستعد للسفر إلى لندن . ومعنى ذلك أن شبكة الاتصالات بين لندن والقاهرة ليست مفتوحة تمامًا عند القمة »(639) .

إلا أنه تبين فيما بعد أن بعض هذه المعلومات غير صحيحة ، ومنها ما هو مغلوط . وذلك أن « وحدة معلومات » مكلفة بالعمل داخل المعسكرات البريطانية تمكنت فى يوم 18 فبراير 1953 من الحصول على وثيقتين فى منتهى الأهمية ، الأولى تكشف أن الحكومة البريطانية لم تكن ملتزمة بنصوص معاهدة 36 ومتقيدة بعدد القوات الواجب الاحتفاظ بها فى القناة ، الذى ربما استند إليه هيكل فى معلوماته ؛ كان عدد القوات أكثر كثيرًا ، وقادرة على احتلال مصر بما فيها من معدات .

وبحسب الوثيقة الثانية ، وهى تتضمن تفعيل الخطة روديو Rodeo وهى تستهدف احتلال القاهرة والإسكندرية والدلتا - أى إعادة غزو مصر بالكامل . حاولت السفارة البريطانية التمويه فأوفدت المستشار الشرقى يقابل صلاح سالم أحد أعضاء قيادة مجلس الثورة ليقول له إن هناك عصابات دولية تقوم بتزوير الوثائق وبيعها لمن يظنون أنه مهتم بها ، ومن المحتمل أن بعض عصابات المزورين قد دس بعضًا من هذه الوثائق على بعض المصريين وأقنعهم بصحة ما فيها، ومن باب

الأخذ بالأحوط فقد وجدنا مناسبًا أن نلفت نظركم إلى تجنب الوقوع فى فخاخ مثل هؤلاء المزورين ، فرد صلاح سالم ردًا يحتمل كل المعانى . فقال : « إن قيادة الثورة متنبهة لكل شىء».

فهل كان جمال عبد الناصر ، عندما حدد موعد الثورة ، يعلم بغياب السفير فى إجازة والقائد العام للقوات البريطانية فى القناة . لا أظن أن هذا الأمر ترك للصدفة .

اجتثاث أصول محمد على :

كتب صلاح نصر ، قائد « كتيبة التحرير » فى مذكراته : أن جمال عبد الناصر استدعاه ظهر يوم 23 يوليو ، ودخل غرفة الاجتماع فلم ير وجوهًا غريبة ، وقد قابل فى مبنى القيادة بعض أصدقائه ولم يكن أى منهم، يفضل نظام السرية الذى اتبعه تنظيم الضباط الأحرار فى تشكيل الخلايا- يعرف أن صديقه منضم إلى تنظيم الضباط الأحرار ، وقال إن جمال عبد الناصر أخذه إلى غرفة المؤتمرات وقال له : - ما رأيك فى عزل الملك؟ . فأجاب أنه لن يستقيم الأمر إلا بإلغاء النظام الملكى وطرد فاروق، وإلا سيتأهب للانقضاض علينا كما حدث فى العراق فى ثورة رشيد عالى الكيلانى(640) وكما سبق أن حدث لأحمد عرابى ؛ فالفئات الغريبة الأجنبية التى أقطعها محمد على وأسرته لتفرش الرياحين للإنجليز لا أهمية كبيرة لها إذا قطع رأس الأفعى . ويبدو أن القرار لم يكن قد اتخذ بعد . فسأله جمال عبد الناصر : « تخشى تدخل الإنجليز أو الأمريكيين مع أننا قمنا بطمأنتهم ؟ » . فأجابه صلاح نصر : « لا أظن أنهم سيغامرون على ورقة خاسرة » . فقال له جمال عبد الناصر : « استعد إذن للتحرك بكتيبتك فى أى وقت للإسكندرية »(641) .

وفى مساء 24 يوليو استدعى جمال عبد الناصر صلاح نصر إلى مكتبه فى « كبرى القبة » وكان صدر قرار تعيينه رسميًا فى اليوم السابق قائدًا للكتيبة التى تولى قيادتها ليلة الثورة ، وأبلغه : « أنه تقرر عزل فاروق ، وأن قوتين عسكريتين سوف تتحركان إلى الإسكندريةصباح 25 يوليو لإجبار فاروق على التنازل عن العرش »(642) .

كانت القوة الثانية بقيادة أمين شاكر ، رئيس مصلحة الإشارة ، لقدرته من خلال اختصاصه، على اكتشاف مقر فاروق ، وللاطلاع على ما يمكن أن يجريه من اتصالات هاتفية، وهنا لابد من الاستنارة بشهادة أمين شاكر ، وكان عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار ، لم يتنازل بعد عن عضويته لأنور السادات لتمثيل سلاح الإشارة لأقدميته . فهى شهادة – وإن تأخرت – قمينة بأن تكشف زيف الاتهامات المفترية التى وجهت للثورة فى بدايتها . فبعد أن يروى كيف توصل إلى تحديد المكان الذى يوجد فيه الملك بالإسكندرية، ومعرفة أرقام هواتفه السرية فى قصر المنتزه وقصر التين لضبط تحركاته واتصالاته يقول أمين شاكر : « .. ودخلت على الخطوط الملكية لأتنصت على مكالمات الملك لتحديد مكانه ومعرفة خططه فى مواجهة الثورة .. واستطعت بذلك أن أستمع إلى المكالمات التى أجراها الملك ، وأهمها مع السفارة البريطانية ثم مع السفارة الأمريكية بالقاهرة ، وبالتالى أمكننا معرفة الموقف الذى ينوى أن يقفه تجاهنا . ومحاولاته الحقيرة لإثارة الحكومة البريطانية ضدنا لكى تستخدم قواتها فى القناة للقضاء على قواتنا بادعاء أننا ضباط شيوعيون ، وأن نجاح ثورتنا يهدد المصالح البريطانية - ليس فى مصر . بل فى كل بلاد الشرق الأوسط بأوخم العواقب .

« وفى الساعة التاسعة صباحًا اتصل الملك بالوزير المفوض للسفارة البريطانية فى القاهرة وقال له إن ضباط التمرد قد وصلوا إلى الإسكندرية ، وأنه عرف بأن غالبية هؤلاء الضباط شيوعيون ، وأنهم يخططون لإقالته وإعلان الجمهورية ، وأن ذلك لن يضر فقط بالأوضاع السياسية فى مصر

، بل سيضر أيضًا بمصالح إنجلترا فى مصر وباقى دول الغرب ، وأن على إنجلترا أن تتحرك مباشرة بقواتها لإنهاء عملية التمرد . وإعادة الاستقرار إلى البلاد .

الملك يتوسـل :

كانت لهجة التوسل والخوف واضحة فى حديث الملك . ولكن الوزير المفوض الإنجليزى حاول طمأنته ، وأخبره بأنه سيأتى بنفسه إلى الإسكندرية للتفاوض مع ضباط التمرد ، فإذا كان لهم طلبات معقولة يمكن تحقيق بعضها أو كلها فسيكون من الممكن إنهاء هذا التمرد بدون صعوبة وينتهى كل شىء . أما إذا غالوا فى طلباتهم فإنه سيأمر القوات الإنجليزية فى القاعدة البريطانية بقناة السويس بالتحرك فورًا إلى القاهرة والإسكندرية للتعامل معهم ، وإنهاء عملية التمرد والسيطرة على الموقف من جديد .

الوزير المفوض البريطانى فى الإسكندرية :

ويتابع أمين شاكر : وبالفعل وصل تريفون إيفانز الوزير المفوض البريطانى والسكرتير الشرقى فى السفارة البريطانية بعد ساعتين ونصف من المكالمة التى أجراها معه الملك ، وحضر مباشرة لمقابلتنا فى معسكر مصطفى باشا – مقر قيادة المنطقة الشمالية – ولم يقل إن الملك حدثه تلفونيًا ، ولكن بطبيعة الحال كنت قد أبلغت زكريا محيى الدين بالحديث التليفونى الذى أجراه معه الملك وأحطته علمًا بمضمونه .

سأل إيفنز عن الأهداف من وراء عملية التمرد ، ولماذا قمنا بها . فأكدنا له أنه لا توجد أية أهداف سياسية من وراء هذه العملية ، فقط نحن ضباط وعسكريون خرجنا لنطلب بإصلاح الأحوال فى الجيش المصرى ، وإزالة الأسباب التى أدت إلى هزيمة الجيش المصرى فى فلسطين ، وقلنا له أنت تعلم وإنجلترا تعلم أن الأوضاع فى الجيش المصرى قد وصلت إلى حد لم يعد من الممكن السكوت عليه ، وأن بريطانيا نفسها تتصرف من خلال تعهداتها فى اتفاقية عام 1936.

سألنا إيفانز : وماذا تنوون عمله مع جلالة الملك ؟ فقلنا أن جلالته هو القائد الأعلى للجيش وأننا حريصون عليه كل الحرص .

عاد إيفانز ليسألنا : ألا يوجد فى تفكيركم نية لإجبار الملك على التنازل عن العرش .. فنفينا ذلك نفيًا قاطعًا . وقلنا أن أحدًا منا لا يفكر فى ذلك .

قال إيفانز : إنه يرجو أن يكون ذلك صحيحًا .. قلنا له إن من حقه أن يشكك كما يريد ، ولكننا نقول علنًا وصراحة بما سيحدث ، وأنه ليس من حق السفارة البريطانية أن تسألنا عما سنفعل ؛ ولكن خشية أن تنفذ السفارة وعودها للملك بتحريك قواتها فى قاعدة القناة إلى الإسكندرية عدنا نؤكد للوزير البريطانى على مسألة إصلاح الجيش، وأننا مصرون عليها إصرارًا تامًا، وأى موقف لإنجلترا ضد هذا المطلب سنسجله عليها، وبخلاف ذلك فليس للحركة أية أهداف سياسية .. ثم أضفنا بأن بريطانيا قد ورطتنا عن عمد فى معركة فلسطين ، ووعدت بإمدادنا بالسلاح والذخيرة ، ولكنها لم تف بوعودها ، وبذلك تكون إنجلترا مسؤولة ولا شك عن النتائج التى انتهت إليها حرب فلسطين ، ونحن نصر على أنها تعتبر مسؤولة عن مساعدتنا لبناء جيش حديث يمكنه أن يحمى مصر من المخططات العدوانية والتوسعية للصهيونية العالمية .

قال إيفانز فى نهاية اللقاء معه : سأترككم الآن ولكننى أذكركم بأن لنا 80 ألف جندى وضابط فى قاعدة القناة ، وقد أصدرت لهم الأوامر بأن يكونوا فى حالة استعداد قصوى ، وأننا لن نسمح بأى مساس بالملك . لأن خروجه من مصر سيترتب عليه فراغ كبير لا يمكن لأحد أن يتنبأ بنتائجه .

أجبناه بأن فاروق هو ملك مصر وليس ملك بريطانيا .. ونحن أحرص عليه منك ومن إنجلترا ولا نحتاج منكم لأية نصيحة فى هذا المجال . عاد إيفانز ليقابل الملك الذى كنا قد استطعنا تحديد مكانه بقصر المنتزه ، ثم استطاعت أجهزة سلاح الإشارة التقاط مكالمة أخرى بين الملك وبين العقيد طيار عاكف ، قائد السرب الملكى . سأل الملك العقيد عاكف عن إمكانية ضرب قوات الثورة التى قامت باحتلال مركز قيادة الجيش بالقاهرة والقضاء عليها . فأجابه عاكف بأن ذلك ممكن ولكنه

يشك فى أن الطيارين والفنيين بالسرب سيوافقون على ذلك . فطلب الملك من عاكف أن يعمل محاولة مع هؤلاء فربما يوافقون على التعاون معه .. ولكن عاكف قال للملك إن القوات الموجودة بقيادة الجيش الآن هى قوات الثورة وقوات الملك معًا ، وأنه من المستحيل تبيّن الجيش من الجو ، وهناك أكثر من ثلاث آلاف ضابط وجندى موجودون بمقر القيادة حاليًا ، فهل يقبل جلالة الملك أن يقوم السرب الملكى بمثل هذه المذبحة . ثم أضاف عاكف بأن ضباط الثورة لهم اتصالات وثيقة ببعض الضباط فى السلاح الجوى ، وأنه يحتمل لذلك أن يحدث صدام بين السرب الملكى والأسراب الأخرى إذا حاول السرب الملكى تنفيذ أوامر جلالة الملك .

عندئذ عاد الملك لتردده ، وطلب من عاكف أن يتريث ريثما تظهر نتائج المحاولات التى تبذل لتسوية الموقف بالطريق السياسى .

محمد نجيب يصل الإسكندرية من القاهرة حاملاً وثيقة التنازل :

صباح 26 يوليو توجه اللواء محمد نجيب إلى بولكلى ، إلى حيث يعمل على ماهر فى مكتبه كرئيس وزراء، وقدم إليه إنذار الجيش إلى الملك للتنازل عن العرش ، قبل الثانية عشرة ظهرًا ، ومغادرة البلاد قبل السادسة مساءً . وفيما يلى نص الرسالة التى قدمها محمد نجيب لعلى ماهر ليسلمها للملك :

من الفريق أركان حرب محمد نجيب .. باسم ضباط الجيش ورجاله إلى جلاله الملك فاروق الأول .

إنه نظرًا لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لإرادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته وماله أو كرامته .

ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير .

ولقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة ، وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر بما أفسد الحقائق ، وزعزع الثقة فى العدالة وساعد الخونة على رسم هذا الخطى فأثرى من أثرى وفجر من فجر ، وكيف لا والناس على دين ملوكهم .

لذلك قد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير أحمد فؤاد . على أن يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم السبت الموافق 26 يوليو 1952 والرابع من ذى القعدة سنة 1371 ومغادرة البلاد قبل السادسة من مساء اليوم نفسه . والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج .

الإسكندرية فى يوم السبت

4 من ذى القعدة 1317 هـ

توقيع

محمد نجيب

(26 يوليو سنة 1952 ميلادية)

فريق أركان حرب

وقام على ماهر بإقناع الملك بالتنازل عن العرش لولى عهده الطفل أحمد فؤاد ظهر 26 يوليو . الذى صاغه السنهورى على شكل أمر ملكى ، إلا أنه اعتذر عن تقديمه للتوقيع ، فقام بذلك حافظ سليمان . وهذا نص الأمر :

نحن فاروق الأول . ملك مصر والسودان لما كنا نتطلب الخير دائمًا لأمتنا ، ونبغى سعادتها ورقيها ، ولما كنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنب البلاد المصاعب التى تواجهها فى هذه الظروف الدقيقة ، ونزولاً على إرادة الشعب ..

قررنا النزول عن العرش لولى عهدنا الأمير أحمد فؤاد ، وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه » .

صدر بقصر رأس التين فى 4 من ذى القعدة سنة 1371هـ (26 يوليو سنة 1952) .

فاروق

* * *

تذليل العقبات

- 1 -

محمد نجيب

لم يتم تنازل الملك فاروق ومغادرته البلاد بيسر وسهولة . بل لم يصل الضباط الأحرار إلى هذه المرحلة من الثورة إلا بعد عقبات كثيرة ، اعترضتهم . فمن العقبات التى كان عليهم تذليلها إيجاد ضابط برتبة كبيرة يكون واجهة لهم ، ويقبل رئاسة التنظيم ويسير معهم فيه ، لأنهم جميعهم كانوا كن الرتب الصغيرة والمتوسطة ، وكان قد تم الاتصال قبل الثورة باللواء أركان حرب أحمد فؤاد صادق ، وكان يتمتع بشهرة مرموقة ، وقد عين قائدًا عامًا للقوات المصرية فى فلسطين بعد اللواء المواوى(643) .

إلا أن اللواء احمد فؤاد صادق خيب آمال الضباط الأحرار عندما فاتحه فى الأمر صلاح سالم بتكليف رسمى فاعتذر بأنه "« أقسم يمين الولاء للملك ، ولكن إذا نجحت الثورة يكون أول من يساندها » ؛ والحق أنه كان أمينًا على السر . فلم يبلغ . وظل على ما هو عليه محل ثقة الملك.

واتجهت الأنظار إلى شخصية أخرى .. وقع الاختيار على اللواء أركان حرب محمد نجيب الذى كان أيضًا من الضباط الكبار يتمتع بسمعة طيبة وكفاءة مشهودة .. محبوبًا ، ولكن لم تخامره فكرة تمرد أو ثورة ، ولا حتى أية نقمة على كل ما كان يجرى حوله من قبل « إنه لم يكن ينتمى إلى إيديولوجية معينة ، ولم يرتبط بأى حزب سياسى »(644) .

وما لبث تنظيم الضباط الأحرار أن واجه اول اختبار له فى انتخابات نادى الضباط . فتقدم بمحمد نجيب رئيسًا لقائمته فى مواجهة الملك فاروق ، وفاز عليها وجن جنون الملك .

إلا أنه إذا كان من المختلف عليه تاريخ تنسيبه إلى الضباط الأحرار وممارسة النشاط بينهم، من المؤكد أنه لم يشترك فى وضع خطة الثورة ، ولم يساهم بالقيام بأية مهمة ليلة 23 يوليو ، وبقى نائمًا فى بيته إلى أن أرسلت إليه عربية ليحضر إلى القيادة ، ومر بعربته مع القائم مقام أحمد شوقى يهنئ « كتيبة التحرير » التى قادها صلاح نصر لتنفيذ الثورة ، ثم مر على الوحدات فى موكب نصر . وبعد نجاح الثورة فى القاهرة وسيطرتها التامة حمل إلى الإسكندرية قرار الثورة بتنحية الملك فاروق . وقيل إنه لم يكن من رأيه تنحيته ، وإنه يرى أن تقف الثورة عند حد السيطرة على الجيش . وهو قول يتماشى مع تعاطف محمد نجيب مع الملكية أول شبابه حيث سمى ابنه البكر باسم فاروق . وكان هناك إجماع على ذلك لم يختلف فيه أحد . ولم يعرف عنه فى مطلع حياته أنه شارك فى الحياة الطلابية ، ربما لأنه سودانى .

ولا شك فى أن سمعته الطيبة وشبابه وشعبيته ووطنيته فى حرب فلسطين ونظافته واختلافه عن « الرؤوس الكبيرة » وتميزه ، صفات هامة كلها كانت موضع تقدير الضباط الأحرار واختيارهم ولكنها لا تؤهله لقيادة ثورة والسير بها . إنما الذين عاشوا « الثورة » على الطغيان فى الحكم والاستعمار ينمون عواطفهم وأفكارهم هم الأحق بقيادتها والوصول بها إلى شاطئ الأمان . بالتأكيد

إن قائد الثورة « الذى كان منذ البداية صانعها وعقلها المدبر هو جمال عبد الناصر فهى ليست ثورة ضباط » عانوا مرحلة من الفساد والتآمر والخداع ولا ثورة جيل .. إنها ثورة شعب غلب على أمره ويريد أن يكون حرًا يمارس إرادته .

« إن ثورة 23 يوليو كانت تحقيقًا لأمل كبير راود شعب مصر ، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه فى أيدى أبنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره » .

وهذا يعنى أن الثورة بعيدة عن مدارك محمد نجيب ومشاعره التى ظهرت حتى الآن ، وأقل ما تعنيه تجاوزًا لمحمد على وأسرته والطبقة المصطنعة التى ملكت البلاد وصولاً إلى الفلاحين أصحابها الأصليين . فلم يكن محمد نجيب محقًا بتمسكه بقيادة الثورة . ولا ريب فى أن التغرير أدار رأسه ، وأدارت وتوتة الوفد والإخوان المسلمين، حول مطلب الديموقراطية الذى عزفت عليه كل القوى المعادية للثورة . بما فيها الشيوعيون . ولعل ذلك كله لم يخل من الاختراق الأجنبى .

فحتى لا يكون القول فى أن تشبث محمد نجيب بمركزه فى قيادة الثورة ليس من حقه ، افتراءً نسوق هنا بعضًا من أقواله حجة عليه : فقد أسرّ إلى عادل حمودة ، الكاتب يومئذ فى روز اليوسف ، بعد أن اطمأن إليه ، بقوله للرد على سؤاله : متى تعرف على جمال عبد الناصر :

« .. أنا رأيته أو أتذكر أنى رأيته فى أيام حرب فلسكين ، كان ضابطًا صغيرًا يميل إلى معرفة الرتب الأكبر كما يميل إلى الوقوف فى الصفوف الأولى للصور التذكارية » .

وبعد أن نجوت بمعجزة من الموت فى حرب فلسطين ، نقلت إلى مستشفى العجوزة بالقاهرة ، وجاء عبد الحكيم عامر الذى خدم معى إلى المستشفى لزيارتى وقال لى « إننى وبعض زملائى من الضباط الشبان نريد ان نمحو الهزيمة التى بلينا بها فى فلسطين ونحن نطلب منك النصيحة » ... وقد أحسست أن هؤلاء الشبان أقرب إلى من الضباط الكبار الذين لم يعد لهم أية مصلحة فى إصلاح الجيش ولا تغيير النظام . فبدأت أفكر فى هذا الكلام الذى قاله لى عبد الحكيم عامر ... وفى يوم جاء عامر ومعه جمال عبد الناصر ، وعرفت يومها أنه زعيم التنظيم وأنه جاء ليرى ويزن تقدير عامر لى ويفحصنى .. وكان هذا شيئًا غريبًا ان تقوم الرتب الصغيرة بفحص وطنية الضباط الكبار .. ورغم ذلك لم أعترض ، لأننى كنت مقتنعًا بأن خلاص البلد يقع على عاتق الضباط الصغار ، وعقول وحكمة وخبرة الضباط الكبار . « نحن المخ » وهم « العضلات » وكان عامر وعبد الناصر يوافقان على هذا الرأى .

« ولم يمض وقت طويل حتى أصبحنا أصدقاء وأصبحا يزوراننى بالليل .. وأحيانًا كان يأتى معهما صلاح سالم .. وبعد لقاءات عديدة اتفقنا على الخطوط العريضة ، ودعانى عبد الناصر إلى تنظيم الضباط الأحرار وهو تنظيم سرى كان هو مؤسسه ورئيسه .. ووافقت .

« قال له عادل حمودة : هذا اعتراف واضح منك بأن عبد الناصر هو مؤسس التنظيم الخاص بالضباط الأحرار ورئيسه، وهذا اعتراف يأتى فى وقت يشكك البعض بهذه الحقيقة . قال :

« الحق حق .. إننى لم أنضم إلى تنظيم الضباط الأحرار إلا فى العامين السابقين للثورة . كما أننى لم أعرف كل لجنته القيادية إلا بعد الثورة ، يعنى لم أعرف سوى عبد الناصر وعامر وصلاح سالم وحسن إبراهيم وزكريا محيى الدين فقط . أما السادات وغيره لم أعرف أنهم أعضاء فى التنظيم إلا فى صباح 23 يوليو 1952 .

يقر هذا النص من محمد نجيب من القراءة الأولى :

1 - إن جمال عبد الناصر هو قائد تنظيم الضباط الأحرار .

2 - إن الرتب الصغيرة فى الجيش تتفحص الرتب الكبيرة وتزنها .

3 - إنه مقتنع بأن خلاص البلد يكون على يد الرتب الصغيرة .

ولكنه من جهة يقول أنه لم يعد للضباط الكبار مصلحة فى إصلاح الجيش ، ولا فى تغيير النظام ، ومن جهة ثانية يبدى اقتناعه بأن الخلاص يقع على عاتق الضباط الصغار وعقول وحكمة وخبرة الضباط الكبار ، أو بعبارته ذاتها « نحن المخ وهم العضلات » . وفى انتسابه لا يذكر أنه اشترط شيئًا ، وإنما كان انتسابه عضوًا عاديًا .

ولست أدرى كيف تتسق المقولتان فى منطق واحد . فالنظام المطلوب تغييره يقوم على الملك والرتب الكبيرة ، وإزاحة الملك تقتضى إزاحة الآخرين . إذ قد فسدوا فى ظله . فماذا يمكن أن تشير من الخير « حكمة وخبرة » الرتب الكبيرة ؟ التى يدعو إليها . فيبدو أن هؤلاء الكبار ككبار البلاد « الباشاوات » لا يفهمون معنى الثورة . ولم يدركوا أن الرتب الصغيرة استحقوا التقدم عليهم بها وتبوءوا القيادة بها . فقد هيئ للعقيد حافظ إسماعيل أن يخاطب عبد الناصر وهو رئيس جمهورية ، وكان مايزال بعد ضابطًا فى الصف عنده . مخاطبة حامل الرتبة العسكرية الأكبر للأصغر وطال الزمن حتى استوعب التفكير .

أقوى الظن أن هذه العقلية التى تعتبر أن « الرتب الصغيرة » ، « الضباط الصغار » هم «العضلات» وأن « الرتب الكبيرة » هم « المخ » هى التى هوت بمحمد نجيب من « قيادة الثورة » إلى التعاون مع أعداء الثورة . وغيب عن باله النسق الثورى المستجد . فعندما اختير محمد نجيب رئيسًا للجمهورية أعفى من قيادة القوات المسلحة وتسلم قيادتها الصاغ عبد الحكيم عامر الذى رقى إلى رتبة لواء . وبتخليه عن سلطاته القائمة فى ظل الدستور المؤقت أحس بأن قوته فى الجيش بدأت تضعف ، فلم يجد أمامه إلا معارضة إعلان الجمهورية مبررًا هذه المعارضة بأن هذا الإلغاء يجب أن يتم باستفتاء شعبى(645) ثم طالب بعدة حقوق منها « سلطة حق الاعتراض على أى قرار يجمع عليه أعضاء مجلس الثورة ، وحق تعيين الوزراء وعزلهم ، وسلطة ترقيات الضباط . كما كان يحدث فى عهد فاروق ، بل امتدت مطالبه إلى سلطة نقل الضباط فى الرتب العليا وتعيين الملحقين العسكريين »(646) .

فماذا يكون قد تغير بالثورة عن العهود السابقة التى أوصلت البلاد إلى ما هى عليه ؟ فهل من المعقول السماح لضابط من خارج تنظيم الضباط الأحرار بالاستئثار بالسلطات من دونهم ؟ ولعله اختار الوقت. إذ ما كانت الثورة بعد حسمت موضوع الإقطاع بل ولم تقترب منه ، ولا من مسألة الجلاء ؛ كذلك ولا بتت فى أمر الحكم : هل يتولى مجلس الثورة الحكم أم يسلمه إلى حزب الأغلبية ؟ عندما بدأ يفتعل على هذا النحو الأزمات، أو بالأحرى يحرّض على افتعال الأزمات . وإذا كان محمد نجيب حقًا بعد اللواء أحمد فؤاد صادق هو أفضل أصحاب الرتب الكبيرة ليكون واجهة للثورة . إلا أنه لم يتجرد من العهد الماضى لينقلب عليه ؛ فحتى إلى ما بعد أزمة انتخابات نادى الضباط مع الملك كان مايزال يفكر كما فى ظل الخضوع للملكية ، يذكر أمين شاكر أنه عندما نجحت قائمة الضباط الأحرار فى انتخابات نادى الضباط بالكامل ، وسقطت قائمة الملك بالكامل استدعى محمد نجيب الذى انتخب رئيسًا لمجلس الإدارة ، وزكريا محيى الدين وأمين شاكر

عضوى المجلس لمقابلة حيدر باشا قائد الجيش فقال لهم الثلاثة بلهجة تهديد قاطعة . لقد أمر مولانا بدخول حسين سرى عامر مجلس إدارة النادى . فإذا بمحمد نجيب يجيب فى الحال : أوامر مولانا منفذة(647) . وعلى هذا ، إنه مؤهل ليكون واجهة لا ليقود الثورة . فقائد الثورة يعبر عن فكر الثورة ، ويكون أمينًا على أهدافها . إنما محمد نجيب ابتدأ الحديث عنها إنها حركة وأحيانًا يصفها انقلابًا . وأحيانًا أخرى يقارب بين ما جرى فى مصر وما كان يجرى فى سوريا بحركة الشيشكلى . وليس القصد هو التقليل من قيمة محمد نجيب . وإنما التدليل على أنه لم يع مدى أفق ما يعبر عنه . فقد تشابهت الأمور عليه . فشتان ما بين ما يجرى فى سوريا وما جرى فى مصر : كان انقلاب الشيشكلى رد فعل على ما آلت إليه « حركتا » حسنى الزعيم وسامى الحناوى : الأولى توقيع اتفاقية التابلاين التى تعثرت فى المناخ الديموقراطى من جهة وتجنب فضائح تموين الجيش : والثانية الاتجاه إلى الوحدة مع العراق ، ثم اتضح فيما بعد أن الشيشكلى كان يعمل تارة لحساب السعودية ، وأخرى لحساب العراق . ثم أن غيومًا بتأثير « الشيوعيين » ومراسل جريدة المصرى زهير الكزبرى واحمد أبو الفتح وأخبار المحلة الكبرى المشوهة .. حالت دون تأثير ثورة 23 يوليو فى سوريا وتأخير رؤية وجهها الحقيقى .

أما فى مصر فكان على الثورة للوصول إلى أى من المبادئ الستة التى التقى الضباط الأحرار عليها أن يستولوا على الجيش ويسقطوا الملكية ليبطلوا مفعول القوى الأخرى حتى يضمنوا تحقيق الجلاء . كان ما جرى فى مصر ثورة حقًا تحمل معانى التغيير .

فى دراسته : « الصراع الاجتماعى والسياسى فى مصر منذ قيام ثورة 23 يوليو » يعتبر الدكتور عبد العظيم رمضان(648) أن أول خلاف بين الأيديولوجيات فى صفوف الضباط الأحرار كان حول نظام الحكم : وهل يكون ديموقراطيًا أم ديكتاتوريًا ، مفترضًا أن هذا الانقسام يرجع إلى انتماءاتهم الطبقية ، ونحن وإن كنا لا نقره على هذا الرأى إلا أننا نقف معه عند الواقعة التى يشير إليها ، ونجد إجماعًا عليها ، وهى أن مجلس قيادة الثورة كله ومحمد نجيب معه وقف فى صف مع الديكتاتورية ، وأن جمال عبد الناصر قائد الثورة وقف وحده فى صف مع الديموقراطية ، وأن مجلس قيادة الثورة تراجع بعد أن أصر عبد الناصر على رأيه ، وأعلن تنحيته عن رئاسة الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار .

وقد برزت مشكلة محمد نجيب فى الثورة منذ منتصف عام 1953 وكان اللواء نجيب - طبعًا بفضل الثورة - قد أصبح بطلاً قوميًا معبود الجماهير ، خاصة أن الضباط الأحرار أصدروا تعليماتهم ، فى البداية إلى الصحف بعدم ذكر اسم أى واحد منهم إلى جانبه حتى تظل الأضواء مسلطة عليه . وعبادة الجماهير لا تحتاج إلى تفسير ، فالتفسير فى طول تلهفها إلى التغيير وليس فى أى شىء آخر. إلا أن محمد نجيب استحلى السلطة وتشبث بها، ونسى أنه دخيل على الثورة . ولم تبد فى أحاديث محمد نجيب ولا فى كتاباته فيما بعد ، أية إشارات إلى أنه يتمسك بالسلطة من أجل تحقيقها ، ويأسف لها ، على عكس قائد الثورة : فهو فى كتابه مصير مصر الذى ينقل عنه الدكتور عبد العظيم رمضان يكتب أنه اقترح : « أن يفسح له جمال عبد الناصر المجال كيما يصرف الأمور لسنوات معدودة إلى أن يكتسب الخبرة الضرورية له كيما يخلفه فى الحكم . ولقد أكد له أنه سوف يستقيل عند ذلك لمصلحته بكل سرور . وإلا فإنه مضطر للاســتقالة فى الحال حتى ولو تسبب ذلك فى إحداث أزمة »(649) فهل هذا كلام عاقل ؟! حريص على الثورة ومضمونها.

وبدا فى الواقع قبل أن تستفحل الأزمة أن محمد نجيبب أخذ يجنح عن المهمة التى اختير من أجلها فوقع الخلاف واستحكم . ولعل هذا هو ما أدى إلى تجاهل مجلس الثورة لمحمد نجيب مما أسهب فى بيانه صلاح نصر فى مذكراته ، وأفضى إلى إقصائه عن السلطة ثم أعيد إليها . ولعل الأزمة الناشئة هى وراء عرض جمال عبد الناصر رئاسة الجمهورية على لطفى السيد (باشا) مؤسس الجامعة المصرية والملقب بأستاذ الجيل(650) لكن لطفى السيد قال لجمال عبد الناصر « إنه يعرف الأهمية التاريخية والوطنية للدور الذى قامت به ثورة 23 يوليو وهو يؤمن بأنه لا أحد يستطيع أن يتحمل استمرار مسؤوليات أى عمل غير الذين بدؤوه ، وأن مصر بحاجة إلى دم جديد . وأن شبابها لا يجب أن يتردد أو يقبل قيام ازدواجية بين شكل السلطة وحقيقتها » . إلا أنه يظهر أن محمد نجيب كان يقبل بل ويعاند فى قبوله . ولذلك لم يكن هناك « فوزى سلو » واحد فى البلاد العربية وإنما كثيرين .. !

وما دامت لم تنشر بعد جميع محاضر اجتماعات مجلس قيادة الثورة يفسر بدء محاولة محمد نجيب للتميز عن أعضاء مجلس قيادة الثورة التى نوه بها كثيرًا « حتى غدت صورته لدى الضباط الأحرار من خلال مجلس الثورة أن محمد نجيب يريد أن يستأثر بالسلطات كلها وحده، ووقف فى جانب والمجلس كله فى جانب آخر »(651) ووفقًا لما ذكره الدكتور عبد العظيم رمضان نقلاً عن بيان مجلس قيادة الثورة أنه طلب أن يكون له حق الاعتراض على أى قرار يجمع عليه أعضاء المجلس، وأن يباشر سلطة تعيين الوزراء وعزلهم وكذلك تكون له سلطة الموافقة على ترقية وعزل الضباط وحتى تنقلاتهم . أى أنه طالب إجمالاً بسلطة فردية مطلقة(652) وكان رد مجلس قيادة الثورة هو التجاهل إلى حد أنه كان يلتئم اجتماعه دون أن ينبئه بذلك كالعادة أحد .

عندئذ « .. آثر اللواء محمد نجيب أن ينتقل إلى المعسكر الآخر ، معسكر السياسة المضروبة والمعادية للثورة ، وكان عربون التقارب الطبيعى هو تبنى قضية الديموقراطية . فقد اكتشف ضرورة عودتها فى ذلك الحين بعد أن كان وافق على إرجائها .. » على قول الدكتور عبد العظيم رمضان(653) فى حين يكتب الأستاذ محمد حسنين هيكل « إن إنكلترا فى ظروف مفعمة بالتوتر حاولت أثناءها استخدام خيوطٍ كثيرة .. » ولعلها الفترة - إذا صح كلام رجل المخابرات الأمريكى - الذى اقترب منه « ليه وايت » أمريكى آخر ، وكتب له قصة حياته فى كتابه مصير مصر، وفيه حاول «مرة أن يجر اللواء محمد نجيب إلى إحدى مقطوعات حكمه البالغة وسرعان ما ظهرت له الحقيقة، وهى أن نجيب ليس لديه حتى فكرة بسيطة عما كان يتكلم فيه»(654) وربما كانت هى الفترة التى عرض فيها جمال عبد الناصر رئاسة الجمهورية على لطفى السيد (باشا) وكان يسمع « لأول مرة من يقول له هذا : « إنه هو الذى يتحتم عليه أن يتقدم لرئاسة الجمهورية » .

وأخيرًا وضع اللواء محمد نجيب مجلس قيادة الثورة بين خيارين . إما عودة الحياة النيابية أو قبول استقالته وقبل مجلسي قياد الثورة التحدى ، وقبل استقالته فى 23 فبراير / شباط 1954 وتولى قائد الثورة رئاسة مجلس الوزراء ورئاسة مجلس قيادة الثورة .

ولم يكن تمسك محمد نجيب بالحكم على هشاشة مضمونه ، مستغربًا ، فى بلاد عربية ، تنتابها شهوة دفينة إلى السلطة التى ضيعتها هى نفسها منذ أن تخلت عنها للعنصر الأجنبى .

* * *

الإخـوان المسـلمون والثـورة

يستذكر الدكتور ثروت عكاشة ، أحد ألمع الضباط الأحرار وأكثرهم اندماجًا والتزامًا بأهداف الثورة ، أن البلاد فى منتصف الأربعينيات ، لم يمكن يجمعها إلا الحديث فى الأحوال السياسية المضطربة فى تلك الظروف التى كانت تمر بها والثورات الشعبية المكتومة والاضطهاد والعسف محور الحديث الشائع ؛ وقال : « وكنا نحس فى ذلك الوقت والجيش فى ظل كثرة من القادة ليس لهم من ثقتنا نصيب أنه لزامًا علينا أن نتناول فى أحاديثنا ما عليه الحال العامة ، وكنا نحن الضباط نجد أنفسنا أولى الناس بالحديث عن هذا ، فكم كنا نحس أن الشعب الساخط يرانا شركاء فيما ترتطم فيه البلاد من فساد ، وأننا حماة هذا الفساد . ومعنى هذا كان الشعب يرانا العقبة الكأداء فى سبيل تحقيق ما يطمح إليه .. وما من شك أن هذا كان يجرح كبرياءنا ونحن مع الشعب ومنه .. »(655) .

وفى عام 1945 نجح إلى دورة أركان لمدة سنتين فتعرف على جمال عبد الناصر وزكريا محيى الدين وتوثقت الصلة بينهم . وقال : « وكنا من الشباب المتطلع إلى وسيلة نلجأ إليها لتحقيق أهدافنا ، ونحن نبحث عن السبل التى نخرج بها من المأزق الذى يضعنا فيه الملك فى نظر الشعب . إذ جعلنا أشبه بالعصا التى يلوح بها كما أراد أن يحقق مأربًا شخصيًا أو سياسيًا . وفى ظل هذه الحيرة التى غشيتنا .. رأينا الاتصال بجماعة الإخوان المسلمين لما كنا نتوسمه فيها من تجرد فى الدعوة . وكان قد سبقنا إلى تلك الجماعة أخ وطنى فاضل من الضباط هو عبد المنعم عبد الرؤوف . فاتصل به جمال عبد الناصر بوصفه المتكلم باسمنا ليستوضح منه على أى أساس سوف يكون انضمام الضباط للإخوان المسلمين. ومنذ البداية كانت ثمة قضية أساسية يدور حولها الخلاف ، فعلى حين رأى عبد المنعم عبد الرؤوف أن انضمام الضباط يجب أن يكون اندماجًا دون قيد أو شرط، كنا نرى أن يجب أن يكون لمن ينضمون من بيننا كيانهم المستقل فى ظل الجماعة. وكان أن استجابت جماعة الإخوان فى نهاية الأمر لمطلبنا ، فكان للضباط استقلالهم ، وتكونت منهم خلايا شؤونها بيد لجنة منهم مختارة من جمال عبد الناصر وعبد المنعم عبد الرؤوف وخالد محيى الدين وكمال الدين حسين وصلاح خليفة .. وكانت لنا اجتماعات أسبوعية نتداول فيها الأمر . كما كنا حريصين مع ذلك على الاختلاف إلى دار الجماعة بالحلمية كل ثلاثاء للاستماع إلى خطبة المرشد العام .. كما كنا نتردد عليه يحدثنا ونحدثه .. »(656) .

ولم يذكر الدكتور ثروت عكاشة تاريخ تراخى هذه الصلات أو انقطاعها ومتى أدار جمال عبد الناصر ظهره لها . إلا أن الواضح من سياق كلامه أن الضباط الأحرار كانوا يمرون فى مرحلة سبر واستقصاء(657) ودرس ، ثم إنه من الواضح أيضًا فى تاريخ الثورة أنها ابتداءً لم تكن تنظر إلى تنظيم الإخوان نظرة عداء - إن لم يكن على العكس تجد فيهم حليفًا . ولم تجد الثورة مانعًا من إشراكهم فى الحكم . فطلبت ترشيح اثنين للوزارة ففعلوا ثم تراجعوا عن مرشحيهم . وربما بدأت النوايا من هنا تتكشف .

بدا أن الإخوان المسلمين يريدون السلطة ، ولم يكن فى هذا بأس إذا كانوا على استعداد لأن يتقدموا للناس كتنظيم سياسى له برنامج أكثر تفصيلاً من « مجرد مقولة : أن الإسلام دين ودولة » التى كانت هى شعارهم الوحيد حتى ذلك الحين . وإن كانوا تطوروا بعد الثمانينيات .

* * *

واعتبار أن مقولة : « إن الإسلام دين ودولة » برنامجًا لحزب سياسى يلتزم أمام الجماهير، يقود إلى متاهات ، أولها موقف الإسلام من العروبة .. من « القومية » التى تروم النهوض بالأمة العربية وبالتالى بالإسلام .. فالإسلام ، من أى زاوية نظر إليه .. هو نهج عربى ولسان عربى ودين عربى إلى العالم .. بينما الإخوان المسلمون بمقولاتهم يرجعون إلى « الشعوبية » الأولى التى تنطلق من اعتبار العرب متخلفين ، وأن الإسلام جاء لإنقاذهم .. فى حين كان الواقع هو العكس .. وقد رد القرآن الكريم نفسه على ذلك الافتراء فكان قاطعًا « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين « .. وكذلك أنزلناه حكمًا غربيًا » ، وهذا كتاب مصدق لسانًا عربيًا لينذر الذين ظلموا » .. (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياًّ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (.

وفكرة العروبة مهزوزة فى إسلام الإخوان المسلمين فيما يزال فيهم من ينظر كالمستعمرين القدامى أن العرب بالإسلام نهبوا العالم .. وفصل الإسلام عن العروبة مقولة مشبوهة .

* * *

وفيما يذكر أمين شاكر ، أول مدير مكتب لجمال عبد الناصر من علاقة الإخوان المسلمين بالثورة بعد نجاحها يكشف هذه المرحلة فيقول : إن أول اتصال تجربة الثورة مع الإخوان كان عن طريقه لقيام السيدة سعاد ابنة الهضيبى بتحديد موعد له مع أبيها ، وهى التى كانت تربطه بها وبزوجها مرعى مخلوف صداقة زمالة حميمة . وقد بحث مع الهضيبى إمكانية التعاون بين الثورة والإخوان المسلمين على أساس أن يصبح الإخوان قاعدة الثورة الشعبية ، وعلى الأثر اجتمع بالهضيبى حمال عبد الناصر وأنور السادات وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وتم بلورة نقاط كثيرة للالتقاء بين الثورة والإخوان(658) .

وتحدث جمال عبد الناصر بصراحة مع الهضيبى وقال له بأنه ما دامت الأهداف واحدة وأهمها تصفية الاستعمار والقضاء على الفساد وإقامة حكم ديموقراطى سليم فلماذا لا نتعاون ... وقد ظل هذا التعاون مستمرًا بين الإخوان والثورة إلى أن حدث فجأة أمر لم يكن فى الحسبان . إذ اتصل به الشيخ الهضيبى ذات يوم وطلب منه تحديد موعد لمقابلة جمال عبد الناصر ، وفى الموعد بدأ الحديث الهضيبى مباشرة قائلاً : « إننا درسنا الأوضاع الراهنة وصورة التعاون بين جماعة الإخوان وقيادة الثورة ووجدنا أن المصلحة العامة تقضى ألا تصدر قيادة الثورة أى قرارات إلا بعد التشاور معنا وأخذ موافقتنا عليها » . ويعلق أمين شاكر على هذا الكلام قائلاً : « وكان يمكن لرأى الهضيبى أن يقال بصيغة أخرى ليكون قابلاً للنقاش والتحاور ، ولكن هذه الصيغة التى جاء بها كلام الهضيبى استفزت عبد الناصر . لأنه جاء فى صورة قاطعة ومحاطة بقدر كبير من التعالى والثقة الزائدة فى النفس » .

نظر جمال عبد الناصر إلى المستشار الهصيبى وسأله : هل هذا طلب وصاية على الثورة ، أم ماذا بالضبط ؟ قال الهضيبى : إنها ليست وصاية ولكن هذه هى الأصول وما يجب أن يتبع إذا كنتم حريصين على تعاونكم معنا وتعاوننا معكم .

فقال عبد الناصر : إن الثورة وخدمة الوطن لست حكرًا على الإخوان وحدهم ، وإننا نتشاور بالفعل مع الإخوان وغير الإخوان فى كل الأمور تقريبًا ، وقيادة الثورة ليس لها أى مصالح خاصة

بل إن مصلحتنا الأولى والأخيرة هى مصلحة الوطن والمواطنين .

وطلب الهضيبى هذا يذهب إلى أكثر من الوصاية . إنه يذهب إلى أن الإخوان كانوا هم صانعىّ الثورة ، وإن قيادة الثورة كانوا أداتهم التنفيذية . وعلى كل حال انتهى اللقاء بين جمال عبد الناصر والهضيبى بأزمة ثقة بين الجانبين أدت إلى الانفصام التدريجى ، وإحجام الإخوان عن التعاون مع الثورة بنفس الحماسة التى كانوا عليها قبيل ذلك التاريخ ، ثم راحوا يتآمرون .

كان أول التآمر أول محاولة اغتيال يقوم بها الإخوان المسلمون لجمال عبد الناصر هى محاولة عبد المنعم عبد الرؤوف من ضباط المشاة ألحق بالطيران كطلبه ليتقاضى تعويضًا ؛ ومع تقاضيه التعويض استمر عبد المنعم عبد الرؤوف يطلب سلفيات بدعوى حاجة أسرته فيعطى ما يطلبه . إلا انه ظل يشعر بالغـــبن لأنه لم يعيّن فى قيادة الثـورة ؛ ووضـــع خطته لاغتيال جـــمال عبد الناصر ومدير مكتبه أو اعتقالها أثناء تغيير سرية الحراسة بمجلس الوزراء على أساس حضوره مع جماعة قبل الموعد وهم يرتدون نفس لباس السرية فيقبضون على جمال عبد الناصر ومدير مكتبه أو يقتلونهما ، ثم يعلن من مجلس الوزراء استيلاء الإخوان المسلمين على السلطة بدلاً من مجلس قيادة الثورة . وقد كشفت الخطة بالصدفة عندما رأى أحد ضباط الرئاسة بعض أفراد الإخوان المسلمون يشترون ملابس الشرطة العسكرية القديمة من سوق العتبة .

فبلغ مدير مكتب جمال عبد الناصر الذى بلغ بدوره المقدم أحمد أنور قائد الشرطة العسكرية ، وبعد الاستطلاع تبين ما ينويه الإخوان المسلمون فأعدت خطة نصب كمين للإخوان وقعوا فيه وألقى القبض عليهم إلا أن عبد المنعم عبد الرؤوف هرب . فجرى إعلام جميع نقاط الحدود للقبض عليه ومنعه من السفر لأى سبب كان(659) .

ويذكر محافظ مرسى مطروح المقدم حسنى الدمنهورى أن عبد المنعم عبد الرؤوف ضبط وهو يهم بعبور الحدود إلى ليبيا . فلم يعثر المحافظ على من يخبره من المسؤولين فاضطر إلى إيقاظ جمال عبد الناصر من نومه ليخبره فى بيته فسأله جمال عبد الناصر عن سبب وجوده فى مرسى مطروح . فقال له المحافظ أنه وصل مطروح فى طريقه إلى ليبيا فقال له عبد الناصر اتركه يخرج ولم يصدق المحافظ أذنيه فسأل : سيادتك بتقول خلّيه يخرج ؟! فأجابه عبد الناصر : أيوه ، فقال الدمنهورى : أنا سمعت أنه كان عاوز يقتل سيادتك ، أجاب عبد الناصر : هذا صحيح ولكن كل شىء بإرادة الله(660) .

وسافر عبد المنعم عبد الرؤوف إلى ليبيا ومنها إلى الأردن ، وهناك لم يكن له من عمل سوى التهجم على عبد الناصر ، وإشاعة الأكاذيب عن ثورة 23 يوليو ، وبعد مضى أقل من عام أصدر «جلالة الملك حسين» مرسومًا بتعيينه سفيرًا للأردن فى نيجيريا .

وفى الوقت الذى راح فيه عبد المنعم عبد الرؤوف يهاجم ويتآمر أمر جمال عبد الناصر فى القاهرة بالاستمرار فى رعاية أولاده وصرف رواتبه كضابط منتدب للطيران ...

ولم تكن قد مضت أسابيع على اكتشاف شبكة تعمل لحساب إسرائيل بهدف الاعتداء على الممتلكات الأمريكية لإظهار عجز الثورة عن حماية الأمن فى القضية التى عرفت بقضية لافون ، حتى قام أحد الإخوان بمحاولة الاعتداء على حياة جمال عبد الناصر بينما هو يخطب بالمنشية بالإسكندرية يوم 26 نوفمبر / تشرين الثانى 1954 بإطلاق الشاب محمود عبد اللطيف ست رصاصات من مسدسه على جمال عبد الناصر وهو يشرح اتفاقية الجلاء(661) فقتل من قتل وأصيب من أصيب

، وقد ثبت من التحقيقات أن الإخوان كانوا ينوون القيام ببعض الأعمال ضد وحدات الجيش ، وأنهم قد وضعوا خطة واسعة للتدمير . إذ أنهم تحت ستار التعاون السابق مع الثورة استطاعوا تجنيد عدد من الضباط بعضهم يحتل بعض المراكز الحساسة(662) ونجا جمال عبد الناصر بأعجوبة : « فإن الرصاصات أصابت بعض من كانوا حواليه ولكن أيًا منها لم تصل إليه . وكانت اللحظة مثيرة فى حياة جمال عبد الناصر . فرغم الهرج والمرج الذى ساد فى السرادق لحظة إطلاق الرصاص راح جمال عبد الناصر من موقفه الثابت ، يدعو المواطنين ويهيب بهم أن يثبتوا فى مواقعهـم ، وأن يتأكدوا من انه إذا قتل جمـــال عبد الناصر فإن كل واحد منهم هو جمـــال عبد الناصر. وكان المشهد صورة للشجاعة الإنسانية . وكان تأثيره على جماهير الشعب المصرى قويًا وعميقًا » ، خرج الشعب بعد الحادثة يحييه فى عودته إلى القاهرة على طول الطريق ..

ولسوء الحظ أنه تنبّل أناس فى مصر وفى مناطق غيرها من البلاد العربية للتشكيك فى هذا المشهد لا للدفاع عن الإخوان المسلمين ورفع قيمتهم ، ولكن للطعن فى مصداقية عبد الناصر ، ولكن فاتهم أن يبرئوا الإخوان من حوادث الاغتيال التى ارتكبوها : اللواء سليم زكى ، المستشار الخازندار ، محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء ؛ وهم إن استطاعوا ذلك لا يستطيعون إنكار اعترافات الجانى ورسالة الهضيبى وتراكم الأسلحة فى مخابئهم ومخططات المنشآت المنوى تدميرها .. كذلك لا يستطيعون إنكار ما تلا من جرائمهم .

* * *

ذلك أنه لم تكن محاولة اغتيال جمال عبد الناصر هى الأولى فى عمليات الإخوان المسلمون الإرهابية . فمن مذكرة وكيل وزارة الداخلية لشؤون الأمن أن الجماعة بدأت فى عملياتها الإرهابية منذ 1948 ، قبل الثورة ، يعزو عبد الرحمن عمار إلى هذه الجماعة فى مذكرته هذه انفجار شحنة ديناميت فى كل شيكوريل فى شهر يوليو 1948 وفى الشهر التالى انفجاران فى محلى بانزيون وجاتينيو وفى سبتمبر انفجار شديد هائل فى حارة اليهود ترتب عليه انهيار أربعة منازل و30 قتيلاً وإصابة 77 وحدث فى الشهر نفسه انفجار شديد فى شركة الإعلانات الشرقية.. وترى المذكرة أن الجماعة ترمى إلى الوصـول للحكم بالقوة والإرهاب وقد أخذت تدرب شبانًا من أعضائها على ذلك ، وأنشأت لهم مراكز لتدريبات عسكرية تحت ستار مراكز رياضية وراحت تجمع فيها الأسلحة وتخزنها مستغلة ظروف حرب فلسطين ، وفى كتاب أنور السادات الذى أصدره فى حياة جمال عبد الناصر بعنوان أسرار الثورة ما يؤيد مضمون هذه المذكرة ..

لسنا نرمى هنا إلى بحث عن الإخوان المسلمين .. فهذا له مجال آخر فسيح . المهم هنا إظهار أهم العراقيل التى وضعتها فى وجه ثورة 23 يوليو إقليميًا وقوميًا وعالميًا . وإظهار تناقضاتها الصارخة ، وكم كان يعوزها المنطق فى تفكيرهاوفى فهم للدين وللواقع ، ولسنا نريد وضع أفكارها فى ميزان العلم ومستجدات التكنولوجيا ... وإنما ...

فقد بلغ التخبط بها حد الوصول إلى التنظير بأن العالم اليوم يعيش كله فى جاهلية ، وهذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله فى الأرض . ولابد من دليل للجماعة ودليلها هو كتاب معالم الطريق لسيد قطب .

* * *

الموقف الأمريكـى

راجت الإشاعات أن ثورة 23 يوليو قامت « بعلم الإنجليز » برغبة تحسين سمعة الحكم تارة وتارة أخرى لتفسير أعجوبة نجاحها . وكان مروجوها كثيرين . إلا أن حاضنيها ، على الأغلب كانوا من الشيوعيين ، لأنه كان مستقرًا فى أذهان الشيوعيين وفى كتاباتهم أن الثورات الحقيقية هى التى تصدر عنهم ، وما عداها فهى من تخطيط الاستعمار . حتى أن خالد باكداش كتب فى مجلة الشيوعية الدولية أن الإصلاح الزراعى فى مصر أمرت به أمريكا . ومن جهته الملك كان يستعدى عليهم بأنهم فئة من المتمردين الشيوعيين .. إلخ كأنما الإحساس بأوجاع الشعب والانتصار له .. دخيل ومقصور على الأفكار الدخيلة . والأمر فى نجاح الثورة بسيط للغاية : السرية المطلقة ، الاعتماد على النفس . ومن هنا كان نجاحها الأسطورى . فلم يعرف الأخ أخاه أو الصديق صديقه أنه كان من الضباط الأحرار إلا عند التنفيذ ، ساعة التقى به .. ولم يكن فى كلام الذين بلغوا عنها ونطقوا باسمها خطوة ، خطوة إلا ما تقتضيه المرحلة : إصلاح الجيش والتطهير من الفساد.. ولم يكن ثمة من أحد بعد « الهزيمة » فى فلسطين وبعد ضجة الأسلحة الفاسدة وبعد .. وبعد .. ينكر ذلك .

يستذكر على صبرى أنه نشأت علاقة له بالملحق الجوى الأمريكى بسبب دراسته فى الولايات المتحدة ، ويعمل مديرًا لمخابرات الطيران ، ووفقًا للنظام فإن الملحق الجوى لا يستطيع أن يجرى اتصالاته إلا من خلال جهاز المخابرات .

وقد أدى ذلك إلى استمرار الاتصالات ، ونشأت علاقة شخصية معه ومع الملحقين فى السفارات الأخرى . وقد اتصل به الملحق الجوى الأمريكى قبل قيام الثورة بأيام ، وأبلغه أن معلوماتهم تقول إن هناك حركة فى الجيش . وأكد له أن هذه المعلومات صحيحة . وحرص على صبرى على أن ينفى له ما لديهم من معلومات - رغم علمه بصحتها ، وأقنعه أن الأمر لا يتعدى آثار معركة نادى الضباط . ولأن على صبرى كان يعرف العلاقة الوثيقة التى تربط السفير الأمريكى جفرسون كافرى بالملك فاروق فقد كان واثقًا ان السفارة الأمريكية ستضع هذه المعلومات أمام الملك . فاتصل بالبغدادى وأبلغه أن المعلومات تسربت إلى الأمريكان ، وبالتالى إلى السراى الملكية(663) .

وفى ليلى 23 يوليو كان من الطبيعى أن تبلغ الرسالة التى يراد تبليغها إلى السفارة الأمريكية من خلال على صبرى بحكم العلاقة الشخصية بينه وبين الملحق الجوى الأمريكى؛ فاتصل البغدادى بعلى صبرى ليلة الثورة واستدعاه لمقابلة جمال عبد الناصر ، وكانت أولى مقابلاتهما . وكانت الرسالة بسيطة جدًا : فالجيش قام بحركة لتطهير القوات المسلحة من العناصر الفاسدة وليس للحركة أية أبعاد سياسية ، والشعب كله سيؤيدها لأنها تتماشى مع مطالبه .. والمطلوب أن تتدخل سفارة الولايات المتحدة لمنع أى تحرك للقوات البريطانية من منقطة القناة وإلا ستضطر للدفاع عن كل شبر وكل قرية . فهناك سلاح جاهز للتوزيع على الشعب . وقد طمأنه على صبرى على أرواح الأجانب ، وأنها فى أمان كامل. فالجيش يسيطر ويستطيع أن يحافظ على الأمن . وأن حجة التدخل من أجل حماية أرواح الأجانب حجة باطلة لأنه لن يحدث ما يمس الأجانب . وذهب على صبرى إلى الملحق الجوى الأمريكى وأبلغه الرسالة واتصل أمامه بالسفير كافرى فى الإسكندرية

لينقل إليه ما سمعه من على صبرى . وبالفعل وصلت الرسالة إلى السفارة البريطانية(664) .. واستمرت الاتصالات .. وكان هدفها تأمين الثورة من أى تدخل يقوم به الإنجليز.. أما أمين شاكر أول مدير مكتب لجمال عبد الناصر ولمجلس قيادة الثورة فإنه يعتــبر كل ما يتعلق باتصال على صبرى هذا لا صحة له ، وهو اختلاق مروج للتمهيد لبعثة على صبرى وعبد المنعم أمين إلى أمريكا من أجل التسلح . ببراعة من على صبرى نفسه .

ولعل ما يذكره الأستاذ محمد حسنين هيكل عن بداية علاقة الثورة بالولايات المتحدة الأمريكية بطريق سفارتها بالقاهرة يقدم توضيحًا أكمل لتسكين الولايات المتحدة . يذكر القصة على النحو التالى :

« كان القائمقام عبد المنعم أمين واحدًا من كبار ضباط المدفعية ، وكانت حياته الاجتماعية نشطة ، وربما من هنا لم يفكر جمال عبد الناصر فى دعوته مبكرًا للانضمام إلى تنظيم الضباط الأحرار رغم أن التنظيم كان يحتاج إلى تدعيم أعضائه فى هذا السلاح الحيوى المؤثر » .

« وفى ليلة 23 يوليو ، وفى اللحظات الحرجة من عملية الاستيلاء على السلطة أحس القائمقام عبد المنعم أمين بما يحدث وانضم إليه بلا تردد ، وكان دوره فى تأكيد مساندة المدفعية للثورة كبيرًا ومؤثرًا، وقرر جمال عبد الناصر دعوته إلى مجلس قيادة الثورة مباشرة ودون المرور على مستويات التنظيم المتصاعدة . وربما كانت حياته الاجتماعية قبل 23 يوليو وصلاته بعدد من الدبلوماسيين نتيجة لها هى السبب الذى دعا جمال عبد الناصر إلى أن يكلفه صباح 23 يوليو بإخطار السفارة الأمريكية بنوايا الحركة وتوجهاتها بما فى ذلك تمسكها بالتزامات مصر الدولية ، ولم تمض أيام حتى ذهب عبد المنعم أمين إلى جمال عبد الناصر ليقول له : إن مستشار السفارة الأمريكية « لويس جونز » ، وكان قد تعرف عليه من قبل فى نادى السيارات ، وجه إليه دعوة على العشاء فى بيته ، وأنه يتصور « أنهم » يعرفون الآن مكانه فى القيادة الجديدة وأن الدعوة الموجهة إليه فى هذه الظروف بها بالقطع طابع آخر يختلف عن نوع العلاقات الاجتماعية التى كان طرفًا فيها من قبل ، وبالتالى فإنه رأى أن يستأذن فى قبول هذه الدعوة أو فى الاعتذار عنها . رأى جمال عبد الناصر أن يقبل القائمقام عبد المنعم أمين دعوة المستشار الأمريكى وأكثر من ذلك أن يوثق صلاته به .

« ولم يكد يمضى أسبوع حتى كان عبد المنعم أمين يرد الدعوة فيستقبل هو والسيدة قرينته السيدة محاسن مستشار السفارة الأمريكية وزوجته ، وكان بين المدعوين أيضًا المستر روبير ماكلنوك الوزير المفوض للسفارة والمستر وليم لكلاند ؛ وكان عبد المنعم قد التقى بهم جميعًا فى العشاء الذى دعا إليه « لويس جونز » قبل أسبوع ؛ وكانت المفاجأة أن جمال عبد الناصر قرر حضور العشاء ومعه عبد الحكيم عامر ومعه صلاح سالم وكان هذا أول لقاء على هذا المستوى بين قيادة ثورة 23 يوليو وممثلين عن الولايات المتحدة الأمريكية دام اللقاء تلك الليلة ، 12 أغسطس 1952 ، أكثر من أربع ساعات ، فقد بدأ فى الساعة الثامنة والنصف مساءً ولم ينته إلا عند الساعة الواحدة والربع .

« كانت لدى المصريين أسئلة كثيرة عن موقف الولايات المتحدة الأمريكية وسياساتها تجاه مصر . وكان واضحًا للطرف الأمريكى أن جمال عبد المناصر قد اطلع على كل الملفات إطلاعًا كاملاً ، ومن الناحية الأخرى كان لدى الأمريكيين بدورهم أسئلة كثيرة عن سياسات النظام وتوجهاته

ونواياه، وبالذات فيما يتعلق بمشروعات الدفاع عن الشرق الأوسط ؛ وربما كان أهم ما دار فى هذا الاجتماع أن الطرف الأمريكى أصبحت لديه فكرة واضحة عن أولويات النظام .

« كان رأى جمال عبد الناصر أنه لا يستطيع وطنيًا أن يقترب من مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط إلا بعد أن تتم تسوية ما كان يسمى بالقضية المصرية بشقيها . الجلاء والسودان ولم يكن هذا كله جديدًا على الأمريكيين ، فقد سمعوه من قبل سواء من الدكتور محمد صلاح الدين فى حكومة الوفد ، أو من نجيب الهلالى فى الحكومة التى كان رئيسها . وبدا لهم ما يقوله جمال عبد الناصر الآن ، وكأنه خط ثابت للسياسة المصرية ، وكان ما هو جديد هو أن الخط السياسى الثابت تقود حركته فى المتغيرة فى مصر قيادة جديدة شابة لديها جسارة فى مواصلة سياستها بقوة واندفاع وبدون خوف من مناورة قصر أو سفارة أجنبية . كما أن وراءها تأييدًا شعبيًا جارفًا .. » .

ولكن ما فتئت الولايات المتحدة ودول العالم الغربى الكبرى المعنية بالمحافظة على سيطرتها فى العالم أن سمعت نغمة جديدة لم تألفها ، تنطلق من مصر بالذات ، تحذر وتلفت النظر ، إلى مسؤوليتها : ففى يوم 2 مارس (آذار) 1953 لم يفت جمال عبد الناصر فى زحمة المشاغل والعقبات التى مازالت تعترضه وعليه تذليلها ، أن يذيع موقفًا مصريًا حازمًا وصريحًا يفهمه العالم، بينما تجرى فى واشنطن محادثات حول مستقبل الشرق الأوسط ، فعقد مؤتمرًا صحافيًا لوكالات الأنباء العالمية أدلى فيه بتصريح حوى ثلاث نقاط فقط .

1 – أن الأمة العربية لن تصغى إلى أى وعود معسولة يقطعها الغرب على نفسه ، ففى حربين عالميتين استطاع الغرب أن يخدع العرب بوعود لا قيمة لها . فوعودهم للشريف حسين ، أثناء الحرب العالمية الأولى لم تؤد إلى شيء ، كما أن احتلالهم لمصر ترسخ بعد تلك الحرب . وفى الحرب العالمية الثانية قدم الغرب وعودًا جديدة للعرب ليحصل على تعاونهم ، وانتهت هذه الوعود بقيام إسرائيل .

2 – وقال : إن الولايات المتحدة الأمريكية خرجت من الحرب العالمية الثانية فى دور بطل للحريات ، لكنها ضحت بسمعتها بسبب تأييدها للدول الاستعمارية تحت ظن أنهم حلفاؤها فى معركة ضد الشيوعية ، وأن الرئيس ترومان قد أضر ضررًا بليغًا بتهديد أمريكا فى الشرق الأوسط بسبب تأييده الأعمى لإسرائيل . وأنه قد آن الأوان لأمريكا لكى تعود لمبادئ الثورة الأمريكية ومبادئ ميثاق الأطلنطى .

3 – وقال إنه إذا واصل الاستعمار البريطانى احتلاله لمصر فإن مصر لن تقبل أى تهديد وسوف يقاتل شعبها بكل ما لديه لينهى احتلالاً لأرضه دام 70 عامًا(665) .

ومضت الثورة ترصد أى شيء يصدر فى العالم كله لا فى الغرب وحده يتعلق بالأمة العربية ويعلن موقفها منه . ومنذ ذلك الوقت اختيرت نخبة من أقدر المترجمين فى مصر لترجمة ما ينشر عن العرب فى جميع صحافة العالم ، وإصداره فى عدد من النسخ وتوزيعها على المعنيين .

* * *

الثـورة والوفـد

جاء الوفد مهدئًا مسكّنًا

أعلنت الحكومة البريطانية عن قدوم لجنة « ملنر » فأعلن « الباشاوات » المتصدون للقيادة مقاطعة اللجنة . ولم تتفتق ذهنية هذه القيادة عن شيء آخر يتلاءم مع غليان البلاد وبنجاح المقاطعة نجاحًا رائعًا ، ومن إدراك الحكومة البريطانية لمدى قدرات القيادة فى مصر ، ومن اطمئنانها أنها لن تقدم على ما يسيئها ، وجهت قائمة طويلة من الأسئلة تستفتى بها البلاد ، عمدها ومشايخها وكبارها بأسباب تذمرها .. بلاد محتلة ، محكومة على النحو المعروف . الذى يرجى ألا يكون بعض حملة الدكتوراه من أبنائها الآن قد نسوا ذلك الحكم .. تستفتى فى حقوقها.

وبانتظار صدور تصريح 28 فبراير(666) الذى يقدم الاحتلال بصيغة جديدة ، لم تحصل «قيادة» الشعب العتيدة إلا على مطلب السماح للـ « وفد » بالسفر لعرض « قضية » البلاد والدفاع عنها ، وعلى الفوز بمبدأ المفاوضات : مخلّفة وراءها ثورة عظيمة . سخية بالتضحيات من أجل نتيجة هزيلة . إلا أن التقنين الجديد للاحتلال : تصريح 28 فبراير جاء لهذه « الفئات » القيادية بكراسى للحكم ما فتئت أن انهارت وتحطمت تحتهم جراء المؤامرات والانقسامات التى حيكت لهم .

ولأنه ليس من مصلحة تحالف الاحتلال مع القصر أن تبقى الفئات التى تجمعت على الوفد موحدة حتى فى المفاوضة ، عمل على انشقاق عدلى يكن لإضعاف الوفد ، وعلى رغم أن الوفد الذى تجمعت وراءه جميع الفئات التى صنعها محمد على وأسرته والاحتلال لم يضع برنامجًا له غير أسلوب المفاوضة لنيل الاستقلال بعد أن انقلب حزبًا ، ظل يزعم أنه يمثل الأمة ، وأن زعيم الوفد هو زعيم الأمة . وفى الحقيقة يمثل المالكين المليون ويرعى مصالحهم وحدهم .

وعلى وجه اليقين كان الوفد حينئذ يتمتع بهذه الصفة ، ويحظى بولاء الجماهير ، ويمثل جبهة وطنية جمعها مطلب للاستقلال إلا أنه تعرض إلى انقسامات حادة. ففى العشرينيات خرجت منه مجموعة شكلت حزب الأحرار الدستوريين، وفى الثلاثينيات خرجت منه مجموعة شكلت حزب السعديين ، وفى الأربعينيات خرجت منه مجموعة شكلت الكتلة الوفدية . ومع أنه يتغنى بأن تشكيله تم بتوكيل من الأمة لم يتوصل إلى توقيع معاهدة مع الإنجليز إلا فى عام 1936 وصفت بأنها أبدية ومعاهدة ، « ألغاها هو نفسه من طرف واحد فى ظروف صحوة وطنية سنة 1951 » . وفى الحرب العامة الثانية ، فى 4 فبراير 1942 أرغمته الظروف على قبول علاقة خاصة مع السفارة البريطانية . فاعتلى الحكم إثر تهديد الملك بالدبابات البريطانية فتعثرت قدرته وفاعليته جراءها على التعبير عن الرأى العام المصرى فى مناخ وطنى عاصف . وفى تقلصات الحرب العامة الثانية واقتصادها المختل فإن الإغراء كان شديدًا لعناصر كانت متصلة بالحكم أو قريبة منه «لتحصل لنفسها على قسط من غنى الإنفاق العسكرى وإسرافه» وكان عاجزًا عن التعبير عن توجه مصر العربى الذى قضت به الظروف فى تلك المرحلة . فلم تصدر عنه أية مبادرة ولم يتحرك فى هذا الاتجاه إلا بعد تصريح وزير خارجية بريطانيا مرة ثانية، ومع ذلك جاء بروتوكول

تشكيل الجامعة العربية غير واف بالمطلوب . وكان مزريًا حقًا أن يصرح صبرى أبو علم ، فى مناخ معركة قومية متأججة ، باسم رئيس الوفد ، أكبر حزب فى دولة تتزعم الأمة العربية ، بقوله : « إن الرئيس الجليل ، أى النحاس ، معنى بالأمة العربية منذ زمن .. » كأنما يعنى بدولة فرنسا أو دولة فى إفريقيا ، والمفروض ألاّ تشغل الأمة العربية حيّزًا من تفكيره فقط ، وإنما أن يعيش فى أتونها . ولكن سعدًا ، قبله لم يكترث بالعرب ، والنحاس باشا هذا هو المسؤول عن قصور بروتوكول تأسيس الجامعة العربية عن الإيفاء بمطلب شعوب الأمة العربية فى تحقيق الوحدة .

وفى هذه الظروف تأثر تركيب القمة فى الوفد ، حيث كانت الزعامة فيه دائمًا مشتركة بين عناصر من كبار الملاك وعناصر من المثقفين ، وفى فترة بدأ الناس يعلقون آمالاً كبارًا على هؤلاء المثقفين ؛ إلا أن الخلل فى التوازن أكد فى الظروف الطارئة سيطرة كبار ملاك الأراضى وتلاشت الآمال ، وأصبح الوفد بحاجة إلى تطهير ، وفاحت رائحة الفساد .

قبل حصول غلبة ملاك الأراضى على قيادة الوفد كان يوم أحس الناس فيه باحتدام تنافس الوفد ممثل الشعب الشرعى بالتوكيلات التى كان يمكن أن تصبح عامة لولا أن اعترضت طريقها السلطة البريطانية ، وبين الملك الدخيل . وبذلك كانت تزول « الثنائية » فى السلطة التى تحكم البلاد منذ جاء الاحتلال . وقد جاء يوم فى هذا التنافس أن تأخر النحاس (باشا) متعمدًا بالوصول إلى احتفال يحضره الملك نصف ساعة عن وصول الملك إليه . ثم بعدها جاءت آخر انتخابات نيابية عامة – قبل حدوث ثورة 23 يوليو – اختار الشعب بين مرشحى السراى ومرشحى الوفد فأظهر مرشحى الوفد بفوز كبير رغم ما كان موجودًا من أثر 4 فبراير .

وكان من الممكن أن يستغل الوفد هذه الثقة من الشعب ليشدد مواقفه فى مواجهة الملك ، ويكشف زيف الهالة التى شارك فى صنعها هو نفسه للملك . ولكن الوفد خذل الشعب وخيب آماله . وراح بعد نجاحه الباهر يخطب ود الملك . ففى أول مقابلة للنحاس مع الملك الذى كانت فرائصه ترتعد من احتمال لقاء عاصف ينتهى بانحنائه ، بادره الملك بالسؤال عما يطلبه أو يقترحه فإذا بالنحاس يقول : « لا أريد إلا أن أقبل يدى مولانا الكريمتين » وفى آخر وزارة شكلها الوفد ، قبل إسقاط النظام ، وجاء الوزراء إلى حلف اليمين قبلوا يده عدا ثلاثة هم زكى عبد المتعال وأحمد حسنين وحامد زكى(667) .. أفليست هذه من مخلفات « ولى النعم » ؟! .

« ويدا مولانا الكريمتان لا تختلفان فى الحقيقة عن يدى البريطانيين لأن الملك فاروق وأى خديوى من أسرة محمد على ، لم يشك ولم يتذمر من الاحتلال البريطانى قط إلا عندما يحد هذا الاحتلال من سلطته الفردية . ففى أول اجتماع منفرد اجتمعه فى 13 نوفمبر 1945 مع الرئيس روزفلت على الطراد كوينس لم يشك إليه معاناة البلاد من الاحتلال البريطانى مدة 72 سنة ، وإنما شكا إليه الطريقة التى يعـــامله بها اللورد كيلرن الســـفير البريطانى فى مصـــر ، وأن لندن لا تستمع إلى شكاويه من هذا الطاغية . حقيقة كان الملك فاروق صادقًا فى شكواه ، ولكن من ذا الذى كان يعرف فاروق على حقيقته ولا يعامله هكذا، ولم يكن هناك أعرف من السفير البريطانى به وأقدر .

ولكن كان الحرىّ بالوفد أن يكون فى مستوى الشعب الموكل عنه ، والمعبر عنه ، الشعب وهو فى أوج عنفوانه ، وهو يفرض بقيادة عمر مكرم اختيار واليه ، الشعب وهو يطرد حملة فريزر فى رشيد ، الشعب وهو ثائر بقيادة عرابى ليسترد حقوقه ، شعب دنشواى ، شعب ثورة 1919 التى بوأته الزعامة لا شعب الفلاحين المهانين ، الأذلاء ، الحالة التى آل إليها فى ظل محمد على

وأسرته بعد أن جرد من كرامته وعزته , حتى في الطريقة التى اختارها الوفد ، وهى المفاوضات التى استنها له سعد زغلول ، لم يكن الوفد محافظًا على العزة والكراكة التى تليق بماضى هذا الشعب العظيم .

لقد ولّى الزمن الذى كان الملك بالتسلح بنفوذ الإنجليز وسطوتهم معه أن يستبد ويطغى . فالملك بسلوكه المفضوح لم يعد ملكًا ، وتلاشت الهالة التى زينت للشعب حوله .

وكان الملك لم يعد ملكًا . سمعته أصبحت على لسان الشارع . يرتاد الكباريهات فى آخر الليالى . يلعب القمار فى « نادى محمد على » علنًا ، يراهن على سباق الخيل . لا يترفع عن ارتكاب جرائم قتل . كإشاعة مقتل رئيس الديوان الملكى أحمد حسنين بتهمة أنه عشيق الملكة الأم . وما دار حول حادث التصادم فى الإسماعيلية ، وكاد يودى بحياته ، وأطلق ذقنه فى المستشفى وكثرت الريبورتاجات عن الملك التقى ، الورع ، المواظب على قراءة القرآن ، تروجها صحافة مأجورة . وهى حقيقته إذا صحت الروايات وقعت بين سيارته وسيارة ضابط بريطانى ، رسام أوقع الملكة فريدة فى حبائله ، اقتحم عليه بسيارته موكبه ، نقل الضابط إثر انكشاف علاقته إلى جنوب إفريقيا . وتبين فيما بعد أن واقعة الحب صحيحة ، ذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل تفاصيلها بالأسماء . أما واقعة التصادم فلم يكتب عنها إلا ريبورتاجات المديح .

وقد بلغت صورة الملكية حدًا تعبر عنها قصة خطبته للأميرة فاطمة ، واقعية كانت أم تخيلاً، عندما أراد أن يتزوج للمرة الثانية . وكانت الأميرة فاطمة ، أرملة جميلة للأمير سعيد طوسون، أحد خصوم الملك مات فى حادث سيارة – هكذا كان يموت معظم خصوم الملك . فطلبها الملك للزواج . لكن الأميرة الجميلة رفضت طلب الملك لسوء سمعته وتهلهل شخصيته – رغم طغيانه – وعرضت بحاشيته قائلة : إن كرامتى تمنعنى من الجلوس مع هؤلاء الخدم . فقال لها فاروق :

لماذا ؟ إنك تصبحين ملكة مصر .

قالت الأميرة بسخرية : وما فائدة أن أصبح ملكة بدون ملك . إن « بوللى » هو الملك الحقيقى وأنت تابعه .

* * *

عند قيام ثورة 23 يوليو كان زعماء الوفد فى مصايفهم فى أوروبا ، ولم يحضر النحاس فورًا بل انتظر حتى مغادرة الملك ، واطمأن وشعر أن الوضع مستتب ومهيأ له لاستلام السلطة بصفته «زعيمًا لحزب الأغلبية» ؛ غافلاً عن أن هناك ثورة قامت لتقضى على العهد الذى عاش فيه ، والذى قضى حياته لم يحس فيه بالمتغيرات ولا بنبض الشعب .

وعندما قطع النحاس فترة الصيف وحضر إلى القاهرة ومعه فؤاد سراج الدين توجه رأسًا من المطار إلى مركز قيادة الثورة .. ولم يخف نواياه باستلام الحكم قبل أن يصعد إلى الطابق الثانى من مبنى القيادة العامة . إذ استقبله على المدخل أحد الضباط فبادره النحاس (باشا) ، ظانًا أنه من رجال الثورة بالقول : « إن مصر تفخر بما قمتم به وقد أديتم رسالتكم ، وعلينا أن نكمل المشوار ؟ » .

فما هو مدى مشوار النحاس (باشا) المنوى إكماله ؟ هل يعود إلى أصله ، قبل أن يختاره سعد ليكون خليفته فيندمج بالـ 99% من المصريين ، من أصحاب البلد الذين يحلمون بأن يأكلوا

ويشربوا ويناموا تحت سقف ويتعلموا؟ أم أنه يبقى رئيسًا للـ « وفد » الذى ارتقت قياداته كلها إلى رتبة الباشاوات وأصبح سكرتيره أكبر إقطاعى فى استغلال مصر ، ويبقى منحازًا للـ 2% الذين يشاركون فى نهب مصر ويطلبون رضا الملك والتفاوض على اقتسام حكم البلد مع الإنجليز . فى فوران المظاهرات عام 1935 الهاتفة بعودة دستور 1923 الذى وضع بعد تصريح 28 فبراير، وقصد منه تصديع وحدة الشعب، وأعيد الدستور ثم مضى الطلبة يشكلون وفودًا تطوف بالزعماء تطلب منهم الاتحاد من أجل مصر، وتألفت الجبهة الوطنية سنة 1936 بالفعل على أثر هذه الجهود، ولكن لم يتمخض عنها سوى معاهدة 1936 التى أطلق عليها النحاس معاهدة الشرف ، وطاف مكرم عبيد الذى كان مايزال بعد سكرتيرًا للوفد يمجد فيها بمحاضرات للجامعات . ولكنها لم تأت بجديد سوى إلغاء الامتيازات التى كان الزمن نفسه بتطور الظروف أفقدها قيمتها .

وكان « داعية » الوفد الجديد نفسه الذى تخلى عن مكانه فى أقصى اليسار ، بأمل من إغراءات فؤاد سراج الدين للنيل من جمال عبد الناصر ، كتب كتابًا فى هذه المعاهدة تحت عنوان مغر الصراع بين الوفد والعرش بالاستناد إلى الوثائق البريطانية . فإذا بهذا الكتاب كله ويأتى فى أكثر من ثلاثمائة صفحة يكشف عن أن السفير البريطانى مازال هو الحاكم فى مصر . وبخلاف كتبه السابقة التى كان ينشرها فى الهيئة أو لدى مدبولى نشر كتابه هذا فى بيروت . ولا غرابة فهذا « الداعية الجديد » قد انضم بالـ « الحراك الاجتماعى » إلى فئات مجتمع إدارة الحكم .. الذى فقد لونه والتزامه ..

* * *

مقولة الديموقراطية :

وافتعلت مقولة الديموقراطية ، حقًّا يراد به باطل وبادر باستغلالها محمد نجيب الذى دأب على تخيّر دقائق الخلافات بينه وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة للتميز عنهم ، حتى غدت صورته لدى الضباط الأحرار « من خلال مجلس الثورة أن محمد نجيب يريد أن يستأثر بالسلطات كلها وحده ، إذ وقف فى جانب والمجلس كله فى جانب آخر »(668) ودعاه العداء للثورة ، أو بالأحرى تمسكه بكرسى الحكم إلى التحالف مع الوفد والإخوان المسلمين والشيوعيين من أجل الديموقراطية، وإذا جاز للوفد والإخوان الكلام – تجاوزًا – فى الديموقراطية ، فما هو مستند دعوى خالد محيى الدين فى مطالبته بالديموقراطية الليبرالية، وهو ينطق باسم الشيوعيين الذين كانوا كما قال أحمد بهاء الدين « قلة قليلة لا تتعدى بعض المثقفين والشباب وعدد لا يذكر من العمال .. » ، إذا تحقق طموحهم للحكم لا يمكن أن يحكموا إلا بالحديد والنار لعدم استجابة الشعب لهم . كانت الديموقراطية فقط هى ديموقراطية بين أعضائهم كديموقراطية العهد القديم كانت لفئات الحكم فقط، وأما الإخوان المسلمون . فالأمر الواقع فى شأنهم أنهم قوة غير انتخابية ، وإن كانت عقيدتهم غير منافية لعقيدة الشعب . إلا أنه لا يتقبلهم حكامًا ، ولا يطمئن لسلوكهم كل الاطمئنان . وهـم لا يعون متطلبات الديموقراطية الصحيحة فى مصر . وإذا كان الإنسان لا يحيا بالخبز وحده فإنه كذلك لا يحيا بالدين وحده . فكيف تكون ديموقراطية حقًّا صحيحة فى بلاد يزيد عدد العاملين فيها من الفلاحين مع عائلاتهم عن عشرة ملايين شخص يكاد أن يكونوا وقتئذ 99% من عدد السكان ، ولا يزيد الأجر اليومى الزراعى عن ثلاثة قروش ، ولا يتجاوز عدد أيام العمالة فى السنة عن أربعة شهور(669)، يعيشون فى بؤس. بينما يملك البلاد حوالى مليون يتناوبون الحكم . كيف تطبق ديموقراطية صحيحة حيث السيطرة للمالك الكبير العاتى . وأصر الوفد وأصر الإخوان المسلمون على عدم الموافقة على الإصلاح الزراعى ، وتشكك الشيوعيون بوسائلهم فى الخارج . وإذا صدق ما قيل بأن قائد الثورة كان يبطن نية التخلص من هذه الفئات فإن هذه الفئات بمواقفها المعادية للشعب كانت تقدم له المبرر .

صحيح أن الثورة لم تعلن عندما قامت برنامجًا . إنما قامت بالثورة مجموعة من الضباط التقت على رفض النظام الملكى القائم ورفض الاحتلال البريطانى ، وتعرف مواطن القوة لتذليل العقبات والعوائق لتحقيق ذلك بخلاف رجالات « السياسة » وبلا خلاف على ذلك ، وربما كان ثمة برنامج متكامل فى ذهن قائد الثورة ، ولكنه لم ير مناسبًا الإفصاح عنه لا مع زملائه ولا مع الناس فى مواجهة تلك القوى العاتية من الأحزاب(670) . بل بالتأكيد كان يتصور مجمل برنامج متكامل قد لا يكون واضح المعالم حينئذ . ولكنه منذ 1955 صار ينوه فى خطبه أنه لا ديموقراطية سليمة ما لم يتحرر الشعب من السيطرة الخارجية والسيطرة الداخلية . فلا يمكن أن « يقال إن هناك ديموقراطية سليمة وأن هناك برلمانًا وأن هناك دستورًا ، إذا كان الفرد لا يشعر بحريته، وإذا كان الفرد مهددًا فى رزقه، وإذا كان الفرد مهددًا فى عيشه، وإذا كان الفرد مهددًا فى يومه أو غده » فضلاً عن أنه منذ أن أسقط الملك وأسرة محمد على ، وامتلكت مصر أقدراها لم يعد ما يحول بينها وبين انتمائها العربى الكامل والتقدم للقيام بدورها . ولم يكن ذلك فى نية الضباط الأحرار « لأنه شرف لا تقوى مصر على حمله » فلم يعلن إلا بعد ثلاث سنوات .

لم يخالف أحدًا مواليًا أو معاديًا ، الواقعة القائلة بأن جمال عبد الناصر « قائد الثورة » أصر على أن يكون الحكم ديموقراطيًا لا ديكتاتوريًا ؛ ولم يلمح فى سيرة حياته ، طالبًا وضابطًا ومدرسًا فى كلية الأركان ما يفضح عن ذلك ، إلا أنه واسع الأفق ، واسع الاطلاع بعكس كل ميل إلى غير الديموقراطية . مما يجعله واضح الرأى ، عارفًا ما يريد ، وهذا ما يحمل على الاعتقاد بأنه يستبد بالرأى . ولم يذكر أحد من جميع الذين خدموا معه ، وزراء أو موظفون صفة منافية ، والاستبداد بالرأى عند المثقفين كثيرًا ما يكون دليلاً على الوعى به . ويقول الذين عرفوه إنه كان يناقش رأيه مع الذين لم يقتنعوا به حتى الصباح .

كان ما يؤخذ على الحكومات فى عهد ما قبل الثورة تزييف الانتخابات وتيسير الفوز بالحكم لأحزاب الأقلية، والعبث بالدستور على نحو مشين، وإقالة الحكومات دون مراعاة للدستور. ففى عام 1925 تولت الحكم وزارة زيور (باشا) التى لم يكن لها من برنامج سوى التسليم بكامل المطالب البريطانية التى استقالت من أجلها وزارة سعد زغلول على إثر مقتل السردار ، وكانت وزارة سعد زغلول قد جاءت إلى الحكم بالانتخابات على درجة واحدة . تجرى لأول مرة فى العالم الثالث كله. فقامت وزارة زيور بتعديل قانون الانتخاب، وجعله على درجتين لمجلس النواب، وعلى ثلاث درجات لمجلس الشيوخ . ومع ذلك عندما انعقد مجلس النواب الجديد، وأجريت انتخابات الرئاسة فاز سعد وسقط خصمه . فعملت وزارة زيور على حل المجلس من جديد مرة ثانية(671) . ولم يكد مر على انعقاده ما يزيد على تسع ساعات . وإذ يفاخر إسماعيل صدقى (باشا) فى مذكراته بأنه صاحب صياغة « تصريح 28 فبراير » الشهير ، الذى يجب أن يعتبر بطلاً « وطنيًا » لذلك ، ولا يتورع عن اتهام « الباشاوات » الآخرين بالرجعية ، يقرر أنه ، سقط فى انتخابات 1924 النيابية التى جرت على أساس دستور1923 فى دائرته أمام « الأستاذ نجيب الغرابلى باشا » الوفدى من غير الدائرة ، والذى لم يكن معروفًا بها ويعزو سقوطه إلى عدم « تكون الروح الدستورية بعد » وإلى : « الضغط النفسانى الذى توجده شخصية قوية » كشخصية سعد(672) ولا يبدى أى مؤاخذة لا عليه كوزير داخلية ، ولا على زيور رئيس الوزراء «حيث تتجسد فيهما الروح الدستورية» لإلغاء الانتخابات النيابية مرتين تباعًا. لأنها لم تأت موافقة لرغباتهما ورغبات المؤسسات الموالية لهما. فى كتاب د. مريت غالى ود. إبراهيم مدكور: الإدارة الحكومية : أن المجلس النيابى حل سبع مرات فى عشرين سنة ، ومجلس الشيوخ ثلاث مرات ، ولم يستكمل مجلس واحد جميع دوراته(673) . هذه هى الديموقراطية التى يتغنون بها !

كان لابد ، تحقيقًا ، لإنشاء نظام ديموقراطى سليم ، إذن تجاوز تطبيق الإصلاح الزراعى الذى يعتبر بحق فى مصر أهم قواعد التمكين للديموقراطية ، إلى معالجة مشاكل الجهل والفقر والمرض ، وأيضًا تحقيق تكافؤ الفرص بين المواطنين . وراحت الثورة تعمل على التنمية ، ويعمل قائدها على « تنمية » الإنسان لامتلاك إرادته وتعزيز شخصيته وإعادة عزته وكرامته ، وكل شممه الذى سلب فى عهود الإذلال ، وترسب جميعها فى شعوره بأنه مكره على العيش فى ظل نظام يستعبده . فعلى طول تاريخ مصر ، فى كافة عهودها ، لم يعرف فى الفلاح المصرى ، فى الفرد المصرى الأصيل الميل إلى الاغتراب لا من مصر نفسها . بل من قريته وكفره إلى قرية أخرى وكفر آخر إلا فى عهد محمد على وأسرته . فلابد لهذا الشعب الذى يختزن طاقات رعتها فيه الطبيعة من أن يرعاه شخص حدوب مندمج فى حياته ليأنس ويعود إلى سويته . وجاءه هذا الشخص فى جمال عبد الناصر .

وهنا يظهر غياب رواد الثورة وقصور فئات المتعلمين – المثقفين ، شيوخ الجوامع ، أيًا كانوا، عن واجب التوعية .. لكن لم يكن لهؤلاء وجـــود .. إن لم يكن وجودهم عبئًا على التقـــدم ، وقد آل الحال بانقسام البلاد بعد ثورة 1919 إلى أن 98% من الأهالى يضمرون العداء والكراهية للـ 2% الذين يشكلون مجتمع إدارة الحكم القائم وجودهم على ازدراء الأهالى واحتقارهم . الأقرب ما ينطبق عليهم تلك الأسطورة المتواترة فى إحدى قرى الصين .

تقول الأسطورة إنه كانت هناك قرية يروعها تنين مخيف ، يسكن أحد كهوفها ، فتقدم شاب بطل من أهل القرية ذات يوم فقتل التنين وطلب من أهل القرية أن يخرجوا من مخابئهم ولكنهم ترددوا ثم قالوا : « إنك قتلت التنين ومعنى ذلك أنك أقوى منه وإذن فحق علينا أن نخافك أكثر مما كنا نخاف من التنين " وصاح فى وجوههم : « إن التنين يسكن فى قلوبكم .. إن الخوف داخلكم .. وكان هناك دائمًا ولم يكن فى التنين » .

أزاحت ثورة 23 يوليو « التنين » وصار دأب قائدها التركيز فى خطبه على بث العزة والكرامة والمناداة : « ارفع رأسك يا أخى » ، متوجهًا بالدرجة الأولى إلى أولئك الـ 98% من مصر ، ولم يكن يدع مناسبة يمكن أن يقف فيها وقفة شموخ تخلد فى التاريخ ، وتبقى مضرب المثل إلا وقفها ، وحرص على أن يكون الفرد العربى مثله شامخ الرأس فى وجه الاستعمار . بينما راحت أبواق مجتمع إدارة الحكم وفئات من الإخوان المسلمين والمتعلمين الذين يقولون عن أنفسهم إنهم تقدميون يصرخون مع الاستعمار : هذا دكتاتور .. إلخ .

وهكذا نشأ فى قلوب الشعب المصرى تنين جديد لا ينطبق أمره مع حقيقته . إلا أن الشعب فى جملته أخذه على هذا المأخذ. لأن أحدًا لم يتطرق إلى تفسيره لتبديد ما أنشأه فى النفوس من مخاوف، وراح الإعلام الأجنبى والمعادى للثورة: المسموع والمقروء والمدسوس فى الداخل يروجه ويؤججه : هذا « التنين » يتمثل فى « المسؤولين » الجدد من أفراد الجيش الذين عينوا فى مجالس الإدارات وفى الشركات ... إلخ . وكانوا - من حيث لم يرد أحد لهم ذلك - يرهبون تمامًا . بل وأكثر من مسؤول الحزب الشيوعى فى الصين - فى أول عهدها - المنتدب يقرب جميع المؤسسات والتجمعات من مدارس وشركات وجمعيات تعاونية .

وفى مصر كان هؤلاء من أفراد الجيش الذين شاركوا ، واعتبر قائد الثورة عملهم هذا عملاً سياسيًا لا يصلحون بعده للعودة إلى الجيش والقيام بعملهم بانضباط ، وقد كشف عن أسلوبه هذا فى أحد اشتراطاته على الوفد العسكرى الذى جاءه لإقامة وحدة بين مصر وســوريا ، فقـال لهم :

- « شرط أن يتوقف تدخل الجيش فى السياسة توقفًا تامًا ، وأن ينصرف ضباطه إلى مهامهم العسكرية ليصبح الجيش أداة دفاع وقتال ، وليس أداة سلطة فى الداخل وسيطرة ، ومعنى هذا على المكشوف أن على كل قادة الكتل وأولها المجلس العسكرى جميعًا - عليهم أن يخرجوا من صفوف الجيش ليشتغلوا بالسياسة لأنهم بالفعل مستغلون بها .. إن الذين كانوا معى فى اللجنة التأسيسية لحركة الضباط الأحرار خرجوا معى من الجيش . وأصبحوا وزراء سياسيين ، والذين شاركوا فى عملية الثورة طلبت منهم ان يبتعدوا عن الجيش ، وأن يبدءوا أدوارًا جديدة فى الحياة المدنية .. »(674) .

المفروض أن يدرّب الشعب ، فى العصور الحديثة ، ليعى أن الموظف ، وأن الدولة بالتالى هى لخدمة الشعب لا لقهره وكبت مشاعره والسيطرة عليه ؛ وكانت مثل هذه المهمة فى - مصر - تقع

على عاتق المثقفين - لكن المثقفين فى مصر - رغم سبقهم ، كانوا متباعدى المجرى ، كما كانوا متباعدى المنشأ ، مايزال بعضهم حتى الآن لم يفهموا قيمة ثورة 23 يوليو ويقدروا أهميتها؛ لذلك أضاعوا مفعولها وكسروا حدة زخمها ؛ وأيًا كانت سلطة جهاز الدولة فى مصر فإن هيبة الموظف ، صغيرًا كان أم كبيرًا ، تنفذ إلى الأعماق وتثير رعشة . فكيف إذا كان هذا الموظف أصلاً من الجيش ، من الذين قتلوا « التنين » وحلوا محله . وإذا به يركب سيارة فاخرة ويقبض مرتبًا محترمًا، وتغير سكنه أحيانًا بسكن راق ؟ فهل يصدق ابن الشعب العادى أنه ليس تنينًا جديدًا ؟ ابتدأ التحرير نهائيًا عندما عاد قائد الثورة من الأزهر بعد إلقاء خطبته التى أعلن فيها ، أن البلاد ستواجه العدوان بالحرب ، وأنه سيحارب مع الشعب ، ولم يبدأ طريقه عائدًا إلى مقر قيادته التى اتخذها ، بعيدًا عن بيته وأولاده حتى تدفقت جماهير الشعب إلى طريق موكب سيره فى صيحة واحدة مدوية : « حنحارب .. حنحارب » . ولم يغط صوت هذا البحر الهادر من المشاعر الإنسانية الغاضبة على النداء الباطنى لدى جمال عبد الناصر لاستكمال استقلال مصر بإجراءات حان وقتها ؛ كما لم ينسه من قبل تضييق الحصار عليه فى الفالوجا ، مصره وبلاده العربية ، وكيف السبيل إلى تحريرهما . كانت تلك الإجراءات التى باشرها فى نفس اليوم واعتبرها خطوة مكملة لتأميم القناة هى قرارات لاسترداد منابع البترول المصرى من الشركات الإنجليزية التى كانت تحتكره ، ولفرض الحراسة على المصالح البريطانية والفرنسية فى مصر ، وتشمل البنوك وشركات التأمين وشركات التجارة الخارجية .. وبينها أيضًا قرار بالتحفظ على ممتلكات حوالى ستة آلاف من الأجانب ، معظمهم من اليهود لا ينتمون إلى جنسيات معروفة ، وإن كانوا يحملون جوازات سفر من بعض الدول التى حصلوا عليها لمجرد ملاءمة الظروف كانت تصفية نهائية لما تبقى من عصر الامتيازات ، وبعد إلغاء هذه الامتيازات سنة 1937 اختفت النصوص الشكلية التى أعطت الحصانة لهؤلاء . لكن الثروات التى حصلوا عليها ظلت فى أيديهم وظلوا يستغلون البلد بها(675) ..

وقبل أن يتوقف إطلاق النار على جبهة القتال فى العدوان الثلاثى راح قائد الثورة يعمل بقوة وحزم للاستيلاء على بقية المصالح الأجنبية فى مصر من شركات خاصة وعامة ، ومؤسسات ومحلات تجارية ، وبها استرد الشعب المصرى كل ما سلب منه بالنهب المنظم ، وبالاطلاع عليها يتضح ، فضلاً عما نزحه من ثروة مصر إلى خارجها أن ما بقى فيها كان معظمه تحت السيطرة الأجنبية . فقد تبين حينئذ أن السيطرة الأجنبية على القطاع الصناعى والتجارى والمال وقطاع المقاولات . حيث كان نصف مقاعد مجالس الشركات لأجانب ، وكان الربع للجماعة التى أطلق عليها وصف « المتمصرين » وأما الربع الباقى فكان متاحًا للمصريين ، ومعظمهم من الباشوات الذين يتصدرون المجالس شكلاً دون أن تكون لهم علاقة بأعمالها موضوعًا، وبالطبع فإن الهياكل الإدارية العليا لكل هذه الشركات (وبينها البنوك وشركات التأمين والملاحة وتجارة الصادرات - خصوصًا القطن - والواردات على اختلاف أنواعها والمشروعات الإنشائية الكبرى كضاحية مصر الجديدة ومصانع الأسمنت والسكر والزيوت والصابون . واستخراج البترول وتكريره ، وتوليد الكهرباء وبيعها فى القاهرة والإسكندرية ، وشركات الفنادق إلخ .. إلخ .. كانت كلها حكرًا على الأجانب(676) .

وهكذا بدلاً من أن محمد على كان يمسك برقبة مصر من أجل كل القوى الصاعدة فى العالم ما عدا المصريين الأصلاء أخذت بريطانيا تمديدها للإمساك برقبة مصر ومعها كل القوى الأجنبية منذ أن

أغرقت مصر بالديون ، وارتضى « الحكم المحلى » وبقايا « الفئات » التى أوجدها محمد على بما يرمى لهم من فتات ، لا يهمهم نزح خيرات البلد وثرواتها ، وبالتالى تخلفها ، وهم يرون أمام أعينهم الصناعات المحلية تنقرض الواحدة تلو الأخرى ، ويفاخر كرومر فى تقاريره السنوية إلى لندن بأنه دائم العمل على إحلال الصناعات الأوروبية محلها ، ولكن لا يقرؤون تقاريره . ومن هنا كان تقدم اليابان وتخلف مصر : فئات اليابان الحاكمة من شعب اليابان ومصيرها إليه ، وفئات مصر الحاكمة أجنبية وأسلمت مصيرها إلى الأجنبى ، قانعة بما تناله .

ويمكن أن تتخيل ماذا يحصل نتيجة قرارات الثورة لاستكمال استقلال مصر باسترداد منابع البترول من الشركات الإنجليزية وقرارات الاستيلاء على باقى المصالح الأجنبية فى مصر ، عدد أماكن العمل التى شغرت ، ويريد المصريون أن تواصل عملها كالمعتاد . فأصبح لزامًا على الثورة، لذلك ملأها .

وفضلاً عن شغور هذا العدد الهائل من أماكن العمل وهى أماكن مغرية حقًا وفعلاً ، تسيل اللعاب فإن مصر شهدت ، باسترداد هذه المصالح الأجنبية عملية خروج للأجانب على نطاق واسع منها . مما دعا إلى خلو قرابة عشرة آلاف وظيفة من وظائف الإدارة العليا فى الشركات من جميع الأنواع ، وكما أدى نزوح هذا العدد من مصر إلى خلو عدد مقابله من الوظائف المغرية أدى إلى خلو المساكن التى كانت تقع بالطبع فى أرقى أحياء القاهرة ، ملك للدولة او لغيرها وجميعها بأسعار الأجور القديمة ، أى أنها رخيصة .

كانت الضرورة تقضى أن يحل مديرون من المصريين محل المديرين الأجانب ، وقد طرح ذلك سواء فى اختيار الموظفين. أم الحصول على المساكن الفاضية فى بلد مكتظ بالسكان . أم فى تقرير المرتبات والمكافآت وعلى أى أساس .. مشاكل عويصة . وكان ذلك كله مما يجب حله بسرعة . بينما « القيادة السياسية العليا » ، أى جمال عبد الناصر ، كان فى شغل شاغل بذيول القتال المسلح فى بورسعيد والمعارك السياسية الزاحفة ..

فى تلك الظروف تقدم آلاف من العسكريين ومن المدنيين إلى هذه المناصب والمواقع التى كانت تنتظرهم ، ليس بروحية التكليف بمهمة اجتماعية فى مسيرة الثورة ، وإنما بروحية الاستحقاق ، وما تحمله من الشعور بالاستحقاق من صلف وعنجهية . خصوصًا إذا علمنا أن الحاصلين على هذه المواقع حصلوا على نفس المرتبات والمكافآت والامتيازات التى كان شاغلوها من الأجانب يتمتعون بها . يضاف إليها ما فطر عليه « الفرد العربى » فى بلادنا لطول حرمانه من السلطة وممارسته لها ، من حب الظهور والاستعلاء .. إلخ . فكان بدخوله إلى الموقع الجديد يدخل معه « تنين جديد » ... ربما أشد تأثيرًا من التنين القديم .

كان المجتمع العربى فى الريف . رغم ما أصابه من محن وحل به من نكبات وشرذمة ، لغياب الدليل القومى الجامع ، الموحد ، الذى يقود الشعب إلى الاندماج بتيارات العصر ، وصراعاته .. أقل تفتتًا من مجتمع المدينة ، ويظهر هذا التفكك بوضوح فى المدن الكبرى .. حيث كانت أيدى التخريب الداخلية والخارجية أطول باعًا وأفعل تأثيرًا .

وكان الناظر إلى أسرة عادية فى القاهرة من آلاف الأسر التى تعيش فيها يرى :

الأب فلاحًا معممًا من صميم الريف .

والأم سيدة منحدرة من أصل تركى .

وأبناء الأسرة فى مدارس على النظام الإنجليزى .

وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى ...

وقد لاحظ ذلك قائد الثورة ، وهو يبحث طريق الثورة فوجد وسط الجيش أكثر تجانسًا وإعداده أكثر توحدًا وأهدافه أكثر تقاربًا .. وإذا كنا قد نسينا واقع تلك الفترة التى سبقت قيام الثورة لنتجرأ على القول الافتراء : أنه تصور ضابط عسكرى ، للتبرير !! فإن هذا التصور للواقع كان نفسه تصور كثير من المفكرين الباحثين أشهرهم ، ربما ، الدكتور قسطنطين زريق ، فى كتابه « الوعى القومى » ، وقفوا أمامه ، حائرين ، متسائلين ، كيف العمل للتغيير ؟ وكيف العمل للثورة ؟ .. وللوحدة ؟

وفيما كان قائد الثورة يرى أنه بالتصميم والإدارة : « سوف يتبلور هذا المجتمع ، وسوف يتماسك ، وسوف يكون وحدة قوية متماسكة ، متجانسة .. » بالصبر وتحمل فترة انتقال ، كانت التجربة تكشف له فى الواقع من خلال نقنقة معظم « المثقفين » الثورية، وهو يسعى لتلمس الرأى « .. من ذوى الرأى والخبرة من أصحابها ... فلم يعثر على الشىء الكثير .. » وكانت تجربته كما وصفها فقال : « كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا إلى قتل رجل آخر .

وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا إلى هدم فكرة أخرى .

ولو أطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار ، ولما كان لنا بعدها ما نعمله إلا أن نجلس بين الأشلاء والأنقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس » .

فبدلاً من أن يستقبل « المثقفون » فى المدينة « الثورة » التى أطاحت بالطاغوت، وصادرت أموال الأسرة التى عاثت فسادًا ونهبت ، وأزاحت « الفئات » التى زيفت القيم ومعانى الحرية والديموقراطية والاستقلال بالصراع على كرسى الحكم والتماسها من الدخلاء ... بدلاً من أن يستقبلوها بالتهليل ويتفتح فيهم الإبداع للبحث والوئام ..

« انهالت على « قيادة الثورة » الشكاوى والعرائض بالألوف ومئات الألوف ، ولو أن هذه الشكاوى والعرائض ، كانت تروى لنا حالات – كما يقول قائد الثورة – تستحق الإنصاف ، أو مظالم يجب أن يعود إليها العدل ، لكان الأمر منطقيًا ومفهومًا ، ولكن معظم ما كان يرد إلينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام .. كأن الثورة قامت لتكون سلاحًا فى يد الأحقاد والبغضاء ! » .

وكانت صرخة الثورة التى ذهبت تلتمس العون من الجامعات ومن ذوى الخبرة .. واضحة فيما قاله رئيسها بكل حسرة : « ولو أن أحدًا سألنى فى تلك الأيام ، ما هو أعز أمانيك لقلت على الفور .. أن أسمع مصريًا يقول كلمة إنصاف فى حق مصرى آخر .. أن أحس أن مصريًا قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لإخوانه المصريين .. أن مصريًا لا يكرس وقته لتسفيه آراء مصرى آخر .. » .

هل هذا هو مجتمع عربى ؟ إن المجتمع العربى وهو فى أشد حالاته من التناحر لم يكن يبنى مخاصمه على إنكار قيمة الغير ومكارمه .. بل الاعتراف بها ومنافستها بالأفضل ؛ إلا أن هذا المجتمع هو ما خلفته الإدارة الخديوية وآثار محمد على والاحتلال الإنجليزى وهو مجتمع ، فى

مجمله ، وإن أظهر ، فى العهود السابقة إشاراته على التذمر ورغبة التغيير .. غير أنه فى مجمله أيضًا مخترق لا يبدو أنه منتم إلى أمته العربية تشغل ذهنه همومها وتطلعاتها ..

كان لابد من الثورة ، بحثًا عن وحدة الفكر ، بقدر المستطاع ووحدة الرأى ، وتقليصًا للتشتت الذى يعيق مسيرة الثورة ويوسع آفاق نجاحها .. من تسريحات وإحالات على المعاش ، وإعفاءات من الخدمة .. فإذا بنا فى مجتمع المدينة هذا نفاجأ بإبداعات فى « صك » العبارات التى تدين الثورة ، دون فهم للدوافع ، مثل : « مذبحة » الجامعة . كما سوف تصك فيما بعد عبارة «مذبحة» القضاة .. إلخ دون أن ترجع ، على الأقل كأى محاكمة ، للأسباب .. ولأن ثورة 23 يوليو تحققت بلا مذابح ، واقتلعت جذور حكم أجنبى عمره أكثر من قرن ونصف ، ووراءه قرون من الإذلال من دون فرقعة ، وأعادت الحكم لأبناء البلاد .. استكثر ربيبو هذا المجتمع «الطفيلى» مقارنتها بثورات العالم غيرها ، بل بالثورة الفرنسية العظيمة التى تملأ خيالهم .

* * *

الفصل السادس عشر : موقع 23 يوليو بين الثورات العالمية

موقع 23 يوليو بين الثورات العالمية

فى عام 1954 أتم جمال عبد الناصر صياغة أفكاره عن ثورة 23 يوليو - أى بعد سنتين من قيامها ، فى كتيب صغير أعطى عنوانًا : « فلسفة الثورة » قدمه كمال الدين حسين ، وزير التربية والتعليم آنذاك ، إلى المعلمين وطلاب المدارس وشرحه وعلق عليه ، محمد سعيد العريان وكان كمال الدين حسين مايزال حينئذ عضوًا فى مجلس قيادة الثورة ، ملتئمًا فيها على المبادئ الستة التى التأم حولها « الضباط الأحرار » وهى : « تصفية الاستعمار .. تصفية الإقطاع . وضع حد لسيطرة رأس المال على الحكم ... تحقيق العدالة الاجتماعية .. إنشاء جيش وطنى قوى .. إنشاء نظام ديموقراطى سليم » .

ولم يكن كتيب « فلسفة الثورة » مختلفًا أو شاذًا عن مضمون هذه المبادئ الستة ، ولكن الخلاف أو الفارق هو بين المدى الذى تفهم فيه وترى بصيرة القائد تحقيق هذه المبادئ الستة على وجهها الصحيح والمدى الضيق المحدود الذى تنظر فيه نظرة كمال الدين حسين إلى هذه المبادئ ، بثقافته المحدودة ومحدودية تزمته الدينى .. ومن هنا كان عدم استمراريته فى الثورة ووقوفه فى منتصف الطريق هو وغيره من الضباط الأحرار .

* * *

وبقراءة كتيب « فلسفة الثورة » هذا قراءة متأنية ، نرى أن قائد الثورة ومنظمها ومفجرها، قصد به ما يشبه دورية استكشاف لكى : « نعرف من نحن وما هو دورنا فى تاريخ مصر المتصل الحلقات ، والظروف المحيطة بنا فى الماضى والحاضر لكى نعرف فى أى طريق نسير .. » وباستعراض تاريخ مصر وجغرافيتها فى خريطة العالم نتساءل :

(أ) أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا ، بتاريخها وارتبطت مصالحنا بمصالحها ، حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام ؟ وكان من هنا منطلق الثورة القومى .

(ب) أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة أفريقية ، شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وشاء أيضًا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا ، سواء أردنا أو لم نرد ؟

(جـ) أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالمًا إسلاميًا تجمعنا إياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب ، وإنما تشدها حقائق التاريخ كذلك ؟

وفى هذا الإطار : « العربى والإسلامى والعالمى » الذى ، أبرز معالمه قائدها كان دور ثورة 23 يوليو فعالاً ومؤثرًا ، استطاع أن يحتوى ويقود بواكير النشاطات الإقليمية باتجاه التحرر والتقدم، ويساعد براعم مكافحة الاستعمار على التفتح ، حتى ليستطيع المؤرخ الأمين ، المنصف ، أن يقرر بلا تردد أن ما من حركة أو فكرة أو قيادة فى تاريخ العرب منذ قيام دولة يثرب ، زمن الإسلام الأول ، كانت أكثر تأثيرًا منها ...

فمنذ أكتوبر 1917 بدا أن العالم آخذ فى الانقسام إلى نصفين ، تميزا بوضوح بعد الحرب العالمية الثانية ، بالانقسام إلى معسكرين . كل منهما، أو على الأقل أحدهما يصر على أن يفرض هذا التصنيف على بقية العالم . والحقيقة أن ثورة 23 يوليو بإصرارها المقتدر على ألا « تتبع أو تبتلع قد أثبتت أن العالم ليس نصفى كرة سياسية ، بل مثلث ، لا نقول متساوى الأضلاع بالتأكيد - على حد تعبير الدكتور جمال حمدان - ولكنه على أية حال ذو أضلاع ثلاثة ورؤوس، ففى بساطة ومباشرة ، أثبتت مصر أن أبعاد العالم السياسية ثلاثة لا اثنتان : شرق وغرب وعدم انحياز : عالم أول وثان وثالث »(677) .

ومنذ انعقاد مؤتمر باندونغ فى منتصف الخمسينيات من القرن العشرين أثبتت ثورة 23 يوليو مكانتها فى قيادة العالم . فقد اكتشف محمد حسنين هيكل مؤخرًا لدى اطلاعه على الأرشيف الإسرائيلى « إشارات وتحذيرات » أثبتها بن غوريون مؤسس إسرائيل ، بقلمه من أن جمال عبد الناصر يستعمل علاقات أقامها مع الزعيم الهندى جواهر لال نهرو ومع الزعيم الأندونيسى أحمد سوكارنو ومع الزعيم البورمى أوفولغ لرفض مشاركة إسرائيل فى التحضير أو المشاركة فى أعمال المؤتمر المقترح فى الوقت التى كانت هى إسرائيل راغبة فى اعتبار نفسها دولة آسيوية .

ويرى بن غوريون أنه من المزعج أن قادة آسيا وأفريقية بما قيل لهم فى القاهرة من أنه إذا التزمت بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 191 (قرار التقسيم - بالنقب عربيًا) فإن إسرائيل تستطيع حضور المؤتمر ، وإلا فإن اشتراكها مع عصيانها لقرارات الأمم المتحدةيصبح رخصة لاحتلال غير شرعى للأرض بقوة السلاح . وتنجح مصر فى استبعاد إسرائيل من تجمع باندونغ وتحول دونها ودون المشاركة فى المؤتمر الذى اعتبر فى زمنه حدثًا تاريخيًا ضخمًا(678) .

وللاقتناع بأهمية هذا الحدث يكفى مراجعة صحافة تلك الأيام للاطلاع من جهة على مدى الجهد الذى بذلـه دالاس وزير خارجية الولايات المتحـدة الأمريكية لإثناء جمال عبد الناصر عن حضور هذا المؤتمر، ومن جهة أخرى حجم القضايا العربية التى نالت التأييد بفضل جهد جمال عبد الناصر(679) . وأبرز ما يكشف عن قيمة ثورة 23 يوليو وأهميتها منذئذ هو ما يبدو أنها أخذت على عاتقها اقتلاع جذوره من العالم : الاستعمار وبالتبعية إسرائيل .

* * *

فلا ينكر إلا مكابر أن بقيام ثورة 23 يوليو تبدلت اتجاهات الدول العربية واختلفت حساباتها بعضها مع بعض ومع الدول الكبرى ، إذ أحست أن هذه الدول وكل طامح أو متطلع إلى نفوذ ، بظهور نابذ جديد مقتدر لابد من أن يُعمل حسابه . مكنت ثورة 23 يوليو مصر من أن توقف حركة الأحلاف باتجاه تلك الدول الكبرى . كمل لجمت النشاطات الدخيلة المناهضة . وبتمركز قوة العرب المعنوية فى مصر ، واستيقاظ الشعور بالأمة ، شعورًا راح يطغى من المحيط إلى الخليج .. متلازمة معه بوضوح طفرات فى استراتيجية السياسة العالمية ... أخذت تعيد إلى أذهان العالمين بالتاريخ ، الواعين له ذكرى أهمية المنطقة العربية ، وخطورة أن تكون شؤونها بيد أصحابها ، ويصبح أصحابها تلك الخطورة التى سبق أن دفعت أوروبا ، فيما مضى مرغمة إلى سلوك طريق رأس « الرجاء الصالح » .. ثم إلى ركوب قناة السويس للوصول إلى ابتزاز خيرات الشرق.. وماتزال عبقرية الغرب تتفتق عن وسائل جديدة للإحاطة بهذه المنطقة التى انطلقت منها ثورة 23 يوليو ، وللإحاطة بالمدى الاستراتيجى الذى وصلت إليه فى السياسة العربية والعالمية.

الذى تبرز أهميته وخطورته على الغرب ومغزاه إذا وضع فى سياقه التاريخى ، وفى إطاره الإيديولوجى ..

وإذا كانت هذه الثورة لم تحقق « مشروعها القومى » بإعادة التحام أقطار الأمة المفككة والمقتطعة جزافًا ونهبًا .. إلا أنها – هذه الثورة – رغم كل العراقيل والعوائق والتحالفات المضمرة والمعلنة ، داخل هذه الأجزاء وخارجها ، فى البلاد العربية وخارجها .. كانت العامل الأقوى للتحرر ، بدءًا بالعمل على اقتلاع جذور الاستعمار من عدن من حيث ابتدأ هو .. رافعة شعارها : على الاستعمار أن يحمل عصاه ويرحل ، باعثةً فى أفراد الشعب العربى ، من أبسطهم إلى أعتاهم، روح الشموخ والاعتزاز بالانتماء .. بل لابد لنا من أن نتذكر دور 23 يوليو فى إيقاف زحف عقد أواصر الأحلاف ، واحتمالات تضييق الخناق حول المعسكر الشرقى ، وما كانت تحمله من احتمالات وإغراءات الصدام بين المعسكرين : فبمساهمة مصر ، بقيادة الحياد والحياد الإيجابى ، أنقذت العالم من حرب ثالثة ، كانت لا شك تكون ذرية ، ولسنا نقول إنها أصبحت ، على حد قول الدكتور جمال حمدان أيضًا « جيروسكوبا » سياسيًا يمنع العالم من أن تتقاذفه أمواج الصراع الكتلى ، ولكنها بثقلها الذاتى ، وبقيادتها المؤثرة فى مجموعة عدم الانحياز قد ساهمت فى خلق مثل هذا « الجيروسكوب » ، فضلاً عن أنه إذا جاز استعمال أداة التمنى « لو » وهو جائز قطعًا لزيادة النوعية والاستشارة وقلنا مع القائلين ، فى هذه الغمة التى تكتنف الأمة العربية والظلام الذى يلف قضاياها .. لو أنه تم لثورة 23 يوليو إنجاز ما حققته من « المشروع القومى » بتلاحم ما تحرر من الأقطار العربية : مصر وسوريا والجزائر والعراق واليمن فى وحدة أو اتحاد .. فكم كان قد تبدل حالنا ؟ فما بال ذاكرتنا ذبلت ؟ ونفوسنا شاخت ؟ فلم نعد نتذكر ما كنا نوعد به .

ومع قصورها عن هذا المدى فإننا لا نبالغ إذا وضعنا هذه الثورة فى مصاف ثورات العالم ، فالبعض يلخص جوهر هذه الثورات الهامة فى تاريخ العالم الحديث إلى ثلاث : 1 - ثورة فرنسية قومية استعمارية . 2 - ثورة روسية لا قومية ولا استعمارية . 3 - الثورة المصرية قومية تحررية توحيدية . فإذا وضعت كل واحدة من هذه الثورات فى إطارها الأيديولوجى ومداه فإن ثورة 23 يوليو باعتبارها ثورة العرب القومية التى تهدف بالتحليل الأخير إلى استجماع قوى الأمة لامتلاك مقوماتها والسيطرة والتحكم بمكانتها وموقعها ، تملك فيه عصبالعالم من جميع جهاته وليست كما حسب البعض من المصريين الجاهلين خاصة ، أنها تهدف من القومية إلى تشكيل إمبراطورية(680) ، فى حين أن الثورة ، بالمد القومى الذى اندفعت إليه ترمى إلى إعادة التحام أجزاء الأمة بعضها إلى بعض . وأهميتها التى سوف تتبوأها كانت ناجمة عن أهمية « الوحدة العربية » وتأثير قيامها وتحقيقها على تغيير موازين العالم .

فلا شك ، بالمقارنة الدقيقة ، أن ثورة 23 يوليو هى أهم تلك الثورات وأبعدها مصداقية من الناحية الإنسانية . فالثورة الفرنسية كانت ثورة دموية ، ارتوت بدماء مؤيديها ودما أعدائها على حد سواء ، وآلت بالمحصلة إلى سلوك طريق الاستعمار تقودها بورجوازية فرنسا لمنافسة بريطانيا ودول أوروبا الاستعمارية ، امتطى صهوتها عبقرى حرب تفتقت جموحاته ليشابه الإسكندر . هو نابليون بونابرت ، لا علاقة له بالثورة لا من قريب ولا من بعيد ، اندفعت فرنسا وراءه فكانت فى استعمارها أشد فتكًا من أى استعمار آخر . ولم تحقق الثورة الفرنسية ، داخل فرنسا ، نظامًا إنسانيًا عادلاً ، منصفًا ، متوازنًا مع وثيقة حقوق الإنسان الرائعة التى تمخضت عنها ، لا فى الداخل ولا

فى الخارج . وحتى الآن ، وإن كانت فرنسا تجهد فى سياستها لتكون متكافئة مع مبادئ هذه الوثيقة ، تبدو قاصرة عنها ، وتبقى المبادئ خيالية عاصية عن التطبيق .

ومع ذلك لا يعثر فى تاريخ فرنسا على مدى مائتى عام ، تاريخ قيام الثورة ، على كاتب واحد يخرج عن النقد البنّاء الذى يصبّ فى تاريخ التقدم ، لينبذ أصل قيام هذه الثورة كما يفعل بعض المصريين ، تحتفل فرنسا بذكرى هذه الثورة كل عام وكل عام تجد فيها معالم جديدة مع أن انكسار نابليون فى واترلو أدى إلى قيام الحلف المقدس الذى أدخلها وأدخل العالم فى ظلام طويل ، وفى إحياء ذكراها منذ أعوام قلائل اندفع كتّاب عرب متطوعين ينقِّبون بسراج ديوجين فى تاريخ الحملة الفرنسية التى جاءت بهذه الثورة إلى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر .. ليظهروا مدى ما قدمته للحضارة ، متجاوزين المذابح التى اقترفتها على طول الوادى من الإسكندرية إلى الصعيد ومجازر حيفا ويافا وعكا ، لم ينوه أحد منهم بمذكرات الفرنسيين أنفسهم عن الحملة .. وإذا بغزوة بونابرت هذه تحمل الخير كله لمصر والحضارة والتقدم .. كأنه لم يسبق لمصر أن كانت شيئًا ما .. ولم تعرف الحضارة المتقدمة من قبل .

وقد اندلعت ثورة 17 أكتوبر ، الثورة العالمية الثانية ، الموسومة بالشيوعية ، فى روسيا ، البلاد التى تضم أصلاً شعوبًا غير متجانسة ، لا يجمعها دين واحد وعرقية واحدة ، ولا لغة واحدة، وإن كانت تحتويها جغرافية طبيعية واحدة تقريبًا ، وحدها إيفان الرهيب قسرًا وحكمتها أسرة رومانوف بأرستقراطية متراتبة من أصحاب الأراضى الواسعة تملكها مع فلاحيها ، وكان الفلاح قنًا ، فحتى حينئذٍ ، فى العقد الثانى من القرن العشرين ، كانت الأراضى تباع وتنتقل من مالك إلى مالك بما فيها ومن فيها من مواشٍ ودواب وفلاحين أقنان . ومع هذا لم تكن روسيا هى المرشحة للثورة وفقًا لنظرية كارل ماركس ، لضعف الحركة العمالية فيها ، وإنما أوروبا الصناعية . ولكن لينين ، الموتور ، الكليم من القيصرية ، استطاع بزعامته للبلشفيك ، وهم الجناح الأقل عددًا من الاشتراكيين الروس ، أن يحدث الثورة فى روسيا بمؤهلاته ونفاذ بصيرته وكفاءاته القيادية والتنظيمية .. لم يستتب لهذه الثورة الحكم إلا بحروب داخلية راح ضحيتها تسعة ملايين وهناك من يرفع العدد إلى أحد عشر مليونًا لا يدخل فيها عدد قتلى حروب القرن الواحد والعشرين .. وبثورة 17 أكتوبر تحولت روسيا إلى اتحاد الجمهوريات السوفيتية التى اضطلع الجيش الأحمر فيها بدعم « أحزاب البروليتاريا » القائمة ، والتى تقوم فى بلدان العالم بتحقيق الاشتراكية والعدالة الاجتماعية .. إلخ .

ثم ما لبثت أن تكشفت ، بعد ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن دغدغت بها أحلام الشعوب بآمال جنة كاذبة ، عن أنها بقيامها لوّحت للشعوب بخيالات ولم تحقق شيئًا . قدمت براهين على أن العالم الثالث يمكن أن يتقدم أكثر فى ظل استقطاب فوق ثنائى .

فى حين أن ثورة 23 يوليو أعادت مصر إلى وضعها الطبيعى الذى هيأته لها الجغرافية والتاريخ ، ومن هنا أهميتها العالمية إلى جانب أهميتها القومية . لأنها بذلك كسر للإرادة الخفية التى كانت تسعى منذ قرون لإبطال دور هذا الحائل دون امتداد نصف الكرة الأرضية الغربى من فوقه إلى نهب سائر العالم . وأهميتها هذه التى تكمن فى توحيد الأمة العربية تفوق أى أهمية غيرها فى العالم قاطبة . فثورة 23 يوليو ، بتحقيقها لمداها من الخليج إلى المحيط .. ولاحت إمكانيته فى الآفاق .. لم تكن تحقق حلم العرب فى العزة والكرامة .. وإنما ما تتوقعه البشرية قاطبة من عودة

العرب موحدين إلى الوجود من تقليم أظافر الغرب المعتاد على استغلال البشرية وابتزازها ونهبها بالقفز فوق البلاد العربية .

وتميزت هاتان الثورتان العالميتان : الفرنسية والسوفياتية بأن مهد لكل منهما أدباء ومفكرون ارتفعوا بما كتبوه إلى مستوى عالمى .. على عكس ثورة 23 يوليو التى كان المثقفون بشتى فئاتهم : فى مصر وفى البلاد العربية عقبة كأداء فى وجهها وفى التنظير لها .

* * *

لماذا بقيادة من الجيش ؟

أين المثقفون الذين ينظّرون للثورة أو يقومون بها ؟

حتى لا يكون الكلام جزافًا

بعد توجه مصر العربى فى أعقاب قيام ثورة 23 يوليو أصدر الدكتور أنيس صايغ كتابه : الفكرة العربية فى مصر(681) باحثًا فى النتاج الأدبى والفكرى ، منذ حملات آخر المماليك ومحمد على وإبراهيم ، مرورًا بالثورات الداخلية فى مصر ضد نابليون 1798 - 1800 والمماليك والولاة العثمانيين 1804 - 1805 وشعاراتها وظروفها ودعوات الذين قاموا بها ، كما بحث فى كتابه هذا مبادئ وتعاليم الأحزاب المصرية والتجمعات السياسية (الحزب الوطنى ، حزب الأمة ، حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ... إلخ ...) .

وكتابات زعمائها ، ثم بحث النتاج الفكرى والأدبى والفنى لرواد النهضة المصرية الحديثة (الطهطاوى ، على مبارك ، المرصفى ، محمد عبده ، عبد الله النديم ، عبد الله فكرى ، إبراهيم ومحمد المويلحى ، قاسم أمين ، ولى الدين يكن، المنفلوطى ، عبد العزيز جاويش ، على الغاياتى، البارودى ، إسماعيل صبرى ، شوقى وحافظ) .. فلم يعثر على أثر للفكرة العربية إلا اللغة التى يكتبون بها لا ولا للدعوة إلى أى ثورة .

ويعزو ذلك إلى أن محمد على أنشأ فى مصر طبقة « أرستقراطية » جعلها صفوة المجتمع ، وهى طبقة تركية ، إما تركية فى أصلها أو فى استعمالها اللغة التركية(682) أو فى عواطفها . وقد استلمت تلك « الصفوة » قيادة البلاد إداريًا واجتماعيًا فى مختلف حقول الحياة . ولم يكن مجال للمصريين دخول تلك الطبقة إلا بعد أن يتتركوا ويمسخوا أنفسهم حسب عادات الأتراك وتقاليدهم ، ويتخلوا عن مميزاتهم القومية ومشاعرهم الوطنية(683) . « أما الفلاحون، وكانت نسبة عددهم إلى سكان البلاد تبلغ تسعين فى المائة فلم يكن لهم علاقة ملموسة مع الأوضاع السياسية.. » .

وعلى كثرة ما أحدث محمد على فى مصر لتغيير طبيعة البلاد فإنه لم يقرب « الأزهر » بالتغيير . فإن تورطه باختيار رفاعة الطهطاوى للإشراف على إحدى بعثاته إلى الخارج لم يتكرر وعندما تبيَّن فى الشيخ حسن العطّار تفكيرًا مستنيرًا أقصاه عن الأزهر .. وهكذا بدلاً من أن يوضع الأزهر قلعة الصمود فى الأمة على طريق التقدم لمجاراة التطور والتقدم والتفاعل مع العصر، تُرك ، كأنما خارج التاريخ ، يجتر تركة المماليك والتخلف لتفريخ الخرافات والأساطير ... فصار وهو المعبر عن الإسلام يشارك فى قيادة البلاد إلى الانحراف .

ولم تختلف الحركة الوطنية فى منتصف القرن الثامن عشر والهبة التى أدت إلى قيادة عرابى وظهور نَفَسِها العربى فى وقفة عابدين .. فى نتاجها الأدبى والفكرى . مع أن خشية الإنكليز من انتقال الحركة بالعدوى إلى المشرق : عرب سيناء ومن ورائهم فلسطين وبلاد الشام .. كانت واضحة بالاحتياطات التى اتخذوها بقطع الاتصالات وبث العيون وأعمال التسكين بالرشاوى التى وزعت .. لقطع الطريق على رسل عرابى لاستنهاض الهمم وبث النخوة .. وانتشار ما روى عن لسان البارودى من أن النيّة لإقامة جمهورية واحدة من مصر وسورية بعد النجاح .. فإن الدارس

لهذه الفترة لا يلحظ فى النتاج الأدبى والفكرى إلا ما ظهر على شاعرية البارودى – وإن هى ظلت تقليدية – من خروجها على الركاكة الزائفة ، الممسوخة التى كانت سائدة ، إلى التميز بقوة وأصالة وشخصية ، وإلا ما تميزت به مقالات عبد الله النديم وخطبه ، بخروجها عن النسق المعروف ، من نفس ثورى بتفاعله مع « الأهالى » ومن نغمة جديدة ظهرت بقولته التى ذهبت مثلاً فى عتبة على « الشوام » الذين ابتهجوا لانكسار عرابى ودخول الإنكليز إلى القاهرة : « أنا أخوك فلماذا أنكرتنى » .

بعضهم يرد اختفاء « الفكرة » العربية ، فى هذه الفترة ، إلى التوجس من إثارة انتباه الخلافة فى الآستانة إلى ذلك ، وإيقاظ خوفها من العرب والعروبة .. وكان عرابى ورجال ذلك الوقت حريصين على العلاقة - على وهنها - التى تربط مصر بالخلافة وعدم إتاحة المجال للإنكليز للاستغلال . ولكن هذا المذهب لا يستقيم ، الواقع هو أن روحية الفئات التى اصطنعها محمد على للهيمنة فى قمة المجتمع المصرى كانت وما زالت سائدة ، وهى الفئات التى كان يدعوهم تحبّبًا الخديويون « أولاد محمد على » وكانت فكرة العرب والعروبة محتقرة .

كان شعار المرحلة : « مصر للمصريين » بإزاء تفاقم نفوذ بقايا المماليك الشركس بزعامة عثمان رفقى ، وزير الجهادية وتألبهم لسن قوانين أكثر جورًا تحرم المصريين ما تبقى لهم من حقوق فى الجيش . وصار المصريون ، تميزًا ، وتعريفًا يتبعون أسماءهم بصفة المصرى ، لذلك صرنا نقرأ أسماءهم أحمد عرابى المصرى ، أحمد حلمى المصرى .. إلخ .

ورغم الفاصل الزمنى بين عام 1882 وثورة عام 1919 ، الذى كَمُنَتْ فيه العواطف تحت وطأة القهر والردة الظالمة ، الغاشمة .. فإن تفجر العواطف فى حب مصر والتغنى بها تنفجر مع الثورة كالسيل المختزنة . كأنما ليغطى العجز عن حمل السلاح دفاعًا عن مصر . وراجت عل كل شفة ولسان :

يا مصر بعـدك مالناش سعادة

لـولا اعتقــادنا بوجــود الهنــا

كنا عبدنا النيل عبادة

فمصطفى كامل كما أسمته شوقى هو « صب مصر » و « شهيد غرامها » وهو فى وصف نفسه " لو لم أولد مصريًا لوددت أن أكون مصريًا " لأن مصر هى « جنة الدنيا »([684]) ولولا الحنين إلى مصر ومرابع مصر ما كتب محمد حسين هيكل قصة زينب ، فقد قال : « لعل الحنين إلى وطنى وحده هو الذى دفع بى لكتابة هذه القصة ، ولولا هذا الحنين ما خط قلمى فيها حرفًا ولا رأدت هى الوجود .. » .

والرواية الثانية الهامة بعد زينب فى فجر القصة المصرية هى رواية « عودة الروح » لتوفيق الحكيم ، ولا أحسب أن مدلول العنوان يخفى على القارئ ، فقد انتهت عودة الروح فى باريس عام 1927 حيث كان توفيق الحكيم يدرس الحقوق لا الفن ، وكان محمد حسين هيكل . فى الوقت الذى أعقب عودة طه حسين من دراسته فى السوربون ، واستوى على مقعده فى كلية الآداب ، جامعة القاهرة (فؤاد حينذاك) وأملى آراءه التى أخرجها فى كتابه الشعر الجاهلى وهو مايزال تحت تأثير أفكار مارغليوت ، وكان أثر التنقيبات الأثرية فى تاريخ مصر بجهد إنكليز وفرنسيين ، ماثلاً

حيًا فى ذهن توفيق الحكيم ، وهو يكتب عودة الروح رامزًا بها لثورة 1919 ، المتأججة فى خياله ، ويعتبرها أحيت مصر، وأن مصر العظيمة التى أوجدت الأهرام لم تكن عاجزة عن خلق معجزة أخرى هى سعد .

لقد صدق نظر الأثرى الفرنسى :

« أمة أتت فى فجر الإنسانية بمعجزة الأهرام لن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى .. أو معجزات ! أمة يزعمون أنها ميّتة منذ قرون ، ولا يرون قلبها العظيم بارزًا نحو السماء من بين رمال الجيزة ! لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش إلى الأبد ... ! » .

لعل هذا الأثر الذى يحيا فى الماضى كان يرى مستقبل مصر أكثر من أى إنسان .

فى شهر مارس .. مبدأ الربيع .. فصل الخلق والبعث والحياة .. اخضرت الأشجار بورق جديد وحبلت وحملت أغصانها الأثمار ...

وكذلك مصر أيضًا .. قد حبلت وحملت فى بطنها مولودًا هائلاً .. وها هى مصر التى نامت قرونًا تنهض على أقدامها فى يوم واحد . إنها كانت تنتظر - كما قال الفرنسى - تنتظر ابنها المعبود . رمز أمالها وآلامها المدفونة يبعث من جديد ... وبعث المعبود من صلب الفلاح .

فيما بعد ، بعد انتقال جمال عبد الناصر إلى رحاب الله ، ونشر توفيق الحكيم كتابه عودة الوعى ، وتلقفه الحاقدون وروّج له الموتورون بلسان مخابرات الدنيا كلها .. زعم توفيق الحكيم ، دفاعًا عن نفسه أنه كان أول من بشر بالثورة .. وأن محسن بطل عودة الروح كان فى ضميره هو البطل المنتظر . غير أن الحقيقة هى غير هذا .. فتوفيق الحكيم فى عودة الروح يعبر عن ثورة 1919 لا عن ثورة يتوقعها ويرمى بقوله إلى ثورة 23 يوليو ؛ والبطل الذى يعبر عنه ويصفه من أهل البلاد وهو سعد . فهو يكتب : « ما غابت شمس ذلك النهار حتى أمست مصر كتلة من نار، وإذا أربعة عشر مليونًا من الأنفس لا تفكر إلا فى شىء واحد : « الرجل الذى يعبر عن إحساسها .. والذى نهض يطالب بحقها فى الحرية والحياة قد أخذ وسجن ونفى فى جزيرة وسط البحار » . الذى نزل يصلح أرض مصر ويعطيها الحياة والنور أخذ وسجن فى صندوق ونفى مقطعًا أرباعًا فى أعماق البحار ! . ثم يمضى توفيق الحكيم فى وصف وتجاوب الأرياف مع المدن .

وعندما اعترض جمال عبد الناصر فى مجلس الوزراء على عرض تسريحه من وظيفته «لتهاونه فى العمل ..» بل احتفل به وأمر بتقليده أعلى وسام فى الدولة ، تكريمًا وتشجيعًا .. وقيل لتوفيق الحكيم وقتها أو بعدها لا أدرى .. « أما وقد كتبت عودة الروح إلى مصر . فعليك إتمام الكتاب بعد عودة الروح » ولم يلفت فى نظر توفيق الحكيم من لفتة جمال عبد الناصر ما لم نعهده من قبل فى حاكم يتلقى مناصبه من الإنكليز والملك . إنه يقرأ ويطلع . ربما أكثر من الوزراء المدنيين حوله ، بل لفته أن موقف جمال عبد الناصر نمّ عن نزق لأنه ما كمان يجوز تقليده وسامًا وهو بمرتبة وكيل وزارة لا يهدى إلا لمن هم فى مرتبة رؤساء الوزارات .. ولا لفته أيضًا أن استشهاد جمال عبد الناصر فى فلسفة الثورة بمسرحية الأديب الإيطالى لويجى بيراندللو للكشف عن حاجة المنطقة إلى دور منتظر ، كان معطلاً بوجود أسرة محمد على ، وما فى هذا الاستشهاد من عمق غير معهود فى رئيس وزراء .. وإنما لفته ما عنى له عن لسان سفارة إسرائيل من رأى فى فلسفة الثورة ، وعن أقوال بن غوريون .. من أن جمال عبد الناصر يسعى فى عمله لإعادة الأقطار العربية التى مزقها الاستعمار إلى وحدتها ، إنما يسعى إلى تشكيل إمبراطورية .. ولعمرى إن دل

هذا على شيء فإنما يدل على أن صياغة تفكير توفيق الحكيم من طينة صياغة العقول الإقليمية التى تشكلت فى العهود السابقة . كما جانب توفيق الحكيم الحقيقة عندما زعم أنه بوصفه هذا دعا إلى الثورة . فى حين أنه يصف ثورة 1919 ولا يتجاوزها بكلمة إلى المستقبل .

* * *

إلا أنه بعد ثورة 1919 ، التى تفجرت عن غضب طويل مكبوت وقهر مزمن متنوع ، لم تكن كشفت أسبابه بعد ، لم تبقَ مصر فى ذهن أبنائها هى مصر التى يتناهبها الأغراب النهمون التى كانوا يأتمرون بها فى العتمة أيام أن زحفوا متدافعين إلى القمة فى زمن الخديوى توفيق .. وإنما تصبح مصر كلاً واحدًا بجميع ملايينها « لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانًا » . فيهم الذين يعملون ليل نهار فى الشمس المحرقة والبرد القارس ويقتاتون كحسرة من خبز الذرة وقطعة من الجبن مع بعض الأعشاب من السريس وغيره مما ينبت وحده . تضحية مستمرة وصبر دائم ، ومع ذلك فها هم يغنون !! تخال أصواتهم تخرج من قلب واحد .. » كما قال محسن بطل عودة الروح ، الذى لم يكنّ قلبه الطيب أية مشاعر من الحقد الغاضب تجاه الفئات الغريبة المستغلة . ففيما عدا « الدعوة » إلى حب « مصر » الجامعة ، كل مصر ، شاملة مختلف فئاتها ، والتغنى بها وبثورة 1919 التى حسبت فيها « كل فئة وكل طائفة فى مصر نفسها البادئة بالقيام بها الشـــاعرة بالعاطفة الملتهبة الجـــديدة .. » لا نجد كاتبًا واحدًا لا نقول لا يطالب ، بل يعبر على الأقل عن حقوق الـ 99% من أبناء مصر فى أن يعيشوا الحياة الكريمة التى يستحقونها ، وتعلو وترقى عن الازدراء فى عيون الفئات الغريبة التى ملكها محمد على والخديويون ، وفتحوا أبوابها لهم لنهب مصر . فحتى الخمسينيات من القرن العشرين ، قبل قيام ثورة 23 يوليو ، ظل سائدًا على لسان أبناء هذه الفئات ، وصف الخديوى توفيق لشعب مصر ، لأصحاب البلاد الحقيقيين ، للأهالى ، إنهم مجموعة من الفلاحين أولاد الكلب . ولكم كان من المضحك أن يأتى د. طه حسين إلى آخر وزارة فى الوفد (1950 - 1952) ويصدر قرارًا بمجانية التعليم .. ويطبل ويزمر « لتقدميته » ولا تكون مجموعة الفلاحين هذه تملك القدرة على إيصال أبنائها إلى المدارس .. فما جدوى المجانية وإلزامية التعليم ، وهما عمل عظيم دون تحديد أجور العمل ، وأجور عمال التراويح والسكن والحد من تضخم ملكية كبار الملاكين وتمليك ما يمكن ومن يمكن ؟ .. !!

لقد زخرت العلاقات ، بعد تصريح 28 فبراير ، بين فئات الحكم ، بتبادل الاتهامات والتشنيعات .. و ... و ... دمرت البلاد بتأصيل وجود الاحتلال البريطانى ، وبتطبيق تصريح 28 فبراير ، وبتنصيب فؤاد ملكًا وزواجه المشين وتلاعبه بالحكم والديموقراطية .. ثم وقعت ثورة 23 يوليو .. ولا نجد على مدى هـذه الفترة من تصدى لبحثها وكتابتها بالتحليل بروح ناقدة ، ولولا أن الرافعى سجلها كمؤرخ وطنى لما وصلت للذكرى .

* * *

الذين أنهوا دراساتهم العالية فى مصر وخارج مصر قبل الحرب العالمية الثانية ، كانوا مايزالون متأثرين بالمناخ الفكرى « الإقليمى » التى أرسته فئات الحكم التى لملمها محمد على ورعاها الخديويون والحكم الأجنبى ، وشكلوا إدارة الحكم والهالة التى يتطلع إلى الاقتداء بها الناشئون ، وتقليدها ونيل الحظوة لديها ومفتاح أبواب المستقبل ، وكان معظم الوفد منها وقيادات أحزاب

الأقلية .. ومعظم الأعضاء المنتدبين لدى الشركات الأجنبية ، تغلب فى أوساطهم الرطانة بالفرنسية التى أصبحت بعد التركية لغة الأوساط الراقية .

إلا أن طبقة الحكم والإدارة هذه لم تكن مقفلة ، فإن رياض باشا هو الذى استضاف جمال الدين الأفغانى « رسول القومية المصرية » سنة 1870 وعين له راتبًا محترمًا ، وهو نفسه نكل بالحريات سنة 1879 ومنع الصحافة من النقد وأوقف الأقلام الحرة عن التوجيه .. وشريف (باشا) بطل الدستور والقومية المصرية داخل مجلس شورى النواب ، كان يعتز بأصله التركى ، ويعيّر أصحاب الأصل العربى ، ويحتقر الفلاحين المصريين ، ولم يكن يرضى أن يتكلم بالعربية لأنه يعتبرها لغة العوام ،وكان ولى الدين يكن ، الكاتب والشاعر ، الذى أفلت من براثن السلطان عبد الحميد، يمت بالقرابة للخديوية ، ومع ذلك أتى وصفه لهذه الخديوية وعنجهيـة الفئات المحيطة بها لا يختلف عن وصف احمد فارس الشدياق الموالى للشعب ، أهل البلاد ... وفى ملفات السويس للأستاذ محمد حسنين هيكل تنويه بكتاب موجه من إسماعيل صدقى (باشا) الداهية ، جلاد الشعب والحريات إلى وزير من وزرائه يقترح فيه دراسة توزيع الأرض على الفلاحين .. وهو رجل الإنكليز ومهندس حكمهم(685) وهو صاحب تصريح 28 فبراير .

هذا « الحراك الاجتماعى » أيًا كانت صفته ، كان يغذى « إدارة الحكم » تلك بالفئات الناشئة .. فإن لم تكن هذه الفئات الناشئة ، المتطلعة تسعى من نفسها ، كانت إدارة الحكم هى التى تسعى إلى احتوائها .. نكتفى ببعض النماذج .

فالدكتور طه حسين ، صعيدى المنشأ ، الأكثر والأشد تماسًا مع صنع «الأفكار» و«العادات» العربية ، أهم ما راح يستلفته هو المطروح أمامه على سطح المجتمع وكان الطافى : أوتوقراطية الملك الآخذة بالتزايد، وقد وجدت فى وزارة إسماعيل صدقى (1946- 1948) استجابة شديدة لمجاراتها فلم يستطع فى مطلع حياته العامـة اتخاذ موقف إيجابى من هذه الأتوقراطية وما يرافقها من طغيان - ربما لتردده بين ما يراه من تسهيلات وإغــراءات وبين ما فطر عليه ، وفى هــذا يقول د. مصطفى عبد الغنى إن طه حسين « اكتفى بكتاباته الأدبية متخذًا الرمز والتلغيز » . ثم إنه نشر فى الهلال مقالة بعنوان « قلب مغلق » يشير إلى الملك بأوصاف حادة ، فإذا بالملك يصدر أوامره بعدم رضاه عما نشر وبعدم نشر أية مقالات لطه حسين ثانية ، وتدخل القصر فيما بعدها لمنع ترشيح طه حسين نقيبًا للصحفيين(686) واستمر موقف طه حسين المتردد هذا حتى تجاوز منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، « مرة يؤثر الصمت، ومرة يستخدم الرمز » على حد ما كتب د. مصطفى عبد الغنى ، إلى أن ولى وزارة فى آخر وزارة وفدية (27 يناير 1952) فأقلع عن تردده ، واستبدل بالرمزوالصمت التهادن والتهاون الشديدين(687) وفى هذه الوزارة قبل يد الملك مع الذين قبلوها . ومع ذلك لم يبدأ بمدح الملك فاروق والإطناب بـ « شمائله » مباشرة . بل بدأ بمدح أبيه وجده . كأنما ذوى فاروق . ليس عليهم خلاف ، ويمكن إسقاط صفاتهم الحمــيدة عليه بلا تردد ولا من يواخذ من هذه المواقف ، الموقف الذى وقفه الدكتور طه حسين بين يدى الملك احتفالاً بالعيد الفضى لجامعة الملك فؤاد (القاهرة حاليًا) وراح يردد على والده عبارات الثناء حتى أنه يذكر ست مرات عبارة واحدة (والدك العظيم الأمير أحمد فؤاد) ويقول ضمن ما يقول :

« ولقد كان والدك العظيم ملهمًا يا مولاى . إنه حين أنشئت هذه الجامعة لم ينشأ معهد من معاهد تحرير المصريين تحرير عقولهم وقلوبهم ، ودعاؤهم إلى الحرية الكاملة..

و .. أطال الله بقاءك يا مولاى جعل حياتك كلها عيد العقول لمصر ولقلوبها وللشرق العربى كله »(688) .

وما تكاد تمضى عدة أيام على هذه الخطبة العصماء حتى يكافئ الملك هذا المثقف بمنحه رتبة الباشوية . فحلت عقدة لسانه وتلاشى تردده نهائيًا . فإذا بهذا الملك الذى لم تكن صفاته الحقيقية ولم تكن خفايا حياته المزرية، تخفى على من فى مركز طه حسين وعلاقاته- يصبح قدوة لا لشعب مصر فحسب ، وإنما لشعوب البلاد العربية . فيقف بين يديه فى افتتاح معهد فؤاد الأول بالصحراء ليقول :

« أنت جدير أن تكون أستاذ شعبك فى الخلق ، فى الخلق الذى يمس سيرة الفرد فيما بينه وبين الناس ، وفى الخلق الذى يمس سيرة الشعب مع ملكه وسيرة الملك مع شعبه » .

ولم يقف الدكتور طه حسين فى هذا التهالك على كيل المديح . بل يدعو إلى تعميمه . فقد جاء فى خطبته فى الاحتفال بعيد الملك قوله :

« فى هذا اليوم السعيد الذى هو يوم الملك ويوم الشعب يحتفلان به بعيد الملك فاروق أعزه الله .. (و) ... من حق الجامعيين الإسكندريين جميعًا أن يبهجوا ويفخروا ويفرحوا فى هذا اليوم . لأن كل واحد منهم فاروقى فهم الفاروقيون ، ومن حق الفاروقيين أن يفرحوا ويفخروا ويبتهجوا بكل ما يسومه الله إلى مليكهم من نعمة وسعادة ونعمة وابتهاج ... (و) .

وأنا واثق أن علماءنا الشباب والكهول يسمعون ويفخرون عنى ويستجيبون لهذا الدعاء .. أيد الله جلالة الملك وجعل أيامه كلها أعيادًا لمصر »(689) .

ولم يكن عباس محمود العقاد أكثر تماسكًا من الدكتور طه حسين ، وإن كان أكثر قربًا من « الصعيد » .

فهذا الكاتب الصعيدى ، الجلف ، كان مثال الليونة فى مديح الملك والإطناب فى إضفاء السجايا الحسنة عليه ، فلم يكن يترك فرصة تفوته إلا ويكيل له المديح ، ويغرق فى هذا المديح ، فبمجرد أن سنحت له الفرصة للقاء الملك بوصفه أحد أعضاء الحزب السعدى ، والمحرر الملحوظ فى صحيفته (الكتلة) حتى خرج فى اليوم التالى بمقالة طويلة جاء فيها :

« إننى لم أسعد من قبل بفرصة كهذه الفرصة الواسعة لاستجداء طلعة الملك عن كثب ، والإصغاء إلى جلالته على انفراد ، فى جو لا مثيل له بين أجواء اللقاء والحديث . لأنه الملك والديموقراطية ممثلين فى شخصه الكريم أجمل تمثيل ، مجتمعين فى سماعه وكلماته وإرشاداته أحسن اجتماع .

لقد سمعت فى هذا الحديث الواحد كلام فيلسوف وكلام وطنى غيور وكلام محدث غيور ، وطاف بخاطرى ذكر الإيمان وذكر الوطن وذكر الملك وذكر المعاش الذى يشغل قلوب أبناء الحياة . طاف بخاطرى أجمل ما يطوف بالخواطر من أمور الدنيا والدين».

فمنذ أن انحاز العقاد فى عام 1937 إلى السعديين أصبح الملك هو « النائب الأول الذى يمثل شعبه الوفى أصدق تمثيل « وأصبحت السجايا التى تفخر بها الشعوب والتى يسبغها على الملك الشاب هى « الشمائل الديموقراطية من حيث هى مذهب من مذاهب الحكومة ، أو خلق من أخلاق الطباع» .

لقى الدكتور طه حسين لقاء تزلفه أمورًا كثيرة ، ففضلاً عن عودته باحتفاء إلى مركزه بعد الشعر الجاهلى - وإن كان ذلك بعد صياغته من جديد - وباحتفاء أيضًا خرج من محاكمته .. فإنه نال البيكوية ، وحظى بقبوله من عداد الوزراء ، ثم حظى مرة ثانية على قبوله فى عداد الوزراء ونال رتبة الباشوية ، التى ظلت تثير طربه كلما سمع من يخاطبه بها - فماذا كان يبتغى عباس محمود العقاد ؟ لم نعثر على ما يشير إلى مرامه ، ولكن المؤكد أنه لم يترك حزب الأكثر إلى الأقلية، حزب السعديين ، الذين سماهم برادع الإنكليز وشارك هو نفسه بهذه التسمية - دون أن يكون راسمًا إلى غرض . كان الحراك الاجتماعى يتطلع فى الناس الأدنى إلى الأعلى .

وبلغ تزلف آل عبد الرازق مصطفى وعلى عبد الرازق الأخوان اللذان لم يدعا فرصة تجمعهما بالملك إلا تزلفا إليه إلى حد المهانة . وفيما ساقه الدكتور مصطفى عبد الغنى لم يتمكن استكشاف العلاقة الغامضة بينهما وبين الملك ، الأزهر أو وزارة الأوقاف(690) ، وفيما كان صدور كتاب أصول الحكم مدعاة للاستبشار ، تأييدًا أم معارضة ، لخروج الفكر الإسلامى من إسار العقلية المملوكية ، إذا بتلك الخطب التى ينبرى لإلقائها على عبد الرازق فى الأربعينيات تعيدنا إلى عهد (ولى النعم) ، أتى أعادتنا إليها دكتاتوريات البلدان العربية : فإذا اقتضت الظروف زيادة الرواتب فذلك من عطايا الحاكم و .. و .. وإذا أمطرت السماء فمن نعمة الأب القائد .. وقد اهتبل على عبد الرازق فرصة الاحتفال بذكرى محمد على فى حفل رسمى ووقف أمام المنصة ليتحدث بين يدى الملك :

« ورد فى بعض الآثار أن الله جل شأنه قد أخصّ الأمة الإسلامية بأن يبعث فيها على رأس كل مائة عام من يجدد لها من أمور دينها ، وللقد بعث الله جدكم الأكبر على رأس مائة عام كان قد انتكس فيها أمر المسلمين ، وضعفت فيها كلمة الإسلام فجدد ما اندثر من معالم الدين ، ورفع ما انهار من بنيانه . والآن يا مولاى وقد مضت على وفاة جدكم الكبير مائة عام يتلفت الإسلام والمسلمون من جديد إلى مبعوث العناية الإلهية الذى قد أظل زمانه ، وآن أوانه ، وإنهم ليلمحون فى قسمات وجهك وفى ثنايا أعطافك صورة مجددة من جدكم الأكبر، ويرون فى شبابك المتوثب وفى عزماتك القوية ، وفى حسن سياستك ويمن طالعك نفحات ندية من تلك الصفات التى كان يتحلى بها فى مطلع شبابه .

مولاى صاحب الجلالة

إن العناية الإلهية التى اختارتك مجددًا لمجد الإسلام على رأس هذه المائة ، هى الكفيلة بأن تلحظك وتؤيدك وترعاك . تلك هى العناية الإلهية قد أخصتك بمزيد من الرعاية والتوفيق » .

كان هذا النفاق والمنافقة يتدفق فى أواخر الأربعينيات من القرن العشرين قبيل قيام ثورة 23 يوليو (تموز) ، ومنذ منتصف هذا العقد . بل قبل لم تعد العين البصيرة تحطئ مباذل الملك فاروق ومساوئ تصرفاته وسوء حاشيته . ففى إضرابات 1946 كان الهتاف السائد : « لا إلى عابدين ، وإنما إلى العمال » ولوحظ فى يوم عيد ميلاد الملك ، يوم 11 فبراير (شباط) أن الطلبة بوجه خاص ، حطموا الزينات وداسوا لأول مرة صورة الملك بالأقدام ، وأشعلوا فيها النار وهتفوا ضد السراى بجرأة شديدة .

لم تكن الإحداثات التى تجرى فى ظل الاحتلال البريطانى يراد منها تقدم مصر نحو تحررها وتنميتها وبناء الحضارة وترسيخها فيها .. إلخ كما كان يزعم كرومر فى تقاريره الســنوية .. أو

على نحو ما كانت تبشر به الأقلام فى كل حدث .. على غرار الطبل والزمر الذى مهد ثم رافق « اللائحة السعيدة » ؛ أو على غرار ما اعتبر مما حدث بنتيجة معاهدة مونتريه من تطورات - لتغطية الفشل فى معاهدة 1936 - أنه كان ذا طابع إصلاحى .. لصالح البلاد وشعب البلاد .. مع أن الاحتلال - بالتدقيق - كان يجعل الأمور تجرى لخدمة بقائه .. ولكن لأن وجوده مخالف لطبيعة الأمور كان لكل أحداث من إحداثاته ، جوانب متعددة .. سلبية وإيجابية .

وهكذا فإن التوسع فى التعليم اقتضتها « إدارة الحكم » لا بدوافع من روح وطنية ، كان ملبيًا لحاجة ، ولكن الحاجة الأهم التى لم تلحظها « إدارة الحكم » هى فتح الباب لأبناء من الطبقة الوسطى أقرب موالاة للـ 90% من الأهالى ، أصحاب البلاد ، منهم إلى الفئات الحاكمة ، بل وانتماء أيضًا ، قلّما يتطلع أحدهم إلى تقليد « الفئات الحاكمة » وإنما يشعرون ويحسون بـ«عدائيتها» وبـ « كراهيتها » للشعب .

لقد أطنب كثيرًا للتجديد الذى طرأ على التعليم فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى ، بسبب الاستفادة من إلغاء الامتيازات لتنوع الضرائب وزيادتها مما أدى إلى الإقدام على بعض المشروعات ذات « الطابع الإصلاحى » من أهمها التعليم الذى أدى إلى « فئة من المثقفين الجدد خرجت من رحم الطبقات المتوسطة .. »(691) ، بعكس الفئات التى تكونت قبل الحرب العالمية الأولى ، ولم يكن ما طرأ على التعليم استجابة لمتطلبات الواقع وتطوره ، فلم يقرب من النظام الذى وضعه دانلوب فى التعليم. بل لم يلغ الكتاب المقرر للتدريس فى المدارس الابتدائية « صفوة تاريخ مصر ، والدول العربية » بجزئيه ، وأشهر مؤلفيه الميجر سفيدج ... واستمر هذا النهج فى التعليم وتقرير تاريخ مصر وجغرافيتها إلى ما بعد قيام ثورة 23 يوليو.. «مصر تاريخًا وجغرافية» و« الدول العربية » ومنها أورد بعض الألفاظ « الإقليمية » فى الخطاب المصرى الذى تصدم الذهن العربى القومى .. ومن هنا ظهور ثورة 23 يوليو ، فى أجيال المثقفين « المدنيين » ، الذين تكونوا ما بين الحربين العالميتين ، ظهور مفاجئ ، لتقاطع الطرق واختلاف المسارين والتجربتين : بالرجوع إلى استعراض نماذج من المثقفين الذين تكونوا فى ظل أجواء كانت طاغية بعد ، تهيمن عليها أيديولوجية مماليكية تجعلها أقرب للخارج والوافد منها للداخل ، مازالت لها جاذبيتها وقدرتها على الاستقطاب ، حيث كان مبدأ « الحراك الاجتماعى » يتجه إلى الأعلى ، حلم القادم من جامعات أوروبا ، إذا كان من غير طبقات الحكم ، أو خريج الأزهر ومعاهد مصر ، أن يصبح « بيگًا » ويرقى إلى الباشوية .

بعد ثورة أكتوبر 1917 بدأ يطوف فى العالم « حلم » الماركسية ، ولم يكن بعيدًا جدًا عن ملامسة أذهان العمال العرب ومثقفيهم ، وصار المحرم « شرعيًا » بتحالفات الحرب العالمية الثانية بين الغرب والشرق ضد النازية ، وحقق النظام فى روسيا انتصارات باهرة .. إلا إنه شتان - بين ما كانت تغذيه أيديولوجية « عالمية » الإسلام و « الجنة » الماركسية ، التى تلوح .. وكان أوائل المثقفين « الماركسيين » المصريين ، بعد معاهدة 1936 يولدون من رحم الأزهر والمعاهد الدينية . وفيما عدا الذين كانت دوافعهم فى الأعماق عرقية كخالد بكداش وبعض المشرقيين والصهيونيين المتسترين فى مصر ، لم يقرب كاتب فى هذه الفترة بالتحليل والتوضيح .. فمن ذا الذى يستطيع أن يجزم فى أن التوجه الاجتماعى فى كتابات محمد الغزالى وخالد محمد خالد وسيد قطب ، بعد عودته من أمريكا ، وقبل أن يتمحور حول منابع فكره الخاص - يخلو من أثر غير مباشر للشيوعية .. وأيًا ما كان الأمر فإن جوانب من كتابات مريت غالى ، ومريت غالى ومدكور

، ومحمد الغزالى ، وخالد محمد خالد ، وسيد قطب قبل أن ينضم إلى الهضيبى ، تعتبر تحريكًا للوهج الثورى .. وفرشه .. تمهيدًا للثورة . ولكن الثورة من المنظور إلى قدرات هذه الكتابات ومداها وإلى « البؤر » الشيوعية المتشكلة وتشرذمها وانعدام سريان روح الوحدة والتوحيد .. يتكشف عن أن مرحلة « الثورة » والتغيير مازالت بعيدة .. فلئن أمكن وصفها فإن أقرب وصف لها أنها المرحلة التى بدأت تتغير فيها أيديولوجية الإدارة الحاكمة ، وأرغمت فيها على كتمان مواقفها التى عبر عنها الخديوى توفيق فى حالة نزق: « هؤلاء فلاحون أولاد كلب » . فى المرحلة السابقة ظل الدكتور طه حسين يفتر ثغره طربًا حتى آخر حياته جين يناديه أحدهم يا « باشا » . فى هذه المرحلة جرت لفظة « الباشا » على كل شفة ، ينادى بها كل مجهول الاسـم.

هذه المرحلة هى التى وصف فيها الأستاذ محمد حسنين هيكل الشارع المصرى « هائجًا مائجًا » بتفاعلات لا يعرف أحد إلى أين وجهتها « وكانت معظمها تعبيرًا عن التوتر .. وهذا التوتر لم يكن عبثيًا ، بل لم تكن أسبابه خافية ، عندما يدخل القصر الملكى إلى دائرة الضوء فى هذا التوتر بتنظيم الاغتيالات يقوم بها « حرس حديدى » أنشأه الدكتور يوسف رشاد ، طبيب الملك الخاص وزوج عشيقته . لتعقب خصوم الملك ، وبعد اغتيال أمين عثمان ومحاولة اغتيال النحاس باشا ، أشيع خبر وضع قوائم للمراد تصفيتهم إخلاصًا للملك وتفانيًا فى خدماته . والذين هرّبوا ، وتدخلت السراى لحمايتهم أصبح أمرهم معروف لاشتراكهم فى محاولات اغتيال فى سوريا .. وانتهى الأمر بأحد أعضاء هذا التنظيم إلى منصب وزير الخارجية لتزامله فيه مع السادات . إلا أن ضميره استيقظ فى كامب ديفيد فلم يكمل المشوار .

فى هذه الأجواء التى تقاطعت فيها الدروب والمسالك واختلطت القيم .. لم يعد غريبًا دخول معمعان الاغتيالات جماعة الإخوان المسلمين من جهة وحكومة إبراهيم عبد الهادى من جهة أخرى مدعومة من الملك .. مع أنه كما يقول ريتشارد ميتشيل(692) فى دراسته الموثقة : « إن أكثر الاتفاقات المهنية تمثلت فى التحالف مع القصر والعمل على تحقيق أهدافه ، إذ كان أسلوب حسن البنا بالنسبة للملك يستمد من محاولة استقباله فى الحضرة الملكية - كما لم يعرف بتعارضه إلى دعوة الملك لإقامة الخلافة ، وقد فعل كل ما من شأنه تفادى أى إثارة للحفيظة الملكية.. » .

لم يبق غير نخبة المثقفين من الجيش ...

يستعرض الدكتور لويس عوض حالة الاستقطاب فى مصر ، بالتداخل مع عرضه لكتاب فاتيلوس « تاريخ مصر الحديث ، فى فترة ما بين الحربين العالميتين » ، التى توسع فيها التعليم فى مصر، باتجاه الطبقة الوسطى فيكتب ما يلى : « .. فى الوقت الذى زاد فيه عدد المثقفين ، وزادت فيه العوامل التى دفعت بهم إلى الغضب والحقد الشديدين ، إذ كان لابد أن يزيد عدد المشتغلين بالسياسة والمهتمين بها حين قال إن هؤلاء المثقفين من شتى الفئات الأخرى كالطلاب والمثقفين وأصحاب المهن الحرة وغيرهم لم يعثروا على برامج عملية للإصلاح ، أو تحسين أوضاعهم الاجتماعية ، أو تحقيق أمانيهم والقضية الوطنية مع قوى المحتل . إنما وجدوا حرصًا شديدًا على الاستئثار بالحكم والذود عنه بأية وسيلة . وبقراءة كتاب « حوار مع الشيوعيين ، فى أقبية السجن » الذى نشر بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر ، وكان قد جرى بين « الحزب الشيوعى المصرى ، وحدتو » من جهة وجماعة الإخوان المسلمين من جهة ثانية ، لمدة أيام وليالٍ ، بعيدًا عن أعين الرقباء ، سجل مباشرة على كشاكيل ، وأحيط وقتها بشتى الأساطير .. فإنه يتضح من قراءته التهاويل والأوهام التى كانتِ تدفع هذه الفئات إلى الحركة فى الواقع تسيطر عليهم أوهام

يخال لهم أنها حقيقة فيضعون خططًا لمجاراتها وإفشالها : كان قد وقر فى ذهن الإخوان مثلاً أنه عند إتمام المرحلة النهائية من السد العالى يبدأ دخول مصر فى فلك الشيوعية وتصبح جمهورية سوفيتية .. إلخ . إلى آخر ما هنالك من الخيالات والتخيل حول الثورة . كمحاربة دون كيشوت لطواحين الهواء .

إذا صح الملاحظ أن التعليم كان من أهم العناصر التى أسهمت فى تكوين المثقف وهو ملاحظ صحيح لا شك ، إلى جانب التوسع الذى حصل فيه ، كما أنه من الصحيح أيضًا أن المثقفين الذين تكونوا قبل الحرب العالمية الأولى وفى أعقابها مباشرة تشربوا الأيديولوجيات السائدة التى لم تكن قد اهتزت بعد بالظروف الطارئة ، وهى الأيديولوجية الأرستقراطية التى أرساها محمد على .. أما المثقفون الذين تكونوا بعد فشل ثورة 1919 وظهور المستجدات المتلاحقة التى لم يعد فى مقدور العوائق أن تحوش تأثيرها .. إلى جانب أن هذا التوسع فى التعليم كان مجاله الطبقة المتوسطة والفقيرة .. وإذا كانت صورة الطبقة الأرستقراطية صورة الطبقة التى أرسى أسسها محمد على قد اهتزت كثيرًا فى أذهان هؤلاء المثقفين الجدد .. فإنهم تلقوا ما كان سائدًا ، طافيًا بعد الحرب العالمية الثانية ، وإن نحن أخذنا بتعريف جان بول سارتر للمثقف ، وهو الأقرب إلى الصواب من بين عشرات غيره ، على أنه ذلك الشخص ، أيًا كان تأهيله ، الذى يتحول فى الوقت التى يظهر فيها اهتمامه بقضايا المجتمع الإنسانية ، ويتخذ موقفًا من هذه القضايا . ولعمرى لو أننا تفحصنا تاريخ حياة الضباط واحدًا واحدًا ما وجدنا أحدًا غيرهم ، فى تلك المرحلة، الواقعة ما بين الحربين العالميتين ، ألصق منهم بقضايا مصر ومعايشتها . ومن هنا كان انصراف الاهتمام إلى الجيش .

فقد تميزت هذه الفئات من ضباط الجيش المصرى الذين دخلوا الكلية الحربية بعد معاهدة 1936 وإلى نهاية الحرب العالمية الثانية 1948 أنهم كانوا يعيشون حياة أمتهم العربية بعيدين عن المباذل التى اعتادها أمثالهم من قبل . فإن : « الأحوال السياسية المضطربة فى تلك الظروف التى كانت تمر بها البلاد والثورات الشعبية المكتومة ، والاضطهاد والعسف هى محور أحاديثهم الجارية على ألسنتهم .. على نحو ما قرر معظمهم فى مذكراتهم .

وقد اجتمعت هذه النخبة من « مثقفى » البلاد على مبادئ ستة : القضاء على الاستعمار وأعوانه ، القضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم ، وإقامة عدالة اجتماعية ، وإقامة جيش وطنى قومى ، وإقامة حياة ديموقراطية سليمة . وهى مبادئ بسيطة لا يختلف عليها اثنان ولكن لابد من إقصاء معوقات تحقيقها .

حقيقة أن هذه المبادئ لا تمثل برنامجًا تفصيليًا دقيقًا لكل منها . لكنها كانت ترتكز على مفهومين أساسيين : تخليص الوطن من قيود الاستعمار ، والاستغلال ورد الاعتبار إلى الشخصية المصرية . تجمعت خلايا الضباط الأحرار من مؤمنين بوطنهم ، وإن تنوعت مشاريعهم السياسية والاجتماعية .

وبالتحرك للتنفيذ لم يعد تحرك هذه النخبة محدودًا داخل القوات المسلحة، وإنما تجاوزها إلى الشعب . فإذا به يقف بل يهب يؤازرها من اليوم الأول . فأمكن لهذا اللقاء المذهل بين طليعة الجيش وهذه الملايين الغفيرة أن يرغم الطغيان .

* * *

الفصل السابع عشر

خيانة الثورة فى المشرق

خيانة الثورة فى المشرق

أيا ما كان الوصف الذى أعطى ، ابتداءً لـ 23 يوليو لدى حدوثها عام 1952 : حركة ، أم حركة مباركة ، أم أنها انقلاب عسكرى ، قام به عسكريون جاهلون .. إلخ ، فإن الوصف الصحيح الذى تستحقه ، المطابق لها هو أنها ثورة ، ثورة فى مستوى الثورات الكبرى التى تستهدف فى تاريخ البشرية ، التغيير وتحقيق المبادئ والأهداف . فإن الإطاحة بالعهد الملكى ، وحدها ، فى نظر من كان يعرف العهد الملكى ، بفساده وطغيانه وعبثه بالحياة العامة ، والدور الذى لعبه فى تفسيخ القيادات الوطنية وفى التمكين للاستعمار ، والإطاحة به بدون إراقة قطرة دم .. تكفى لإضفاء صفة الثورة عليها .. فكيف إذا عرفنا أن 23 يوليو ، بالإصلاح الزراعى ، استردت للشعب ، للأهالى الذين يبلغون حوالى 98% من مجموع السكان ما كان نهبه محمد على والخديويون من أرض مصر ، وبذلك أبطلت 23 يوليو مفعول النخبة التى حشدها محمد على لحماية حكمه وآلت ، بالتطور والحراك الاجتماعى ، إلى « مجتمع الحكم والإدارة » الذى تتشكل منه الأحزاب المتحالفة مع الملكية والاستعمار .. دون أن يكون قد تنامى إلى علم 23 يوليو من أصول تكوينها ، لانعدام البحث ، غير هذا التحالف الظاهر .

وتستحق 23 يوليو صفة الثورة بما نهضت به فى البلاد من جوانب التنمية ، التى تؤهلها لتحقيق مبادئها الستة ، التى تعاهد الضباط الأحرار عليها : كمجانية تعليم حقيقية ، وإلزامية ، وتوفير المدارس لها . وإيصال مياه الشرب الصالحة إلى كافة القرى ، وإيجاد شبكة تكاد تكون كاملة من الطرق وبناء المستوصفات فى الأرياف ، حتى قبل اكتمال تأهلها لإدارتها . وتنوير البلاد ، وبناء جيش . ومضاعفة الأرض الزراعية .. إلخ . وكان جمال عبد الناصر يقدر أهمية ما قامت به 23 يوليو وباشرته وما تنويه ، عندما أطلق بعد أقل من أربع سنوات عليها صفة الثورة، فى دورة الاستكشاف التى قام بها ، فى ذهنه ، فى التاريخ العربى ، ودونها فى « فلسفة الثورة » . وكانت منذ السنة الأولى ، قبل أن يستتب بها المقام ، قد باشرت قيادة الأمة العربية إلى أهدافها ، ليس بإعادة مصر التى حيَّدها محمد على والاستعمار والصهيونية ، ثم فصلوها عن الأمة العربية .. إلى أمتها ، والالتحام بها .. بل إلى قيادتها ، إلى المركز المهيأة له ، بحكم التاريخ والجغرافية والتكوين البشرى والاجتماعى .. فى مرحلة فيها هذه الأمة من المحيط إلى الخليج . من الأجزاء المتحررة ظاهرًا من الاستعمار المباشر إلى الأجزاء التى مازالت تعانيه .. أحوج ما تكون فيه إلى الأخذ بيدها إلى الثورة وإلى القيادة الصحيحة ، القومية ، وراح صوت القومية يجلجل فى الأرجاء ويطرق الأسماع .

وسرعان ما تنسم الناس فى هذا الصوت ، النفس الثورى الصادق ، ومن مصر ، لم يعهدوه من قبل فى البيانات الوزارية ، ولا فى الأحزاب، ولا فى الصحف والكتب .. فانشدّوا إليه .. وكان من أوائل من قدم سرًا ، متخفيًّا ، إلى القاهرة يتصل بثورة 23 يوليو ، على أنها ثورةالعرب ، هو أحمد بن بللا ، هاربًا من السجن ، باسم مزياتى مسعود ، وهو اسم مستعار ، ليكشف بوجوده وما يحمله من وقائع وحقائق زيف الحركات والأحزاب والادعاءات السائدة ، من أن الثورة لم تحن بعد(693) وفاجأ المجتمعين الممثلين لشمال إفريقيا ، وهم يدعون كل منهم أنه الأكثر قدرة والأكثر

تمثيلاً ، ولا حاجة لهم إلا إلى المال ، ليقال إنه هو باسم الثوار الحقيقيين لا يريد مالاً ولا يريد شيئًا إلا السلاح .. وكان أن تم حينئذ مع فتحى الديب الذى فرزه جمال عبد الناصر من الضباط الأحرار لمباشرة مهمة « 23 يوليو فى تحرير الوطنالعربى والمواطن العربى.. »(694) وهو من اعتبره أكرم الحورانى عنصرًا من عناصر المخابرات المصرية ، ولم يفطن بأنه كان يؤدى دورًا قوميًا . لأن كل من كان ملتحمًا بثورة 23 يوليو وبجمال عبد الناصر من الضباط المصريين كان عنصرًا من عناصر المخابرات فى نظر أمثال أكرم الحورانى ، كما سوف يكون كمال رفعت ، وهو يمد البعث بالمال فى نظر ميشيل .

* * *

على الرغم من أن راية القومية ارتفعت فى المشرق العربى فى زمن مبكر قبل أن يسمع لها صوت فى مصر بزمن طويل ، وتكوّن حزب البعث العربى بتناقض مع الأحزاب التقليدية القائمة ، وانتشر على أنه هو حزب الثورة العربية ، الذى يبادر للقاء التفجّر المتدفق من مصر ، فإن ثورة 23 يوليو طلعت غائمة عليه ، كانت تعتم على رؤيته غيوم كثيرة ، فلم تصف نظرته ، ولأن روح السياسة ، التى قام يحاربها ، صارت تغلب عليه ، ففى عام 1952 ، كان الشيشكلى ، وكان الغالب فى الساحة ، موجة الإثارة التى ولَّدتها أحداث المحلة الكبرى فى مصر ، ومواقف الإخوان المسلمين .. وطغى على نظرة حزب البعث العربى ريح التحالف بين مختلف الأحزاب فى سورية ، للتكاتف ، وكان الشاغل الرئيسى إلى جانب ذلك ، لذهن كبار البعثيين ، هى عملية الدمج بين حزب البعث العربى ، حزب ميشيل عفلق وحزب العربى الاشتراكى ، حزب أكرم الحورانى . فهذه الفترة التى تشمل الإعداد للدمج والتفاوض مع الشيشكلى والاقتناع بمحاربته ، والهرب إلى بيروت ، ثم إلى إيطاليا . فالعودة إلى دمشق ، وسقوط الشيشكلى ، كانت قيادات حزب البعث العربى الاشتراكى ، وبخاصة الأساتذة الثلاثة الكبار غارقة إلى الأذنين فى مشاكل سوريا ، تكاد أن تكون مصابة بصمم إزاء ما عدا ذلك .. وعندما تنبه ، بالاحتكاك ، ابتداء ، مع محمد جلال ، أحد الضباط الأحرار ، عضو اللجنة الآسيوية .. الإفريقية ، ثم بمعطيات 23 يوليو .. كان قد فاتته أشياء كثيرة لتفهم ما جرى وما يجرى فى مصر ، وفى العالم العربى .. لم يعد يفيد معها ويكفى لفهمها، ما كانت تجرى عليه العادة بين الأساتذة الثلاثة الكبار ، من تبادل المعلومات فيما بينهم، وتقليب الصحف وسماع الإذاعات .. إلخ . وإنما صار الفهم والتفهم يقتضيهم البحث والدرس والتمحيص .. إلخ . وهذا ما أصبحوا عاصين دونه ، ولم يكن متوفرًا فى كوادر البعث .. بينما المفروض أن تكون هذه الكوادر ، وعلى رأسها اثنان هما ميشيل وصلاح ، قادرة على تفهم 23 يوليو والمجتمع المصرى ، وهما المثقفان المنتميان المشبعان بثقافة الغرب .. ومن هنا فإن أعضاء حزب البعث كانوا يسبقون قيادتهم فى التجاوب مع 23 يوليو .

فكان هذا النقص يوقع الحزب وقيادته بأخطاء وأخطاء الأخطاء . أثرت فى مصائر الأمة العربية إلى عشرات السنين .

* * *

مثلاً بعد صدور البلاغ الفرنسى فى 3/7/1962 بالاعتراف باستقلال الجزائر ، نشأ الخلاف بين القيادات ، أصدر أكرم الحورانى بيانًا ضد موقف جمال عبد الناصر ، وكان اعتاد إصدار بيانات معارضة منـــذ استقالته ، دعا فيه إلى إجراء حوار بين الأطـراف وتجنب الاصطدام

(11/7/1962 – مذكرات أكرم الحورانى ، ص 3078) وبقراءة هذا البيان يتضح بما لا يقبل الشك أن أكرم الحورانى ، نقولها بصراحة ، يجهل علاقة ثورة الجزائر ، بـ 23 يوليو ، ويجهل مكانة الضباط الأحرار . فهو يساوى فى دعوته بين فرحات عباس وبن خدة وبن بللا ، الذى حدد تفجير الثورة الجزائرية بالاتفاق مع فتحى الديب نيابة عن عبد الناصر ، ولا يعرف شيئًا عن فرحات عباس ، إلا ما صارت تبثه وسائل الإعلام حينئذ ، بينما الأهم فى معرفة فرحات عباس هو ما كتبه فى اللغة الفرنسية ، ومنذ أن اختلف أكرم الحورانى مع عبد الكريم زهور ، لم يبق ثمة من يقرأ له أو يكتب له . فكيف يتساوى فى هذا الحوار الذى يدعو إليه ، فئات الثورة والفئات التى قضت حياتها ، قبل الثورة ، تجتر أفكار التعاون مع الدولة الفرنسية ؟!

ولأنه لا مجال هنا لتفنيد ما جاء فى بيان أكرم الحورانى هذا من مغالطات ومقارنتها بالحقائق ، نكتفى بإيراد نقاط صارحة الافتراء . أم أكرم الحورانى يأخذ على جمال عبد الناصر ، تهربه من طلب مقابلة فرحات عباس وإحالته إلى فتحى الديب . (ص 3087 مذكرات) .. وهو فيما يأخذه على جمال عبد الناصر يعتبر فرحات عباس ويوسف بن خدة قائدين للثورة الجزائرية.. ! وينسى أو يتناسى دور أحمد بن بللا . كما أنه يأخذ على فتحى الديب دوره المخابراتى ولا شىء له غير ذلك ، ويعتبره من هنا ، مسؤولاً عن مذابح زعم أن حكومة يوسف بن خدة حققت إدانته ، وبالطبع يجهل لماذا عيّن فتحى الديب سفيرًا فى سويسرا ، فهو لا يعرف أن فتحى الديب هو مؤسس « صوت العرب » وموجهها من خلف ستار ! إلخ . ولكن أكرم الحورانى يأبى إلا أن يرى فى كل عنصر من الضباط الأحرار أو من عناصر الصحافة ، المندمجين فى خطط جمال عبد الناصر عنصر مخابرات ... !

* * *

وآلى أشد خطورة من هذا المنزلق الذى انزلق إليه الأستاذ أكرم الحورانى فى محاربة جمال عبد الناصر مكان يمضى الأستاذان صلاح الدين البيطار وميشيل عفلق بسبب تميزهما ، أصلاً ، بنظرتهما القومية عن أكرم الحورانى .

فأكرم الحورانى بدأ حياته « سوريًا قوميًا » ، وبقى تفكيره إقليميًا ، ولم يتسع منطلق تفكيره كثيرًا، وإن كان « طرد » من الحزب السورى القومى، وصار فى قيادة حزب البعث العربى الاشتراكى ، ثم فى حزب الاشتراكيين العرب .. إلخ . بخلاف الأستاذين عفلق والبيطار ، اللذين كان منطلقهما أصلاً ، قوميًا ، معارضًا عن وعى للفكر السورى القومى والفكر الشيوعى ، ويشمل تفكيرهما الأمة .. إلخ . ومن هنا فإن الخطأ منهما أخطر على مصير الأمة، وخاصة عندما يصدر هذا الخطأ عن موقف فردى .

ذلك أنه قلما كان القرار الذى يصدر عن قيادة الحزب ، كان بنتيجة بحث ودراسة وتقصٍّ ، بحيث يصبح لدى الحزب سجل متسلسل .. كالأحزاب العريقة .. حتى أن مثل هذا النقص لم يشغل بال المؤسسين ، ولم يحدث أو نادرًا ما حدث أن كتب محضر باجتماع هام مصيرى فى الحزب ، بله محضر معلل . ومن هنا أخطر ما حدث فى تاريخ الحزب : حزب البعث العربى الاشتراكى ، هو حل الحزب ، ولا سيما لدى من يقول ، خطأ أم صوابًا أن حزب البعث العربى الاشتراكى هو حزب الوحدة .. وضمان بقائها .. إلخ . وترجع فكرة الحل إلى أحد شروط جمال عبد الناصر التى اشترطها على الضباط السوريين الذى جاءوا يطالبونه بالوحدة ، والحقيقة أن مطلب الحل لاقى

لدى الأستاذ ميشيل عفلق هوى حينئذ بأى شكل جاء لأنه تصادف مع فترة نفسية يائسة يشعر فيها أن الحزب يفلت من يديه : أمام زحف أكرم وتألقه . فقد خرج منه جلال السيد ، وشخصية صلاح البيطار غير قادرة على مساندته كل المساندة فى وجه طغيان أكرم والمعجبين به ، وكثيرون هم الذين سمعوا منه قوله : « الحمد لله أننا حللنا الحزب لسبب أعظم هو الوحدة .. » عندما كان يبدى أمامه الأسف على حل الحزب ..

وإذا كان ثمة من يشير الآن بالاتهام إلى أمانة هانى القكيكى بنقل هذا القول عنه .. فإن كلمة ميشيل عفلق نفسها فى حل الحزب التى أوردها جورج صدقنى فى كتابه الممنوع دورات الحزب لا تخالف ذلك . بل بعضهم يذهب إلى القول إلى أن المبادرة فى طلب حل حزب البعث العربى الاشتراكى لم تكن من جمال عبد الناصر . بل من ميشيل عفلق نفسه . وأيا ما كانت الحقيقة فالصحيح أن الحزب كان يمر فى أزمة قيادة ، وأن الأستاذ ميشيل لم يبرأ بعد من أزمته النفسية من وضعه فى القيادة ، وأنه من الثابت سعيه لدى جمال عبد الناصر ، فى أحاديثه إلى التمييز عن أكرم الحورانى ، والعمل إلى أن تكون صورة البعث العربى فى ذهن عبد الناصر متميزة عن صورة العربى الاشتراكى ، وقد لاحظ أكرم الحورانى نفسه هذا الشىء فى مذكراته ونوه به هيكل ، واستهدف ميشيل عفلق أن تستند إلى البعث العربى قيادة الاتحاد القومى ، أو أن يكون البعثيون - والمقصود بعث ميشيل عفلق - نواة الاتحاد القومى . وقد كان انتشار إشاعة فى القاهرة بذلك موضوع تساؤل طرحه أنور السادات حينئذ على أحمد بهاء الدين نشره فى محاورات مع السادات ، وعرف فى دمشق أن ميشيل عفلق أخذ يحضر له فى اجتماعات على نطاق ضيق بين قدامى مختارين فى مكتب المحاميين عبد الرحمن الماردينى ومظهر العنبرى ، وذكر خالد على الصالح فى كتابه : « على طريق النوايا الطيبة » ريا ض الريس للكتب ، هذا الموضوع بتفصيل أكثر يقول كان حزب البعث فى العراق فى مطلع الوحدة بين مصر وسوريا ، وتناقلت وسائل الإعلام خبر حل الحزب ، تماشيًا مع نظام مصر فى حل الأحزاب وإقامة حزب واحد .. معارضًا لحل حزب البعث لاعتباره « أن الحزب هو أداة الوحدة . فلابد أن يستمر فى نشاطه لكى يحمى الوحدة ويدافع عنها » ويعلق على ذلك فى هامش رقم 4 بقوله : « هكذا نقل إلينا ، وهو أيضًا ما روج له عفلق ، ويبدو أن الأمر ليس كذلك . فالذى قد اقترح إلغاء النظام الحزبى هو ميشيل عفلق » .

ومن منطلق أن الحزب فى العراق هو مع الوحدة ويدعمها بكل قواه . إلا أنه لا يوافق على حل الحزب تم تكليف صالح شعبان - المسؤول الحزبى فى الرمادى ومن سكانها بمهمة التسلل إلى دمشق ، والقيام باستجلاء الرأى الحقيقى - ويقول خالد على الصالح : وقد سافر صالح شعبان هناك وعاد إلينا ، بعد مقابلة عفلق بما يلى على لسان صالح شعبان : « قابلت ميشيل عفلق وأبلغته بقرار قيادة العراق بشأن حل الحزب فى حال قيام الوحدة ، وأنها - أى قيادة الحزب فى العراق ترفض بشكل مطلق حل الحزب مع قناعتها الأكيدة بأهمية قيام الوحدة » وذكر رد عفلق على قرار الحزب فى العراق – قال عفلق : « على القيادة فى العراق أن تدرك أهمية قيام الوحدة ، ومهما كان الثمن حتى لو قامت مقابل التضحية بالحزب » . وأضاف صالح شعبان إلى قوله هذا - من عنده أنه لم يقتنع بكلام ميشيل عفلق ، ولكنه أدرك أن فى كلامه حلقة مفقودة تجعله يوافق على حل الحزب .

ومن منطلق عدم اقتناع الحزب فى العراق بحل الحزب فى الجمهورية العربية المتحدة كررت القيادة فى العراق إرسال مبعوث إلى دمشق . فاختارت هذه المرة سعدون حمادى ، أحد أقرب

«حواريى » عفلق لما كان معتقدًا أن فيه ما يمكنه من فهم عفلق . فعاد ولم يحمل إلى العراق أكثر مما نقله الموفد السابق ، وكرر وجود الحلقة المفقودة .

وكانت قيادة العراق ماتزال بعيدة عن أزمة ميشيل فى الحزب . كما كانت بعيدة بعد عن دواعى تفاؤلـه وتوقعاته منها . وبدوافع آماله وتطلعاته المتوقعـة كان يرى فى الوحـدة ، وهى حقًا كذلك ، « سبيلاً لتحرير فلسطين .. وأن التحاق العراق بركب الوحدة سيكون أعنف ضربة ثورية توجه للاستعمار والصهيونية والرجعية العربية .. » . وظل الأستاذ ميشيل على رأيه فى اعتبار معارضى حل الحزب « صبيانيين » يتصفون بالـ « طفولة » ؛ مستعيدًا وصف الرأى المبشر فى الحزب بالطفولة من أدبيات الحزب الشيوعى . ويذكر خالد على الصالح أنه طال النقاش مع عفلق فى جلسة القيادة ببغداد بحضور فؤاد الركابى . فقال الأستاذ ميشيل : « إنكم لا تدركون ماذا تعنى قيادة « ناصر » هى السند الحقيقة للوحدة ، وهى التعبير العملى عن استمرار النضال والثورة.. » .

وتساءل خالد على الصالح ، بينما فؤاد الركابى مايزال قابعًا فى صمته « كيف يمكن أن يعبر شخص واحد مهما كانت قدراته مواهبه عما يمكن أن يعبر عنه الحزب صاحب الأهداف والمبادئ .. » .

وبعد أن كرر الأستاذ ميشيل عبارته نفسها أضاف أن وحدة سورية مع مصر جاءت إنقاذًا لسورية من خطر الشيوعيين. وكانت هذه الحجة أحد الحجج التى حملها الضباط السوريون معهم إلى القاهرة ليقنعوا جمال عبد الناصر بالوحدة أشار إليها هيكل وفصلها الكيلانى فى مذكراته . وكانت توهمًا لا يؤيدها الواقع .. فإذا كان مركز إشعاع أفكار ونشاط حزب البعث مهددًا بخطر السقوط فى الشيوعية بهذه السهولة لمجرد نجاح خالد بكداش بالنيابة ، وتوهم مد شيوعى من دعاية اشتراك الاتحاد السوفيتى فى معرض دمشق الدولى .. فإن الأمة العربية مستعصية على الشيوعية ، ولها فى قيمها عاصم لها .

كان الاجتماع الذى يسجل محضره خالد على الصالح يضم أعضاء القيادة القطرية فى العراق ، ترأسه ميشيل عفلق الأمين العام .. كانت القيادة تضم أربعة من خريجى الجامعات ووزير افتتح الاجتماع بجملة - يقول خالد على الصالح - بقيت عالقة فى الذاكرة ، وكانت القيادة أذاعت بيانًا أيدت فيه قيام الوحدة ، ورفضت الإقرار بحل الحزب : « أنتم أطفال » . ثم مضى فى الحديث . تكلم عن الثورة وأهميتها فى تلك المرحلة بالنسبة للأمة العربية ، وشرح سبب وصفه للقيادة بالطفولة . ففى رأيه أن معارضة حل الحزب عند قيام الجمهورية العربية المتحدة إنما يعد تصرفًا صبيانيًا .. وأخذ يكرر كلامه عن أهمية هذه الوحدة ، وأن أهمية هذه الوحدة تبرر أى تضحية حتى ولو كانت هذه التضحية حل الحزب ..

واستمر الأستاذ عفلق فى إعطاء المبررات التى أدت لحل الحزب فقال : « وعدنى عبد الناصر بتسليمى الاتحاد القومى » فقال له خالد على صالح مقاطعًا « لكم وحدكم » فأجاب : «نعم لنا وحدنا» ويقصد لنا وحدنا أى لحزب البعث العربى ، دون الاشتراكى .

فكان دأبهم أن يعلموا على التميّز بعضهم عن بعض ، ويبدو أنهم كانوا يبيتون نية التميز منذ أن أقبلوا إلى الوحدة . يتضح هذا من ترشيحات أكرم الحورانى إلى أول وزارة ، وإلى ترشيحات الأستاذين ميشيل وصلاح من جهة أخرى . ومن تصريحات ميشيل عفلق ، بعد إعلان التشكيل

الوزارى بالاعتراف بتفوق أكرم عليه . ومن الملاحظ فى إعلام تلك الفترة ، تلميع صورة أكرم إلى جانب جمال عبد الناصر ، فى قصر الضيافة ، وإبرازها ، ولا شك فى أن صورة كل من القيادة الثلاثية لحزب البعث العربى الاشتراكى بدأت تأخذ ملامحها ، فى ذهن جمال عبد الناصر منذ ذلك الحين . ومن المعروف أنه كان حول عبد الناصر من يحلل ويفسر .. إلخ . فميشيل عفلق فى حواره مع خالد على الصالح يقول إن أكرم الحورانى يتآمر على الوحدة ، ويعترف أنه أطلع الرئيس على ذلك . ولسان حال أكرم الحورانى فى سورية أحمد عسة صاحب الرى العام ، التعهد بإبرازه، وفى مصر كان الأخوان على ومصطفى أمين أقرب الصحفيين إلى قلب أكرم الحورانى . ولم يكن هؤلاء يخفون على جمال عبد الناصر ، ربما خفيت عليه بعض أساليبهم ، مرت ولم تلفت النظر ، ففى أوائل الوحدة صدرت أخبار اليوم بمقال طويل حول معركة حماة مع رمسيس الأول تزينها صورة لرمسيس شامخ القامة يدوس على رقبة ملك حماة . وأقوى الظن أنها كانت طبعة خاصة ، كما كانت تجرى العادة لدى كبريات صحــف القاهرة .. وفى أوائل الوحــدة دخلت إلى القطر ، أو سربت صحيفة أوروبية تحمل خريطة للعالم العربى يزحف إليها تمساح شرس من مصر يلتهم أول ما يلتهم سورية والباقى يأتى .. كانت تسوق فى هذا الاتجاه الإقليمى إشاعة وجود محمود رياض فى دمشق بمثــابة مندوب سامٍ . بذكر السورى بالاستعمار الفرنسى ، وبوجــود هذا كله لا نجد مقابله بحثًا جديًا أن الوحدة هى عودة إلى الماضى .. ولا حتى تنويهًا إلى مئات السنين من الحكم الأموى والعباسى ، بل خمسة عشر قرنًا من التفاعل من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق .

* * *

فى الفترة التى اقتنع فيها أكرم الحورانى بأن الباب مسدود فى وجه تطلعاته ، إلى جانب جمال عبد الناصر ، فى قيادة الوحدة ، أخذ يعد للانسحاب ، بالاستقالة من مناصبه فى الوحدة والعودة إلى سورية ، وجعل هذه الاستقالة معللة ، فصارت الرسل تروح وتجئ بينه وبين ميشيل وصلاح أولاً ، وهو وإن كان يقول إن استقالة أحمد عبد الكريم وأمين النفورى لم تحصل عن اتفاق فإن أحمد عبد الكريم ينفى هذا القول فى كتابيه : أضواء على الوحدة وحصاد سنين خصبة وثمار مرة ، بصورة غير مباشرة ، حين يقول إن أكرم بادرهما بالاعتذار عما مضى .. إلخ . والتخطيط للمستقبل . ولكن لا أحمد عبد الكريم فيما كتب ، ولا أكرم الحورانى فى مذكراته .. ولا غيرهما نوه بما هو ذلك المستقبل الذى يتطلعون إليه ؛ ولا شك أنهم كانوا رجال « سياسة » ، ورجل السياسة لا يغرب عن باله القوى ، التى أخذت تظهر ، بعد « هوجة » التيارات الوحدوية العاصفة ، عبد الكريم قاسم فى العراق ، الأردن ، السعودية ، لبنان .. إلخ .

ففى سورية ، فى دمشق عند خالد العظم محور اللقاءات . وعاد إلى الساحة أحمد الشراباتى .. وفى لبنان راح الأستاذ ميشيل عفلق يلملم خيوط معارضة تسرى وتتغلغل إلى صميم الوحدة فى الجمهورية العربية المتحدة .

فى الوقت الذى راح يحلحل فيه مسألة خطبته إلى الدكتورة أمل بشور التى تعقدت ولم يحلها إلا المقربون من أكرم الحورانى كان الأستاذ ميشيل يحضر إلى عقد مؤتمر حزبى فى بيروت ، لعله كان أخطر المؤتمرات ، لأنه جاء بعد مسلسل الدم والعنف الذى كان يغذيه رأس النظام العراقى عبد الكريم قاسم ، وصدر عنه ما يحدد مصير الحزب من جهة ، وعلاقته بالجمهورية العربية المتحدة من جهة أخرى . وهو إلى جانب أهميته فى هذا يكشف عن دور الأستاذ ميشيل عفلق

الفردى ، بل والفردى المطلق فى مصير الحزب ، بحيث يظهره بما لا يحتمل الشك أنه يريده أن يكون حزبه ، لا يشاركه أحد فيه .

إن ما كتبه خالد على الصالح عضو القيادة القطرية فى العراق ، حينذاك ، ربما كان أدق ما كتب ، ويظل أقرب إلى الفقه . قال خالد على الصالح : « .. إزاء تصرف « عفلق » أى طلبه من قيادة العراق إيفاد مندوبين ، حددهم مسبقًا بالاسم ، بخلاف قواعد التنظيم التى نتبعها، وبخلاف أبسط قواعد الديموقراطية ، وكان من هؤلاء الذين حددهم بالاسم من قام بتجميد نشاطه من تلقاء نفسه ، ومنهم من ترك العراق . ولأول مرة يظهر نوع من الاحتجاج بين أعضاء القيادة القطرية نتيجة لهذا التصرف .. طلبت أى طلب خالد على الصالح ولأول مرة ، من القيادة القطرية أن توافق على ترشيحه كمندوب للحزب إلى المؤتمر القومى على أن يكون ترشيحه وحده . فوافقت القيادة .

وسافر بطريق الموصل ، دون وثيقة سفر . وبوصوله إلى دمشق وجد ميشيل عفلق فى القاهرة يقضى شهر العسل . وبوصوله إلى القاهرة وجده قد انتقل إلى بورسعيد ، وسوف يسافر منها إلى بيروت . فاضطر خالد على الصالح إلى اللحاق به إلى بيروت عن طريق دمشق .

وفى بيروت قابل ميشيل عفلق ، وأخبره بأنه مكلف بتمثيل العراق فى المؤتمر ولم يكلف غيره ، ولاسيما من العناصر التى غادرت العراق .. كما ذكر له ، لدى رؤيته من يحيطون به من العراقيين الذين تركوا العراق ، وطلب منهم ليأتوا لتمثيل العراق فى المؤتمر ، أن منهم من غادر العراق ولم تعد له صلة تنظيمية بالحزب داخل العراق ، ومنهم من آثر السلامة وابتعد عن أى نشاط حزبى ولم يرد بأى شىء على ما قاله له(695) .

ثم جاء دور ميشيل عفلق ، بعد أن أنهى خالد على الصالح عرض هموم العراق ، فى عرض همومه . فإذا به يسمع منه أن المشكلة تنحصر فى فرع الأردن الذى أتى إلى المؤتمر بكامل قيادته وبقيادة عبد الله الريماوى ، وهو يقيم فى الجمهورية العربية المتحدة ، وكان عبد الله الريماوى ، وقد انتسب إلى الحزب هو وغالبية قيادات الأردن « كبارًا » أى أنهم لم يكونوا تلاميذ ميشيل كمعظم الحزبيين السوريين ، ولذلك كان من الصعب ترويضهم . وجاء عبد الله الريماوى من القاهرة ودعا أعضاء القيادة الأردنية فتسللوا جميعهم من عمان « عبر الجبال ولاتزال أقدامهم تدمى بسبب وعورة الطريق ، وكانت حالتهم تلك مصدر فخرهم » . وكان فى نية ميشيل عفلق اتخاذ إجراء بشأن الريماوى ، ولكن أعضاء قيادته متضامنون معه جميعًا لا يقبلون باتخاذ أى إجراء ضده .

وكان ميشيل عفلق يمتدح موقف أكرم الحورانى ، ويشعر الذين يحادثونه فيه أنه أصبح هو « وجماعته » قريب من نفسه ، حتى عبد الفتاح الزلط ، الذى لم يكن يوفره من « نكاته » الجارحة « على الطالع والنازل » أصبح يحظى بنصيب من مدحه ، ومن الملاحظ أنه لا ينطلق فى كلامه من كونه أصبح مواطنًا من مواطنى الجمهورية العربية المتحدة يجب أن يلتزم بحدود هذه المواطنة ، وقليلون الذين كانوا يعرفون سبب هذا التبدل فى مواقفه ، بل ربما كانوا نادرين ، ولعل الملاحظين له كانوا أندر .. إذ قلّما كان ثمة من يرجع مواقف الأستاذ إلى دوافع ذاتية .. ولم يكن ثمة من يجرؤ على مثل هذا الظن .. والحقيقة أن الأسباب تعود إلى الرسل الرائحة والآتية من أكرم الحورانى إلى ميشيل عفلق التى أنشأت مناخًا ملائمًا فى نفسه ، وإلى الوساطة التى قام بها

أناس من جماعة أكرم للإقناع هم : عبد الفتاح زلط ، وعبد الحكيم قدور ، وأدهم عكاش الذين ذلّلوا العقبات فى مواقف الأهل ، أهل الخطيبة بإعادة الكرة .

بالمحصلة ، قبل انعقاد المؤتمر .. اختلفت المعطيات فجاء تأثيرها على المواقف حاسمًا لم يُتِح فيه مجال للتفكير . ففى تموز / يوليو 1958 بعد ثورة بغداد كان جمال عبد الناصر أكبر من الحزب ، وهو الضمان للوحدة ، وهو القائد الحقيقى للمسيرة الثورية(696) ، وكان أكرم الحورانى من المتآمرين على الوحدة ، وكانت تصرفات عبد الله الريماوى ، وكان وزيرًا للخارجية فى الأردن التى أدت إلى الانقلاب على حكومة سليمان النابلسى الوطنية ممّا يصح التسامح به حزبيًا مستقبلاً(697)، وفى صيف عام 1959 ، بعد انتخابات الاتحاد القومى اختلفتالمقولات(698) بعد أن تلاشت آمال ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار فى تطلعاتهما فى إسناد قيادة الاتحاد القومى إلى أحدهما أو إلى كليهما ، فأصبح جمال عبد الناصر ، على حد قول ميشيل عفلق لممثل العراق: خالد على الصالح « يتصرف كدكتاتور ، وأطلق الحرية لأجهزة المخابرات ، ولا توجد أى صورة للديموقراطية فى دولة الوحدة » .

ومع أن خالد على الصالح كان مكلفًا بقرار رسمى من القيادة القطرية فى العراق بتمثيل العراق وحده فى المؤتمر فإنه وجد ميشيل عفلق قد رتب لعراقيين آخرين غيره لحضور المؤتمر «منهم من غادر العراق ولم تعد له صلة تنظيمية بالحزب داخل العراق ومنهم من آثر السلامة وابتعد عن أى نشاط حزبى كطالب شبيب ، الذى ، جاء والحزب فى ضائقة مالية ، يعرض تزويد أمريكا له بالمال ، ورغم تنبيهه مرة ومرتين بالكف عن الاتصال بهذا المصدر عاد إلى الاتصال به وكرر .

وكان هذا شأنه ، بالإصرار على دوامه الاتصال بالمشبوهين وتكليفهم بالمهام ، وقد توفى عاطف دانيال ، وانطمست هوية صلاته به التى جعلته يرشحه عضوًا فى وفد جزائرى إلى الصين قبل نجاح الثورة ، وهو طالب فى سويسرا ، ينفق عن سعة .. عرف أنه كان صبيحة يوم الانفصال منذ الفجر يلازم الراديو ينتظر البيان الأول .. وإذا به يظهر فى لبنان ثريًا جدًا من أصحاب الفيلات!..

شعوب الأمة العربية ، المنقسمة إلى دول لم يجر تقسيمها بسبب اختلافات اجتماعية ولا لاختلافات جغرافية .. جرى أساسًا وفق تكتلات عشائرية عملت زعاماتها على خلق حدود ظلت حدودًا هشة . فمنذ العصور الأولى للإسلام ، إذا لم يكن قبلها ، كان المتنقل من شمال الوطن العربى إلى جنوبه أو من شرقه إلى غربه لا يعانى اختلافًا فى بيئته .. والأمثلة لا تحصى ولا تعد فى تنقل الأفراد والجماعات والقبائل . وحتى وقت قريب ظلت تعقد أسواق تجارية عامة بين جنبات هذا الوطن ، محدودة ، يؤمها ليشارك فيها القاصدون من كل مكان .. وفى غياب إرادات البلاد ، استغل الاستعمار هذه الانقسامات وواءمها مع مصالحه وغلغلة نفوذه . وأقام اتفاقات سايكس – بيكو على أساسها . وعندما نشأ حزب البعث فى سورية ، وراح ينشر فى جنبات الوطن العربى كانت سايكس – بيكو ماتزال حية فى الأذهان ، إذ لم يكن مر عليها ربع قرن بعد . لم ينقطع خلاله التحركات باتجاه الوحدة ، وخاصة بين القطرين المتجاورين .. وقد أجمع الذين عالجوا هذه الفترة قبيل ثورة تموز / يوليو ، حتى منهم الذين توجه إليهم أصابع الاتهام ، بالتأثر بالأجنبى كـ (هانى الفكيكى وطالب شبيب) على أن التوجه العام فى الشعب العراقى كان باتجاه الوحدة . وكان توجهًا طبيعيًا ، ولم يكن يعوزها إلا مركز استقطاب تنشد إليه . وقد بدأ هذا المركز فى دمشق لظهور حزب البعث فيها على ركام الحركات العربية الأولى ، وانتشار مريدى هذا الحزب من دمشق فى سائر الأقطار . وبتشكيل هذا الحزب لقيادة قومية ترتبط بها قيادات قطرية ،

المفترض بأنها تتلقى منها توجيهًا وتنظيمًا ، بدأ حزب البعث يأخذ ملامح الحزب القومى الذى يقود الأمة العربية إلى أهدافها ، ويفضح خصومها والمتربصين بها ، ولكن بدا أيضًا ، فى زحمة الهجوم على هذه الأمة وزخمه ، أن هذا الحزب ، على تميزه وصفائه ونقاوته ، يؤول إلى الظهور بمظهر « الفرقة » ، « الطائفة » لا يلبى المرحلة .

وكان أهم ما يظهره بهذا المظهر 23 يوليو ، فـ 23 يوليو جاءت ثورة ، لها زخـــم الثورة ، لا دعوة ولا تبشير . جاءت أعمالها أقوى كثيرًا من أقوالها . إذا لم نقل إن هذه الأقوال قصرت عن الإيفاء بما قامت به .

والملفت فى تاريخ القطر العراقى الحديث سرعة تجاوبه مع كل ما هو معاد للاستعمار . ولعل كثرة ما منى به من الفشل فى مواقفه المقاومة للاستعمار هى السبب ، إضافة إلى كابوس نورى السعيد . وكل فشل كان يرافقه حمام دم . وقدم العراق نماذج فى نضاله ، فى الصمود والثبات على المبادئ ، وكان من أوائل الأقطار التى شملها تنظيم قومى عربى سرى مايزال مجهولاً سمح لنفسه المرحوم جلال السيد فى كتابه البعث بعض أسماء منهم استشهدوا كان على رأسهم يونس السبعاوى .

كذلك كان العراق من أوائل الأقطار العربية التى بدأت صلاتها بمصر مبكرة ، على شكل استعارة مدرسين وخبرات ورحلات مدرسية كشفية ، وفى الحرب العامة الثانية ، بمناسبة « ثورة رشيد عالى الكيلانى » يكشف عزيز على أنه على صلة بحوالى أربعمائة ضابط عراقى .. وقبل أن ينتشر حزب البعث العربى إلى العراق (تأسس فى دمشق 1947) ويتمكن فيه ، ويبدأ بالمشاركة فى حركاته النضالية – التقدمية ، لم تكن ، فى الحقيقة ، معارك الشعوب العربية ، تنقطع فى محاربة الاستعمار ، ودفع عجلة التحرر إلى الأمام . وكان العراق شديد التجاوب مع هذه المعارك ، داخلاً وخارجًا ، شديد الانفعال بها . فمنذ بدايات الحزب كان الأوائل يلمسون استجابة الشارع العراقى - كما يحدث فى مصر بعد إلغاء حكومة الوفد لمعاهدة 1936 مع بريطانيا وما تبعها من أحداث فى مصر ، وانفعل الشارع العراقى بحركة محمد مصدق فى إيران ، وقيامه بتأميم النفط ، ثم يتلو تأثير 23 يوليو ، محدودًا فى البداية حتى يصبح حميميًا . ولم يكن هذا الانفعال وهذا التجاوب من الشارع العراقى بجريان بتحريك من مركز الحزب فى دمشق كما هو المفروض أن تقوم عليه العلاقات بين القيادات فى الأحزاب .. ولعل ما ذكره أحد المناضلين المسؤولين فى قيادة بغداد ، أقرب إلى وصف حقيقة العلاقة بين قيادة حزب البعث حينئذ المرتبطة بالمركز فكتب يقول :

« فمن الطبيعى أن تكون قيادة الحزب هى المسؤولة الأولى والأخيرة عن نشاط الحزب سياسيًا ونظيميًا ، وهى التى تحدد شعاراته والسبيل التى تنتقل فيها هذه الشعارات إلى الجماهير. وهى التى تحدد شكل العلاقات مع المنظمات السياسية فى الداخل ، كيف تتصل ؟ ومع من تتصل؟ ومن الذى يقوم بهذا الاتصال ؟ ، وفوق هذا فإن القيادة القطرية ترتبط تنظيميًا بالقيادة القومية والتى مقرها دمشق ، حيث نشأ حزب البعث هناك ، وتقوم القيادة بتبليغ القيادة القومية بكل ما يتم اتخاذه من قرارات تتعلق بعلاقات الحزب بالمنظمات السياسية فى العراق . كما وتقوم بإبلاغها بأى تطور خطير يمس مصلحة العراق والأمة العربية . وتتلقى القيادة القطرية من القيادة القومية أى تتابع فكرى أو تحليل لموقف سياسى على الصعيد القومى أو القطرى . إما للأخذ به أو للاطلاع عليه . وهكذا كانت الأمور بين القيادتين ، ولا يذكر خالد على الصالح - وهو لمدة عدة سنين فى القيادة

القطرية - أنهم تلقوا ولا لمرة واحدة ، نصيحة أو توجيهًا يتعلق بنشاطهم العادى داخل العراق أو طلبوا رأيًا أو نصيحة تتعلق بمثل هذا النشاط .. » .

فمنذ البداية ، يقرر مسؤول حزب البعث فى العراق : أدرك البعثيون ، من إدراكهم لوحدة الكفاح والمصير ، أنهم رافد من روافد الثورة العربية التى راحت تتولى قيادتها 23 يوليو ، وهى ماضية فى معاركها ضد الاستعمار فى إزالة أى أثر من شك قد يكمن فى دخيلة نفس أى عربى بإخلاص 23 يوليو فى توجهها القومى ، وصدقها فى محاربة الاستعمار ونفوذه . فمنذ البداية ، بداية وصول 23 يوليو إلى إدراك أبناء الشعب العربى بأنها لم « تكن شهوة مجموعة من رجال الجيش تسعى للسيطرة والسلطة .. » ارتفع وعى الجماهير واستعدادها للتضحية وتلاشى بل زال ترددها التى أورثتها إياه العهود السابقة وترديها . وبفضل هذا التيار الثورى المتدفق الذى تقوده 23يوليو ، الآخذ بالاتساع ، راح حزب البعث ، بوصفه أداة تنظيمية لا فى العراق حسب ، وإنما حيثما تحسس وجودة القومى ودوره يوسع قاعدته ، وتستقطب شعاراته . وبالطبع لم يكن الفضل فى هذا « لحزب البعث » ولقياداته ، وحدها . وإنما كان « القدح المعلى فى تعميم هذه الشعارات والأهداف لثورة 23 يوليو ولقائدها جمال عبد الناصر » .

فلا يظنن أن تلك الشعارات : وحدة عربية ، وحدة كسبيل لتحرير فلسطين ، تحرر من الاستعمار ، عودة العرب إلى مكانتهم فى العالم .. التى كانت تراود أذهان الطلاب فى المدارس والجامعات ماتزال بعد مبهمة ، بل أصبحت حقيقة واقعة تنطلق من بلد عربى مغبيًا ، يكاد تعداده يبلغ نصف تعداد الأمة العربية . لم يعد مقبولاً - لا مواجهة هذه الشعارات بروحية الشك والتردد .

فى ذلك الحين ، كان العراق ، شأنه شأن الأقطار العربية الأخرى ، منصرفًا بتوجهات التقدمية ، إلى المستقبل ، رائدة قيام الوحدة بين مصر وسوريا التى ألهبت حماسة الجماهير وخلقت تيارًا عارمًا فى طول الوطن العربى وعرضه . طاش فيه حجر الاستعمار والصهيونية .. حينئذٍ ، وخاصة بعد قيام ثورة 23 تموز فى العراق أدرك مسؤول حزب البعث العربى فى بغداد «أن ليس هناك من هو ضد الوحدة أو ضد توجه العراق نحو أشقائه العرب فيما لو اتجه قادة الثورة نحو هذا الاتجاه » ، استنتاجًا من أنه ذهب لتوديع الموظفين رفاقه فى سكة الحديد فى بغداد بعد حوالى أسبوع من قيام الثورة . فشاهد على الجدار خلف أحدهم ثلاث صور : واحدة لعبد الناصر والأخرى لعبد الكريم قاسم والثالثة لعبد السلام عارف ، وكانت الصالة مستطيلة بها عشرون موظفًا ، معظمهم من الشيوعيين ، وقال لعباس الربيعى وهو شيوعى معروف بينهم بصوت عال : من الإنصاف أن تضعوا هذه الصور الثلاث بمستوى واحد على الأقل . فكان رد جميع من فى الصالة : أن الجميع تلاميذ لعبد الناصر ، ولولاه ما قامت الثورة فى العراق وسوف يبقى عبد الناصر أبا الثورات .

وما لبثت الصورة أن اتضحت فى الشارع العراقى ، بصورة عفوية ، فمنذ البداية فرض هذا الشارع شعارًا لا يمكن رفضه ، لا من قبل حزب البعث ، ولا من قبل التيار القومى بصفة عامة ولا من قبل التيار الوطنى الذى كانت له خصوصياته . فما من شخص صادق الطوية ، يناضل لنيل حقوقه ، ينكر هذه الحقوق على مناضل غيره .

وهل يمكن أن يبادر شخص اشترك فى الثورة ليعلن أمام الناس بأن هذه الثورة ستأتى بالوحدة التى كان الناس ينتظرونها ، ويرفض حزب البعث ، وهو من دعاة هذا الاتجاه ؟ بل هو الداعى الوحيد

إليه ؟ قائلاً : انتظروا الوحدة التى نحققها بنفسنا !! وهذا هو الذى حدث ، صوت من هنا ورأى من هنالك فى وسط الشارع كان ينتظر هذا الحدث ، أى الوحدة ، قبل قيام الثورة . وإذا كان من بقى فى صفوف البعث لم يتخل عن الدفاع عن « شعار الوحدة » كأحد مضامين البعث الأساسى ، عندما سيتحقق « طائفة » فى منظور الأساتذة القادة ، الذين يسيرون إليها سير السلحفاة ، فليس من الممكن تجريد أنفسهم من مسؤولية تبدد قيام الوحدة .

ليس من الممكن إخلاء سبيل هؤلاء القادة من المسؤولية . لقد تأخروا ، فى الاتصال بـ 23 يوليو عن استجابة الجماهير لها . كانت الجماهير أكثر ثورية ، ولو بكروا بالاتصال .. لكان يمكن الترحيب بهم بأسلوب مختلف .. وعندما جاءوا إليها ، جاءوا مختلفين فى النظرة والأسلوب والتطلع . ثم راحوا يحضرون كيفية التنصل من الوحدة ، كل من الثلاثة القادة الكبار بأسلوبه الخاص بعد أن يئسوا من تحقيق تطلعاتهم إلى المشاركة فى الحكم إلى جانب جمال عبد الناصر ، ظهر هذا منذ الاجتماعات الأولى والمداولات الأولى لبلورة تشكيل الحكم ، ذكرها ، ناتنغ فى كتابه ناصر ، ثم كشفها محمد حسنين هيكل بوضوح من حديث جرى بين جمال عبد الناصر وميشيل عفلق ونمَّت عنها أحاديث ميشيل عفلق فى دمشق وبيروت وبغداد ، فى الحلقات الحزبية، منها ما نشر ومنها ما ظل متداولاً بين الأعضاء ، الواضح منه سعيهم بكل جلاء إلى أن يتقبلهم ، جمال عبد الناصر ، وتتقبلهم قيادات الوحدة ، الممثلين الوحيدين لسورية ، دون غيرهم ، ثم لسورية والعراق . وهذا ما رفضه جمال عبد الناصر رفضًا قاطعًا ، وترفضه القوى الأخرى ، المشاركة فى الاتجاهات التقدمية .

فإذا كان التطور المحتمل والمنتظر هو أن يصبح البعث فى المستقبل هو القوة الأولى التى تمسك بزمام سورية ، وبالتالى المشرق .. فإن الواقع كان حينئذٍ أن قوة البعث التى طلب ميشيل عفلق وصلاح البيطار أن يمثلا بها سورية إلى جانب عبد الناصر كانت ماتزال بعد فى عالم الإمكان ، فى عالم القوة الكامنة ..

كان معظم هموم الأمة العربية ، منذ أن بدأت طلائعها تتململ ، للانعتاق من أسر الإمبراطورية العثمانية ، وللانفراد بتشكيل دولة قومية .. هو وحدتها ، التى تعاكس بها استراتيجية الغرب والاستعمار فى العمل على تقسيمها وتجزئة قواها .. وتمكنها بالتالى من الوقوف فى وجه مطامع الصهيونية ، رأس الحربة الذى يهدد نهوضها .

وبتحقيق هذه الوحدة ، الدولة القومية ، تملك الأمة إرادتها ، وبامتلاك إرادتها يتيسر لها امتلاك سبل التحرير الاقتصادية والسياسية والفكرية .. وبالتحليل فإن جميع المقولات الأخرى ، لا تؤدى - إذا لم تكن فى إطار الوحدة وامتلاك الأمة لإرادتها - إلا إلى التبعثر والتشتت .. ذلك أن أجزاء الأمة ، جميعها لشدة معاناتها من وطأة تقسيمها ، سريعة الاستجابة لدواعى التحامها، إذا ما استأنست فيها الصدق وصدق محاربة الاستعمار والشموخ فى وجه الغرب . ومنذ زمن طويل ، لم تسمع هذه الأجزاء صوتًا مدويًا فى محاربة الاستعمار كصوت 23 يوليو ، مقرونًا بالعمل والتحقيق . فهى لم يمض عليها أقل من أسبوع حتى اقتلعت من أرض الوطن رمز وجود الأجنبى ، فاروق ، ولم مض عليها شهور حتى عملت فعلاً على تحرير الشعب بتوزيع الأرض وفتح المدارس لأبنائه ..

وإذا أصخنا السمع ، فإننا نتأكد أن أجزاء الوطن العربى ، راحت تسترق السمع منذ اليوم الأول لصوت هذه الثورة ، الصادر من مصر ، من وراء قياداتها .. وإذا كانت الضغوط السياسية حول سورية ، من جميع جهاتها .. وطول تلكؤها فى تحقيق استجابة لأمنيتها منذ مطلع القرن ، رغم كثرة ما أعلن وما طرح من مشاريع وحدوية .. وإصرار ومثابرة كل من السعودية والعراق على اتباع نهج إقليمى فئوى .. هو ما دفع كتل الجيش إلى اللجوء إلى جمال عبد الناصر لطلب الوحدة ، انعتاقًا من هذه الظروف .. ولم تأت مبادرة كتل الجيش هذه عفوية ، وإنما كانت تلبية لضغوط شعبية ، استبقت بحركتها القيادات السياسية .

وعندما استقال البعثيون من الوحدة ، وجروا وراءهم بعض من كانوا يزعمون أنهم كانوا مستقلين ، وهم فى الحقيقة بقايا « الشيشكلية » وحركة التحرير ، صمتوا جميعهم ، ولم يكشفوا أبدًا عن تطلعاتهم المستقبلية ، وهم ممن يتشبثون بالحكم والمناصب ، وانصبت انتقاداتهم ومآخذهم على الحكم على اتهامه بالدكتاتورية ، وخضوعه واعتماده على المخابرات . والأصل فى بروزهم هم هو المخابرات والدكتاتورية . والغريب أن يكون هؤلاء الذين يحسبون على «التقدمية» أول المنقلبين عليها .. ويبقى المتهمون بالرجعية .. مندمجين بالوحدة ..

وباسم الديموقراطية ، التى لم يحرصوا على تطبيقها فى حياتهم ، وإنما تعنى لديهم إتاحة الفرص الخاصة لهم ، شارك كل واحد منهم فى إثارة شكوك وتلكؤ جماهير العراق فى إقدامهم على الوحدة .. فأكرم الحورانى دأب على إصدار بيانات معارضة لحكم عبد الناصر ، بحق وبغير حق ، فى كل مناسبة ، مرددًا اللازمة ، بأنه عميل و .. و .. وميشيل عفلق اتخذ لازمة الحكم الدكتاتورى القائم على إطلاق يد المخابرات فى أحاديث للحزبيين وتصريحاته لأن جمال عبد الناصر وعده بتسليمه الاتحاد القومى ، وأظهر أنه اقتنع بتميزه عن أكرم الحورانى ، وعلى الرغم من أن البعث العربى اندمج بالعربى الاشتراكى قبل عهد الشيشكلى ، وخاض الحزبان المعركة ضد الشيشكلى حزبًا واحدًا ، وافترقا عمليًا بعد سقوط الشيشكلى بسبب التكتل الصامت ، ودخل الحزب إلى الوحدة حزبين ، وإن كانت قيادته الثلاثية : ميشيل وأكرم وصلاح ، تحافظ فى الأحاديث مع جمال عبد الناصر على ماء الوجه بوجوب المشاركة فى الحكم ثلاثتها ، وأحيانًا كثيرة تطعن قيادة البعث العربى بسلامة اتجاه العربى الاشتراكى . وهكذا دخل ميشيل وأكرم مختلفين وفى المرحلة الأولى من الوحدة تلاقيًا ، ثم اختلفا وافترقت الطرق بهما فى الانفصال نهائيًا عندما أصبحت اتجاهات الضباط فى الجيش وميولهم هى المعيار ، ولم تعد العقائد هى الحاكمة .

كان تطلع الشيوعيين فى العراق ، يضمهم أقوى الأحزاب وأشدها تماسكًا إلى إقامة وحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، إذ إن الوحدة فى أسوأ حالاتها أفضل من عهد الملكية ونورى السعيد وأحلاف الاستعمار ، ثم بدأوا يتراجعون مع تراجع جماعات من البعثيين بتأثير مواقف ميشيل عفلق وعدد من الموتورين ، عن تأييد التيار الوحدوى . إلى جانب أن قادة كثيرين أكدوا أن الاتحاد السوفيتى فرض على الحزب الشيوعى العراقى وأملى عليه معارضة الوحدة «.. وإبعاد شبح عبد الناصر عن نفط العراق والخليج ، ودفعه لإدامة تحالف مع قاسم وحكمه العسكرى .. » .

* * *

الفصل الثامن عشر : خيانة الثورة فى مصر

خيـانة الثـورة فى مصـر

كانت الهجمة لتهديم الثورة فى مصر ضارية ، بل ولمحو آثارها . ودراستها تصلح نموذجًا يضرب للنفاق والافتراء والغدر .. فى التاريخ ، لا فى مصر وحدها ، وإنما فى العالم قاطبة ، عبر العصور .

وتنوسى فى ذلك الإصلاح الزراعى ، وشق الطرق ، وبناء الكبارى ، وتنوير البلاد بالكهرباء ، وتمديد مياه الشرب إلى كافة قرى القطر ، وبناء المدارس والمستشفيات ، وإلزامية التعليم ومجانيته.. إلخ ، ونُسى رفع ظلم أكثر من ألف وخمسمائة من كبار الملاكين عن كاهل الفلاحين(699) .. فإذا بنا نسمع انه بسبب السد العالى ، أعظم منجزات الثورة . بل أعظم منجزات القرن العشرين ، ازدادت ملوحة التربة ، وازداد النحر فى مجرى النيل ، وانخفضت نسبة الطمى التى تخصب الأرض المصرية ، وهجر السردين شواطئ دمياط ورشيد وبورسعيد(700) .

بل ، واكتشف أحد الباحثين مؤخرًا أن هناك علاقة وطيدة بين السد العالى وبين نقص «الشبة وغاز الكلور» المستخدمين فى تنقية وتطهير المياه قبل أن تصل إلى البيوت !

واكتشف صاحب « كازينو » على النيل فى القاهرة ، أن النيل فقد سحره القديم ، ولم تعد مياهه الحمراء أو السمراء ، المحملة بالطمى تندفع كسابق عهدها وتجرف أمامها كل شىء(701) .

ولم تتوقف « الاكتشافات » كان يبدأ الاكتشاف كتساؤل أو كإشاعة فى صحيفة أمريكية أو أوروبية ، أيا كان شأنها ، وسرعان ما تتلقفها « صالونات » القاهرة لتصبح كالحقيقة .. ولم يكن بعيدًا لو استمر معدل هذه « الاكتشافات » على نفس الوتيرة العالية ، أن نصل مستقبلياً إلى معرفة الصلة بين بناء السد العالى وبين نقص الصابون فى الأسواق، أو بين اختفاء الطمى وندرة الفراخ فى المجمعات .. وهى اكتشافات هامة تضع حدًا لاختناقات التموين !! .

وكان ما يحزن ويبعث على الألم فى هذه الحملة أنها تجئ من « عنصر » داخل الثورة ، عاش حياتها كلها ، من أول يوم إلى آخر ساعة عضوًا فى مجلس قيادة الثورة ، بل أكثر أعضاء مجلس قيادة الثورة « تطبيلاً وتزميرًا لها » ولجمال عبد الناصر هو أنور السادات ، مما يدعو إلى التساؤل : هل كانت الثورة مخترقة ؟! .. أم أنه وُهب قدراتٍ فائقة على القيام بدور يخالف قناعاته فأجاد القيام به ، وكان ممثلاً بارعًا ، سواء فيما كتب عن الثورة حول أسلوب الحكم الذى يجب اتباعه : الدكتاتورية أم الديموقراطية . ولم يُعرف عنه طيلة حكم جمال عبد الناصر أنه خالفه فى رأى أو موقف ، وكتب يقول إنه غاب عن مجلس قيادة الثورة طول المناقشات فكتب توكيلاً مطلقًا لجمال عبد الناصر ، وطلب منه أن يدعه فى جيبه يستخدمه متى أراد .

وجاء كلامه فى كتابه : « البحث عن الذات » ، قصة حياتى ، ليس مناقضًا لما يعرف عن جمال عبد الناصر ، وأحسسنا به من خطبه ومواقفه وكفاحه من أجل كرامة الشعب المصرى والعربى وحريته وكبريائه ، مناقضة تامة وحسب، وإنما أظهر جمال عبد الناصر شخصية مهزوزة، غير

متماسكة ، يحكم بدكتاتورية ، طاغية ، تحول الناس فى عهده إلى « مساخيط أو أصبحوا دمى .. »(702) .

ولست هنا بصدد البحث لإظهار التناقض الصارخ بين حياة أنور السادات فى ظل جمال عبد الناصر وحياته رئيسًا للجمهورية ، ولا حتى السعى لإظهار التناقض فى كلام السادات نفسه ، وإنما أرمى من هذا البحث إظهار دور السادات فى حملة الافتراء لتهديم ثورة 23 يوليو نفسها وتشويه صورة جمال عبد الناصر تمهيدًا لزحف الاستعمار .

وكان الاشمئزاز الأشد الذى تلقاه هذه الحملة الشرسة ضد ثورة 23 يوليو وضد جمال عبد الناصر التى وصلت فى مصر إلى أقصاها ، هو فى الاعتقاد الذى شاع ، على حد قول الكاتب الصحفى الألمعى أحمد بهاء الدين ، بأن السادات ، كان هو مخطط وموجه هذه الحملة . وأنهيسخر صفحات الإعلام المصرى لحرب الانتقام من الثورة ومن جمال عبد الناصر ، فـ « كان كلما اشتدت الحملة وبدأت تحدث رد فعل مضاد ، انتهز مناسبة فى إحدى خطبه ليعلن أنه أمين على اسم عبد الناصر وسمعته وعائلته(703) ولكن بطريقة لا يخفى على أحد أنها تمثيلية على طريقة خطبة أنطونيو المشهورة « ولكن بروتس رجل نبيل » وقد صارت عبارة « الله يرحمه » كلما ذكر جمال عبد الناصر ، نكتة شائعة ، إذ كان كل من يسمعها يفهمها على أنها تعنى العكس تمامًا .

وكانت إحدى قمم تلك الحملة المسعورة هى اتهام جمال عبد الناصر بأنه اختلس عشرة ملايين دولار ، كانت قرضًا من الملك سعود لمصر ، وقد نشر الكتاب الذى احتوى على هذا الاتهام فى الصحف على أوسع نطاق ، ومنع مقال أحمد بهاء الدين فى التعليق عليه من النشر(704) .

وأمر السادات بتشكيل لجنة لبحث هذا الاتهام السخيف ، الرخيص ، تحت ضغط الرأى العام، وحين تم التقرير ، الذى أكد براءة عبد الناصر .. كان السادات يلقى خطابًا فى البرلمان ، فأعلن أن التقرير يبرئ عبد الناصر ، وأنه يودع التقرير أمانة مجلس الشعب ، ولم يأمر بنشر التقرير على الناس ، المتلهفين ، فتلك كانت طريقته فى إبقاء الشبهة تحوم فى الفضاء(705) .

ويذكر الأستاذ أحمد بهاء الدين أنه قابل رئيس لجنة التحقيق ، بعد حكاية التقرير وإيداعه مجلس الشعب ، الدكتور على الجريتلى ، أحد عباقرة مصر ، فلما سأله قال له : « إننى لم أسمح لأحد فى اللجنة أن يشاركنى فى العمل ، وقد قمت بنفسى شخصيًا بمتابعة كل الموضوع حتى الذهاب بنفسى إلى مكتب أصغر موظف فى وزارة الخزانة والاقتصاد لفحص كل ملف بنفسى. وقد كانت هذه أول مهمة أقبلها من الدولة الرسمية منذ سنة 1957 . وقد قبلتها لأننى كنت واثقًا من النتيجة .. فقد كان عبد الناصر أكثر كبرياء من أن يقبل بأى فساد له »(706) .

واستطرد الدكتور الجريتلى يقول : « بعد موت عبد الناصر بسنة تقريبًا كنت فى مقابلة مع رئيس البنوك السويسرية ، وإذا به يقول لى إن المخابرات الأمريكية والمخابرات الإسرائيلية قد «هلكتنا» شهورًا طويلة ، وسألته لماذا ؟ فقال لى الرجل السويسرى : « لقد حاولوا بأى طريقة العثور على أى حساب باسم جمال عبد الناصر فلم يجدوا »(707) .

ويكتب الأستاذ أحمد بهاء الدين أنه عندما كان رئيسًا لتحرير مجلة العربى حدث حادث غريب كان شاهدًا عليه . إذ تقدم إلى السادات أحد كبار القوم الكويتيين وقال له على مسمع من الموجودين المحيطين يا سيادة الرئيس . نحن لا نقبل أن يقال فى مصر إن جمال عبد الناصر قد اختلس عشـــرة ملايين جنيه ، وأنا شخصيًا ويشـــهد كل الإخوان الواقفـين كنت ضـــد جمال عبد الناصر

، وكنت ضد حرب اليمن بالذات ، ولكن أن يقال إن جمال عبد الناصر الذى كانت خزائن مصر فى يديه وخزائن العرب إذا شاء ، قد اختلس عشرة ملايين دولار . فهذا عار على الأمة العربية كلها . التى كان جمال عبد الناصر ، شئنا أم أبينا ، رمزًا لها فى العالم كله . وإنى أطلب من سيادتك أن تقول لنا أى مبلغ ترون أنه فى ذمة جمال عبد الناصر للخزانة المصرية وسوف ندعو الشعب الكويتى للتبرع به وتسديده عنه ، وسيجمع الشعب الكويتى أى مبلغ فى أقل من 24 ساعة ... »(708) .

ولا بأس من إضافة شهادة من الأعداء . فقد كتب يوجين جوستين مدير المخابرات الأمريكية السابق يقول : « مشكلتنا الحقيقية مع جمال عبد الناصر أنه بلا رذيلة مما يجعله من الناحية العملية غير قابل للتجريح ، فلا نساء ولا خمر ولا مخدرات . كما لا يمكن شراؤه . أو تهويشه .. نحن نكرهه ككل ، ولكننا لا نستطيع أن نفعل تجاهه شيئًا ، إنه فعلاً بلا رذيلة .. وغير قابل للفساد ... »(709) .

ولقد حار الناس فى أمر السادات ، وعلى الرغم من انه كتب عنه وفيه الشيء الكثير . إلا أن ثمة نقاطًا مظلمة لازالت بحاجة إلى جلاء فى حياته . ولا يمكن القول بأن جمال عبد الناصر لم يكن يعرفه حقيقة المعرفة ، أو أن السادات كان يقوم بدور فى ثورة 23 يوليو . وإلى جانب جمال عبد الناصر بدون أن يعرفه . أولاها رأى جمال عبد الناصر فيه . فقد كان معروفًا أنه يهدد الروس به . كان نازيًا – فاشستيًا – فى مراحل حياته الأولى ، وساهم فى تشكيل الحرس الحديدى لخدمة الملك فاروق ، وسعى لاغتيال النحاس باشا ، ثم كان على علاقة بكمال أدهم ، رئيس مخابرات المملكة العربية السعودية . إلخ . وتبقى علامات استفهام كثيرة ، فباستثناء حسن التهامى لم يكن يحتفظ بعلاقات طيبة مع قيادات الضباط الأحرار . فقد تنادى أعضاء مجلس قيادة الثورة ووقعوا على عريضة تندد بزيارته لإسرائيل ، وبمعاهدة كامب ديفيد (مذكرات زكريا محيى الدين) .

والسادات فى كتابه « البحث عن الذات » لا يخفى أنه ضد جمال عبد الناصر ولا هزءه بالاشتراكية ، أى بالعدالة الاجتماعية . فهـــو يعطى الفصل الثامن من عنوان الثـــورة الثانية ، ولا يخرج محتواه عن معنى الثورة المضادة . ففى صفحة 288 يقول : « عندما تسلمتالحكم كانت التركة التى تركها لى عبد الناصر مبهمة بالنسبة لى أول الأمر ، ولكن أيا كان الوضع الذى كانت مصر فيه فقد قبلت التحدى لأصححه .. كنت أعرف أن القيم ضاعت ، ولكننى أستطيع أن أصحح هذا بقيمى ومبادئى .. وليس بضرب الناس .. »(710) .

ولعلهم كانوا يجهلون أيضًا أن أبشع ما واجهت هو جبل الحقد الذى بناه عبد الناصر على كل المستويات حتى على مستوى الأسرة الواحدة . حيث كان يمكن للابن أن يتجسس على أبيه أو أخيه كما كان يحدث فى الأنظمة الفاشستية ..

فعندما قامت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار قبل الثورة كانت ترتكز على أساس خلقى ومثالى .. وعندما أصبحت مجلس قيادة الثورة كان يحكمنا نفس الأساس ولكن بداية حكم الثورة كانت غير موفقة . فبدلاً من أن تبدأ بالثقة وتعطى الفرصة إلى أن يثبت العكس (كما أؤمن أنا وكما تعودت أن أمارس فى حياتى) بدأت بالشك فى كل إنسان إلى أن يثبت العكس وهو الثقة ، وهو نادرًا ما يثبت لأسباب كثيرة .. من أجل هذا أوغرت بالنفوس ضد الثورة .. ولذلك ففى الأربع سنوات الأولى ، وهى حكم مجلس قيادة الثورة كانت هناك أخطاء وانتهاكات فى حق الإنسان المصرى

ولكنها كانت فى دائرة ضيقة اتسعت فيما بعد .. ففى سنة 56 كان يجب على عبد الناصر أن يؤصل الانتصار بعد انتصاره فى معركة القناة بأن يعطى للشعب المصرى بعد معركة 1956 حريته كاملة ، ولكنه لم يفعل . فكانت النتيجة أن أصبح الإنسان المصرى سلبيًا مما جعل انتصارات عبد الناصر كلها انتصارات على السطح بالنسبة للشعب . لأنه يعرف فى أعماقه جيدًا أنه لم يشارك . بل ولم يؤخذ رأيه فى أمر ما .. وعندما كان الشعب يتململ من هذا كله كان تململه يفسر على أنه ثورة مضادة فتقع الحراسات والاعتقالات ، وكل هذا هو التطبيق الفعلى لامتهان كرامة الإنسان .

وقد لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب فى حق الإنسان المصرى كان زرع الخوف .. فبدلاً من أن نبنى الإنسان كان كل همنا أن نخيفه .. والخوف هو أخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب . فلقد كانت أرزاق الناس كلها ملكًا للحاكم. إن شاء منح وإن شاء منع ، وكان المنع مصحوبًا فى أغلب الأحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله ثم فصل جميع أهله من وظائفهم مع اتخاذ إجراءات ضدهم..

وهكذا تحول الناس إلى « مساخيط « أو أصبحوا دمى فى أيدى حكامهم يفعلون بهم ما يشاؤون(711) .

ومع ذلك علقت فى شارع قصر النيل بالقاهرة لوحة كبيرة عليها صورة مفرمة تشير إلى مصير من يخالف بالفرم .

فهل كانت أمريكا ، التى كلّت لسنوات طويلة عن تغيير نظام الحكم فى مصر ، تريد أكثر من هذا ؟ لإفساد أثر ثورة 23 يوليو ؟!

كان لابد أن يكون ها هنا محور « محاورات » و« مناقشات » شاهد على العصر التى أجريت بواسطة زوجته فى التلفزيون ، وكانت لازمة ردودها أن أنور السادات تمكن فى مفاوضاته من إرجاع سيناء ، فماذا تمكن العرب جميعًا ؟ بعد الانفصال بين مصر وبينهم .

* * *

وفى صدد استعراض الثورة المضادة فى أعقاب وفاة جمال عبد الناصر أو بمعنى آخر الردة على منجزات ثورة 23 يوليو للنيل من جمال عبد الناصر . لابد من وقفة عند موقف توفيق الحكيم ، أو بالأحرى عند كتابه « عودة الوعى » .

إن كلام توفيق الحكيم فى « عودة الوعى » هو من نوع « الحق الذى يراد به باطل » . فإن النقد حق لكل مواطن ، ويجب أن يوفى . لأن فى ممارسة النقد النزيه ، فى تنازع الآراء الصادقة نزوعًا إلى التقدم قد يفضى إلى الأفضل ، إلا أن توفيق الحكيم فى « عودة الوعى » لم يمارس النقد، وإنما استعرض سطحيًا ، المأخذ على الثورة ، دون الوقوف لتحليل المآخذ خطأ كانت أم صوابًا ، فتلقف أعداء الثورة الحاقدين ، الذين أضيروا ورفعوا كتابه قائلين : أرأيتم ، كانت الثورة ظلمًا وديكتاتورية ، هاكم أقوال ربيبها فيها . وأمر آخر ، حرص توفيق الحكيم أن يسرّ به بين أقواله فى عودة الوعى هو أن يذكر بأقواله السابقة ويحسر نفسه ، وكأنه يوهم ويوحى للقارئ أن الثورة لم تأت بشىء جديد . فهو قد قال بذلك منذ كذا وكذا ..

ولم يفته أن يقول إن تقدير جمال عبد الناصر له جاء من قراءة قصته : عودة الروح . وأن جمال عبد الناصر مثل فى حياته دور بطلها محسن . وكان يقول تمثيلاً فاشلاً ..

وقد برهن توفيق الحكيم ، فى ذلك كله ، على أنه « اللامنتمى » الأول ، لم يلتزم جانبًا .. فهو لا يعنيه « تأصيل » الحكم فى مصر وعودته إلى أبنائها .. وهو لا يعنيه من توزع الأرض على الفلاحين إعادة ما نهبه محمد على وأسرته إلى أصحاب البلاد ، وانتزاع ما نهبته الشركات الأجنبية .. وهو فى معرض تأميم القناة يستنكر التأميم طالما أن القناة ستعود إلى مصر بطبيعة الأمور بعد عشر سنوات بعد انتهاء مدة ملكيتها. وهو فى نقده للثورة ولحكم جمال عبد الناصر، يلتقط صورًا ، كما فى جميع أعماله الفنية ويبرزها ويبلورها . فنلاحظه فى « مذكرات نائب فىالأرياف » ، لن يلفت نظره فقر الفلاحين ولا علاقة المستأجر بصاحب الأرض ولا حالة عمال التراويح .. ولا حالة الفلاحين الذين لا يملكون شيئًا .. إلخ(712) .

كذلك فى جميع ما هوجم به وفى الردود عليه ، لم تُبحث أهم مآخذه على الثورة وعلى جمال عبد الناصر : الانتماء العربى وقضية فلسطين والحروب وصراع إسرائيل التى أدت فى النهاية إلى الهزيمة . كما لم يُناقش اتهام توفيق الحكيم للثورة بأنها جرت بتخطيط من أمريكا . الولايات المتحـــدة تقع فى مطب الانقلابات فى أمريكـــا اللاتينية ، وهى جميعها تدخل فـــى باب اتهامات الرجعية والإقطاعية والفئات الأجنبية المستـغلة فى مصر المعادية للثورة ولجمـــال عبد الناصر ، وتتلاءم مع مآخذ الولايات المتحدة والاستعمار على ثورة 23 يوليو وعلى جمال عبد الناصر .

فقد كتب توفيق الحكيم فى « عودة الوعى » متسائلاً : « كيف يسمح لسياسى أن يكشف ورقته للعالم » وهو يقصد جمال عبد الناصر بكلامه فى فلسفة الثورة . قال فيها : « وحدث أنى اطلعت بعد ذلك على مقال فى جريدة فرنسية بقلم أستاذ من أساتذة التاريخ والسياسة الفرنسيين حلل الكتاب تحليلاً علميًا ، وبين ما فيه من أحلام وتصورات تكاد توحى بالرغبة فى إنشاء ما يشبه الإمبراطورية الواسعة للدول العربية والإفريقية التى تنتظر الزعيم الذى يؤلفها . أو على حد الكتاب نفسه فى إشارته إلى مسرحية « بيرانديللو » الشهيرة « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » فهى يرمى إلى أن « وغيرها تبحث عن زعيم » . وأدهشنى بعد ذلك ما جاء فى بعض الصحف العالمية : إن كتاب فلسفة الثورة هذا تتولى توزيعه فى الخارج فى نفس الوقت : السفارة المصرية والسفارة الإسرائيلية .

وبالطبع كان غرض السفارة الأخيرة من ذلك إفهام العالم « أن زعيمًا من طراز هتلر قد ظهر فى العالم العربى »(713) .

لكن أستاذ توفيق الحكيم الفرنسى لم يقل له أهم ما يستنتجه قارئ لفلسفة الثورة . إن كاتب هذا الكلام ليس قائد انقلاب عسكرى تحركه دولة كما توهم، وأوهمته الدعايات المغرضة وإنما هو قائد ثورة قومية . فالأستاذ الفرنسى الذى قرأ له توفيق الحكيم « تحليله العلمى لفلسفة الثورة » ، لا تصل مداركه هذا المستوى من الفهم لأن انتماءه فرنسى ، أوروبى، وليس عربيًا . يحس كما أحس جمال عبد الناصر أن العرب أمة واحدة . قسّمها الاستعمار ، يجب أن تعود إلى وحدتها . فكل قارئ يحسن إدراك وفهم ما يعبّر عن نفسه ويتجاوب مع حاجته . القارئون من المشرق العربى لمسرحية بيراندللو « ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف » كثيرون منهم من فهمها كما فهمها جمال عبد الناصر ، كان منهم الأستاذ ميشيل عفلق ، الذى خرج منها بأنها تدعوه لدور تأليف حزب . وتوفيق الحكيم « الفنان » لم يعان ما كان يعانيه ميشيل عفلق « الفنان » وما كان يعانيه جمال عبد الناصر القائد الثائر ، كل يعانى بقدر إمكاناته .

توفيق الحكيم عانى فقدان الحرية ، كما عاشها، وظل يحن إليها فى عهود ما قبل الثورة وفى فرنسا ، ونسى أو لم يدرك أن الثورة قامت لترفع عن الشعب المصرى جور ومظالم الفئات التى تراكمت فوق كاهله من زمن المماليك ومحمد على حتى الآن . واهتبل زوال قائد الثورة ومجيئ ثورة مضادة فنشر ما كتبه من « عودة الوعى » . ولم يدرك نوعية اللذين كانوا يقنّون له إلى كتابة ذلك من جلسائه فى «جروبى » سليمان باشا فى القاهرة وفى مقاهى اصطيافه . وبقدر ما كان سعيدًا بالتهليل الذى تلقاه كتابه فى الأوساط المعادية للثورة وللقومية العربية وأوساط الانعزاليين فى مصر ، كان سعيدًا أكثر بما در عليه هذا الكتاب من مال ، وكان عشرين ألف جنيه، ولم يكن غرض السفارة الإسرائيلية من توزيع كتاب فلسفة الثورة إفهام العالم أن زعيمًا من طراز هتلر قد ظهر فى العالم العربى ، فمن دون معرفة كتاب جمال عبد الناصر ومجرد استعمال جمال عبد الناصر لحقه فى تأميم القناة صرخ إيدن رئيس وزراء بريطانيا : أنه هتلر الجديد . فردد زبانيته الصدى فى البلاد العربية .

لم يكن هذا كل ما كان يجب أن يتناقش فيه توفيق الحكيم ، كان يطالب بفتح الملف . فلماذا لم يفتح أملاً فى أن فتح الملف يستر عورته . يأخذ توفيق الحكيم على جمال عبد الناصر أن موقفه من الأحداث السياسية كان دوامًا « الانفعال ورد الفعل »، يكتب : « ومن يدرس بعنـــاية الأحداث السياســية والعسكرية والاجتماعية التى وقعت فى مصر على مـــدى حكـم عبد الناصر يجد أن المحرك الخفى الحقيقى لها كان هو « الانفعال ورد الفعل » وليس التفكير الهادئ ، الرصين، الرزين ، المبنى على بعد النظر ، فعبد الناصر ظهر فيما بعد من النتائج التى تجنى أخطاءها حتى اليوم أنه لم يكن رجلاً سياسيًا ولم تكن له قط طبيعة رجل السياسة التى يملكها رجال اتصل بهم وعرفهم مثل نهرو وتيتو ، ومن المعروف أن نهرو قال لعبد الناصر فى عبارة رقيقة موحية أنه يحتاج إلى قليل من الشـعر الأبيض . وهو يقصد بلا شـــك قليلاً من الرزانة والحكمة(714) .. » ، ص 40 ، ويضرب على انفعاله هذا مثلاً هو انفعال جمال عبد الناصر من أجله هو عندما هاجمه يومًا بعض أدباء الشباب هجومًا مركزًا بغرض تحطيم الأصنام . وكانت المقالات تظهر كل صباح مليئة بالاتهامات للإطاحة والنزول به من مكانه . لم آخذ أنا الأمر على محمل الجد ولم ألق بالاً إلى ذلك ، ولزمت الهدوء والصمت. وإذا بـ (عبد الناصر) هو الذى انفعل . وإذا هو فى قوة انفعاله ودفعة رد الفعل . يصدر قرارًا بمنحى أكبر وسام فى الدولة. وقد راجعه أكبر بتشريفاته ، بأن هذا الوسام لا يمنح إلا لرؤســـاء الدول وأولياء العهد . وإنى موظف فى درجـــة وكيل وزارة لا يحق له حمل مثل هذا الوسام ، فلم يأبه بكلامه(715) » .

واضح من هذا الكلام أن جمال عبد الناصر – وأرجو أن لا أكون مخطئًا – لا يمنح الوسام لتوفيق الحكيم الموظف . وإنما يمنحه لإنتاج توفيق الحكيم ورفعًا لمعنوياته ، ولكى لا تثبط تلك الاتهامات من عزيمته ، وربما أملاً فى أن يكتب الجزء الثانى من قصته « عودة الروح » . إلا أن توفيق الحكيم « اللامنتمى » بقى مصرًا على لا انتمـــائه . وقوله الآن بأنه « لم يلق بالاً إلى تلك الاتهامات ولزم الهدوء والصمت » . يخالف كلامه هذا رجاء النقاش ، ويعتبر موقف عبد الناصر هذا الذى يراه توفيق الحكيم انفعاليًا ، موقفًا رائعًا ، إذ أنه يذكر أن توفيق الحكيم « تأثر بهذه الحملة تأثيرًا بالغًا » ثم يقول رجاء النقاش : « وأذكر أننى رأيت توفيق الحكيم يومها يمشـــى على شارع الكورنيش وفى يده عصاه المعروفة .. وتأملته جيدًا ، وكان وجهه طافحًا بالحزن .. وكانت مشيته متعثرة تكشف عما فى أعماقه من أســـى كبير « ثم عن القرار » وكان هذا القرار تكريمًا

حقيقيًا لتوفيق الحكيم . لأنه جاءه فى وقت محنته فانتشله من هذه المحنة القاسية ، وكان هذا القرار أيضًا نوعًا من التنبيه العظيم للضمير الأدبى فى بلادنا حتى يعتدل ميزانه وتصبح مقاييسه أكثر سلامة ودقه »(716) . وهكذا رأى توفيق الحكيم نقيضه فيما رآه الناس مكرمة لجمال عبد الناصر .

ولم يذكر لنا توفيق الحكيم رأيه فى موقف جمال عبد الناصر من الأدباء والفنانين . أهو من الانفعال أيضًا وردود الفعل أم من التقدير ؟!! ففى حدود علمى لا أعرف رئيسًا أو حاكم دولة سن قانون التفرغ للأدباء والجوائز التقديرية قبل جمال عبد الناصر . ومثل ذلك « الفعل وردود الفعل » الذى ضربه مثلاً توفيق الحكيم ما كتبه رجاء النقاش عن موقف جمال عبد الناصر من الدكتور يوسف إدريس . وتفصيل ذلك كما كتبه رجاء النقاش أن « منظمة حرية الثقافة الخاضعة للتوجيه الأمريكى ، أصدرت مجلة عربية فى بيروت ، تهدف إلى تشويه الثقافات الوطنية فى المجتمعات النامية ، وتحارب الفكر التقدمى اسمها حوار ، كانت تستمد تمويلها من مصدرين أساسيين : المخابرات المركزية الأمريكية ، وأصحاب الملايين الأمريكيين ، من أمثال روكفلر وفورد وغيرهما ، والقصد هو الانحراف بالثقافة العربية لخدمة الأهداف الاستعمارية الغربية ، وبذر بذور الأخطار التى تساعد على تدعيم النفوذ الغربى فى بلادنا . ولم تكن حوار ، رغم اتجاهها المنحرف مجلة تافهة ولا سطحية . بل كانت ممتازة ، ذكية ، لامعة ، وكان من بين الأفكار التى تبنتها هذه المجلة فكرة إنشاء جائزة عربية سنوية يبلغ قدرها حوالى ألفين من الجنيهات المصرية . واختارت « حوار » الدكتور يوسف إدريس كأول فائز بهذه الجائزة . وكان الهدف من اختيار يوسف إدريس بالذات هو أن تستند المجلة إلى اسم أدبى له قيمته ومكانته فى أوساط المثقفين العرب ، وأن يكون الفائز من ناحية أخرى أديبًا معروفًا باتجاهه الوطنى التقدمى حتى يسهم بسمعته تلك فى تبديد الغيوم المحيط بسمعة مجلة « حوار »(717) .

ورفض يوسف إدريس جائزة حوار بعد أن درس موقفها وعرف الهدف من هذه الجائزة . وعلم جمال عبد الناصر بالقصة الكاملة لمجلة حوار ولجائزتها ولموقف يوسف إدريس من المجلة والجائزة فأمر بصرف قيمة الجائزة كاملة . كما قرر منح يوسف إدريس مع قيمة الجائزة وسام الآداب والفنون »(718) . وكان يوسف إدريس ماركسيًا ، وجمال عبر الناصر فى معركة مع الماركسيين . فهل كان موقف جمال عبد الناصر هذا بدافع الانفعال وردور الفعل كذلك . أم أنه كان موقف قائد وزعيم يتميز بنظرة رحبة واعية إلى دور الأدباء والفنانين والمفكرين فى بناء المجتمع العربى ؟ كنا نتمنى نحن الذين نعجب بأدب توفيق الحكيم أن لا يهبط إلى مستوى الاستعمار وإسرائيل فى نقده لهذه الثورة العربية وقيادتها . فإذا به يصنف فى نقده إلى جانب العملاء أمثال الأخوين مصطفى وعلى أمين .

ولا شك أن عمالة الأخوين مصطفى وعلى أمين ، تستحق أن يضرب بها المثل فى الخيانة ، تكرر على الدوام لتحفظها الأجيال . فمصطفى وعلى أمين الأخوان هما ولدا يوسف أمين ، صهر سعد زغلول – تربيا فى كنفه . وشبا فى جو ومناخ 1919 والمفروض بما وهباه من ذكاء وشفافة أن يظلا وفيين لثورة 1919 ولكن أباهما انقلب على الثورة فى حياة صهره ، سعد زغلول نفسه إذ دسه النفوذ البريطانى والقصر وزيرًا فى وزارة سعد الأخيرة لينقل لهما أخبار الوزارة ، وبقى الأخوان وفيين لسيرة أبيهما . وفى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وكانا قد برعا فى الصحافة أشيع عن صدور صحيفة يومية هى « أخبار اليوم » يرأسها ويديرها الأخوان مصطفى وعلى أمين

بتمويل منن الولايات المتحدة الأمريكية ، التى كان رصيدها مازال عظيمًا فى نفوس العرب ، ولم يتكشف بعد دورها فى قضاياهم الصميمية . ولعل هذا إلى جانب علاقة الصحيفة بالقصر كان سببًا فى اعتقال الأخوين فى بداية ثورة 23 يوليو ، أو لعله كان اعتقالاً احتياطيًا . إلا أنه كانت لهما علاقات واسعة بالسلطة فى مصر « كما كانت لمصطفى أمين علاقات تحوطها تساؤلات بغيرها » على حد تعبير هيكل .

وعندما أفرج عنهما حاولا إثبات إخلاصهما للنظام الجديد . سواء فى صحف دار أخبار اليوم « أو بالتقارير الضافية والمفصلة التى راح يقدمها مصطفى أمين للمتنفذين فى السلطة الحاكمة الجديدة » . ولكن لا تقرأ فى كل ما كتب فى أخبار اليوم وصحفها – بحثًا واحدًا يعلل قيام الثورة ويربطها بتاريخ مصر والعرب تركز تأييدها بشخصية جمال عبد الناصر . إلا أن أخبار اليوم واظبت ، كما قال لى الكاتب الصحفى نزيه الحكيم على حفظ سجل فى أرشيفها لكل ضابط من ضباط الثورة ، تحوطًا للمستقبل .

ولم يعد سرًا أن الولايات المتحدة الأمريكية راحت تسعى وترتب ضمن ما تسعى إليه وتهتم به كسب البلدان التى كانت واقعة تحت نير الاستعمار التقليدى . بل أعطت كسبها الأولوية .
وبمقتضى ذلك قامت المخابرات الأمريكية بعمليات واسعة فى عالم النشر بهدف إصدار صحف فى ألمانيا تتولى غسيل مخ الشعب الألمانى، وفى اليابان تتولى غسيل مخ الشعب اليابانى، وفور انتهاء الحرب العالمية الثانية ظهرت فجأة فى طهران دار صحفية كبرى كان أبرز ملامحها دعوتها المستمرة لمجموعة قيم جديدة وطريقة جديدة فى الحياة، وهى دار كيهان المشهورة . ولم تترك الوثاق التى وجدت فى مبنى السفارة الأمريكية فى طهران حين احتلها طلبة الثورة الإسلامية فى إيران مجالاً لأحد أن يشك فى الملابسات التى اكتنفت تأسيس الدار وظهور صحفها(719) .

ويستدل مما كتبه محمد حسنين هيكل عن لجنة تشرش ، وهى اللجنة التى شكلها الكونغرس الأمريكية لدراسة نشاط المخابرات وتقديم تقرير عنها ، إن علاقة مصطفى أمين ترجع إلى ذلك الوقت بالمخابرات الأمريكية . وفى رسالة مصطفى ، التى أرسلها مصطفى أمين إلى جمال عبد الناصر ، ويطلق عليها هيكل اسم الرسالة الوثيقة يعترف مصطفى أمين بمقابلة كيرميت روزفلت وآرشى روزفلت فى أواخر 1944 أى فى نفس الوقت الذى كانت فيه المخابرات الأمريكية ، جاهدة ، فى قيام عمليات واسعة فى العالم لتأسيس دور نشر لصالحها . مضيفًا إلى ذلك ذكر نمط من مراسلى أخبار اليوم فى الخارج يؤكد هذا الاستدلال ولا ينفيه . ففى نيويورك جوزيف ليفى ، أبرز دعاة الوكالة اليهودية المقدمة الأولى لحكومة إسرائيل ، وفى لندن « جون كيمشى » ابن عم « دافيد كيمشى » وكيل وزارة الخارجية الإسرائيلية(720) .

* * *

الهوامش

(1) إدوار جوان : مصر فى القرن التاسع عشر ، طبعة أولى بالقاهرة ، ترجمة محمد مسعود ، 1921 .

(2) د. جلال يحيى : مصر الحديثة ، منشأة المعارف بالإسكندرية ص395- 396 ؛ د. محمود الشرقاوى .

(3) الجبرتى : عجائب الآثار ، ج3 ، ص88 .

(4) د. عبد العزيز محمد الشناوى : عمر مكرم ، سلسلة أعلام العرب ، القاهرة رقم 67 ، ص 19 .

(5) د. عبد العزيز محمد الشناوى : عمر مكرم ، سلسلة أعلام العرب ، ص115 كذلك انظر George Douin document N. 37 P. 45.

(6) د. عبد العزيز محمد الشناوى : المصدر السابق ، ص 38 .

(7) د. محمد ضياء الدين الريّس : تاريخ الشرق العربى والخلافة العثمانية ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة 1950 ج1 ، ص 156 ؛ كذلك : صبحى وحيدة : المسألة المصرية ص135 ؛ د. عبد العزيز محمد الشناوى ص102.

(8) George Douin, document N. 26 P. 36- 27.

(9) د. عبد العزيز محمد الشناوى : المصدر السابق ، ص 104 - 106 .

(10) الجبرتى : عجائب الآثار ، ج3 ، ص237 .

(11) د. محمد ضياء الدين الريس : المصدر السابق ص 159 ؛ شفيق غربال : محمد على الكبير ، سلسلة أعلام الإسلام ، دار إحياء الكتب العربية 1944 ص 33- 34 ؛ إدوار جوان : نفس المصدر السابق ص309- 326؛ د. أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : تاريخ مصر الحديث ، دار مصر للطباعة 1954 ، ص 50 .

(12) الجبرتى : عجائب الآثار (الطبعة الأميركية) ج4 ، ص32 .

(13) شفيق غربال : المصدر السابق ، ص 35 .

(14) د. لويس عوض : المؤثرات الأحنبية فى الأدب العربى الحديث (الفكر الاجتماعى والسياسى 1966 ، ص.ص 76 - 82 .

(15) صبحى وحيدة : المسألة المصرية ، ص 132 .

(16) د. أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ، مطبعة هيكل الغريب ببيروت ؛ د. نجلاء عز الدين : العالم العربى، دار إحياء الكتب العربية ، مؤسسة فرنكلين ، ترجمة محمد عوض إبراهيم 1962 ، ص 100 .

(17) الجبرتى : عجائب الآثار ج2 ، ص35 - 36 ؛ أحمد فريد مصطفى ، رسالة لنيل الدكتوراه ، جامعة القاهرة ، توسع مصر فى بلاد الشام ، ص 3 .

(18) مذكورًا فى ساطع الحصرى ، فى آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع ، دار العلم للملايين ، بيروت ط2 ، 1960 نقلاً عن Francois eharles- Roux. Bonaparte gouverneur d'Egypte P.P 53,210 .

(19) الجبرتى : عجائب الآثار ، ج3 ، ص 331 .

(20) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية طبعة 1929 ج2 ص 372 ؛ صبحى وحيدة ص 833 ؛ أنيس صايغ ص 36 .

(21) الأحكام السلطانية والولاية الدينية : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب المصرى البغدادى ، المكتبة التجارية الكبرى فى القاهرة ص 4 ، وص 15 .

(22) د. ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية فى مصر (من 1805 - 1936) مؤسسة الدراسات والنشر 1972، ص 67 - 68 .

(23) د. عبد العزيز محمد الشناوى ، المصدر السابق ، 109 - 110 .

(24) الجبرتى : عجائب الآثار ج2 ، ص 35 - 36 .

(25) الجبرتى : عجائب الآثار (طبعة البيان العربى) ج6 ، ص 225 .

(26) الجبرتى : عجائب الآثار ج1 حوادث 23 محرم 1223 ص 46 - 47 .

(27) الجبرتى : عجائب الآثار ج4 حوادث 22 محرم 1222 .

(28) Dr. M. Sabry: l'Empire Egyptien sous Mohamed Ali et la Quwstion d' orient 1811- 1849. Paris 1930 P. 28.

(29) Georges Douin et Mme Fautier Jones : l' Angleterre et l' Egypte, la compagne de 1807, le caire 1928, Doc. N. 51 P.P 40- 43.

(30) Georges Douin et Mme Fautier Jones : l' Angleterre et l' Egypte, la compagne de 1807, le caire 1928, Doc. N. 51 P.P 40- 43.

(31) الجبرتى عجائب الآثار ج4 ، ص54 ؛ د. محمد أنس ود. السيد رجب حراز : ثورة 23 يوليو 1952 وأصولها التاريخية ، دار النهضة العربية 1967 ، ص 56 .

(32) الجبرتى : عجائب الآثار ج4 ص4 ؛ د. محمد أنس ود. السيد رجب حراز : ثورة 23 يوليو 1952 وأصولها التاريخية ، دار النهضة العربية 1967 ، ص 56 .

(33) الجبرتى : عجائب الآثار ج4 ص55 ؛ د. محمد أنس ود. السيد رجب حراز : ثورة 23 يوليو 1952 وأصولها التاريخية ، دار النهضة العربية 1967 ، ص 57 .

(34) د. عبد العزيز محمد الشناوى ، عمر مكرم ، بطل المقاومة الشعبية ، سلسلة أعلام العرب ، رقم 67 ص38.

(35) إقامة الحياة الديمقراطية السليمة ، كتب قومية ، القاهرة ، ص 7 .

(36) د. عبد العزيز محمـــد الشناوى ، عمر مكرم ، بطل المقاومة الشـــعبية ، سلسلة أعلام العرب ، رقم 67 ، ص223- 224 ؛ وفى هذه الفترة روى عنه فيليكس منجن فى كتابه مجمل تاريخ مصر فى حكم محمد على بقــوله : Mestroupes sont assez Iraves et assez nombreuses pour que je sois sur de la victoire, il suffit que le peuple paye les impots, P. 278.

(37) د. محمد أنس ود. السيد رجب حراز : ثورة 23 يوليو ، مصدر سابق ص 62 - 63 ، ود. عبد الله عنان ، تاريخ الأزهر ، ص. ص 236 - 238 .

(38) د. عبد العزيز محمد الشناوى ، عمــر مكرم ، بطل المقاومة الشعبية ، سلسلة أعلام العـــرب ، رقم 67 ، ص225.

(39) د. محمد أنس ود. السيد رجب حراز : ثورة 23 يوليو ، مصدر سابق ص 63 ؛ كذلك : Paton A.A.A History of theEgyption Revolution, London, 1970 2vol P. 27, Cite in :

د. عبد العزيز محمد الشناوى ، نفس المصدر السابق ، ص 225 .

(40) الجبرتى : عجائب الآثار ؛ ج4 ص 96 - 97 ؛ كذلك راجع : Mengin, Felise: Histoire sommaire de l' Egypte sous le gouvernement de Mohamed Ali T I P. 334.

(41) صبحى وحيدة : المسألة المصرية ، مصدر سابق ، ص 132 .

(42) د. حسين مؤنس : الشرق الإسلامى الحديث ، مطبعة الحجازى بالقاهرة ط2 لعام 1938 ، ص 58 .

(43) مذكورًا فى شفيق غربال : المصدر السابق ، ص 15 .

(44) محمود الشرقاوى : الجبرتى وكفاح الشعب : كتاب الهلال ، أغسطس 1966 ، ص 145 .

(45) د. توفيق برو : القومية العربية فى القرن التاسع عشر ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى بدمشق ص4-5 .

(46) د. محمد أنيس ود. رجب حراز : ثورة 23 يوليو ، مصدر سابق ، ص 6 .

(47) محمد عبده فى محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، المنار ، انظر المقالة بكاملها فى ج2 ، ص 282 - 286 .

(48) الجبرتى : عجائب الآثار ، ج3 ، ص 53 - 54 .

(49) د. محمد ضياء الدين الريس : نفس المصدر ، ص 157 .

(50) د. عبد العزيز محمد الشناوى ، نفس المصدر ، نقلاً عن الجبرتى ، ص 240 .

(51) د. عبد العزيز محمد الشناوى ، نفس المصدر ، نقلاً عن الجبرتى ، ص 240 .

(52) د. محمد أنس ود. السيد رجب حراز ، نفس المصدر السابق .

(53) الجبرتى : عجائب الآثار ، ج4 ، حوادث شهر شعبان 1222 .

(54) الجبرتى : عجائب الآثار ، ج3 ، ص 99 .

(55) الجبرتى : عجائب الآثار ، ج3 ، ص 93 .

(56) د. محمد أنس ود. السيد رجب حراز ، نفس المصدر السابق ، ص 60 - 61 .

(57) الجبرتى : عجائب الآثار : ج3 ، ص 348 - 349 .

(58) د. محمد أنس ود. السيد رجب حراز ، نفس المصدر السابق ، ص. ص 62 - 63 .

(59) ألبرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ، ترجمة كريم عسقول ، دار النهضة ، ط2 ، ص 73 .

(60) د. محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة 1939 ، ص 118 .

(61) د. رؤوف عباس حامد : النظام الاجتماعى فى ظل الملكيات الكبيرة ، ص 6 .

(62) أ. ن كلوت بك : لمحة عامة إلى تاريخ مصر : ترجمة محمد مسعود ، دار الموقف العربى فى مصر - القاهرة ، ج3 ، ص 196 .

(63) المصدر السابق : ص. ص 19 - 192 .

(64) أ. ن كلوت بك : نفس المصدر السابق ونفس الصفحات .

(65) د. محمد غمارة : اليقظة الإسلامية الحديثة ، كتاب الهلال عدد 38 ، ص 10 .

(66) خطط المقريزى ، طبعة دار التحرير بالقاهرة ، ج1 ، ص 157 .

(67) د. رؤوف عباس حامد : المصدر السابق ، ص 14 .

(68) محفوظات الروزمانة ، بدار المحفوظات العمومية ، يعقوب أرتين ص 44 - 46 ، جلاد : قاموس الإدارة والقضاء ص 181 ، تقرير بطرس غالى ، مذكورًا فى أحمد الحتة ، تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على، دار المعارف بمصر .

(69) د. لطيفة محمد سالم : القـوى الاجتماعية فى الثورة العـرابية ، الهيئة المصـرية العـامة للكتاب 1981 ، ص 16 .

(70) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج4 ، ص217-218 ، حوادث ربيع الأول لسنة 1229 .

(71) د. على بركات : تطورت الملكية الزراعية فى مصر 1813- 1914 وأثره فى الحركة السياسية ، دار الثقافة الحديثة فى القاهرة ، ص 40 .

(72) هيلين ريفلين : الاقتصاد والتجارة فى مصـر فى مستهل القرن التاسع عشـر ، مترجم القـاهرة 1967 ، ص.ص159 - 162 .

(73) أ. ن. كلوت بك : المصدر السابق ، ج3 ، ص 94 .

(74) عبد الرحمن الجبرتى : المصدر السابق ، ص 251 - 252 .

(75) أ. ن كلوت بك : المصدر السابق ، ج3 ، ص 302 .

(76) يوسف نحاس : الفلاح ، القاهرة 1926 ، ص 24 ، كروشلى : التطور الاقتصادى فى مصر الحديثة ، مترجم، بريستل 1938 ، ص5 ؛ د. على بركات المصدر السابق ، ص 41 بخاصة الحاشية .

(77) هيلين ريفلين : المصدر السابق ، ص 350 - 351 ، كروشلى ، المصدر السابق ، ص 52 .

(78) د. على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر ، دار المعارف فى مصر ، ص 66 .

(79) د. على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر ، دار المعارف فى مصر ، ص 66 .

(80) الجبرتى : المصدر السابق ، ج4 ، أخبار سنة 1224 .

(81) د. على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر ، دار المعارف فى مصر ، ص 67 ، انظر الحاشية .

(82) الجبرتى : المصدر السابق ، ج4 ، أخبار سنة 1232 .

(83) الجبرتى : المصدر السابق ، ج4 ، أخبار سنة 1232 .

(84) د. على الجريتلى ، المصدر السابق فيما ينقله عن دى بوا لكمث ؛ Mengin Histoire de l' Egypte sous Mohamed Ali P. 375- 377.

(85) أ. ن كلوت بك ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 175 .

(86) د. جلال يحيى : أصول ثورة 23 يوليو ، مطابع الشعب ، ط2 ، ص 329 .

(87) Angles Sammareo: les règnes de Abbas, de Saïd et d'Ismail (1848-1879): cité par Anwar Abdel Malek: Idéalogie et renaissane national P. 36.

(88) أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث ، مطبعة مصر ، 1925 ، ص 68 .

(89) د. حسين خلاف : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 1962 ، ص168؛ حسين فوزى النجار : السياسة الاستراتيجية فى الشرق الأوسط، ج1 ، ط1 ، مكتبة النهضة العربية ، ص69؛ د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1965 ، ص 36 .

(90) د. صلاح العقاد : مصدر سابق ؛ د. أحمد حافظ عوض ، المصدر السابق ، ص31 - 32 .

(91) د. جلال يحيى : مصر الحديثة ، مصدر ذكر سابقًا ، ص 327 - 328 .

(92) أحمد حافظ عوض : المصدر السابق ، ص 32 .

(93) أحمد حافظ عوض : المصدر السابق ، ص 68 .

(94) أحمد حافظ عوض : المصدر السابق ، ص.ص 69 - 80 .

(95) محمد رفعت : التوجيه السياسى للفكرة العربية ، دار المعارف بمصر 1961 ، ط1 ، ينقل عن سجلات الخارجية بلندن : خطاب بتاريخ 7 ديسمبر (كانون الأول) 1817 .

(96) أحمد فريد مصطفى : توسع مصر فى بلاد الشام فى عهد محمد على ، أطروحة ماجستير فى جامعة القاهــرة ، ص4-5.

(97) أحمد فريد مصطفى : توسع مصر فى بلاد الشام فى عهد محمد على ، أطروحة ماجستير فى جامعة القاهرة ص5.

(98) د. صلاح العقاد : نفس المصدر السابق ، ص 38 .

(99) د. جلال يحيى : أصول ثورة 23 يوليو 1952 ، دار مطابع الشعب ، ط2 ، ص8 ؛ أحمد حافظ عوض ، المصدر السابق ، ص32 .

(100) محمد فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة مصر محمد على ، دار الفكر العربى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة 1948 ، تقرير يورنغ ، ص 520 .

(101) محمد فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة مصر محمد على ، دار الفكر العربى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، 1948 ، تقرير يورنغ ، ص 799- 800 .

(102) محمد فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة مصر محمد على ، دار الفكر العربى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة 1948 ، تقرير يورنغ ، ص 800 .

(103) د. حسين خلاف : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، دار إحياء الكتب العربية ط1، 1963 ، ص 266.

(104) د. على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين .

(105) محمد فؤاد شكرى وآخرون ، مصدر سابق ، ص 800 .

(106) د. صلاح العقاد : المصدر السابق ، ص 135 .

(107) د. حسين خلاف : المصدر السابق ، ص 268 .

(108) صبحى وحيدة وحيدة : المسألة المصرية ، ص 98 - 99 .

(109) محمد فؤاد شكرى وآخرون : المصدر السابق ، تقرير دى هاميل ، ص 305 .

(110) محمد فؤاد شكرى وآخرون : المصدر السابق ، ص 246 ، تقرير هودجسون .

(111) دافيدس - لاندز : بنوك وباشاوات ، ترجمة د. عبد العظيم أنيس ، دار المعارف بمصر ، 1966 ، ص80 .

(112) د. محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة .. بلا تاريخ طبعه ، ص 158 .

(113) Anwar Abdel Malek, Idéologie et Renaissance Nolional, Ed. Anthropos Paris 1966, P. 37.

(114) د. أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ، مطبعة هيكل العريب ، بيروت 1966 ، ص 38 .

(115) بيير كريبس : إبراهيم باشا، ترجمة محمد بدران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1937، ص 144.

(116) بيير كريبس : إبراهيم باشا، ترجمة محمد بدران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1937، ص144.

(117) Drioult: Mohamed Ali et Napoleon P.37.

(118) Drioult: Mohamed Ali et Napoleon P. 37.

(119) بيير كريبس : إبراهيم باشا ، ترجمة محمد بدران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1937 ، ص144.

(120) عودة بطرس عودة : القضية الفلسطينية فى الواقع العربى - القاهرة 1970 ، ص 22 .

(121) إيلى ليفى أبو عسل : يقظة العالم اليهودى . ص 101 ، جنسين : مؤامرة فلسطينية ، كتب سياسية رقم 116 ، ص 59 ، جفرسون : حقيقة فلسطين ، لندن ص34 ، إحذروا الصهيونية : يورى إيفانوف ، ص 32.

(122) Nothan Weinstak: Le mouvement du revolution,arabe, Maspero, Paris 1970 P.25.

(123) أحمد فريد مصطفى : توسع مصر فى بلاد الشام فى عصر محمد على 1831 - 1848 بحث لنيل الماجستير - كلية آداب القاهرة .

(124) محمد حسنين هيكل : المفاوضات السرية بين العرب واليهود ، الكتاب الأول 1996 - دار الشروق ، القاهرة، ص 37 .

(125) تعبير روسى معناه تدمير منظم لطبقة أو جماعة ، أطلقت على مذابح اليهود .

(126) عودة بطرس عودة : المصدر السابق ، ص 24 - 25 .

(127) هنرى كوستون : إمبراطورية المال ، ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين ، منشورات المكتب التجارى 1959، ص 36 .

(128) محمد حسنين هيكل : المصدر السابق ، ص 47 - 48 .

(129) عودة بطرس عودة : المصدر السابق ، ص 42 .

(130) الأهرام فى عددها 17/5/1968 .

(131) جيمس باركس : ظهور المشكلة اليهودية ، مذكورًا فى عودة بطرس عودة : المصدر السابق ، ص 44 .

(132) محمود كامل : الدولة العربية الكبرى ، دار المعارف بمصر 1958 ، ص 259 .

(133) Nathan Weinstock: le sionisme contre Israel, cahirs libres, 146, 147, 148 Francois Maspero. ملخصًا فى مجلة الحوادث اللبنانية فى عددها رقم 732 الصادر فى عددها 20/11/1970 .

(134) كان أحد هؤلاء الرواد المستكشفين يقوم « بإحراق مدن وموانئ العرب على طول ساحل أفريقيا من موزنبيق حتى ساحل البنادر وخليج عدن ، ويحرق ويغرق سفن العرب فى كل مكان ، ويمنع تجارة الشرق الأقصى من الوصول إلى الشرق الأدنى وإلى مصر والشام .. » وكان يقول لرجاله ويؤكد أنهم بطرد العرب من الهند وبإطفاء .

(135) محمد حسنين هيكل : المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ، الكتاب الأول ، ذكر سابقًا ، ص 61- 62 ، د. ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية فى مصر . ذكر سابقًا ، ص 164 .

(136) فرانك أ. مانويل : بين أمريكا وفلسطين : ترجمة يوسف حنا ، دار الثقافة والفنون ، وزارة الثقافة والإعلام الأردنية 1967 ، ص 36 .

(137) د. ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية فى مصر ، ذكر سابقًا ، ص 165 .

(138) محمود الحفيف : أحمد عرابى المفترى عليه ، مطبعة الرسالة ، ط1 ، 1947 .

(139) د. أنيس صايغ : مذكور سابقًا ، ص 786 .

(140) محمد حسنين هيكل : المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ، الكتاب الأول ، ذكر سابقًا ، ص62-63.

(141) محمد حسنين هيكل : المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ، الكتاب الأول ، ذكر سابقًا ، انظر أسماءها ومساحة كل منها فى ص 63 .

(142) د. ذوقان قرقوط : المشرق العربى فى مواجهة الاستعمار ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة 1972 ، الكتاب يتضمن الاتفاقيتين .

(143) شفيق رشيدات : فلسطين ، تاريخ وعبرة ومصير ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشــر 1968 ج2 ، ص37-45 .

(144) يوميات هرتزل ، سلسلة كتب فلسطينية رقم 10 إعداد د. أنيس صـــايغ ، ترجمة هيلدا شعبان صـــايغ ، ص65-66.

(145) الأهرام فى عددها الصادر فى 31/10/1969 .

(146) هرتزل : يوميات . مصدر ذكر سابقًا ص 62 - 63 .

(147) أحمد محمد غنيم وأحمد أبو كف : اليهود والحركة الصهيونية فى مصر 1897 - 1947 ، كتاب الهلال يونيو 1969 عدد 219 ، ص 16 .

(148) أسعد داغر : مذكراتى على هامش القضية العربية - القاهرة - بلا تاريخ ولا ذكر لدار النشر ، ص40 .

(149) أسعد داغر : مذكــراتى على هامش القضية العربية - القاهــرة - بلا تاريخ ولا ذكــر لدار النشــر ، ص62-3 6.

(150) د. حسين مؤنس : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، مطبعة حجازى ، القاهرة ط2 لعام 1928، ص125.

(151) د. عبد العزيز محمد الشناوى : عمر مكرم ، سلسلة أعلام العرب رقم 67 ؛ Felix Mengin: Histoire sommaire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed Ali 2 volumes Paris P.1823.

(152) د. عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ، دار الكاتب العربى بالقاهرة 1968 ص.ص 468-471.

(153) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج ، مكتبة الأنجلو المصرية 1965 ، ص 169 .

(154) محمد رفعت : المصدر السابق ، ص 44 من بالمرستون إلى سفيره فى القسطنطينية .

(155) محمد رفعت : المصدر السابق ، ص 44 من بالمرستون إلى سفيره فى القسطنطينية .

(156) محمد كرد على : خطط الشام ج3 ، مطبعة الترقى ص 60 ؛ سليمان أبو عز الدين : إبراهيم باشا فى سوريا، المطبعة العلمية ليوسف صادر بيروت 1929 ص 310 ؛ جورج أنطونيوس : المصدر السابق ص 93؛ محمد رفعت : التوجيه السياسى للفكر العربى ، مصدر سابق ، ص 42 .

(157) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، الأنجلو المصرية 1965 ص 143 ؛ كذلك الاستعمار فى الخليج ، ص 108 .

(158) رجاء الاطلاع على تقارير دى بوالكمت الثلاثة فى جورج دوين G. Douin (مصدر سابق) وفى ظنى أن جورج أنطونيوس لم يطلع عليها ، وإلا كان غيّر رأيه فى الكلام عن أهداف عربية لمحمد على .

(159) محمد رفعت : تاريخ البحر الأبيض المتوسط (مصدر سابق) ، ص 740 .

(160) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية ... مصدر سابق ، ص 177 .

(161) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية ... مصدر سابق ، ص 74 .

(162) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية ... مصدر سابق ، ص 42 .

(163) د. محمد مرسى عبد الله : العلاقة بين الدولة السعودية الأولى وعمان بين 1793 و1818 ، دراسة لنيل الماجستير ، كلية آداب القاهرة ص 146 - 147 .

(164) السيد عبد الرازق الحسينى : تاريخ العراق السياسى الحديث، ج1، مطبعة العرفان بصيدا 1948، ص39 .

(165) السيد عبد الرازق الخسينى : تاريخ العراق السيايى الحديث، ج1، مطبعة العرفان بصيدا 1948، ص39 .

(166) د. صلاح العقاد : الاستعمار فى الخليج الفارسى ، الألف كتاب رقم 121 مطبعة الرسالة ص105- 106 .

(167) السيد عبد الرزاق الحسينى : تاريخ العراق السياسى الحديث ، الجزء الأول ، مطبعة العرفان بصيدا 1948 ، ص 39 .

(168) محمد حسنين هيكل : المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ، الكتاب الأول ط3 ، ص42 - 43 .

(169) محمد حسنين هيكل : المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ، الكتاب الأول ، ط3 ، ص 43 .

(170) محمد كرد على : خطط الشام ، ج3 مطبعة الترقى 1925 صفحات : 68 ، 69 ، 70 .

(171) ميخائيل مشاقة : مشهد العيان فى حوادث سوريا ولبنان ، ص 110 .

(172) سليمان أبو عز الدين : إبراهيم باشا فى سوريا ، المطبعة العلمية ليوسف صادر - بيروت 1929 ، ص315- 316 .

(173) محمد كرد على : خطط الشام ، ج3 ، مطبعة الترقى 1925 ، ص 70 .

(174) انظر تقدير الخسائر فى عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، مصدر سابق ، ج3 ، ص 333 .

(175) د. أنيس صايغ ، المصدر السابق ، ص 30 .

(176) د. حازم نسيبة : القومية العربية ، ترجمة عبد اللطيف شرارة ، دار بيروت 1959 ، ص 57 .

(177) د. حازم نسيبة : القومية العربية ، ترجمة عبد اللطيف شرارة ، دار بيروت 1959 ، ص 57 .

(178) صياد العبد الصيادى : المسيحية والقومية العربية ، دار النشر العربية الحديثة ، ص.ص: 83، 84، 85 .

(179) محمد حسنين هيكل : المفاوضات السرية بين العرب واليهود ، الكتاب الأول ، دار الشروق 1996 ، ص47.

(180) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ص43 .

(181) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ص43 .

(182) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ص195 ؛ كذلك Anwar Abdel Malek opt.cit P.160 .

(183) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ص 113 .

(184) د. عبد الحميد فهمى مطر : التعليم والمتعطلون فى مصر ط1 1939 ص293 يرجع مراجعة الجدول .

(185) أحمد محمد غنيم وأحمد أبو كف : اليهود والحركة الصهيونية فى مصر (1897-1947) كتاب الهلال يونيو عدد 219 ، ص 30 - 38 .

(186) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ص19 .

(187) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ص112 .

(188) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ص 20 .

(189) عبد الحميد فهمى مطر : المصدر السابق ، ص 264 - 265 .

(190) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق ، مصدر ذكر سابقًا ، ص 19 .

(191) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ص17 .

(192) عبد الحميد فهمى مطر : المصدر السابق ، ص 195 .

(193) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ص19- 20 .

(194) نصت المادة الثانية فى أول دستور عراقى فى ظل الانتداب أن لا « تتخذ وسيلة فى العراق لمنع أعمال التبشير والتدخل فيها أو التحيز لمبشر ما على غيره » . د. عبد الرحمن البزاز : العراق ، محاضرات ألقيت فى جامعة القاهرة .

(195) عبد الجليل الشاطر البصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر إلى التاسع عشر ط1 ، مطبعة أبو فاضل ، القاهرة 1955 ، ص 210 .

(196) الجنرال تللر : العرب والاستعمار ، منشورات دار مكتبة الحياة بدون تاريخ ولا اسم المترجم ص.ص 143 - 144 - 146 - 148 .

(197) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ص 20 .

(198) تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده ، مطبعة المنار ، ط1 جمع السيد محمد رشيد رضا ط : مقال تأثير التعليم فى الدين والعقيدة فى 9 آب 1881 ، ص 175 .

(199) أنيس الخورى المقدسى : الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ، ص 16 - 17 .

(200) سعيد إسماعيل على السيد : الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية لحركة الفكر التربوى فى مصر فى الفترة ما بين 1892 - 1923 ، رسالة دكتوراة مخطوطة فى جامعة عين شمس ، ص50 .

(201) وليد الخالدى : العرب والغرب ، مقالة فى مجلة الجامعة الأمريكية - بيروت ، فى أرسكين تشيلدرز ، الطريق إلى السويس ، ترجمة خيرى حماد بالدار القومية للطباعة والنشر ، ص 33 .

(202) إرسكين تشيلدرز ، الطريق إلى السـويس ، ترجمة خيرى حماد بالدار القومية للطباعة والنشر ، ص 33 وما يليها .

(203) ستيفان رانيسمان : الحروب الصليبية .

(204) مارك توين : أبرياء فى الخارج ، أمريكا 1869 - مذكور فى أرسكين تشيلدرز ، المصدر السابق ، ص41 - 42.

(205) G. Guonard: les Reformes en Egypte, le caire 1936 P. 108-109.

(206) جوزيف حجار : أوروبا ومصير الشرق العربى ، طبعة طلاس ، ص 16 - 17 .

(207) A. Vingtrinier: Soliman Pacha, ou histire des guerres de l'Egypte de 1820 à 1860 Paris P. 188.

(208) A. G. Plitis: l'hillnisme de l'Egypte moderne I Paris P. 74. مذكور فى جوزيف حجار . المصدر السابق .

(209) د. أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ، المصدر السابق ، ص 94 - 95 .

(210) تقويم الهلال 1933 ، ص 116 .

(211) د. أحمد أحمد الحتة : تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على ، دار المعارف فى مصر 1950، ص85 .

(212) الوقائع المصرية عدد 2 ذى الحجة 1224هـ وعدد غرة ربيع عام 1244هـ.

(213) الأوامر العالية بدار المحفوظات العمومية (أمر فى 17 شعبان 1245 وأمر فى 14 ذى الحجة 1248 وأمر فى شوال 1249 وأمر فى 13 صفر 1250 ودفتر معية تركى رقم 267) .

(214) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة محمد على ، دار الفكر العربى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص 237 - 238 .

(215) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة محمد على ، دار الفكر العربى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص 246 ؛ كذلك انظر تفار البارون دى بوالكمت فى جورج دوين G. Douin .

(216) G. Douin: la mission du Baron de Bois le comte: l'comte: l'Egypte et la syrie.

(217) الهلال عدد سبتمبر 1965 ، ص75 ، مقال د. عبد العزيز نوار .

(218) د. رؤوف عباس حامد : النظام الاجتماعى فى مصر ، مصدر سابق، ص29 ؛ جوزيف حجار : مصدر سابق ، ص312 .

(219) رفاعة رافع الطهطاوى : تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، ط التقدم بالقاهرة 1904 ، ص 10 .

(220) رفاعة رافع الطهطاوى : تخليص الإبريز فى تخليص باريز ، ط التقدم بالقاهرة 1904 ، ص10 .

(221) أ. ن كلوت بك : المصدر السابق ، ج3 ، ص122 - 123 .

(222) Mengin : Histoire sommaire de l"Egypte sous Mohamed Ale P. 225.

(223) تقويم النيل : أخبار سنة 1830 ، ص 382 ؛ وكذلك الجزء الثانى ص 282 ؛ دفتر معية تركى وثيقة 426 لسنة 1239 ووثيقة 262 لسنة 1238 ؛ د. على الجريتلى ، المصدر السابق ، ص 83 .

(224) ألبير حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ، مصدر سابق ، ص 81 .

(225) أسد رستم : الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على، ببيروت 1930 - 1934 ج1، ص87-89.

(226) د. ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية فى مصر ، مؤسسة الدراسات - بيروت ، ص162 .

(227) د. على محافظة : النشاط التبشيرى الألمانى فى فلسطين بين 1841 و1918 مجلد دراسات تاريخية بدمشق.

(228) د. رشاد رشدى : يوميات بلا حدود زمنية : الأهرام فى عدد 14/8/1980 .

(229) الوقائع المصرية العدد 385 فى 21 ذى الحجة 1247 ؛ أمين سامى باشا : تقويم النيل - أخبار سنة 1832 ، ص390 ؛ كذلك فى Mengin, Histoire de l'Egypte T om II P. 179 .

(230) الجبرتى : المصدر السابق ، ج4 أخبار سنة 1224 .

(231) دفتر 68 معية التركى وثيقة 19 لسنة 1251 .

(232) ألبرت حورانى : المصدر السابق ، ص74 - 76 نقلاً عن هيوارث ديون ، ص166 .

(233) Anwar Abdel Malek: Ideologie et Renoissance National Ed. Anthro pas, Paris 1966 P.145-164.

كذلك جمال الشنيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية ، ص.ص 16 - 46 .

(234) دفتر 66 معية تركى وثيقة 284 جمادى الأولى لسنة 1251 ؛ د. على الجريتلى : المصدر السابق .

(235) دفتر 814 معية تركى وثيقة 46 بتاريخ 21 شوال لسنة 1250 .

(236) د. على الجريتلى : المصدر السابق ، ص 91 .

(237) M. Sabry: l'Empire Egypte sous Mouhamed Ali et question d' orient Paris 1930 P.91 et P. 120-129.

(238) د. على الجريتلى : المصدر السابق ، ص 37 - 38 .

(239) Henry Troyat, Pierre le Grand, Floim masion 1979 P.312.

(240) د. محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، ص 178 .

(241) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: المنار ، المقالة كاملة فى ج2 ، ص282-283.

(242) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته : دار الريحانى ، بيروت ط2 ، بلا تاريخ ، ص 53 .

(243) محمد مرسى عبد الله : العلاقة بين الدولة السعودية الأولى وعمان بين عامى 1792 - 1818 ، رسالة ماجستير ، آداب القاهرة ، ص 43 - 46 ، وص 52 .

(244) د. محمد ضياء الريس : المصدر السابق ، ص 67 .

(245) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى : ترجمة عجاج نويهض ، تعليق الأمير شكيب أرسلان، منشورات عيسى البابى ، ص 267 .

(246) د. حازم نسيبة : القومية العربية ، ترجمة عبد اللطيف شرارة ، دار بيروت للطباعة 1959 ، ص 56 .

(247) محمد مرسى عبد الله : المصدر السابق ص44 - 45 ؛ أمين الريحانى ، المصدر السابق ، ص35 .

(248) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ترجمة ناصر الدين أسد وإحسان عباس ، ط3 لعام 1969 ، ص 83 .

(249) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، سبق ذكره ج3 ط2 لعام 1939 ، ص121 .

(250) الجبرتى : عجائب الآثار (طبعة البيان العربى) ج6 ، ص 332-333 ، 381 .

(251) د. محمد ضياء الريس ، مصدر سابق ، ص 97 .

(252) أمين سعيد : الدولة السعودية الأولى ، ص 140 .

(253) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولة السعودية الأولى ، معهد البحوث والدراسات العربية 1969 ، ص331- 332 .

(254) محمد مرسى عبد الله ، المصدر السابق ، ص 201 .

(255) الجبرتى ، المصدر السابق ج4 ، ص149 ذكر أعمال جيش إبراهيم قال : « نهبوهم وأخذوا نساءهم وأولادهم وكتبهم فكانوا يفعلون بهم ويبيعونهم من بعض لبعض ويقولون هؤلاء الخوارج . حتى اتفق أن بعض أهل بدر الصلحاء طلب من بعض العسكر زوجته فقال له حتى تبيت هى هذه الليلة وأعطيها لك فى الغد .. » .

(256) وروى كرومر فى كتابه مصر الحديثة ، مطبعة الوطن ترجمة إسكندر شاهين ص25 نقلاً عن نوبار : « إن إبراهيم باشا فى نهاية الحرب باجتماع العلماء الذين اصطحبهم معه رؤساء الدين الوهابى للفصل فى مسائل الخلاف الدينى بين الطائفتين ولما انقضت ثلاثة أيام على اجتماع القوم سأل إبراهيم باشا عما تم فقيل له أنه لم يمكن لأحد الطرفين أن يقنع الآخر .. فقال أنه سيفصل فى الأمر بنفسه فأمر فى الحال بأن يقتل جميع رؤساء المذهب الوهابى » .

(257) د. أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ، مصدر سابق ص26 - 29 يذكر عن الرحالة وليم بولجريف الذى زار الجزيرة العربية فى أعقاب الحرب نقل عن شيوخ الجزيرة أن إبراهيم كان يأمر بإعدام الأبرياء بوضعهم على فوهات المدافع وبتقطيع أعضاء أجسامهم قطعة قطعة أمام مرآة .

(258) ناجى علوش : الثورى العربى المعاصر ، دار الطليعة المعاصر ، بيروت ط1 لعام 1960 ، ص 19 .

(259) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، 1948 ، ص21 - 22 .

(260) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، 1948 ، ص21-22 .

(261) د. عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ، دار الكاتب المصــرى العربى ، القاهرة 1968 ، ص.ص459- 461 .

(262) محمد مرسى عبد اله : العلاقة بين الدولة السعودية الأولى وعمان 1793- 1818 كلية آداب القاهرة - مخطوط ص206 ، وهو ينقل عن مايلز .

(263) عبد الفتاح حسن أبو عيلة : الدولة السعودية الثانية ، مخطوطة آداب القاهرة 1968 ، ص13 .

(264) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، مذكور سابقًا ج3 ، ص23 ؛ أحمد فريد مصطفى : مصدر سابق ، ص33 .

(265) جورج أنطونيوس : مصدر مذكــور سابقًا ص85 ؛ محمد رفعت : مصدر مذكور ســابقًا ص42 ؛ سليمان أبو عز الدين : إبراهيم باشا فى سوريا .

(266) وثيقة 43 محفظة 241 بتاريخ 19 رجب لعام 1248 من إبراهيم إلى محمد على .

(267) القائمقام عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لمصر . محمد على الكبير ، دار المعارف - مصر 1950 لم تذكر الطبعة ص 382 .

(268) جورج أنطونيوس : مصدر مذكور سابقًا ص85-86 ؛ د. جلال يحيى : أصول ثورة 23 يوليو مصدر ذكر سابقًا ص17 ، عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، مذكور سابقًا ج3 ، ص232 ؛ د. محمد عمارة : العروبة فى العصر الحديث ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر : حيث يتخيل وجود بورجوازية عربية وكادرات عربية لدى محمد على ، مصر كانت تدفعه إلى تلك الفتوح ! .

(269) محمد رفعت : التوجه السياسى للفكرة العربية ، ذكر سابقًا ص44 ؛ جورج أنطونيوس : مصدر مذكور سابقًا ، ص 86 .

(270) د. أنيس صايغ : نفس المصدر السابق ص32 - 33 منقولاً عن محفوظات الملكية المصرية ، بيروت المطبعة الأمريكانية 1940 رسائل ذوات الأرقام : 184، 149، 122، 70، 62، 43، 22، 18، 15، 7 .

(271) صبحى وحيدة : المصدر المذكور سابقًا ، ص148 .

(272) Paton apt.cit, Vol II P.169.

(273) صبحى وحيدة : المصدر المذكور سابقًا ، ص145 .

(274) Carresponmdanees des generaux Baillard et Boyer P.P, 50-79.

(275) د. أنيس صايغ: نفس المصدر السابق منقولاً عن محفوظات الملكية المصرية فى المصدر السابق ج2 رقم 24.

(276) د. محمد أنيس ود. السيد رجب حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث ، ذكر سابقًا ص184- 185 ؛ د. أنيس صايغ : المصدر السابق ص28 ؛ قائمقام عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لمصر محمد على الكبير، ذكر سابقًا ص378 ؛ أحمد فريد مصطفى : المصدر السابق ، ص33 .

(277) كان محمد على يسر لأحد القناصل : « إننى لا أحب سوى نفسى وما يتفق ومصالحى ، بل إننى لا أحب أبنائى أنفسهم إلا إذا كان من ورائهم خير لى » . انظر محمد فؤاد شكرى وآخرون ، مصدر ذكر سابقًا ، ص359.

(278) جورج أنطونيوس : نفس المصدر ، ص 89 .

(279) George Douin: La Baron du Bois le conte: l'Egypte la Syrie en 1833,P.P 248- 249.

عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، مذكور سابقًا ج3، ص233؛ جورج أنطونيوس: نفس المصدر، ص90.

(280) George Douin: La Baron du Bois le conte: l'Egypte la Syrie en 1833,P.P 248- 249.

عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، مذكور سابقًا ج3، ص233؛ جورج أنطونيوس: نفس المصدر، ص90.

(281) د. أسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية ، بيروت الطبعة الأميركانية ج1 رقم 209 و240 وج2 ذوات الأرقام 86، 177، 2516؛ ج3 ذوات رقم 93؛ ج4 رقم 353 مذكورة فى أنس صايغ المصدر السابق ص25.

(282) قائمقام عبد الرحمن زكى : المصدر السابق ص381 (ينقل عن وثيقة رقم 73 عابدين محفظة 238 تاريخ 9 ربيع الثانى 1248 هجرية من إبراهيم إلى محمد على ، ووثيقة رقم 190 عابدين محفظة 240 تاريخ 27 جمادى الثانى 1248 هجرى) .

(283) S.T.John: Egypte on Mohamed Ali vol. P.522.

مذكور فى فائمقام محمد زكى : المصدر السابق ، ص278 .

(284) د. أنيس صايغ : المصدر السابق ، ص94- 95 ؛ George Douin, opt.cit. P. 248 .

(285) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون : المصدر السابق ص237- 238 .

(286) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون : المصدر السابق ، ص 211 .

(287) د. عبد العزيز نوار : مجلة الهلال ، مقال بعنوان ثورة 1919 وأثرها فى الحركات النضالية ، عدد سبتمبر 1965 ، ص 75 .

(288) George Douin, opt. P.267.

(289) محمد كرد على : خطط الشام ج2 ، مطبعة الترقى 1925 ص60 ؛ سليمان أبو عز الدين : إبراهيم باشا فى سوريا، المطبعة العلمية- يوسف صادر بيروت 1929 ص 310 ؛ جورج أنطونيوس : المصدر السابق ص92.

(290) محمد رفعت : التوجه السياسى للفكرة العربية ، ذكر سابقًا ، ص42 .

(291) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية 1965 ، ص142 ؛ كذلك : الاستعمار فى الخليج العربى ، ص 108 .

(292) د. عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ، مصدر سابق ، ص.ص 468 - 471 .

(293) محمد رفعت : المصدر السابق ، ينقل من رسالة بالمرستون إلى سفيره فى القسطنطينية تاريخًا 6 ديسمبر 1833 ، ص 44 .

(294) Georges Douin opt. xcit p.xl.

(295) ميخائيل مشاقة : مشهد العيان فى حوادث سوريا ولبنان ص110 ؛ أحمد فريد على مصطفى ، مصدر مذكور سابقًا ، ص125 .

(296) سليمان أبو عز الدين: إبراهيم باشا فى سوريا، المطبعة العلمية ليوسف صادر بيروت 1929 ص315-316

(297) محمد كرد على : المصدر السابق ، ج3، ص70 .

(298) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، مصدر سابق ، ج3 تقدير الخسائر ، ص333 .

(299) د. أنيس صايغ ، المصدر السابق ، ص30 .

(300) د. حازم نسيبة : القومية العربية ، ترجمة عبد اللطيف شرارة ، دار بيروت 1959 ص57 حيث يرى أن حروب محمد على تسببت : « فى شقاق عقائدى بين الأجزاء الآسيوية والأجزاء الأفريقية من العالم العربى لم يلتئم حتى اليوم ، وكانت له نتائج بعيدة المدى . لأنه وقع فى زمن كان العرب يجتازون أثناءه مرحلة من مراحل نموهم .

(301) عياد العبد الصيادى : المسيحية والقومية العربية ، دار النشر العربية الحديثة ص.ص: 83، 84، 85 .

(302) كان الخديوى إسماعيل هو آخر من استقدم من حكام أسرة محمد على المماليك للاستعانة بهم .

(303) قلينى باشا : مذكرات عن بعض حوادث الماضى : مطبعة المقتطف والمقطم ، القاهرة 1931 ج1، ص63 .

(304) د. رؤوف عباس : المصدر مذكور سابقًا ، ص73 .

(305) جريدة الآستانة ، عدد 18/6/1907 .

(306) التنكيت والتبكيت ، العدد الأول فى 6/6/1881 .

(307) الأهالى فى عدديها 3 و15/3/1893 مقالان بقلم إسماعيل أباظة باشا .

(308) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون ، مصدر مذكور سابقًا : تقرير دو هامبل ، ص305 .

(309) Bear Social chang in Egypte 1800- 1914 chlt. Ed. : political and social chang in modern Egypte, London 1968, P.150, cite' Raouf Abass opt. Cit. P.73.

(310) أ. ن. بولياك : الإقطاعية فى مصر وسوريا ولبنان، منشورات دار المكشوف ، بيروت 1948 ط1 ، ص176.

(311) أ. ن. بولياك : الإقطاعية فى مصر وسوريا ولبنان ، منشورات دار المكشوف ، بيروت 1948 ط1، ص180.

(312) الجبرتى : عجائب الآثار ، طبعة بولاق حوادث ربيع الأول 1229 ، ص207 .

(313) أ. ن. بولياك : الإقطاعية فى مصر وسوريا ولبنان ، منشورات دار المكشوف ، بيروت 1948 ط1، ص 178- 188 .

(314) الجبرتى : عجائب الآثار ، طبعة بولاق حوادث ربيع الأول 1229 ، ص117 .

(315) د. محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة 1938 ، ص 117 .

(316) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون : نفس المصدر السابق ، تقرير دو هاميل .

(317) تيودور روذستين : تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده : ترجمة على أحمد شكرى 1927 ص 294 ؛ د.حسين خلاف ، المصدر السابق ، ص 65 .

(318) Harris Murry: Egypte under the egyptiens, champman and holl, London p.1 ، د. رؤوف عباس : المصدر السابق ، ص 20 .

(319) Y. Artin, opt. cit PP. 100-101.

(320) Helwnnw Anne B.Rivilin: the Agriculturahl policy of Mohamed Ali in Egypt horvard U.P. Combridge Mars 1961 P. 71.

(321) Bear G. A. History of landoumership in medern Egypt, oxford 1962 P. 80.

(322) أ. ن. بولياك : الإقطاعية فى مصر وسوريا ولبنان ، منشورات دار المكشوف ، بيروت 1948 ط1 ص216- 217

(323) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون : نفس المصدر السابق ، ص22 .

(324) يوسف نحاس : الفلاح ، حالته الاقتصادية والاجتماعية ، مطبعة المقتطف والمقطم فى مصر 1926 ، ص16 .

(325) تيودور روذستين : تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده : ترجمة على أحمد شكرى 1927 ، ص102 .

(326) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمساحة المصرية ، ص82 .

(327) تيودور روزستين : تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده : ترجمة على أحمد شكرى 1927 ، ص104- 105 .

(328) د. سعيد إسماعيل على السيد : الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية لحركة الفكر التربوى ، رسالة لنيل الدكتوراه ، مخطوطة بكلية غين شمس لعام 1969 ص 37 ؛ يوسف نحاس ، مصدر سابق ، ص84 .

(329) أ. ن. بولياك : الإقطاعية فى مصر وسوريا ولبنان ، منشورات دار المكشوف ، بيروت 1948 ط1 ص178-188 .

(330) الإمام الشيخ محمد عبده : مقال فى الوقائع بتاريخ 25 نوفمبر 1880 العدد 169 مذكور فى تاريخ الإمام لمحمد رشيد رضا ، مطبعة المنار 1224 هجرى ط1 ج2 ، ص74 - 75 .

(331) د. حسين خلاف : التجديد الاقتصادى ، مصدر سابق ، ص 312 .

(332) تيودور روذستين : تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده : ترجمة على أحمد شكرى 1927 ص111 ؛ د. محمد فهمى لهيطة ، مصدر سابق ، ص 265 .

(333) الأهالى : العدد 97 تاريخ 22/2/1911 .

(334) يوسف خليل جاد الله : تطور الحركة القومية فى مصر من 1882 - 1919 بحث لنيل الدكتوراه ، مخطوطة بكلية آداب القاهرة لعام 1957 ، ص 198 .

(335) الأهالى : العدد 87 تاريخ 2/2/1911 .

(336) د. على الجريتلى : السكان والموارد الاقتصادية فى مصر ، مطبعة مصر ، القاهرة 1962 ص10 - 15 .

(337) د. محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، مصدر سابق ، ص 118 .

(338) فوزى جرجس : مصدر سابق ، ص 110 .

(339) Anwar Abdel Malek opt.cit P. 69.

(340) إبراهيم عامر : الأرض والفلاح ، مطبعة الدار المصرية 1958 ، ص 89 - 91 .

(341) عبد المنعم الغزالى : سيرةالعمال الزراعيين فى تاريخ مصر، مقال فى الطليعة ، العدد 9 سبتمبر 1966 ص86.

(342) إبراهيم عامر : الأرض والفلاح ، مطبعة الدار المصرية 1958 ، ص124 .

(343) كرومر : تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة 1905 ، ص119 .

(344) سعيد إسماعيل على السيد : المصدر السابق ، ص 13 .

(345) أمين عز الدين : نشوء الطبقة العاملة ، مقال فى الطليعة ، مايو 1965 ؛ أنور عبد الملك : مصر مجتمع يبنيه طبقة من العسكريين ، دار الطليعة ، بيروت ، ص 20 .

(346) أمين عز الدين : تاريخ الطبقة العاملة المصرية .

(347) فوزى جرجس : المصدر السابق ، ص 110 - 111 .

(348) دافيدس لاندز : المصدر السابق ، ص 179 .

(349) صبحى وحيدة : المصدر السابق ص182- 183 ؛ سعيد إسماعبل على السيد : المصدر السابق ، ص 13 .

(350) صبحى وحيدة : المصدر السابق ص182- 183 ؛ سعيد إسماعبل على السيد : المصدر السابق ، ص 13 .

(351) مصطفى فهمى ؛ La Revolution de l'Industrie en Egypte et ses consequences so erolles ou XIX siecle (1899- 1850) leiden 1945 P.

17.

(352) محمد فريد : تاريخ مصر ابتداء من 1861 : مخطوطة فى خمس كراسات ، الكراس الرابع ص85 - مذكورًا فى د. رؤوف عباس ، المصدر السابق ، ص 74 .

(353) كشف الستار عن سر الأسرار : مذكرات أحمد عرابى مذكورًا فى محمود الخفيف : أحمد عرابى ، كتاب الهلال ، عدد 245 ، يونيو 1971 ص 22- 23 ؛ د. أنيس صايغ : المصدر السابق ، ص 50 .

(354) المصدر السابق نفسه .

(355) الرد كاملاً فى سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج2 ، ص306 وما يليها .

(356) د. إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع 1828 - 1842 ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، 1942 ، ص39 .

(357) Anwar Abdel- Malek opt.cit. P. 166. I.

(358) إلياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد إسماعيل باشا ، دار الكتب المصرية ، القاهرة 1923 ج1 ، ص.ص 234- 237.

(359) قلينى باشا : مذكرات عن بعض حوادث الماضى ، مطبعة المقتطف والمقطم ، القاهرة 1931 ج1 ، ص63 .

(360) د. رؤوف عباس : المصدر السابق ، ص 73 .

(361) جريدة الآستانة : عدد 18/6/1907 .

(362) التنكيت والتبكيت عدد 1 فى 6/6/1881 .

(363) الأهالى عدد 3 وعدد 15 سنة 1863 مقالان بقلم إسماعيل أباظة باشا .

(364) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون ، المصدر السابق ، تقرير دوهاميل ، ص 305 .

(365) Bearg, Social change in Egypte 1800-1914 (holted: political and social change in Modern Egypte London 1968 P.15, cite' in Raouf Abass opt. cit p. 73.

(366) أ. ن. بولياك: الإقطاعية فى مصر وسوريا ولبنان، منشورات دار المكشوف، بيروت 1948، ط1 ص176.

(367) أ. ن. بولياك: الإقطاعية فى مصر وسوريا ولبنان، منشورات دار المكشوف، بيروت 1948، ط1 ص180.

(368) الجبرتى : عجائب الآثار .. طبعة بولاق ج4 حوادث ربيع الأول 1229 هجرى ، ص207 .

(369) أ. ن. بولياك: الإقطاعية فى مصر وسوريا ولبنان، منشورات دار المكشوف، بيروت 1948، ط1 ص187-188.

(370) الجبرتى : عجائب الآثار .. طبعة بولاق حوادث جمادى الأولى 1229 هجرى ، ص 207 .

(371) د. محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، مصدر سابق ، ص 117 .

(372) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون ، المصدر السابق ، تقرير دو هاميل .

(373) تيودور روذستين : تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده : ترجمة على أحمد شكرى 1927 ، ص 294 .

(374) Horris Murry: Egypte under the egyptions, chompnnon and holl London P.1.

(375) Y. Artin, opt.cit. p.p 100-101.

(376) Helen Anne Rivilin: the Agricultural policy of Mohamed Ali in Egypte, horvard U.P. Combridge Mars 1961 P.71.

(377) Bear. G. a History of londowenrship in modern Egypte, oxford 1962 p. 80.

(378) أ. ن. بولياك: الإقطاعية فى مصر وسوريا ولبنان، منشورات دار المكشوف، بيروت 1948، ط1 ص216- 217 .

(379) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون ، المصدر السابق ، ص 22 .

(380) يوسف النحاس : الفلاح ، حالته الاقتصادية والاجتماعية ، مطبعة المقتطف والمقطم فى مصر 1926 ، ص16.

(381) تيودور روذستين : المصدر السابق ، ص 102 .

(382) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية ، ص82 .

(383) تيودور روذستين : المصدر السابق ، ص104- 105 .

(384) سعيد إسماعيل على السيد : الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية لحركة الفكر التربوى ، رسالة لنيل الدكتوراه ، كلية تربية عين شمس لعام 1969 ، ص27 ؛ يوسف نحاس : الفلاح ، المصدر السابق ، ص 81 .

(385) أ. ن. بولياك : الإقطاعية فى مصر وسوريا ، منشورات دار المكشوف ، بيروت 1948 ط1 ، ص187-188.

(386) الإمام الشيخ محمد عبده : مقال فى الوقائع بتاريخ 25 نوفمبر 1880 ، العدد 666 ، مذكور فى تاريخ الإمام لمحمد رشيد رضا - مطبعة المنار 1224 ط1 ، ج3 ، ص74- 75 .

(387) يوسف نحاس : الفلاح ، المصدر السابق ، ص92 . حيث يقول عن مرابى القرية : « يفد إلى القرية رجل حقير البزة لافتتاح حانوت فيبتدئ بأن يبيع على السذج أصناف مغشوشة وبضائع

من أردأ الأصناف بأفدح الأثمان وهو إلى جانب ذلك بالمراباة الجزئية معطيًا عشرة قروش ليأخذ خمسة عشر فى نهاية الأسبوع - أى فى يوم السوق الذى يستطيع فيه مدينه أن يبيع شيئًا مما عنده ليفى بما عليه . فإذا حال الحول يكون قد ربح ما يمكنه من توسيع تجارته، ومنها التسليف فلا يعتم هذا الرجل الخام أن يصبح نابهًا معروفًا وأن يلقب الصيرفى .. » .

(388) د. حسين خلاف : التجديد الاقتصادى ، مصدر سابق ، ص 313 .

(389) تيودور روذستين : المصدر السابق ، ص111 ؛ د. محمد فهمى لهيطة : المصدر السابق ، ص365 .

(390) الأهال العدد 97 تاريخ 22/2/1911 .

(391) يوسف خليل جاد الله : تطور الحركة القومية فى مصر 1882 - 1919 بحث لنيل الدكتوراه ، كلية آداب القاهرة لعام 1957 ، ص198 .

(392) د. على الجريتلى : السكان والموارد الاقتصادية فى مصر ، مطبعة مصر ، القاهرة 1962 ، ص10- 15 .

(393) د. رؤوف عباس : المصدر السابق ، ص7 .

(394) د. محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، 1938 ، ص118 .

(395) فوزى جرجس : المصدر السابق ، ص110 .

(396) Anwar Abdel Malek: opt.cit. P. 69.

(397) إبراهيم عامر : الأرض والفلاح ، مطبعة الدار المصرية 1958 ، ص89- 91 .

(398) عبد المنعم غزالى : مسيرة العمال الزراعيين فى تاريخ مصر (مقال) فى الطليعة ، العدد 9 ، سبتمبر 1966، ص86 .

(399) إبراهيم عامر : المصدر السابق ، ص 124 .

(400) كرومر : تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية بمصر والسودان لسنة 1905 ، ص 119 .

(401) سعيد إسماعيل على السيد : المصدر السابق ، ص13 .

(402) أمين عز الدين : نشوء الطبقة العاملة (مقال) فى الطليعة ، مايو 1965 عدد 5 ص28 .

(403) فوزى جرجس : المصدر السابق ، ص110- 111 .

(404) دافيدس لاندز : المصدر السابق ، ص176 .

(405) صبحى وحيدة : المصدر السابق ، ص182- 183 .

(406) صبحى وحيدة : المصدر السابق ، ص182- 183 .

(407) د. مصطفى فهمى : La Revolution de l'industrie en Egypte et ses con se quences socialles aux XIXs. (1800-1850), in Anwar Abdel Malek opt.cit P.19.

(408) عبد المنعم غزالى : المصدر السابق : « ولم يمنع هذا الإلغاء الذى قضت به ضرورات التطور ، الدون غورست من أن يجمع فى عام 1909 110.000 طفل لمكافحة دودة القطن والمعاملة التى لقيها الفلاحون فى دنشواى عام 1906 لا تؤكد استمرار الكرباج كأداة من أدوات التعذيب فحسب . بل تؤكد كذلك أن مشاعر الإنسانية التى يتحدث عنها الاحتلال مازالت عبارات جميلة فى كتب الحضارة الأوروبية » .

(409) محمد سعيد أفندى : رسالة فى المعارف العمومية بالديار المصرية، وبيان ما يلزم إدخاله فيها من الإصلاحات الضرورية- ترجمها إلى العربية عن الفرنسية أحمد زكى أفندى ، مطبعة فرانكو إيجبسيان ، القاهرة 1888 .

(410) المصرى (جريدة) بتاريخ 17/2/1948 .

(411) إدوارد ديسى : إنجلترا ومصر ، طبعة شابمان هال ، لندن 1881 ، مذكورًا فى د. رفعت السعيد : الأساس الاجتماعى للثورة العرابية ، ص62 .

(412) على الحديدى : عبد الله النديم سلسلة أعلام العرب (9) ص15 ؛ Bear: Egyption Guilds in modern times the isroil oriental society, Jeru Zolem 1964 P. 24-25, بالاستناد إلى الجبرتى .

(413) Anwar Abdel Malek opt.cit. P. 101, P.104.

(414) البرجوازية المصرية ، مذكورًا فى د. رفعت السعيد : الأساس الاجتماعى للثورة العرابية . مصدر ذكر سابقًا ، ص84 .

(415) د. عثمان أمين ، مذكورًا فى رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده ، مكتبة النهضة المصرية 1955 ، ص22 .

(416) على الحديدى : عبد الله النديم خطيب الوطنية ، مصدر ذكر سابقًا ، ص121 .

(417) د. محمد فهمى لهيطة : المصدر السابق ص551 ؛ محمد أنيس : ثورة 1919 ، تحالف الطبقات بقيادة الرأسمالية الوطنية (مقال فى الكاتب) عدد 52 (آب) 1965 .

(418) د. حسين خلاف : التجديد الاقتصادى المصرى الحديث حول تزايد حركة الملاحة النيلية ، ص 266 .

(419) د. لويس عوض : المؤتمرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ، معهد الدراسات ، ط2، ص9-11 الاحتكارات.

(420) D.M.Sabry: L'empire Egyption sous Mohamed Ali et question d'orient 1811- 1849. Librairie oriental Pau; Gueuther Paris 1920, P.427.

(421) Documents diplomatiques concernont l'Egypte de Mohamed Ali jusqu' au 1820, Réunis par l'association egyptiene de paris P.P 3-6.

(422) Charle Issaui: Egypte in revolution P. 24.

(423) N. Berkes: Turkey P.143 cite par Anwar Abdel Malek opt.cit P.33.

(424) اليراوى وعليش : التطور الاقتصادى ص63 ؛ رنيه قطاوى ، مذكور فى أنـــور عبد الملك ، المصـدر السابق ، ص35.

(425) يوسف نحاس : الفلاح مصدر سابق ، ص65 ؛ كذلك فوزى جرجس حيث يفندهم وفقًا لإحصاء 1907 ؛ أنور عبد الملك ، ص72 .

(426) على النحو التالى : 62672 يونانى ؛ 24454 إيطالى ؛ 19563 بريطانى ، 14172 فرنسى ؛ والباقون من جنسيات مختلفة ؛ كذلك انظر Anwar Abdel Malek, opt.cit P. 72 .

(427) دافيدس . لا ندز : بنوك وباشاوات ، مصدر سابق ، ص80 .

(428) صبحى وحيدة : مصدر سابق ، ص158 - 159 .

(429) صبحى وحيدة : مصدر سابق ، ص158 - 159 .

(430) د. نجلاء عز الدين : المصدر السابق ص112 ؛ فوزى جرجس : المصدر السابق ، ص72 .

(431) صبحى وحيدة : مصدر سابق ، ص183 .

(432) E. de Regny: Statistique 1870. 12. 13 cite in Anwar Abdel Malek opt.cit P. 70.

(433) د. رؤوف عباس : المصدر السابق ، ص 69 .

(434) مذكورًا فى د. نجلاء عز الدين ، المصدر السابق ص112 Rothein Egypt's Ecun. P. 34 .

(435) د. أنيس صايغ : المصدر السابق .

(436) دافيدس . لا ندز : بنوك وباشاوات ، مصدر سابق ، ص121- 122.

(437) فوزى جرجس : المصدر السابق ص62 حيث يذكر أنه أعطى امتياز تصدير العظام لشركة إنجليزية واتخاذ القبور المصرية مخازن للفوسفات للحصول على .. تيودور روذتسين ، المصدر السابق ، ص104 - 105 .

(438) فوزى جرجس : المصدر السابق ص.ص 52- 53- 54 وهو ينقل عن د. محمد فهمى لهيطة المصدر السابق، ص 232 .

(439) فوزى جرجس: المصدر السابق ، ص 95 .

(440) د. محمد أنيس : الحركة الوطنية فى مواجهة الاستعمار الأوروبى ، مجلة الكاتب عدد 60 مارس 1966 ؛ دافيد لانس ، ص 154 .

(441) د. رؤوف عباس : المصدر السابق ، ص30 .

(442) فوزى جرجس ، المصدر السابق ، ص95 .

(443) Crouchly: The investissement of foreign capital P.P 58, 78, cit in Anwar Abdel Malek. Opt. cit P.P 49- 50.

(444) فوزى جرجس ، المصدر السابق ، ص 109 .

(445) فوزى جرجس ، المصدر السابق ، ص 109 .

(446) Anwar Abdel Malek opt.Cit. P. 78.

(447) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون : المصدر السابق ، ص280 .

(448) دافيدس لاندز : المصدر السابق ، ص122 ؛ صبحى وحيدة : المصدر السابق ، ص161 - 162 .

(449) صبحى وحيدة ، المصدر السابق ، ص 158 - 159 .

(450) لقد ذهب قول الخديوى : إنه إذا أصيب هذا الخواجا بزكام فسوف يكلفنى عشرة آلاف جنيه إنجليزى .

(451) Anwar Abdel Malek opt. Cit. P. 74, 75.

(452) صبحى وحيدة ، المصدر السابق ، ص164 - وص 184- 185.

(453) Y. Artin: l'instruction pulliqe en Egypte: leroux, paris 1980. Annese E.

(454) Anwar Abdel Malek opt. Cit. P. 119.

(455) Anwar Abdel Malek opt. Cit. P.121.

(456) د. أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر محمد على، مكتبة النهضة المصرية 1938، ص15-16.

(457) د. جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية ، ص.ص 16 - 32 - 38 - 44 .

(458) Anwar Abdel Malek opt. Cit. P.145- 146.

(459) د. أنور لوقا ، La renaissance Egyptienne et les limites de l'ouvre de bonoporte chier historique Egyptienne 1955 N.1 .

(460) د. أحمد عزت عبد الكريم : المصدر السابق ، ص36 .

(461) Hekekian N.W. seniar: Conversations and journals in Egypte and Malta. London 1882 p. 249, J. Heyworth Dunne: Histoire Moderne de l'education p. 184 cite in Anwar Abdel Malek opt. Cit. p. 123.

(462)د. أحمد عزت عبد الكريم : المصدر السابق ، ص 336 .

(463) دفتر 145(مجلس ملكية) إلى مختار بك فى سلخ صفر 1252 .

(464) دفتر معية 139 رقم 97 إلى المديرين 19 جمادى الأولى 1251 .

(465) يعنى فرانز فانون فى مقالاته التى جمعها فى كتابه سوسيولوجية الثورة بتحليل هذا الشعور تحليلاً علميًا - متخذًا من وضع الجزائر فى ظل الاستعمار الفرنسى نموذجًا له فى العالم الثالث ، Fravz Fanon: Socialogie d'une revolution, chahier libre- mospero .

(466) Anwar Abdel Malek opt. Cit. P.124, 125 وهو ينقل عن تقويم النيل ص 16 عن الأستاذ ص737؛ أرتين ص201 ؛ طوسون : البعثات ، ص174 .

(467) J. Heyworth Dune. Ouver opt. Cit. P.P 329, 350.

(468) د. أحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق ص7 ؛ عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل مطبعة النهضة ج، ص 9- 10 .

(469) د. أنيس صايغ : المصدر السابق ص104 ؛ د. أحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق ، ص9 .

(470) د. أحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق ، ص9 .

(471) دفتر مدارس عرابى 387 ص 2643 رقم 53 من شورى الأطباء فى 24 ذى القعدة 1269 .

(472) دفتر مدارس تركى 2135 ص 46 رقم 13 إلى المبتديان والمهندسخانة فى 2 محرم 1267 .

(473) أمين سامى باشا : تقويم النيل وعصر عباس وسعيد م1 ، ج3 ، ص 30 .

(474) Anwar Abdel Malek opt. Cit. P. 125.

(475) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، ص178 - 179 .

(476) جرجس سلامة : أثر الاحتلال البريطانى فى التعليم القومى فى مصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط1 1966، ص29.

(477) جرجس سلامة : أثر الاحتلال البريطانى فى التعليم القومى فى مصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط1 1966، ص29.

(478) جرجس سلامة : أثر الاحتلال البريطانى فى التعليم القومى فى مصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط1 1966، ص 22 - 23.

(479) د. محمد خيرى حربى : تطور التربية والتعليم فى إقليم مصر فى القرن العشرين . مركز الوثائق التربوية 1958 ، ص 79 وص 17 .

(480) شفيق غربال: مقدمة كتاب تاريخ التعليم فى عصر محمد على : أحمد عزت عبد الكريم ، مصدر سبق ذكره.

(481) Anwar Abdel Malek opt. Cit. P. 160.

(482) محمود الخفيف : أحمد عرابى المصرى المفترى عليه ، مطبعة الرسالة ط1 1947 ، ص36 - 37 .

(483) اليوزباشى محمد أفندى البارودى: تاريخ العائلة الخديوية وتفاصيل الثورة العرابية: محضر التحقيق ص121.

(484) محمود الخفيف : أحمد عرابى المصرى المفترى عليه ، مطبعة الرسالة ، وقفة عابدين .

(485) كرومر : الثورة العرابية ، الشركة العربية للطباعة والنشر 1958 ، ترجمة عبد العزيز عرابى ، ص150 .

(486) محمود الخفيف : أحمد عرابى المصرى المفترى عليه ، مطبعة الرسالة ، ص 367 - 368 .

(487) محمود الخفيف : أحمد عرابى المصرى المفترى عليه ، مطبعة الرسالة ، ص 367- 368 وما قبله وما بعده.

(488) الهلال عدد 1971 وثائق جديدة لم تنشر ، ص 74 .

(489) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية ، ص 141 .

(490)محمود الخفيف : أحمد عرابى المصرى المفترى عليه ، مطبعة الرسالة ، 1947 ، ص 102 .

(491) انظر ما تقدم .

(492) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية ، دار المعارف بمصر 1965 ، ص 254 .

(493) د. على الحديدى : عبد الله النديم ، سلسلة أعلام العرب (9) مكتبة مصر 1962 ، ص 216 .

(494) الأهرام عدد 2451 مذكورًا فى « الثورة المهدية » رسالة ماجستير ، معهد الدراسات العربية ، إعداد عاصم محروس عبد المطلب ، ص 242 .

(495) الهلال ، عدد مارس 1971 : وثائق جديدة لم تنشر ، ص 99 .

(496) الهلال ، عدد مارس 1971 : وثائق جديدة لم تنشر ، ص 82 .

(497) كشف الستار عن سر الأسرار ، مذكرات عرابى .

(498) د. على الحديدى : عبد الله النديم ص212 - 213 ، فى الطائف عدد 28/7/1882 .

(499) محفظة رقم 20 روسيه رقم 174 .

(500) العروة الوثقى : ص437- 438 ؛ فى عاصم محروس عبد المطلب : رسالة لنيل الماجستير ، معهد الدراسات العربية العليا .

(501) قرأت هذه العبارة فى يومياته، وهى بخط يده كما قرأها كثيرون غيرى منهم د. رؤوف عباس، ولكن لم تتح لى مقارنة ما نشره منها د. عبد العظيم رمضان. إذ لم تصلنى النسخة المنشورة بعد لأعرف مدى أمانة د. رمضان على الحقيقة .

(502) العروة الوثقى ص 436 : محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ص 378 .

(503) مذكرات عرابى ، دار الهلال ج2 ص174- 175 ؛ توفيق أحمد البكرى : أعلام الإسلام (مهدى الله) العدد 7 ص 55 - 56 .

(504)توفيق أحمد البكرى : أعلام الإسلام (مهدى الله) العدد 7 ص 55 - 56 .

(505) د. أحمد أحمد سيد أحمد : بين الثورة العرابية فى مصر والثورة المهدية فى السودان ، بحث فى مجلة العلوم العدد 1 آذار (مارس) 1968 .

(506) مذكور فى عاصم محروس عبد المطلب : المصدر السابق ص 26 ؛ Besman: the Mahdi of allah P.P 293, 294 .

(507) العروة الوثقى ، ص 209 - 210 .

(508) العروة الوثقى ، ص 313 - 314 ؛ محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ص 375 - 376 .

(509) العروة الوثقى ، ص 313 - 314 ؛ محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ص 375 - 376 .

(510) عاصم محروس عبد المطلب ، المصدر السابق ، ص 242 .

(511) العروة الوثقى ، ص 274 - 275 ؛ وص 301 - 302 .

(512) عاصم دسوقى عبد المطلب ، المصدر السابق ؛ Mekki Sheibika: British Policy P. 275 .

(513) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار فى دول البحار ، ص 495 .

(514) الأهرام فى 18 (آذار) مارس 1885 عدد 2199 وفى 19 (آيار) مايو 1885 عدد 2218 .

(515) العروة الوثقى ، ص 345 .

(516) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان نفس المصدر السابق ، ص 308 .

(517) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان نفس المصدر السايبق ، ص 308 .

(518) د. أحمد أحمد سيد أحمد : المصدر السابق ، ص 59 .

(519) الهلال عدد مارس - آذار - 1971 ، وثائق لم تنشر عن الثورة العرابية ، ص 88 .

(520) محمود الخفيف : أحمد عرابى المفترى عليه : مصدر سابق ، ص 102 .

(521) محمود الخفيف : أحمد عرابى المفترى عليه ، مطبعة الرسالة ، ط1 لعام 1947 ص 310 .

(522) الوقائع المصرية عدد 21 سبتمبر 1882 : ومذكرات عرابى المخطوط ، ص 125 .

(523) محمود الخفيف : أحمد عرابى المفترى عليه ، مصدر سابق ، ص 454 - 455 .

(524) الوقائع المصرية فى 4 أكتوبر .

(525) إذ ثبت أن إنجلترا وزعت من العملة الذهب وبالصدفة انكسر أحد الجنيهات فتبين أنه من معدن الرصاص المطلى بالذهب . وتزييف العملة ليس غريبًا على إنجلترا . فقد استخدمته فى دخول الجيوش من الأردن إلى سوريا فى الحرب العالمية الثانية .

(526) مذكرات عرابى المخطوطة .

(527) محمود الخفيف : المصدر السابق ، ص 213 .

(528) مذكرات عرابى المخطوطة ، ويقول الأستاذ محمود الخفيف أن كرومر أورد الواقعة فى كتابه عن مصر .

(829) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل الاحتلال ، مكتبة النهضة ط1 لعام 1948 ، ص 32 .

(530) محمود الخفيف : أحمد عرابى المفترى عليه - مطبعة الرسالة ط1 ، ص 441 .

(531) شهدى عطية : تطور الحركة الوطنية فى مصر ، مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر 1975 ، ص 13 .

(532) صبحى وحيدة : المسألة المصرية ، مكتبة الأنجلو 1950 ، ص 177 .

(533) رفعت السعيد : الأساس الاجتماعى للثورة العرابية ، ص 14 - 15 .

(534) صالح جودة : مصر فى القرن التاسع عشر ، مطبعة الشعب - شارع محمد على بمصر 1904 ، ص 44 .

(535) Fort Nighty Reiw November 1883 فى محمود الخفيف : المصدر السابق ، ص 527 .

(536) محمود الخفيف : عرابى المفترى عليه : المصدر السابق ، ص 529 .

(537) استمرت دولة مصر تؤدى «الوير كو» إلى الدولة التركية إلى ما بعد قيام ثورة 23 يوليو ؛ وفى مقدمة كتبها جمال عبد الناصر نفسه لعدد من سلسلة « اخترنا لك » فى بداية الثورة يتضح

فيها أنه كان مايزال تحت تأثير نظرة مصر العامة وشمال إفريقيا للدولة العثمانية، وهى النظرة التى كان ينطلق منها مصطفى كامل .

(538) د. محمد ضياء الدين الريس : تاريخ المشـــرق العربى والخلافة العثمانية، نهضـــة مصر بالفجـــالة 1950 ، ص80- 81 .

(539) د. محمد أنيس وآخرون : مصدر سابق ص164 ؛ د. محمد أنيس والسيد رجب حراز : الشرق العربى والتاريخ الحديث - الأنجلو ، ص 80 - 81 .

(540) د. فؤاد أفرام البستانى : سلسلة الروائع - بيروت .

(541) محمد رفعت : تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وتياراته السياسية ، دار المعارف بمصر ص 36 ؛ أيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، دراسة فى انتشار الحضارة الهيلسية واضمحلالها : ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على ، النهضة العربية 1968 ، ص 45 .

(542) د. عباس عمار : المدخل الشرقى لمصر ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية - القاهرة 1946 ، ص 103.

(543) كتاب المؤتمر العربى الأول ، القاهرة ، مطبعة البوسفور ، أقام سراى شريف باشا 1913 .

(544) ثورة العرب ، مقدماتها ، أسبابها ، نتائجها بقلم أحد أعضاء الجمعيات العربية ، مطبعة المقطم ، مصر (ديسمبر) 1919 ؛ جورج أنطونيـوس : يقظة العرب ، مطبعة الترقى بدمشق ، ترجمة جـــودت الركابى ص191 - 192 .

(545) كتاب المؤتمر ، السابق ذكره : نص الاتفاق ، وقد صدر فيه فرمان بتوقيع السلطان محمد رشاد .

(546) د. ذوقان قرقوط : المشروع القومى ، دار الجديد ، بيروت 1999 ، الفصل الأول .

(547) ثورة العرب ، بقلم أحد أعضاء الجمعيات .. س مصدر ذكر سابقًا .

(548) عبد الله بن الحسين (الملك) مذكراتى ، القدس ، مطبعة بيت المقدس 1945 ، ص 103 .

(849)د. أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية ، دار الطليعة ، بيروت ، ص 88- 89 ؛ السيد عبد الرازق الحسنى : تاريخ العراق الحديث ، مصدر سابق ، ص 124 .

(550) محمد حسنين هيكل : المفاوضات السرية .. الكتاب الأول ، ص 137 .

(551) د. رفعت السيد أحمد : ثورة الجنرال : جمال عبد الناصر ، دار الهدى ، القاهرة ط1 1993 ، ص 15 .

(552) د. طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993 ، ج1 ، ص 26 .

(553) د. طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993 ، ج1 ، ص 19 .

(554) د. عباس مصطفى عمار: المدخل الشرقى لمصر مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية-القاهرة 1946.

(555) محمد حسنين هيكل : المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - الكتاب الأول ، دار الشروق ، ص 161 .

(556) فتحى الديب : عبد الناصر وثورة الجزائر ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ط2 ، ص20 - 21 .

(557) افتتاحية ألف باء - دمشق عدد 11 تموز (يوليو) 1924 .

(558) من أقوال أحد أعضاء نادى الشبيبة الأرثوذكسية فى يافا لأحد كتاب المقطم عدد 23 كانون الأول (ديسمبر) 1931 .

(559) ألف باء عدد أول آب 1924 .

(560) ألف باء عدد أول آب 1924 .

(561) المقطم عدد نوفمبر 1925 .

(562)وادى النيل - الإسكندرية - عدد 30 ديسمبر (كانون الأول) 1922 .

(563) فى السياسة الأسبوعية عدد 11 (حزيران) 1927 نجد المقالات التالية : رجال التاريخ العربى الحديث : للأمير بشير الشهابى ؛ مقال عن الحجاز ؛ مقال عن التعليم العالى فى العراق ؛ مقال عن بيروت ؛ مقال عن السنوسى الكبيرة، فى المنفى ؛ مقال عن عصر المأمون .. إلخ ؛ انظر الفكرة العربية فى مصر ، مؤسسة الدراسات العربية فى بيروت 1972 ، ص 321 .

(564) السياة الأسبوعية عدد 17 آذار (مارس) 1828 ؛ كذلك خطبة أحمد شفيق (باشا) رئيس الرابطة فى المقطم عدد سبتمبر (أيلول) 1928 ومقال للمرحوم الكواكبى فى عدد 20 نيسان (إبريل) 1929 .

(565) خطبة محمد على علوبة (باشا) فى المقطم عدد 30 ديسمبر (كانون أول) 1930 .

(566) رجاء الاطلاع على الزمان - بغداد ، عدد نوفمبر (تشرين الثانى) 1828 ؛ كذلك بيان اللجنة التنفيذية فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ؛ المقطم عدد 21 يناير (كانون الثانى) 1932 ؛ بيان أذاعه لفيف من رجالات العرب على إقرار فضاض المؤتمر الإسلامى لنصرة قضية فلسطين يعلنون فيه إيمانهم بالوحدة العربية ويدعون إليها إنقاذًا لفلسطين .

(567) هُيّئ للدكتور عبد الرحمن الشهبندر بتردده إلى مصر أن يرصد المشاعر وفقًا لتغيير المواقف فى بلاد الشام.. فالرجاء الاطلاع على مقالاته أو أقواله بقلم أمين سعيد فى المقطم ذلك الحين .

(568) السياسة عدد 20 يوليو (تموز) 1932 رسالة من الدكتور هيكل من لبنان إلى إبراهيم عبد القادر المازنى فى القاهرة .

(569) د. محمد أنيس وآخرون ص 64 ؛ د. محمد أنيس والسيد رجب حراز : المشرق العربى والتاريخ الحديث ص64- 67 .

(570) برنامج حزب مصر الفتاة .

(571) عبد الرحمن الرافعى : المصدر السابق ، ص 44 .

(572) خطبة سعد يوم 14 يونية 1921 فى الاجتماع الذى أقيم فى دار عبد الحميد البكرى بالخرنفش الواردة فى عبد الرحمن الرافعى : ثورة 1919 ، مكتبة النهضة المصرية 1955 ، ج2 ، ص 167 .

(573) عبد الرحمن الرافعى : ثورة 1919 ، مكتبة النهضة المصرية 1955 ، ج2 ، ص 174 .

(574) عبد الرحمن الرافعى : ثورة 1919 ، مكتبة النهضة المصرية 1955 ، ج2 ، ص 176 .

(575) تعليق وزير التربية والتعليم على « فلسفة الثورة » ، طبعة خاصة بالطلاب ، ص 29 .

(576) عبد الرحمن الرافعى : ثورة 1919 ، مكتبة النهضة المصرية ، الجزء الأول ص. ص 44، 45، 46 .

(577) عبد الرحمن الرافعى : ثورة 1919 ، مكتبة النهضة المصرية ، ج1 ص 46 - 47 .

(578) عبد الرحمن الرافعى : ثورة 1919 ، مكتبة النهضة المصرية ، ج1 ص 58 .

(579) محضر المقابلة الذى اتفق عليه الثلاثة فى الملاحق .

(580) عبد الرحمن الرافعى : ثورة 1919 ، مكتبة النهضة المصرية 1955 ج1 ، ص102 ؛ كذلك : شحاتة عيسى إبراهيم : عظماء الوطنية فى مصر ، الهيئة العامة للكتاب 1977 ، ص 267 .

(581) عبد الرحمن الرافعى : المصدر السابق .

(582) الهلال عدد مايو 1999 بحث بقلم د. محمد رجب البيومى .

(583) د. عبد العظيم رمضان : الحركة الوطنية فى مصر ، ص 66 - 67 .

(584) عبد الرحمن الرافعى : ثورة 1919 ، مكتبة النهضة المصرية 1955 ، ص 42 .

(585) رجاء مراجعة الفصل التاسع من « المشروع القومى » دار الجديد ، بيروت 1999 .

(586) التوراة : سفر التثنية ، الإصحاح السابع ، 1، 2، 3 .

(587) د. عبد السام العجيلى : فلسطينيات ، دار فلسطين للثقافة والإعلام 1994 ، ص 100 .

(588) أمين شاكر : أخطاء الثورة ، الوحدة مع سوريا ، تأميم الصحافة ، دار الخيال 1999 ، ص 15 .

(589) أمين شاكر : أخطاء الثورة ، الوحدة مع سوريا ، تأميم الصحافة ، دار الخيال 1999 ، ص 15 .

(590) على أبو نوار (لواء) : عندما تلاشى العرب ، مذكرات ص 99 .

(591) أمين شاكر : المصدر السابق ، ص 20 .

(592) أمين شاكر : المصدر السابق ، ص 21 .

(593) أمين شاكر : المصدر السابق ، ص 24 ، 25 ، 26 ، 27 .

(894) عبد الطيف بغدادى : مذكرات ج1 ، المكتب المصرى الحديث 1977 ، ص 21 .

(595) عبد الطيف بغدادى : مذكرات ج1 ، المكتب المصرى الحديث 1977 ، ص 24 - 25 .

(596) عبد اللطيف بغدادى : مذكرات ج1 ، المكتب المصرى الحديث 1977 ، ص 25 - 26 .

(597) أكرم الحورانى : مذكرات جريدة القدس عدد 23 شباط (فبراير) 1999 حلقة خامسة .

(598) صلاح الدين الصباغ : مذكرات ، انظر الكوكى للحادث ؛ مذكرات رشيد عالى .

(599) أسعد داغر : مذكرات .

(600) منير الريس : الكتاب الذهبى فى الثورات الوطنية ، مطابع ألف باء بدمشق .

(601) صلاح نصر : مذكرات ، الجزء الأول ، دار الخيال ، القاهرة 19991 ، ص 157 .

(602) أمين شاكر : أخطاء الثورة ، دار الخيال 1999 ، ص 21- 22 .

(603) أمين شاكر : أخطاء الثورة ، دار الخيال 1999 ، ص12 - 22 .

(604) فرسان العروبة ، مذكرات الشهيد العقيد الركن صلاح الدين صباغ ، تانيت للنشر ص258- 259 .

(605) فيليب خورى : سوريا والانتداب الفرنسى 1920- 1945 ، مؤسسة الأبحاث ، بيروت 1977 ، ص654 وهو يذكر رقم الوثيقة fo 371/34 vol 27333 : من غادردنر إلى وزارة الخارجية فى 1 شباط 1941 ؛ أوراق مؤيد العظم رقم 245 ومن أسماء الملاكين سعيد الكيلانى . نورى أيبش . عدنان القوتلى . مصطفى العظم fo 371/2837 vol 27291 غاردنر إلى وزارة الخارجية فى 9 نيسان / إبريل 1941 .

(606) موشيه دايان : مذكرات ، دار المسيرة بيروت .

(607) فيليب خورى : المصدر السابق ، ص610 بالاستناد إلى الوثيقة رقم fo 371/1412 vol 27330 Gardener to Fo 8 April 1941 .

(608) فيليب خورى : المصدر السابق ، ص 652 .

(609) فيليب خورى : المصدر السابق ، ص 652 .

(610) رجاء مراجعة كتابنا المشروع القومى - فصل الانقلابات .

(611) تشاء ظروف مد القومية العربية أن تتصادف مسيرة عبد الناصر بقيادة القومية العربية من مصر بمسيرة البعث الفردية فتحول هذه الفردية باندماجه .

(612) ذوقان قرقوط : المشروع القومى ، دار الجديد ، بيروت ، فصل حياة أمة فى حياة رجل .

(613) جورج فوشيه : جمال عبد الناصر فى طريق الثورة : ترجمة نجدت هاجر وسعيد الغزى ، منشورات المكتب التجارى بيروت 1960 ، ص 61 .

(614) جورج فوشيه : جمال عبد الناصر فى طريق الثورة ، مصدر سابق ، ص. ص 63- 65 .

(615) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، 1986 .

(616) ثروت عكاشة : مذكرات فى السياسة والثقافة ، مدبولى ط1 ج1 بدون تاريخ ، ص 30 .

(617) ثروت عكاشة : مذكرات فى السياسة والثقافة ، مدبولى ط1 ج1 بدون تاريخ ، ص 32، ص 36 .

(618) ثروت عكاشة : مذكرات فى السياسة والثقافة ، مدبولى ط1 ج1 بدون تاريخ ، ص 27 - 28 .

(619) ثروت عكاشة : مذكرات فى السياسة والثقافة ، مدبولى ط1 ج1 بدون تاريخ ، ص 35 - 36 .

(620) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، 1986 .

(621) انظر كتابنا : تطور الفكرة العربية فى مصر ، دراسات عربية ، بيروت 1972 ؛ تعليمات محمد على : هوامش الفصل الرابع .

(622) كيبلنغ : « عبء الرجل الأبيض » .

(623) محمـد حسنين هيـكل: بين الصحــافة والسياسة ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشــر بيروت ط3 1984 ، ص27.

(624) صلاح نصر : مذكرات ، دار الخيال ، القاهرة ج1 ط1 ؛ محمد حسنين هيكل : بين الصحافة والسياسة ، مصدر سابق ، ص 47 .

(625) محمد حسنين هيكل : بين الصحافة والسياسة ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت ط1 ، ص49-50.

(626) أمين شاكر : مصدر سابق ، ص 63 .

(627) لابد للمؤرخ هنا من وقفة للتساؤل لماذا لم يحضر السادات . فالمصادر تجمع على أن قائد الثورة أبلغه فى مركز عمله فى العريش ، وأبلغ أمين شاكر فى إنجلترا ؛ فحضر أمين شاكر وأدى دوره ، بينما حضر السادات وصحب زوجته إلى السينما بحجة أنه لم يجد جمال عبد الناصر بانتظاره !! ولابد من الظن أن السادات كان خائفًا من الفشل . فذهب إلى السينما ليكون ذهابه دليلاً على براءته . ولا يتناقض هذا الاستنتاج مع ما عرف به السادات من زئبقية فى سلوكه طوال حياته .

(628) ثروت عكاشة : مذكرات فى السياسة والثقافة ، ج1 ، مكتبة مدبولى ، ط1 بلا تاريخ ، ص 89 .

(629) ثروت عكاشة : المصدر السابق ، ص 89 .

(630) ثروت عكاشة : المصدر السابق ، ص 88 .

(631) ثروت عكاشة : المصدر السابق ، ص 96 .

(632) ثروت عكاشة : المصدر السابق ، ص 97 .

(633) صلاح نصر : مذكرات ، مصدر سابق ، ج1 ، ص 141 .

(634) صلاح نصر : مذكراات ، مصدر سابق ج1 ، ص 146- 147 توزيع المهمات ص 145 - 146 .

(635) ثروت عكاشة : مذكرات فى السياسة والثقافة . مصدر سابق ، ص 98 .

(636) السادات : البحث عن الذات .

(637) محمد حسنين هيكل : بين الصحافة والسياسة ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت 1984 ، ص42-43 .

(938) محمد حسنين هيكل : بين الصحافة والسياسة ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت 1984 ، ص49.

(639) محمد حسنين هيكل : بين الصحافة والسياسة ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت 1984 ، ص50.

(640) صلاح نصر : مذكرات ، ج1 ، دار الخيال ، ص 157 .

(641) صلاح نصر : مذكرات ، ج1 ، دار الخيال ، ص 157 .

(642) صلاح نصر : مذكرات ، ج1 ، دار الخيال ، ص 158 .

(643) صلاح نصر : مذكرات ، الصعود ، دار الخيال ، القاهرة ، ص 187 .

(644) صلاح نصر : مذكرات ، الصعود ، دار الخيال ، القاهرة ، ص 196 .

(645) صلاح نصر : مذكرات ، الصعود ، دار الخيال ، القاهرة ، ص 172 .

(646) صلاح نصر : مذكرات ، الصعود ، دار الخيال ، القاهرة ، ص 175 .

(647) أمين شاكر : مصدر سابق ، ص 54 - 55 .

(648) د. عبد العظيم رمضان : الصراع الاجتماعى والسياسى فى مصر منذ قيام ثورة 23 يوليو ... مطبعة روز اليوسف ، القاهرة 1975 ، ص 85 .

(649) د. عبد العظيم رمضان : الصراع الاجتماعى والسياسى فى مصر منذ قيام ثورة 23 يوليو ... مطبعة روز اليوسف ، القاهرة 1975 ، ص 88 .

(650) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس : مركز الأهرام للترجمة والنشر ، مصدر سابق ، ص 302 .

(651) صلاح نصر : مذكرات : الثورة ، المخابرات ، النكسة ، تحرير عبد الله إمام ، ص5 .

(652) د. عبد العظيم رمضان : المصدر السابق نفسه ، ص 88 .

(653) د. عبد العظيم رمضان : المصدر السابق نفسه ، ص 88 .

(654) مايلز كوبلاند : لغة الأمم ، تعريب مروان جبر ، بيروت الإنترناشيونال ، 1950 ؛ فى د. عبد العظيم رمضان: المصدر السابق نفسه ، ص 87 .

(655) د. ثروت عكاشة : مذكراتى فى السياسة والثقافة ، مدبولى ، القاهرة ج1 ، ط1 ، ص 35 - 36 .

(656) د. ثروت عكاشة : مذكراتى فى السياسة والثقافة ، مدبولى ، القاهرة ج1 ، ط1 ، ص 36 .

(657) د. ثروت عكاشة : مذكراتى فى السياسة والثقافة ، مدبولى ، القاهرة ج1 ، ط1 ، ص 37.

(658) أمين شاكر : أخطاء الوحدة ، مصدر سابق ص 99 .

(659) أمين شاكر : أخطاء الوحدة ، مصدر سابق ، ص 105- 106- 107 .

(660) أمين شاكر : أخطاء الوحدة ، مصدر سابق ، ص 107 .

(661) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس - مركز الأهرام للترجمة والنشر 1986 ط1 ، ص306 ؛ صلاح نصر : مذكرات ج1 ، ص 222 .

(662) أمين شاكر : المصدر السابق ، ص 103 .

(663) على صبرى يتذكر بصراحة عن السادات ، عبد الله إمام ، دار الخيال 1997 ، ص 13- 14 .

(664) على صبرى يتذكر : المصدر السابق ، ص 14 - 15 .

(665) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، ص 201 .

(666) كتب إسماعيل صدقى - وكان فى الوفد - فى مذكراته التى نشرت مؤخرًا مفاخرًا أنه هو صاحب تصريح 28 فبراير الذى قدمه الإنكليز أخيرًا وقبلت به مصر : مذكرات إسماعيل صدقى باشا ، مكتبة مدبولى ، القاهرة 1996 ، ص 66 ، ص 70 .

(667) صلاح عيسى : محاكمة فؤاد سراج الدين ، ص 23 .

(668) صلاح نصر : الثورة ، المخابرات ، النكسة : تحرير عبد الله إمام ، ص 5 .

(669) عبد اللطيف البغدادى : مذكرات ج1 ، القاهرة ، المكتب التجارى الحديث ، ص 67 .

(670) على صبرى يتذكر بصراحة مع السادات : المصدر السابق ، ص 32 .

(671) أحمد شفيق باشا : حوليات مصر السياسية - الحولية الثانية (1925) ، ص299 وما بعدها ؛ انظر كذلك عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ج1 ، ص 117 ، ص 157 .

(672) إسماعيل صدقى باشا : مذكراتى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة 1966 ، ص 66 ، ص 70 .

(673) د. مريت عالى بالاشتراك مع د. إبراهيم مدكور : الإدارة الحكومية مذكورًا فى د. مصطفى عبد الغنى المثقفون وعبد الناصر : ابن خلدون - القاهرة .

(674) المشروع القومى : دار الجديد - بيروت .

(675) محمد حسنين هيكل : سنوات الغليان ، مركز الأهرام للدراسات والنشر 1988 ط1 مصر 563 .

(676) محمد حسنين هيكل : سنوات الغليان ، مركز الأهرام للدراسات والنشر 1988 ، ط1 ، ص120 .

(677) د. جنمال حمدان : شخصية مصرية ، دراسة فى عبقرية المكان ، عالم الكتب ، القاهرة 1981 ، ص 728 .

(678) مجلة وجهات نظر عدد 21 أكتوبر 2000 .

(679) ذوقان قرقوط : تاريخ العالم الثالث ، جامعة دمشق 1981 ، ص 184 - 185 .

(680)كشف توفيق الحكيم فى كتابه « عودة الوعى عن عقلية إقليمية ، صيغت فى إطار « الأيديولوجية » التى أرساها نظام الخديوية لتحييد مصر . معتبرًا أن دعوة ثورة 23 يوليو القومية لإعادة التئام الأقطار العربية ، هى سعيًا لإقامة إمبراطورية .

(681) د. أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ، مطبعة هيكل الغريب - بيروت طبعة 1959 .

(682) رجاء مراجعة وصف أحمد فارس الشدياق فصل ...

(683) لم يختلف الحال فى جميع عهود حكم أسرة محمد على ، ولا اختلف موقف طبقة الحكم من الفلاحين أهل البلاد.

(684) رجاء النقاش : أدب وعروبة وحرية - كتب ثقافية ، ص 6- 7 ، عدد 167 .

(685) إسماعيل صدقى : مذكرات .

(686) د. مصطفى عبد الغنى : المثقفون وعبد الناصر ، مركز ابن خلدون ط1 لعام 1992 ، ص 28 .

(687) د. مصطفى عبد الغنى : المثقفون وعبد الناصر ، مركز ابن خلدون ط1 لعام 1992 ، ص 28 .

(688) د. مصطفى عبد الغنى : المثقفون وعبد الناصر ، مركز ابن خلدون ، ط1 لعام 1992 ، ص 83 . نقلاً عن الأهرام فى 31/12/1951 .

(689) جريدة المصرى ، عدد 13 فبراير (شباط) 1951 .

(690) تعرض د. مصطفى عبد الغنى فى كتابه المثقفون وعبد الناصر إلى الملك وعائلة عبد الرازق حول منصف مشيخة الأزهر ، ولم يفها حقها من البحث ، انظر ص 85 ، 86 ، 87 .

(691) د. مصطفى عبد الغنى : المثقفون وعبد الناصر ، ص 58 .

(692) ريتشارد ميتشيل : الإخوان المسلمون، ج1 - مدبولى 1977 ، ترجمة عبد السلام رضوان ، مراجعة فاروق عفيفى عبد الحى ، ص 96 - 97 .

(693) فتحى الديب : عبد الناصر وثورة الجزائر ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ط2 لعام 1990 ، ص 13 .

(694) ذوقان قرقوط المشروع القومى ، ثورة الجزائر .

(695) خالد على الصالح : على طريق النوايا الطيبة ، رياض الريس للنشر ، الطبعة الأولى 2000 ، الفصل السادس شر لابد منه ، راجع خاصة ص 109 - 110 .

(696) خالد على الصالح : على طريق النوايا الطيبة ، رياض الريس للنشر ، الطبعة الأولى 2000 ، الفصل السادس شر لابد منه ، راجع خاصة ص 109 - 110 .

(697) خالد على الصالح : على طريق النوايا الطيبة ، رياض الريس للنشر ، الطبعة الأولى 2000 ، الفصل السادس شر لابد منه ، راجع خاصة ص 79 .

(698) جورج صدقنى : دورات مجلس الحزب ، دار طلاس ، ص. ص 249 - 250 - 251 .

(699) عبد اللطيف البغداد - عضو قيادة الثورة : مذكرات ، المكتب المصرى الحديث ، القاهرة ج1 ، ص 67 .

(700) فيليب جلاب : هل نهدم السد العالى ؟ : مؤسسة روز اليوسف ، المقدمة ، عام 1974 .

(701) فيليب جلاب : المصدر السابق .

(702) أنور السادات : البحث عن الذات ، المكتب المصرى الحديث ، الفصل الثامن ، الفقرة 3 .

(703) أحمد بهاء الدين : محاوراتى مع السادات ، دار الهلال ، بلا تاريخ ، ص 110 - 111 .

(704) أحمد بهاء الدين : محاوراتى مع السادات ، دار الهلال ، بلا تاريخ ، ص 110 - 111 .

(705) المصدر السابق : ص 112 .

(706) المصدر السابق ، بلا تاريخ ، ص 113 .

(707) المصدر السابق ، بلا تاريخ ، ص 114 .

(708) المصدر السابق ، بلا تاريخ ، ص 114 .

(709) دار المستقبل العربى ، مصر الجديدة ، القاهرة ، تعقيب على حكايات يحكيها جمال سالم .

(710) أنور السادات : البحث عن الذات : الفصل الثامن .

(711) أنور السادات : نفس المصدر السابق ، الفصل نفسه .

(712) برجاء مراجعة « نائب غى الأرياف » لتوفيق الحكيم .

(713) توفيق الحكيم : عودة الوعى : دار الشروق ط2 ، ص 39 .

(714) توفيق الحكيم : نفس المصدر السابق ، ص 21 .

(715) توفيق الحكيم : نفس المصدر السابق ، ص 41 .

(716) رجاء النقاش : عبد الناصر وهؤلاء ، الناشر عبد اللطيف السيد ، القاهرة ص 142 - 145 .

(717) المصدر السابق نفس الصفحة .

(718) المصدر السابق نفس الصفحة .

(719) محمد حسنين هيكل : بين الصحافة والسياسة : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ص 229 - 232 .

(720) محمد حسنين هيكل : بين الصحافة والسياسة : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ص 229 - 232 .